الفيصل

مجلة ثقافية شهرية - العدد 247 - محرم 1418هـ - مايو/يونيو 1997 م
ALFAISAL MAGAZINE ISSUE 247 - MAY/JUN 1997

■ الهجرة إلى المدينة: وهمٌ أم خيار؟

■ خواطر مجنحة.. اختزال اللغة

بدايات تاريخ المطابع في المملكة العربية السعودية

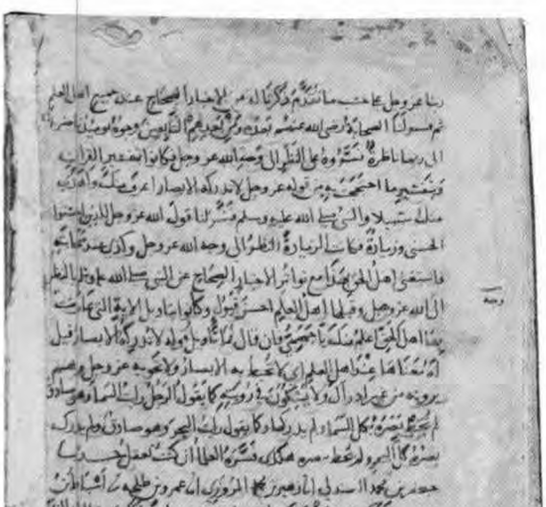


كتب الأطفال المرسومة والمصورة.. كيف تتميز؟

التصديق بالنظر إلى الله تعالى

تأليف: أبي بكر محمد بن الحسين ابن عبدالله الآجرى المتوفى سنة 360هـ.





جمع المؤلف في كتابه من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما يدلل على درجات أهل الشقاء في الدنيا الذين أشركوا بالله تعالى، فهم مُعَذَّبون في قبورهم إلى يوم القيامة، أما في الآخرة، فهم في نار جهنم خالدين فيها، كما أنهم يومئذ محجوبون عن ربهم.

أما أهل السعادة فهم منعمون في قبورهم، وعند المحشر يُنشرون ويتمتعون بالنظر إلى الله عز وجل بأعينهم، وهذه أعلى درجات النعيم.

كما أورد المؤلف من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما يدلل على كفر من أنكر رؤية الله عز وجل في الآخرة.

كُتب المخطوط على ورق مشرقي بخط النسخ في القرن التاسع الهجري.

يعلو صفحة العنوان مستطيل أرضيته مذهبة كُتب بداخله اسم الكتاب بالحبر الأبيض أو الفضي، وفي وسط الصفحة كُتب اسم المؤلف بماء الذهب وسط رسوم ملونة وجداول مذهبة.

يقع المخطوط في 13 ورقة، ومسطرته 21 سطرًا، ومقاسه 26,5 × 18,3سم.

والمخطوط من مقتنيات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض برقم 2534.

إعداد: **فراج عطا سالم.**

في العدد القادم:

- القداسة العلمية وأنصاف الحقائق
- سنريهم آياتنا في الآفاق
- المرأة واللغة: ملاحظات شكلية ومنهجية

رئيس التحرير

د. زيد بن عبدالمحسن الحسين

الفيصل

مجلة ثقافية شهرية تصدر عن دار الفيصل الثقافية



عن العدد الماضي

ظهر العدد (246) من مجلة الفيصل حاويًا الحلقة الثانية من «منتدى الفيصل»، الذي استضاف في هذه الحلقة معالي الشيخ صالح الحصين وزير الدولة عضو مجلس الوزراء. وقد عالج معاليه كثيراً من القضايا المعاصرة التي وردت في أسئلة القراء؛ سواء منها ما يتعلق بالقوانين والقضاء، أو الاقتصاد والبنوك الإسلامية ـ وملاحظاته على هذه البنوك ـ أو ما يتعلق منها بعمل المرأة أو المحاماة وموقف الشريعة منهما. وقد كانت معالجته لهذه القضايا جميعها تتسم بالمباشرة والجرأة والرأي الحصيف، الذي كشف عن عمق وبعد نظر وحكمة في تناول القضايا، والإجابة عما كان يُفترض أن يسأل عنه السائل. فشكراً لمجلة الفيصل التي أتاحت لنا ـ من خلال هذا المنبر ـ التعرف إلى هذه الشخصية المتميزة، ونأمل أن تواصل الاختيار الملائم لشخصيات المنتدى.

استرعى نظري بعد ذلك متابعة المجلة لقضية الساعة: «الاستنساخ» من خلال ثلاث معالجات، إذ تناولها رئيس التحرير من خلال إطلالته، و د. وجدي سواحل المتخصص بالهندسة الوراثية، و د. خالص جلبي الكاتب المعروف. وهي قضية لا تزال تشغل الرأي العام العالمي وتحتاج إلى المزيد.

كما حوى العدد أيضًا حديثًا عن الحديقة أو الحدائق اليابانية، تميز بجودة العرض وجمال الصور المرافقة.

ونال الشعر في هذا العدد نصيبًا وافرًا واختفت القصة، لا أدري لماذا؟

أخيرًا أشكر المجلة على التطور المستمر، واحترام القارئ الذي أصبح سمة واضحة من سماتها، يتحدث بها كثير من القراء، ففي ظل المنافسة الحادة بين المطبوعات ـ التي لا يزال يظهر الجديد منها إلى الوجود في كل يوم ـ تبقى الفيصل في مكانة رفيعة، لتزهو عليهن جميعًا.

فشكرًا للقائمين عليها، ولرئيس تحريرها مني التحية.

عبدالله بن إبراهيم اللحيدان

مدرس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

ملاحظات عامة:

مع تقديرنا لكل من يسهم في الكتابة في المجلة، فإننا نرجو من كُتّابنا الكرام أن يضعوا في حسبانهم الملاحظات التالية:

1 ـ أن يتسم الموضوع المقدم للنشر بالجدّة والموضوعية، مع توثيق المراجع إذا اقتضى الأمر ذلك.

2 ـ ألا يكون الموضوع منشوراً من قبل، أو مرسلاً إلى أي جهة أخرى ناشرة.

3 ـ حين تردّ المجلة على كاتب ما بأن موضوعه «غير مناسب للنشر» فإن هذا لا يعني أنه «غير صالح للنشر» في غيرها، وإنما يعني عدم مناسبته لسياسة النشر فيها.

4 ـ أن يرفق الكاتب (الذي لم يسبق له الكتابة في المجلة) مع موضوعه، الاسم والمؤهلات العلمية والإنتاج الفكري ـ إن وجد ـ وعنوان المراسلة، في ورقة مستقلة، إضافة إلى صورة ملونة حديثة.

5 ـ الموضوعات المنشورة في هذه المجلة تعبّر عن آراء أصحابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.

العنوان ص.ب (3) الرياض 11411 ـ المملكة العربية السعودية

هاتف 4653026 ـ 4653027 ـ 4647884 ـ فاكسملي: 4647851

ردمد 1140 ـ 0258 رقم الإيداع 14/0542

الاشتراكات السنوية:

للأفراد 150ريال سعودي، للمؤسسات 250 ريال سعودي.

الإعلانات:

يتم الاتفاق عليها مع إدارة المجلة.

الأسعار السعودية 8 ريالات ـ الكويت 650 فلس ـ الإمارات 7 دراهم ـ قطر 7 ريالات ـ البحرين 750 فلس ـ عُمان 750 بيسة ـ الأردن 500 فلس ـ اليمن 40 ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان 150 جنيه ـ المغرب 8 دراهم ـ تونس 600 مليم ـ الجزائر 10 دنانير ـ العراق 400 فلس ـ سورية 30 ليرة ـ ليبيا 800 درهم ـ موريتانيا100أوقية ـ الصومال 2000 شلن ـ جيبوتي 150 فرنك ـ لبنان مايعادل 4 ريالات سعودية ـ الباكستان 20 روبية ـ المملكة المتحدة جنيه استرليني واحد.

البريد

اقتراح زاوية ثقافية

تواصلاً معكم فيما يُحقق البعد المطلوب بيننا؛ فإنني أرى ضرورة إحداث زاوية للاستفسارات الثقافية عبر مطبوعتكم. وذلك لتكون رئة تتنفس منها المعلومة المستجدّة، ولكن بصورة مركزة وموجزة ومفيدة تتكامل مع بقية الزوايا الأخرى عبر المجلة.

وبهذه المناسبة أتقدم إليكم بهذا الاستفسار راجيا رصده لديكم لحينه كمبادرة أولى:

ـ ما الدور الذي قامت به مجامع اللغة العربية حتى اليوم في مجال الترجمة والتعريب، وما مدى خدمتها في ذلك لقطاع التعليم العالي؟

هذا ما أحببتُ الهمس به إليكم، وأعلمُ مدى جدّيتكم في التعامل مع المفيد. وفقكم الله لكل خير. والسلام.

عبدالغني محمود عبدالهادي

ص.ب 8545، عمان 11121، الأردن.

التحرير: **القارئ الكريم: طالع صفحة 125.**

ملف القرن العشرين

اقترب القرن الحادي والعشرون، وأصبح على مبعدة سنوات قلائل من العالم، وبحلول العام 2000م، ستطوى من عمر البشرية مئة سنة شهد خلالها عالمنا أشد التطورات خطورة، وأكثرها تأثيراً في مسيرة الإنسانية، وستظل نتائج تلك الأحداث والتطورات تحكم خطوات التاريخ البشري في القرن الجديد. فالقرن العشرون شهد حربين عالميتين، وتحولات سياسية وفكرية، وأزمات.. فكم كان تأثير قرننا، الموشك على الانتهاء، بهذا العمق.

أرى أن تعدوا «رصداً» بأهم أحداثه، مع تقديم تحليل لأكثرها أهمية، ولاسيما ما تعلق منها بالعالم العربي والإسلامي.

عبدالكريم أحمد بلقاسم

ص.ب 54 الهامل 28440، بوسعادة، الجزائر.

وكانت البداية: «هونج كونج»

أنا من قراء المجلة الجدد، وقد قرأت العدد الذي يحوي ملف «هونج كونج» الذي شدني بما فيه من غنى لغوي وأدبي وسياسي، وكانت هذه البداية، فمنذ ذلك اليوم أصبحت من المشغوفين بقراءة المجلة، متمنياً لها أن تستمر على هذا الطريق والنجاح والتوفيق، إن شاء الله تعالى.

وقد أعجبت كثيراً بالباب الجديد «منتدى الفيصل»، ولكنني فوجئت باختفائه في العدد التالي، عسى ألا يكون هذا دليلاً على إلغائه.

وأتساءل عن موضوعات المسابقة الشهرية، وعن الأماكن التي يمكن أجد فيها المراجع الضرورية التي تضمها. ومن جهة أخرى، أفيدكم بأن لديّ ميولاً أدبية ومحاولات في الكتابة القصصية والأدبية العامة، إلا أنني أخشى الاشتراك في باب «تباشير» لخوفي من إهمال مشاركتي، لعدم رقيها إلى المستوى المعتاد، والمستوى الرفيع للمجلة. انتظر ردكم وتشجيعكم.

جهاد سيدو

ص.ب 4534، حلب، سورية .

التحرير: **نشكر للقارئ الكريم اهتمامه بمتابعة المجلة بعد اطلاعه عليها لأول مرة، فكسب قارئ جديد هدف تسعى إليه المجلة. أما «منتدى الفيصل» فقد وُضع على أساس أن يكون كل شهرين لإتاحة المجال للإخوة القراء لإرسال أسئلتهم للضيف الذي يتم تحديده سلفاً.**

ونفيدك بأن باب «تباشير» يرمي إلى تشجيع الأقلام الصاعدة، وهو موضع اهتمام التحرير، لذا فإن أي مشاركة ستجد طريقها إلى النشر وفق الضوابط الموضوعة.

المنتدى ودائرة المعارف

ما إن وصلت المجلة إلى يدي وقرأت محتوياتها، حتى تركت في نفسي أثراً عظيماً، فقد أصبحت من ضمن المجلات الدورية التي أضمها إلى مكتبتي. وأود هنا الإشادة بباب «منتدى الفيصل»، وبخاصة تلك الحلقة مع الدكتور حسن ظاظا، التي اشتملت على معلومات أظن أن كثيرين من القراء لا يعرفونها.

أما زاوية دائرة المعارف فهي تغني كثيراً عن عناء البحث، ولاسيما دائرة العدد 245 عن الأدباء الأطباء. وحبّذا لو زادت الصفحات التي تهتم باللغة العربية، وخصصتم زاوية تُعنى بالإعجاز اللغوي للقرآن الكريم.

لكم تحياتي، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمد أحمد سعد

ص.ب 1061، جرش 26110، الأردن.

ظاظا ومراجع البحث

أشكر للدكتور حسن ظاظا موضوعاته المتعمقة الكاشفة زيف اليهود ودجلهم، طالباً منه ذكر المراجع المتعلقة بالموضوع في نهاية الموضوع الذي يتناوله. وأهنئ المجلة لنجاحها المستمر وعملها الدؤوب وأرضيتها الثقافية الواسعة، وأخص بالشكر صاحب الإطلالة د. زيد بن عبدالمحسن الحسين وضيوف «منتدى الفيصل» الأكارم.

محيي الدين مصطفى عباس

مكتب عمر أفندي، بجانب شعبة التجنيد عين العرب، حلب، سورية.

«البريد» زاوية تستقبل فيها المجلة رسائل القراء، ويمكن أن ترد على بعضها، وتترك الردّ على بعضها الآخر للقراء **يمكن أن تقوم المجلة بتحرير بعض**

العبث بالتاريخ.. اغتيال للمستقبل!!

طالعنا الدكتور عبدالله بن علي ثقفان في العدد 245 بقراءة تاريخية بعنوان «ملوك الطوائف في الأندلس»، وعلى ما يبدو على المقال من حجم وعنوان تقليديين؛ إلا أنه بمعلوماته المركزة المدروسة يستثير كل حريص على التاريخ العربي والإسلامي، غيور على النزاهة التاريخية والدقة في نقل الأحداث وأبعادها. يستثيره كما يستثيرني، لأن التعطش للقراءات المتأنية الواعية غدا مؤلمًا، والافتقار للأمانة التاريخية قد وصل إلى حد الآفة والبلاء.

إن الأسلوب العلمي الأمين للدكتور ثقفان ـ جزاه الله خيرًا ـ ذكرني بأسلوب الدكتور شوقي أبو خليل، وغيره من الباحثين الحريصين على إعادة تاريخنا نقيًا من تشويهات الغرب وعبث الدخلاء، لأنهم أدركوا أن الأمم من دون تاريخ لا تعدل ذرة في مهب الريح، وأن الأمم المشوهة التاريخ لا تفضل الأولى بشيء، ولأنهم أدركوا ـ كذلك ـ أن التاريخ ليس قصصًا للتسلية، إنه دعامة الأمة وأساسها الراسخ، وعندما يحاول أحدنا تشويه التاريخ فهو إنما يعبث بمستقبله ومستقبل أبنائه وأحفاده قبل كل شيء.

فلنتأمل لنعلم صاحب المصلحة من قراءة تاريخنا العريق بعين واحدة.

جلال الدين محمد البوز
بانياس، الساحل، سورية.

معهد إسلامي في مسقط رأس لينين!

أثلج صدري الخبر الذي قرأته في باب «الحركة الثقافية في شهر»، العدد 227، عن افتتاح معهد للدراسات الدينية والإسلامية بمدينة أوليانوفسك في روسيا، مساهمة من مؤسسة إبراهيم بن عبدالعزيز البراهيم الخيرية، وجمعية الوقف الإسلامية.

فمدينة أوليانوفسك أعرفها جيدًا، فهي مسقط رأس فلاديمير إيلتش لينين مؤسس الدولة الشيوعية.. أعرفها من حي «السيفر» حيث يقطن معظم التتار، إلى أبعد ضواحي المدينة أي ما وراء النهر.

كم تمنينا أن يعز الله المسلمين وينصرهم في تلك البقاع، وفي روسيا عامة، خلال السنوات الحالكة، وحاولنا بمجهوداتنا المتواضعة تزويد المسلمين التتار بالمصاحف، وشرح بعض المعلومات عن الإسلام، مع أننا لم نكن ـ في تلك المرحلة ـ على إطلاع واسع بالدراسات الإسلامية.

أتذكر جيدًا نهاية الثمانينيات، بداية ما يسمى بعصر الانفتاح، فقد رأينا عودة المئذنة إلى المسجد القديم بجانب محطة «رادشيفا» ففرحنا بذلك فرحًا شديدًا. فبعد انهيار الشيوعية، بدأ المسلمون محاولة إعادة ترسيخ الإسلام.

منذ شهر التحقت في لندن بدورة دراسية في الشريعة الإسلامية رغبة مني في زيادة التحصيل العلمي من أجل العمل في الدعوة، والمشاركة في الصحوة الإسلامية التي تشهدها روسيا، ولما اطلعت على الخبر المنشور في «الفيصل» رأيت أن استفسر: هل بإمكاني الالتحاق بمعهد أوليانوفسك؟ وما المواد التي يتم تدريسها في هذا المعهد؟

خالد محمد إبراهيم
11 PARKE HOUSE,120/128
STEEPNEY WAY, LONDON E 13 B6

التحرير:

نشكر لك جهودك الخيرة التي نرجو أن يثيبك عليها المولى عز وجل، وندعو لك بالتوفيق في مسيرتك. أما رسالتك فقد أحيلت إلى الجهة المختصة بها، ونأمل أن تتلقى إجابة مفصلة عن استفساراتك.

التراث

قرأت في العدد 245 مقالاً للدكتور عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر بعنوان «تأثير واسع»، وأسعدني جدًا أنه وضع يده على داء تعاني منه الأمة الإسلامية.

وللأسف، فإن المجلات فقيرة إلى مثل هذه الموضوعات، فنرجو منكم، ومن فضيلة الدكتور الخويطر، ومن علماء المملكة إغناء المجلة بمثل هذه الموضوعات التي تبحث فيما يعاني منه المسلمون.

وأنتم في المملكة ـ بحمد الله ـ لا تشعرون بهذه الأمراض التي عافى الله بلادكم منها، إلا أن كثيرًا من بلداننا تعاني منها أشد العناء، كما تعاني من قلّة التوعية، وندرة المجلات التي تصحح عقائد المسلمين.

فهلاً جعلتم مجلتكم منبرًا لخدمة الإسلام من خلال إغنائها بمثل تلك الموضوعات التي ترشد المسلمين إلى عقيدتهم الصحيحة؟

عمار بن سليمان المنصور
جامعة دمشق، كلية الشريعة، سورية.

الرسائل من أجل مساحة الصفحة، أو لزيادة الإيضاح فقط الرسائل التي ترد بعناوين وأسماء ترسل باسم المحرر (زاوية بريد المجلة) ص.ب(٣) الرياض ١١٤١١

إطلالة

إنه الإنسان..



في أذهان بعض الذين بهرتهم تقنية الاستنساخ الحيوي تصور خاطئ بأنه إذا قُدِرَ وتمَّ تطبيق هذه التقنية على الإنسان، فإن المستنسخ والمستنسخ منه سيكونان شبيهين شكلاً ومضمونًا، بمعنى أن تتوحد أفكارهم وسلوكهم كما تتشابه ملامحهم، فتتطابق بذلك مسيرتهم في الحياة. وهذا التصور الذي حاولت بعض الكتابات الإيهام به معناه أن مَنْ كان مستنسخًا من إنسان عديم الموهبة، أو قاصر الفكر والنظر، سيأخذ هذه الصفات من دون زيادة أو نقصان، وأن مَنْ كان محظوظًا، فاستُنسخ من مفكر أو عالم مبدع في فكره وعلمه، فسيصبح نسخة مكرورة منه.

ولعل هذا ما أثر في نفوس كثير من الناس، فتصوروا أن استنساخ المفكرين والعلماء والمبدعين في المجالات المختلفة فيه إفادة للبشرية، مادامت عقول المستنسخين ستكون بالتوهج نفسه الذي كانت عليه عقول الذين استنسخوا منهم؛ وبلغ أثر ما حملته تلك الكتابات من إبهام حدّ تداول فكرة استنساخ الأموات من المبدعين، حتى يكرر المستنسخون منهم عطاءاتهم، ويعيدوا سيرتهم الأولى في الإبداع والابتكار. والحق أن من يتبادر إلى ذهنه مثل هذا التصور يتناسى تمامًا تأثيرات البيئة في الإنسان، وما تقوم به الأسرة والمحيط الاجتماعي من دور في تشكيل آراء الإنسان وأفكاره وتصوراته، وصقل قدراته ومواهبه، فضلاً عما يضطلع به المحيط الإنساني - المتغير من ساعة إلى أخرى، بل من ثانية إلى أخرى - من دور كبير في هذا التشكيل والصقل، هذا إلى جانب الأثر العام في العالم بعد أن تلاشت المسافات والحدود بين أجزاء المعمورة، وأصبح لوسائل الإعلام بأشكالها كافة تأثير طاغ في إنسان هذا العصر؛ بما تمده به من معلومات، وما تنقله إليه من ثقافات الشعوب المختلفة، وما تصوره له من أساليب الحياة وأنماطها المتباينة. فبافتراض حدوث استنساخ لعالم فذ توفي في الثلاثينيات من هذا القرن، فإنه ليس من المتوقع أن يكون الإنسان المستنسخ منه صورة مطابقة له في علمه، مع أنه قد يحمل الاستعدادات الوراثية نفسها، وذلك لأنه لا وجه للموازنة بين مجتمعي الثلاثينيات والتسعينيات؛ بل إن مجتمع اليوم لا يمكن أن يتطابق مع مجتمع الأمس، لأن الحياة متغيرة دائمًا. ومن ثم، فإنه إذا كان التطابق واردًا في حال النعجة «دوللي» لأنها ستدر لبنًا أو ستعطي لحمًا وصوفًا فحسب، فهو احتمال غير وارد فيما يتعلق بالإنسان الذي يحمل عقلاً تتغير رؤاه وتتجدد دائمًا بفعل ما يتعرض له من مؤثرات بيئية، وما يكتسبه من تجارب حياتية، كما ستتغير رؤى من يقوم بتربيته وتكوينه، ومن ثم لن يكون هناك أي احتمال للتطابق بين الأصل والصورة، كما تُوهم بذلك بعض تلك النظرات القاصرة.

وهناك اجتهادات ونظريات كثيرة حاولت مدارس علمي النفس والاجتماع من خلالها تفسير سلوك الإنسان، واكتناه طبيعة التفاعل بين الإنسان وبيئته، والتفريق بين الصفات المكتسبة والخصائص الموروثة، وتحديد أثر كل منها ونصيبه في تشكيل عقل الإنسان ووجدانه. واختلفت في ذلك اختلافًا كبيرًا، مرده تلك النظرة الجزئية التي اتّسمت بها رؤيتها للإنسان، حتى فككته إلى أجزاء لا رابط بينها، لافتقاد أصحابها إلى المعيار الصحيح الذي يعينهم على فهم ماهية الإنسان وكينونته، وعلة خلقه، بعد أن فُتنوا بنتائج العلم وإنجازاته، ورأوا أنه لا يمكن الاعتداد بأي منهج لا يقوم على التجريب والقياس. فانطلقوا في دراسة الإنسان منطلقات شتى، وتوصلوا إلى نتائج واستنتاجات تباينت تباينًا كبيرًا؛ تبعًا لاختلاف زاوية الرؤية، وما مارسته البيئة عليهم من تأثيرات لم يفطنوا إليها؛ إذ إن أسس علمي الاجتماع والنفس وضعها علماء الغرب بعد الصدام المرير الذي حدث بين الكنيسة والعلماء، وكانت نتيجته انفصام العرى بين الدين والعلم في العالم الغربي، وتصوير العلاقة بينهما على أنها علاقة تضاد وعداء، مما كان له الأثر الكبير في مناهج هذين العلمين وغيرهما من العلوم الإنسانية، ونشأة المدارس الاجتماعية والنفسية التي اختلفت في منظورها ونتائجها، واتفقت في الوقت نفسه على تحييدها للدين، أو إنكارها له. من ذلك، أن مدرسة التحليل النفسي التي وضع أساسها سيجموند فرويد ترى أن الإنسان تحركه غريزة الجنس، وأن القيم تخالف فطرة الإنسان، فهي لاتنبع من داخله، وإنما يفرضها المجتمع عليه فرضًا. وتتمحور المدرسة الماركسية حول المادة، وتفسر على أساسها حركة الإنسان والتاريخ. وينكر واطسن WATSON صاحب المدرسة السلوكية أن يكون للقيم والمعتقدات أثر في توجيه سلوك الإنسان، بل يذهب إلى إنكار الاستعدادات والقدرات والدوافع الفطرية، مؤكدًا تحكم العادات في سلوك الإنسان، ولم يكتف بذلك، وإنما أعلن عن قدرته على تشكيل أي إنسان على الصورة التي يرغب فيها. وهناك المدرسة الجغرافية التي تعول كثيرًا على دور البيئة الجغرافية في حياة الإنسان. وهكذا، فإن مدارس علمي الاجتماع والنفس تتباين رؤيتها في تحديد مستويات تفاعل الإنسان مع مجتمعه، ودرجات انعكاس هذا التفاعل على الكيان الداخلي للإنسان. ولم تستطع هذه المدارس الفصل بين ما هو ذاتي وما هو خارجي، ولا غرو في ذلك، ما دام الاختلاف بينها قائمًا حول غاية الوجود الإنساني، ورسالة الإنسان على هذه الأرض.

أما المنظور الإسلامي فقد أقر - بما يتسم به من شمول نظرته إلى الإنسان، وتكامل رؤيته للمجتمع الإنساني - تمتعَ الإنسان بالدوافع والاستعدادات الفطرية، وفي الوقت نفسه، بين ما للبيئة الاجتماعية من أثر واضح في تشكيل تصورات هذا الإنسان وتحديد منظوره للحياة، فالرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول: «كلٍ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُمَجِّسانه أو يُنصرانه».

ولكن تأثيرات البيئة في المنتمين إليها لا تتم على مستوى واحد، وإنما تتفاوت تبعًا للمقومات الذاتية للإنسان، والتأثيرات الأخرى التي يتعرض لها من مجتمعات غير مجتمعه، وهذا ما يفسر بروز المصلحين وأصحاب القدرات الفكرية والعقلية الذين يقودون مجتمعاتهم إلى مستويات أفضل من الحياة بأفكارهم، وبما يثونه في النفوس من إرادة وعزم.

وقد يبلغ تأثير المجتمع في الإنسان مدى بعيدًا، لا يمكن معه التفريق بين ما هو موروث ومكتسب من خصائص الإنسان وصفاته، وهذه الحقيقة نبه القرآن الكريم عليها في إشارته إلى قصة نوح - عليه السلام -، إذ يقول تعالى: وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا. إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا. نوح:26-27.

وتوضح الآيتان الكريمتان أن نوحًا - عليه السلام - خَبِرَ قومه جيدًا، لمكثه فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، وعرف أن بيئتهم لا يمكن أن يولد فيها إلا الكفار، لما فيها من عادات ونظم وتقاليد أباطيل كلها، ينشئون عليها مواليدهم، فتتأصل فيهم صفات الكفر منذ نعومة أظفارهم، لذلك دعا نوحٌ ربّه ألا يترك منهم أحدًا. فثبات صفات الكفر والفجور في قوم نوح يجعلها في مقام الصفات الفطرية التي يولد بها الإنسان.

ولقد كان لسيطرة النظرة الأحادية وعقلية التبعيض على النظريات الاجتماعية والنفسية أثر كبير في المجتمع الغربي، امتد إلى كثير من المجتمعات الأخرى، بفعل تأثير هذه النظريات في صياغة مناهجها التربوية التي تصوغ بدورها عقول أبنائها.

ولم تتضح خطورة هذه النظرة الأحادية إلا بعد انتشار الظواهر الاجتماعية التي تهز أركان المجتمع الغربي، وتهدد كيانه، والتي يتجلى فيها مستوى التناقض الذي يحياه الغرب، ولعل في تزامن نجاح عملية الاستنساخ الحيوي مع انتحار 39 شابًا في مدينة سان دييجو الأمريكية يفصح عن وجه هذا التناقض البيّن. فالحدث الأول يكشف المستوى الرفيع للتقدم العلمي والتقني الذي بلغه الغرب، بينما الواقعة الأخرى تنبئ عن مدى تفكك المنظومة القيمية وتدهور مستوى التماسك الاجتماعي.

ومما يسترعي الأبصار شيوع ظاهرة الانتحار الجماعي، وبروز الجماعات والعقائد والملل الغريبة في مجتمعات الغرب المختلفة، وانتماء عدد كبير من النخبة إليها، فهذه الجماعة المنتحرة - مثلاً -، التي تطلق على نفسها «باب السماء»، ضمّت شبابًا من المتخصصين بمجال الحاسوب؛ مشهودًا لهم بالكفاءة والتميز، ولكن لم يمنعهم علمهم وتفوقهم من الاعتقاد بأن المُذَنَّب (هيل - بوب) يخفي وراءه سفينة فضاء، جاءت لتنقل أرواحهم إلى جنات بعيدة. ويبدو التناقض والمفارقة مرة أخرى في أن التقنية كانت في خدمة هذه الجماعة، إذ كان اتصالهم بزعيمهم يتم من خلال شبكة الإنترنت، التي وظفوها - كذلك - في نشر أفكارهم بين الآخرين.

وقد شاهدت تحقيقًا تلفازيًا مصورًا بثته شبكة CNN، ضم لقاءات مع أهل هؤلاء الشباب، وبعض الناجين من هذه الجماعة، فكانت آراء الأهل عن المنتحرين إيجابية على عكس ما يطرحه كثير من المحللين، إذ وُصف معظمهم بأنهم كانوا جادين، معتمدين على أنفسهم، محبين لأسرهم، متميزين بالنبوغ والذكاء. وجاء في إفادات بعض الأقرباء أن هذا الشاب المنتحر أو ذاك كان دائم البحث عن سر وجوده، كثير التساؤل عمن هو الخالق، غير مقتنع

وليس دولي!!

بالنصرانية، وقولها بالتثليث، ويرى أن الحياة الحالية غير إنسانية. وأوضحت الأقوال التي أدلى بها هؤلاء الأقارب أن معظم المنتحرين كانوا يعتقدون بوجود حياة أخرى بعد الموت، واتفقت معظم الآراء على أن هؤلاء المنتحرين كانوا يعانون فراغًا روحيًا. أما الناجون من جماعة «باب السماء»، فقد ذكر أكثرهم أنهم كانوا سينتحرون إذا تواجدوا في تلك اللحظة مع المجموعة المنتحرة، وذلك لما تقتضيه روح الجماعة.

ومن أبرز الجماعات الشاذة التي عرفها الغرب، جماعة «معبد الشعب» PEOPLE TEMPLE التي أنشأها القس جيم جونز، واتخذت من غابات جويانا مقرًا لها. ووصل الهذيان بهذا القس مدى بعيدًا، حتى توهم أنه الله والمسيح، وأن روح لينين قد حلت به، وكان إحكامه السيطرة على أتباعه واضحًا منذ البداية، فكان كل عضو يقدم 10٪ من دخله لدعم الجماعة، وتدرجت هذه النسبة في الزيادة إلى أن بلغت 100٪. وبعد أن اغتالت هذه الجماعة السناتور ليوريان وخمسة من مرافقيه، الذين جاؤوا للتحقيق في أمر هذه الجماعة، انتحر أفرادها بسُمٍّ أعده طبيب الجماعة المتخرج في جامعة كاليفورنيا، الذي انتحر - بدوره - بعد أن أدى مهمته بنجاح وأرضى زعيمه؛ وراح ضحية هذا الحادث 911 من الرجال والنساء والأطفال، ونجا 121 عضوًا من أعضاء هذه الجماعة.

وهناك أيضًا جماعة دافيد كورش التي كانت تقيم في معسكر في مدينة واكو بولاية تكساس. ولم تقف سيطرة كورش على تابعيه عند حد، إذ تنازلوا له عن حقوقهم في زوجاتهم، كما كان يكفي أن تضع الفتاة التي يختارها لنفسه شارة مميزة، لمنع أي واحد من الجماعة من الاقتراب منها. ودخلت هذه الجماعة في صدام مسلح مع الشرطة الأمريكية، حين أراد مكتب التحقيقات الاتحادي الوقوف على حقيقة نشاطها، وقُتِل كثير من أعضائها في هذا الصدام، ثم أفصحت هذه الجماعة عن نفسها مرة أخرى في حادث التفجير الذي حدث في أوكلاهوما.

ولا يختلف تشارلز ديتريش زعيم جماعة «سيفانون»، كثيرًا عن ديفيد كورش، وإن كان أكثر تطرفًا منه في أفكاره، بإقراره مبدأ تبادل الزوجات، ودعوته إلى طلاق من مضى على زواجه ثلاثون عامًا، وقيامه بتعقيم الرجال من أعضائه مستثنيًا نفسه، لكونه الزعيم الذي ينبغي أن يأمر فيطاع، كما أنه أمر النساء بحلق رؤوسهن.

ومما يثير الدهشة والعجب أن ديتريش بدأ نشاطه بهدف علاج مدمني الخمر والمخدرات، وهو عمل إنساني استحق عليه إشادة المجتمع وتقديره، وأُعفي نشاطه لذلك من الضرائب؛ إلى أن لعبت برأسه أوهام الزعامة، فنحى منحى بعيدًا من أي روح إنسانية.

وتنتشر في الغرب جماعات تعبد الشيطان، تدعو أعضاءها إلى إطلاق العنان لشهواتهم وملذاتهم، والتقرب إلى الشيطان بطقوس غريبة وممارسات شاذة، تتضمن الإباحية الجنسية وإدمان المخدرات والاغتصاب، وقتل الأبرياء لتقديم القرابين البشرية إلى الشيطان.

وكان أنطون لافيه قد أنشأ في عام 1966م أول كنيسة رسمية للشيطان CHURCH OF SATAN، في سان فرانسيسكو، اجتذبت أعدادًا كبيرة من الأتباع، وانتشرت فروعها في دول عديدة، بعدما نالت اعتراف الدولة وفقًا لمبدأ حرية العقيدة، وأُعفيت تبعًا لذلك من الضرائب.

وقام عُبَّاد الشيطان في بلجيكا باغتصاب الأطفال وقتلهم، وبينت التحقيقات أن هناك آباء قدموا أبناءهم لهذه الجماعة نظير مبالغ مالية أو من منطلق الإيمان بعقيدتها، وكانت المفاجأة أن هناك شخصيات رسمية كبيرة تنتمي إلى هذه الجماعة، من بينها بعض القضاة.

وتقود الحكومة الفرنسية تحقيقات واسعة للوصول إلى حقيقة العقائد والملل التي تمارس نشاطها على أرضها، والتي يُقدَّر عدد أعضائها بنحو 160 ألف عضو، بعد أن تعاظم تأثيرها في أوساط الشباب، ووضح انحراف ممارساتها، مما يهدد أمن المجتمع واستقراره.

إن ما يثير الانتباه في أمر هذه الجماعات أن أعضاءها من الذين نالوا قسطًا وافرًا من العلم، فلا يمكن أن يكون الجهل مسوغًا لإذعانهم لمن يتزعمهم، كما أنهم ليسوا من الفقراء الذين يُغْرَون بالمال، وإنما هم الذين يمدون الجماعة بما تحتاج إليه من أموال، ولا يمكن اتهامهم بالبحث عن الشهرة، لأنهم يعيشون في الظل، يُقادون ولا يقودون، ما عدا نفرًا قليلاً يتولى القيادة والزعامة، فيصبح السؤال عن الأسباب التي أدت إلى انتشار مثل هذه الجماعات، وانتماء هذا العدد الكبير من الأفراد إليها واجبًا.

إن واقع الحال يبيّن أن قيام المجتمع الغربي على أساس مادي بحت، أدى إلى تفكك عرى العلاقات الاجتماعية، واهتزاز البناء الأسري، واغتراب الفرد عن مجتمعه، لإحساسه بأنه أصبح آلةً صمّاء في ترس الإنتاج، ومستهلكًا عليه أن يشبع حاجاته المادية، دون أي مراعاة لما يعتمل في داخله من مشاعر وعواطف وأحاسيس إنسانية. وحين لا يجد الإنسان في الدين الذي يعتنقه إجابات شافية عن علة وجوده، ورسالته في هذا الكون، فإنه لا مناص أمامه من البحث عمن يعيد إليه توازنه النفسي، وقد تقوده خطاه إلى إحدى تلك الجماعات الشاذة، لتملأ بأفكارها وخرافاتها ذلك الفراغ النفسي والروحي الذي يعاني منه.

ويلتصق مثل هذا الإنسان الحائر بالجماعة التصاقًا كبيرًا، لأنها تمثل له الأسرة التي افتقدها، وفي سبيل أن يدوم انتماؤه إليها، يبدي استعداده التام للإذعان لكل ما يأمر به زعيمها، بل يتفانى بشدّة في إرضاء هذا الزعيم، وإجابة كل أوامره، مهما بدا فيها من غرابة وشذوذ.

ويتضح مثل هذا الاستنتاج في إجابة أولئك الناجين من جماعة «باب السماء»، الذين قالوا إنهم كانوا سيقدمون على الانتحار بفعل سريان روح الجماعة فيهم، كما يبرهن على صدق هذا الاستنتاج حوادث الانتحار الجماعي التي وقعت في بعض هذه الجماعات.

إن عدم حصول الفرد على الرعاية الأسرية الكافية في مرحلة الطفولة، يجعله يلجأ إلى التخلص من عبء الحرية ومسؤولياتها، ليلقي به على عاتق الجماعة وزعيمها، راضيًا بالطاعة والإذعان، مادام غير مسؤول عن تبعات أي قرار. أما الزعماء فيلجؤون إلى تحقيق ذواتهم من خلال إخضاع الآخرين، وممارسة السلطة عليهم مع بعض الشطط الذي يتبدى بوضوح في تلك الطقوس التعذيبية التي يفرضها بعضهم على أتباعهم.

ويعترف كثيرون من الذين درسوا هذه الظاهرة في الغرب بأن زعزعة الدين عن حياة المجتمع، وسيطرة الطابع المادي والصراع من أجل الكسب، من أهم أسبابها، مما يؤكد أن الدين لم يستنفد غرضه، كما ادّعى الفيلسوف الفرنسي أوجست كونت Auguste Conte الذي ينسب إليه الغربيون وضع أسس علم الاجتماع المعاصر، والذي تأثرت بآرائه معظم النظريات الاجتماعية والنفسية، بل التربوية كذلك.

ونحن - في عالمنا العربي والإسلامي - حين ندرس مثل هذه الظواهر الاجتماعية، لا ندرسها على أنها قضايا تخص مجتمعات أخرى لا علاقة لنا بها، وإنما علينا أن نتعمق في معرفة أسبابها ومقدماتها، وما تقود إليه تلك الأسباب والمقدمات من نتائج وآثار، حتى نتحصّن لها، ونتخذ وسائل الوقاية منها.

وما أشيع عن وجود بعض عُبَّاد الشيطان في عدد من الدول العربية يُبيّن أن الخطر ليس منا ببعيد، وأن علينا اليقظة وعدم التهاون في مثل هذه الأمور التي تمس جوهر عقيدتنا، بغض النظر عن مدى صدق هذه الأنباء. فالفراغ الروحي خطر يتهدد كل مجتمع إسلامي يتهاون في توجيه أبنائه إلى العقيدة الصحيحة، التي هي منهج المسلم في الحياة ونبراسه، والدليل إلى كل عمل فيه طاعة الله وخير الإنسان، وفقدان هذا الدليل يعني القلق والحيرة والضلال، واحتمال الوقوع تحت تأثير الأفكار الهدامة، التي قد ترد من أي مكان في هذا العالم.

ولا يقتصر الأمر على تحصين الذات وإنما ينبغي اتّخاذ الوسائل والسُبل للاضطلاع بمسؤوليات إبلاغ الرسالة التي خص الله بها الأمة الإسلامية، لإخراج الناس كافة من حيرة الضلال وقلقه، إلى طمأنينة الإيمان، وديمومة الأمل والرجاء، اللذين يستقران في قلب الإنسان حين يعرف علّة خلقه ووجوده، وسمو رسالته في هذه الأرض، لينعتق بذلك من نظريات مادية وإلحادية (تُشَيِّئه)، وتنظر في ظاهر سلوكه ولا تتعمّق في دواخله، لتعرف جوهره وسرّ تميّزه من مخلوقات الله الأخرى.

المنظور الإسلامي أقر تمتع الإنسان بالدوافع والاستعدادات الفطرية، كما بين ما للبيئة من أثر في تشكيل تصورات هذا الإنسان وتحديد نظرته للحياة

د. زيد بن عبدالمحسن الحسين

الإنترنت من أجل طيران آمن



شهد العالم في الآونة الأخيرة حوادث طيران مروعة، وقد أدى ذلك إلى تسارع الخطا من أجل حركة جوية أكثر فعالية وأمانًا، فبدأ خبراء الطيران في تصميم شبكة إنترنت في السماء تربط بين الطيارين وأنظمة المراقبة الجوية والخطوط الجوية في العالم. ويُتوقع أن يتيح هذا التطور التقني للطيارين إمكانات تحديد مواقع الطائرات الأخرى؛ بحيث لن يجد الطيار صعوبة في تغيير مساره، ما دام على علم بمسار الطائرات الأخرى.

ويقودنا الطموح الإنساني الذي لا تحده حدود إلى التساؤل:
هل سيأتي ذلك اليوم الذي تُسَيَّر فيه الرحلات الجوية بوساطة الحاسوب؟ وهل يمكن الاستغناء عن العنصر البشري في الطيران والمراقبة الجوية؟

طالع ص16

كتب الأطفال: كيف تتميز؟ ومتى تخدع؟



«حين نقدم كتابًا بلا مضمون حقيقي، ونستخدم فيه التقنية الحديثة ليكون جذابًا وبراقًا، فنحن نغش الأطفال ونخون قضيتنا معًا». رأي يطرحه الأستاذ عبدالتواب يوسف في مجال حديثه عن «كتب الأطفال المتميزة». فما العناصر التي ينبغي توافرها في الكتاب المتميز؟ إن الفكرة ـ بلا شك ـ تمثل العنصر الأساس، إلى جانب أسلوب السرد والعرض. ولكن ماذا عن الكتب المصورة؟ وكيف يمكنها أن تتميز وتجذب انتباه الأطفال وتغني فكرهم وخيالهم؟ طالع

ص67

السلحفاة البحرية: أسلوب فريد في الحياة!!



تحتوي البحار على كائنات ومخلوقات يكتنف حياتها كثير من الغموض، الذي يجذب العلماء والباحثين الذين تشدهم لذة الاكتشاف. وتعد السلاحف البحرية من هذه الكائنات التي تلف حياتها الطلاسم والأسرار، حتى إن سن البلوغ الجنسي عند السلحفاة الجلدية لا يزال مجهولاً، وإن كانت السلاحف البحرية الأخرى المعروفة تحتاج إلى 20-50 سنة من عمرها قبل أن تصبح قادرة على التكاثر للمرة الأولى في حياتها.

وقد درس العلماء الكيفية التي تغطس بها السلاحف متفادية ما يحيق بها من أخطار، وعرفوا كيف تضبط درجة حرارة جسمها، ووصلوا إلى نتيجة مفادها أن السلحفاة الجلدية ـ التي عاشت قرابة المئة مليون سنة ـ تمر بأسوأ مراحلها في وقتنا الحالي. فما الأسباب؟

الإجابة عن هذا السؤال، مع كثير من عجائب هذا الحيوان، ترد في أثناء مقالة علمية ملونة أعدها د. كارم السيد غنيم.

طالع ص 84

من كتاب العدد



عبدالفتاح أبو مدين

- سعودي الجنسية، من مواليد بنغازي، ليبيا 1342هـ.
- تلقى تعليمه في مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة.
- عمل مديرًا لتحرير العدد الأسبوعي في جريدة عكاظ، كما عمل مديرًا عامًا لمؤسسة البلاد الصحفية، ويقوم برئاسة نادي جدة الأدبي منذ عام 1401هـ.
- له تجربة في إصدار الصحف، فأصدر بالمشاركة مع الأستاذ محمد سعيد باعشن جريدة الأضواء عام 1379هـ، ثم جريدة الرائد الأسبوعية في العام نفسه قبل عهد المؤسسات الصحفية.
- من مؤلفاته: أمواج وأثباج (مقالات)، في معترك الحياة (مقالات)، تلك الأيام (مقالات).
- له مقالات أدبية منشورة في الصحف والمجلات المحلية، إلى جانب مشاركات إذاعية.



د. إبراهيم بن عويض الثُعلي العتيبي

- من مواليد مكة المكرمة 1366هـ.
- التحق جنديًا بالقوات المسلحة، وتدرج في مراحل التعليم، حتى نال الدكتوراه من جامعة الملك سعود 1412هـ، تخصص تاريخ حديث في التنظيم الإداري، كما وصل إلى رتبة عميد.
- صدر له كتابان: «تنظيمات الدولة في عهد الملك عبدالعزيز 1343- 1373هـ»، و«الأمن في عهد الملك عبدالعزيز: تطوره وآثاره 1319- 1373هـ»، كما أن له مقالات منشورة في الصحف والمجلات المحلية



د. سمر روحي الفيصل

- من مواليد حمص، سورية 1948م.
- حاصل على الدكتوراه في النقد الأدبي من الجامعة اللبنانية.
- يعمل مدرسًا في معهد إعداد المدرسين، وفي قسم اللغة العربية بجامعة البعث.
- عضو اتحاد الكتاب العرب، وكان عضوًا في مجلسه (1990- 1995م). وهو أمين سر جمعية النقد الأدبي، ومستشار مجلة الثقافة، وعضو هيئة تحرير «الأسبوع الأدبي».
- شارك في عدد من المؤتمرات، منها: مؤتمر اتحاد الكتاب العرب، ومؤتمر جلال الدين السيوطي، ومؤتمر خبراء أدب الأطفال، ومؤتمر الحركة الأدبية في الأردن.
- له خمسة وعشرون كتابًا، منها: ملامح في الرواية السورية، رسالة في المؤنثات السماعية، سلسلة الحكماء (للأطفال)، مشكلات قصص الأطفال في سورية، تجربة الرواية السورية، السجن السياسي في الرواية العربية، الاتجاه الواقعي في الرواية العربية، ثقافة الطفل العربي، اللغة العربية في العصر الحديث، معجم الروائيين العرب، وغيرها.

صفات أمين مصطفى سلامه

- من مواليد محافظة الدقهلية، مصر 1961م.
- حاصلة على الماجستير في الأدب الإنجليزي عن أدب الخيال العلمي، كلية الآداب، جامعة المنصورة 1995م، وتقوم حاليًا بإعداد رسالة الدكتوراه في المجال نفسه.
- تعمل حاليًا مدرسة مساعدة بقسم اللغة الإنجليزية، كلية التربية بكفر الشيخ، جامعة طنطا.
- صدر لها كتابان: «الانتماء في ضوء الإسلام»، و«الوحدة الإسلامية بين تحديات الواقع وطموحات المستقبل»، كما أن لها مقالات في أدب الخيال العلمي منشورة في الصحف والمجلات المحلية والعربية.



أسلوب أكثر أمانًا في جراحة القلب المفتوح

بعد عقود من استخدام مناشير العظام لفتح القفص الصدري، يعكف الأطباء الجراحون الآن على إيجاد أساليب أقل تشويهًا للجسد للقيام بعملهم.

ففي الخريف الماضي لم يثر إجراء عملية بالقلب بأسلوب المجرى الجانبي لهوريس ستون مدير شركة الاتصالات الهاتفية الأمريكية AT&T أي دهشة؛ حيث سبق له أن أصيب بنوبة قلبية وأجريت له عمليتا قسطرة. أما ما ترك انطباعًا مؤثرًا لدى الناس فهو شفاؤه السريع.

فبدلاً من قضاء أسبوع في المستشفى وثلاثة أشهر نقاهة حتى يستطيع أن يرتدي ثيابه بنفسه، خرج ستون من المستشفى بعد ثلاثة أيام من إجراء العملية، وبعد أسبوعين من خروجه مارس لعبة الجولف. وقد ذهل طبيب ستون الباطني عندما اتضح له أن طول الجرح في صدره ثلاثة إنشات فقط؛ في الوقت الذي يبلغ طول الجرح التقليدي 12إنشًا. وعندما ذاع خبر عملية ستون أخذ الناس يتصلون به هاتفيًا من كل مكان، حتى من ولايات بعيدة مثل فلوريدا ليعرفوا سر العملية.

يعود الفضل في شهرة ستون إلى الدكتور وليم ميفيلد الطبيب الجراح من أطلنطا رائد الأسلوب الجراحي البديل لعمليات جراحة القلب التقليدية. في عمليات الانسداد التاجي الجراحية المعيارية التي تجرى بأسلوب المجرى الجانبي، يقوم الجراحون بقص عظام صدر المريض بمنشار، وبفتح القفص الصدري بأداة تُبقي جانبي الجرح مفتوحين في أثناء العملية، ومن ثم يوقفون عمل القلب بالتبريد؛ في الوقت الذي يعملون به على تشكيل الأوعية الدموية التي تغذيه بالدم.

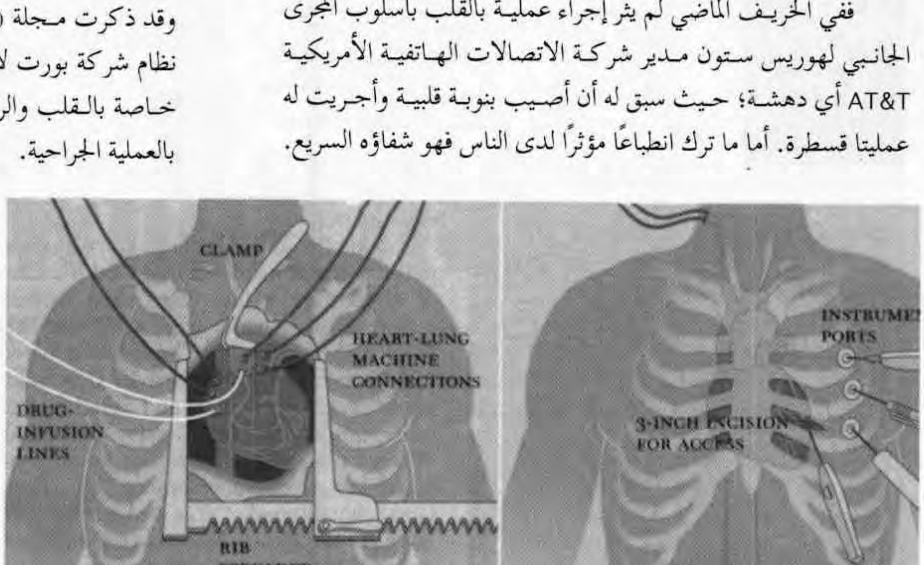
وحسب ما اكتشفه هوريس ستون، فإن الأسلوب الجديد يعني ألمًا أقل وفاتورة تكاليف أقل، وشفاء أكثر سرعة. ويقول الدكتور جريج فونتانا من مركز سيدارز ـ سيناي الطبي في لوس أنجليس: إن هذا الأسلوب الجديد قد قلب الأمور رأسًا على عقب.

إن أكثر البراعات المتنوعة للأساليب الجديدة هي التي طورتها شركة هارت بورت في مدينة ريدوود بكاليفورنيا، وهي أيضًا الأقل راديكالية. وقد ذكرت مجلة «نيوزويك» الأمريكية أن الجراحين الذين يستخدمون نظام شركة بورت لا يزالون يوقفون عمل قلب المريض، ويستخدمون آلة خاصة بالقلب والرئتين للحفاظ على الدورة الدموية في أثناء قيامهم بالعملية الجراحية.

وإذا كان إيقاف القلب قد يعزز تحكم الجراح؛ إلا أن الآلة الخاصة بالقلب والرئتين يمكن أن تسبب تعقيدات تتراوح بين إمكان إخفاق عمل الكلية والرئة، إلى تلف الدماغ والإصابة بالسكتة الدماغية.

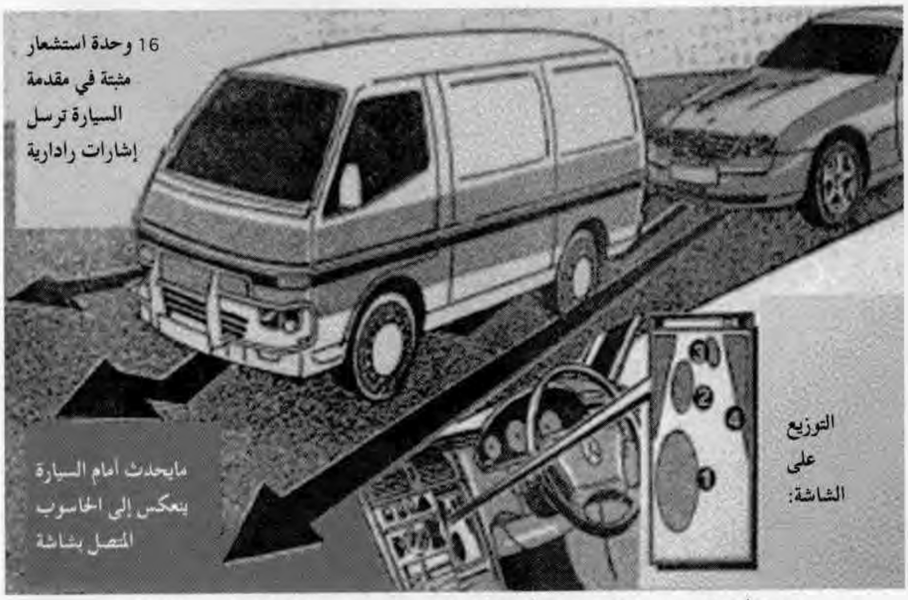
أما وليم ميفيلد فيستخدم مخلبًا لتثبيت مقطع من القلب النابض، في الوقت الذي يجري فيه الجراحة في الأجزاء الأخرى من القلب من خلال عمل جروح صغيرة. كما أن بعض الجراحين قد صمموا أدوات مماثلة.

إن هذا الأسلوب المتطور لن يلغي جراحة القلب المفتوح؛ إلا أن بوسعه أن يوفر كثيرًا من الدم والمال، ويمنع حدوث الآثار الجانبية التي قد تظهر نتيجة لإيقاف القلب في أثناء العملية.



اختراع متقدم جدًا:

سيارة ترى بأشعة إكس!!



1- عربة أمام السيارة مباشرة. 2- سيارة أخرى أمامها غير منظورة. 3- سيارة معاكسة. 4- حافة الطريق

تعمل شركة مرسيدس على تطوير سيارة ترى بأشعة اكس لتحذير السائقين من الأخطار الخفية. فقد أشارت جريدة «الديلي ميل» اللندنية إلى أن هذا الاختراع يستخدم رادارات مُركَّبة على السيارة لتشكيل صورة بثلاثة أبعاد للطريق أمام السائق على شاشة مركبة على لوحة أجهزة القياس (التابلوه).

ترتد بعض الأشعة من تحت المركبات من الأمام؛ مستخدمةً الطريق والأجزاء السفلى الجانبية للمركبات كأجهزة عاكسة لاستكشاف السيارات والشاحنات المخفية عن أعين السائق. وهذا، على سبيل المثال، يتيح للسائق الموجود خلف جسم هائل يحجب رؤيته، استكشافَ الطريق أمامه، والتأكد من خلوها من العوائق لتجاوز سيارة أخرى. كما يمكن إضافة ضوء تحذيري إلى هذا النظام للتأكد من أن أي سائق يفكر بالتجاوز، يصبح على علم بأن الرادار المركب على المركبة قد استكشف حركة المرور التي لا يستطيع السائق رؤيتها.

ويوجد 16جهاز استشعار راداري على السيارة لمسح الأشياء المحيطة بها، ومن ثم، نقل تلك المعلومات عن حجم السيارات ومدى بعدها وسرعة أي شيء يتحرك إلى حاسوب مركب على المركبة.

وهذا النظام متقدم جدًا لدرجة أنه يميز بين الطرق المعبَّدة والحصى والأعشاب وحافة الطريق، وبذلك يستطيع أن يتعرف خط الطرق وتخومها، ويحذر من المنعطفات غير الواضحة أما السائق.

وقد أعلنت شركة مرسيدس أن هذا النظام يمكن أن يتوافر خلال 8 سنوات بسعر 2000 جنيه استرليني. وقد أنتج مهندسو الشركة الأم (ديملر - بنز) في مركز الأبحاث بألمانيا نموذجًا أوليا عاملاً، وسيعرض خلال الأشهر القليلة القادمة. والمهمة الآن تنحصر في صنع مكونات صغيرة بشكل كاف يمكن تركيبها بشكل مريح على السيارات الخارجة من خط الإنتاج.

يقول بورخارد جاريتش الناطق باسم شركة ديملر بنز، وهو يصف قدرة الجهاز على إنقاذ حياة الناس: لنتخيل شاحنة كبيرة تحجب مدى الرؤية الكاملة للسائق. فهو - عندئذ - يدير عجلة القيادة بنفاد صبر، ويضغط بقدمه على دواسة البنزين حتى النهاية ليتجاوزها، ولكن يظهر له ضوء تحذيري على لوحة أجهزة القياس (التابلو) في لحظة عزمه على التجاوز يبلغه بالانتظار. وبعد مرور ثانية واحدة - بالكاد - تقابله حافلة مسرعة مملوءة بأطفال مدارس.

وأضاف جاريتش: إن أجهزة رادار أخرى ستستخدم في السيارات في المستقبل القريب، ولكنها لن تتمكن من التمييز بين المركبات والأشياء. ويقول: إن نظام شركتهم يتقدم عليها بخطوة إلى الأمام.

من جهة أخرى يعمل الباحثون على توحيد أجهزة الرادار وتقنية الفيديو لتحسين سلامة الطرق بخطوات أكثر تقدمًا، وخاصة في أثناء الليل والضباب أوالعواصف. ويمكن تعرُّف تخوم الطرق بوساطة الأنظمة الرادارية، بينما العلامات المطلية على الطرق يميزها نظام الفيديو. وبجمع المعلومات وربطها مع خارطة طرق رقمية سيعطى السائق معلومات موثوقًا بها على مخطط الطرق أمامه حتى لو كانت العلامات قد طُمست أو تلاشت.

إعاقة نمو الألياف توقف آلام العمود الفقري

أعلن الباحثون أن الألم المزمن الذي ينشأ غالبًا بعد إصابة العمود الفقري، يمكن تخفيفه بشكل مثير من طريق إعاقة نمو ألياف جديدة لعصب توصيل الألم من حول الإصابة. هذا ما يقوله الباحثون الذين أجروا تجاربهم لاختبار هذه الفكرة على الفئران.

والنتائج التي أُعلنت في الاجتماع - حسبما ذكرت مجلة نيوسينتست - قد تستطيع يومًا أن تأخذ بيد خُمس سكان العالم الذين يعانون من هذا الألم الموهن والمستعصي على الشفاء.

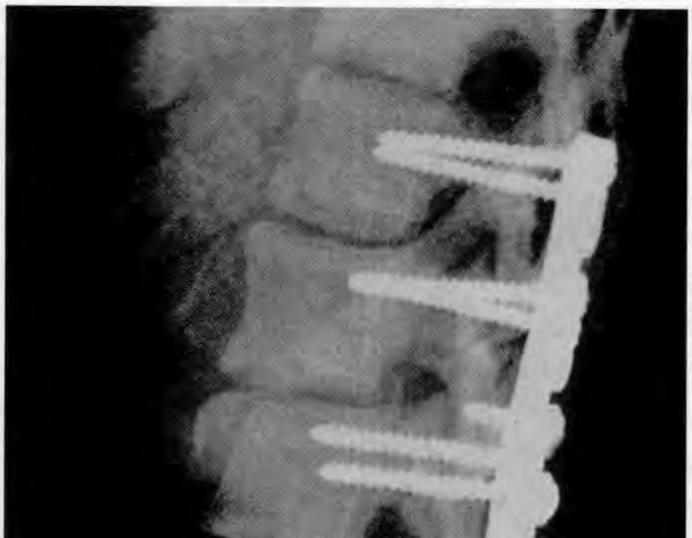
فعندما يصاب الحبل الشوكي بأضرار، فإن بعض خلايا العصب تموت محدثة فجوات، فتقوم ألياف العصب الموصل للألم بإنبات فروع جديدة لتعبئة هذه الفجوات. وهذا يشبه كثيرًا ما تقوم به الأعشاب البرية عندما تغزو رقعة من الأرض الجرداء. وبوسع هذه الألياف النابتة أن تحدث آلامًا شديدة تبدأ بعد عدة أشهر من الإصابة.

وأوضحت الدراسات المخبرية السابقة لخلايا العصب المزروعة أن جزيئًا إشاريًا يعرف بعامل نمو العصب يحفز إنبات الألياف في موقع الإصابة. ولمعرفة ما إذا كان من الممكن منع الألم من التنامي من طريق إعاقة عمل عامل نمو العصب، قام مار كريستنسين جراح الأعصاب - إبان عمله في فرع جامعة كنساس الطبي في جالفستون - بإجراء التجارب على الفئران.

قام الجراح بتخدير خمسة عشر فأرًا تم قطع الحبل الشوكي لكل منها مما أصابها بالشلل من جانب واحد. ثم أُعطيت خمسة فئران حقنة في الوريد للمناطق المصابة بأجسام مضادة لعامل نمو العصب، وهي جزيئات ترتبط بعامل النمو وتوقفه عن العمل على الخلايا. وأعطيت خمسة فئران أخرى حقنة في الوريد من مزيد من عامل نمو العصب، أما الخمسة فئران المتبقية فأعطيت حقنة من المحلول الملحي المحايد؛ مما أبقى مستويات عامل نموها العصبي الطبيعي دونما تغيير.

قبل العلاج وبعده قام كريستنسين باختبار حساسية الفئران للألم بحساب كم يستغرق الواحد منها من وقت لسحب مخلبه بعيدًا من سطح ساخن. ويعرف علماء الأعصاب أن الحيوانات التي تعاني مسبقًا من ألم بسبب إصابة العمود الفقري - على سبيل المثال - تصبح أكثر حساسية للحرارة أيضًا.

وقبل أن تُقطع حبالها الشوكية، كانت الفئران تنتظر بمعدل 23 ثانية قبل أن تسحب مخالبها بعيدًا من الحرارة. ولكن بعدما اختبر كريستنسين الفئران مرة ثانية بعد أربعة عشر يومًا من الجراحة تبين له أن الفئران التي عولجت بالمحلول الملحي استطاعت أن تتحمل الحرارة مدة ثلاث عشرة ثانية، وهذا ما يدل على أنها عانت من الألم في حبلها الشوكي. أما الفئران التي أعطيت مزيدًا من عامل نمو الأعصاب فقد أصبحت حالتها أسوأ. وأما الفئران التي عولجت بالأجسام المضادة لعامل نمو الأعصاب فلم تعانِ من أي ألم؛ إذ انتظرت المدة نفسها التي كانت تستغرقها قبل الجراحة حتى سحبت مخالبها.



وهنالك علماء أعصاب متخصصون بإصابات العمود الفقري يقولون بأن تلك النتائج هي إسهام مهم قد يفيد البشر المصابين؛ إلا أنهم شددوا على أن آثار المعالجة الطويلة المدى تبقى مجهولة. أما كين كيسي الباحث في جامعة متشغان في آن أدبر فيقول: إن الأمر يبدو واعدًا جدًا.

اغتيال الشهود الصامتين

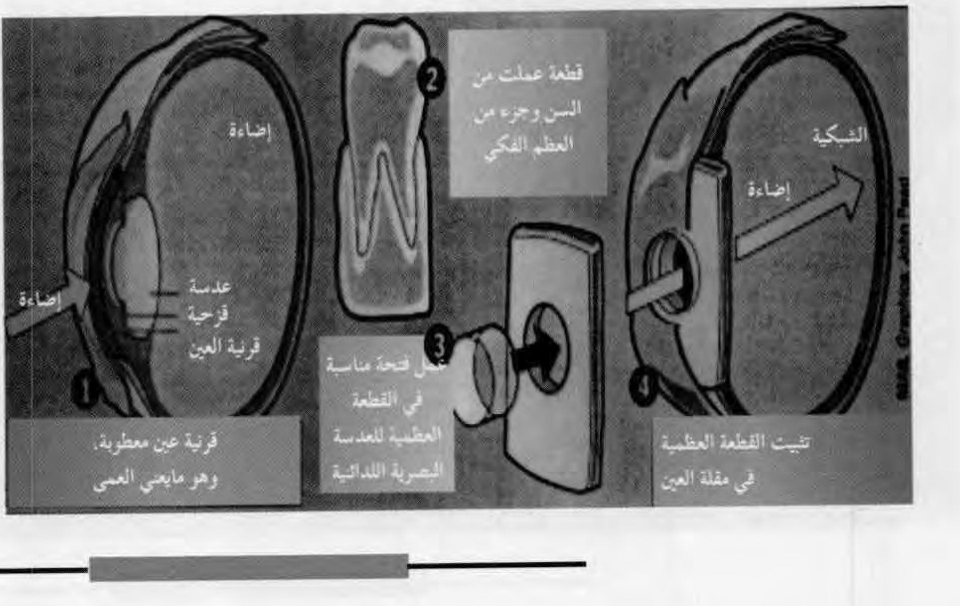


كشف المحققون عن أن الضحايا المجهولين لتجارة المخدرات العالمية هي حيوانات الدلافين، وذلك بعد اكتشاف عدد كبير من الجثث المتعفنة لهذه الحيوانات مطروحة على الشواطئ المكسيكية هذا العام.

ويزعم الخبراء أن تلك الدلافين دفعت الثمن؛ لأنها كانت الشاهد الأبكم على ما يُلقى في البحر من مخدرات تبلغ قيمتها عدة ملايين من الجنيهات. فقد ذكرت جريدة الإكسبريس اللندنية في عددها الصادر في 1997/3/20م أن تجار المخدرات يبحرون إلى مواقع محددة سلفًا للالتقاء ليلاً مع طائرات تطير على ارتفاع منخفض تسقط لهم شحنات من الكوكايين.

وتقوم هذه العصابات، التي تتاجر في المخدرات، بإرشاد الطائرات بوساطة إذابة مادة كيماوية متوهجة في البحر؛ عناصرها الأساسية من مادة السيانيد السامة، فتدفع الدلافين الثمن!

عظم (ناب العين) يمكن كفيفًا من الإبصار ثانية



أصبح بإمكان الكفيف أن يرى بعد إجراء عملية رائدة لإعادة بصره إليه باستخدام ناب العين (ناب في الفك الأعلى).

إن هذا الأسلوب الذي لم يسبق أن استُخدم في بريطانيا قد مكّن بيمجي فارساني BHIMJI VARSANI أن يرى - لأول مرة - بعد سنتين. وقد استخدم الجراحون ذلك الفك لصنع حامل (ممسك) منه لدعم قطعة زجاج صغيرة أدخلت في مقلة (بؤبؤ) عينه لتحل محل القرنية التالفة.

يقول فارساني، البالغ من العمر 62 عامًا، بعد فك الضماد عن عينيه في مستشفى برايتون للعيون: إنه لم يستطع أن يصدق ما حصل. إنه سحر. ويضيف: إنه كان مبتهجًا برؤية زوجته لالبال LALBAL مرة ثانية، وإنها كانت تبدو بالجمال نفسه الذي عهدها به.

وكان فارساني - وهو من نورث لندن وأب لثلاثة أبناء -

قد فقد إبصار عينه اليمني نتيجة إصابته بمرض الجدري عندما كان عمره ثماني سنوات. ونتيجة خلل في عينيه عانى منه منذ الطفولة فقد إبصار عينه الثانية فيما بعد.

إن أسلوب ترقيع القرنية بعظام الأسنان يساعد أولئك المصابين بالعمى القرني الذي يتسبب عن مرض أو حادث، ولكنه غير ملائم لزراعات القرنية التقليدية.

لقد أخفقت ثلاث عمليات زراعة قرنية أجريت لفارساني - كما ذكرت صحيفة «الديلي ميل» اللندنية - قبل المباشرة في المرحلة الأولى من العملية الجراحية المكونة من مرحلتين لإعادة الإبصار لعينه اليسرى في تشرين الثاني/نوفمبر الماضي.

في العملية الأولى، التي استمرت 8 ساعات، أزيل أحد أنيابه مع قطعة من عظم الفك، ثم طُحنَ لتشكيل صفيحة متقوسة قليلاً بطول 9 ملم وعرض 6 ملم وبسمك 3 ملم. ثم ثُقبت الصفيحة بمساحة 4 ملم لتثبيت عدسة بصرية لدائنية في ذلك الثقب، بعدها أدخلت الصفيحة مؤقتًا تحت الجلد أسفل العين اليمنى، وكان ذلك من أجل إتاحة الفرصة للأنسجة الحية لأن تنمو عليها؛ حيث سيحتاج إليها فيما بعد لخياطتها في المكان المحدد في محجر العين. وفي الوقت نفسه أخذت شريحة صغيرة من وجنته ولُحمت فوق مقدمة عينه اليسرى، وذلك لتوفير مادة تلحم بها القرنية الجديدة.

في المرحلة الثانية أجريت عملية دقيقة استمرت سبع ساعات، وعُرضت في برنامج: عالم الغد لهذه الليلة TO-NIGHT,S TOMORROW'S WORLD في القناة التلفازية الأولى لهيئة الإذاعة البريطانية؛ حيث أزيلت القرنية الصناعية من أسفل عينه اليمنى، ثم خيطت في مكانها داخل مقلة العين اليسرى. وللقيام بذلك تم إزالة العدسة والقزحية، ثم حُفرَ ثقب صغير في الجلد الملحَم ليبصر من خلاله. وفي آخر الأمر ستركب له عدسات لاصقة ملونة لتظهر العين كأنها طبيعية. ولكن هذه القرنية اللدائنية الاصطناعية يمكن أن تسقط من محجر العين في آخر الأمر؛ إلا أنها تبقى في مكانها عندما تحاط بالصفيحة المشكلة من السن والعظم، وهي أفضل المواد الطبيعية لهذا الغرض.

وهذا الأسلوب طوره البروفسور جيانكارلو فالسينيلي، من مستشفى سان كاميلو في روما، الذي أجرى به 180عملية مماثلة بنسبة نجاح تعادل 75٪.

لقد ذهل طبيب العيون الاستشاري الدكتور كريستوفر ليو من براعة البروفسور فالسينيلي في أثناء إجرائه العملية. وصرح أنه راض كل الرضا عما جرى في تلك العملية، وأضاف: إن فارساني قد استعاد قوة إبصاره القصوى.

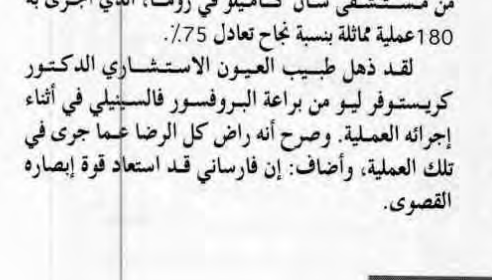
نصيحة ساذجة!

لقد تكاملت المغامرة بجميع جوانبها في الخطوة التي أقدم عليها الأخوان سايناي وفيجاي، للخروج بطريقة غير مشروعة من بلدهما «الهند»، وعادت تفصيلات المغامرة إلى واجهة وسائل الإعلام - مؤخرًا - عندما تقدم سايناي بطلب للحصول على حق العيش في بريطانيا، وهو الغرض الذي وضعه وأخوه أمام ناظريهما عندما غامرا بالهروب عبر حجرة إطارات (دواليب) طائرة جامبو تابعة للخطوط الجوية البريطانية في رحلة استغرقت نحو عشر ساعات، هبطت خلالها درجات الحرارة إلى 40 درجة مئوية تحت الصفر!!

في شهر أكتوبر الماضي عثر عمال الأمتعة في مطار هيثرو على بارديت سايناي (22 عامًا) مرتديًا ملابس رثة، وهو بين الحياة والموت، في الحجرة المخصصة لعجلات الطائرة. أما أخوه فيجاي (19 عامًا) فقد سقط من ارتفاع ألفي قدم، ليلقى حتفه، عندما اقتربت الطائرة من المدرج وأنزلت العجلات استعدادًا للهبوط. وقد عُثر على جثمان فيجاي - فيما بعد - داخل أحد المصانع المهجورة في ريشموند جنوب غربي لندن.

القصة غريبة، إذ لم يُسَجَّل - قبل هذه الواقعة - أن شخصًا مر بظروف مشابهة لما عايشه هذا الشاب الهندي، ونجا من الموت. ولذلك كتب مايكل بوست، قبطان الطائرة البريطانية، إلى سايناي مـهنئًا بنجاته. أقرب الروايات إلى الحقيقة - حسبما ذكرت صحيفة الديلي تلجراف البريطانية في 13 مارس الماضي - أن الأخوين قد غُرِّر بهما، وأنهما لصغر السن، وقلة التجربة، صدقا كلامًا ساذجًا. فقد ذكر سايناي، الذي كان يعمل ميكانيكيا في بلده: أن أحد وكلاء الطيران نصحه وأخاه بالصعود إلى حجرة العجلات، ومن هناك سيجدان ممرًا إلى عنبر الأمتعة، وأنهما سيكونان في أمان إلى أن تهبط الطائرة في لندن. ولكنهما، عندما أقلعت الطائرة، فوجئا بأن حجرة العجلات لا تؤدي إلى عنبر الأمتعة، واستسلما على أمل أن تنقذهما معجزة إلهية، وهو ما حدث. والآن تستحوذ على سايناي أفكار سوداوية، كلما تذكر القصة، وشعوره بأن الموت كان سيكون من نصيبه كما حدث لأخيه.

ويبدو أن هذا الحدث استهوى يافعًا نيروبيًا للتسلل إلى بريطانيا، والدخول بطريقة غير نظامية من طريق التخفي في مخزن العجلات الأمامية لطائرة الخطوط البريطانية المقلعة من نيروبي إلى لندن؛ غير أن الحظ لم يحالفه، فكان مصيره الموت متجمدًا في درجة برودة 66 درجة مئوية تحت الصفر على ارتفاع 33ألف قدم، وذلك وفق ما نشرته جريدة الديلي ميل اللندنية في 24مارس 1997م، التي أضافت أن السلطات البريطانية تبحث الآن في إيجاد الطرق والوسائل المناسبة لحماية الطائرات مما يندس بداخلها، والأخطار التي قد تحيق بها من جراء ذلك.



احتمالات السقوط تزداد في أثناء الاستعداد للهبوط

الهاربون يقبعون في المكان المخصص للعجلات



الفتى النيروبي يتشبث بمقدمة عجلات الطائرة

الطيران على ارتفاع 32 ألف قدم ودرجة برودة 60 تحت الصفر جعلت الفتى يتجمد حتى الموت

لا تغفلوا عن أولادكم!



لم تكن أسرة الطفل آدم بينفورد تظن، وهي تتنزه على ضفاف بحيرة أشبي الضحلة، أن هذه النزهة ستتحول إلى مأساة مروعة لهم.

فقد اختفى الطفل آدم البالغ من العمر ثلاث سنوات عندما كان يقطف أزهاراً لوالدته من شاطئ البحيرة الضحلة، وتبين أن تمساحاً طوله 11 قدماً قد سحب الطفل بعيداً من أسرته وقتله!

أما أسرته فلم تر الحادث ولا يتذكرون سوى صوت رشقات المياه. وذكرت صحيفة «الديلي ميل» اللندنية أنه بعد مرو أربعة وعشرين ساعة على الحادث، شاهد أحد الصيادين - على مسافة كيلومتر من مكان الحادث - التمساح البالغ وزنه 450 رطلاً يمسك بالطفل بين فكيه، فأطلق عليه النار وقتله.

يقول الملازم جوي هيل من هيئة الصيد وأسماك المياه العذبة في فلوريدا: إن التمساح يضرب ضحيته في طرفة عين. أما شيرلي جونسون جدة الطفل فتقول: إن والدة آدم شُغلت بضع ثوان عن ولدها وإذا به يختفي.

وصرح الكابتن راندي بيرنسد من إدارة عمدة مقاطعة فولوسيا بأن الصياد كيرتس لوكاس شاهد التمساح وهو يدفع جثة طفل باتجاه منطقة متشابكة الشجيرات، وعندما اقتربت منه تماسيح أخرى أمسك جثة الطفل بين فكيه؛ فعاجله الصياد بثلاث طلقات أردته قتيلاً.

وأضاف بيرنسد: إن التمساح لم يلتهم الطفل، وإنما كانت تظهر على جسمه بعض العضات وآثار الجروح.

تقوم التماسيح بإغراق ضحاياها عدة مرات في الماء، ومن ثم تأخذها إلى مكان منعزل لتأكلها. إن هذا الحادث يبين أن التماسيح قد فقدت الخوف من البشر؛ لأن المتنزهين يقدمون لها الطعام، فلم تعد تهرب منهم بعيداً عندما يقتربون من حافة المياه.

ومنذ العام 1943م حصل 225 اعتداء من التماسيح على البشر في فلوريدا، أدت سبعة اعتداءات منها إلى الوفاة.

إنها ليست بهذا السوء الذي تبدو به

إذا قمت بدراسة منح الطبيعة غير المُحتفى بها مدة طويلة بما فيه الكفاية؛ فستجد فيها شيئًا طيبًا غير ما يشاع عنها. أنعم النظر في هذه الاكتشافات التي تمت برعاية وزارة الزراعة الأمريكية، ونشرتها مجلة «يو. إس. نيوز» في عددها الصادر في 1997/1/27م:

دوار الشمس (عبادالشمس):

هذا النبات يسرف في استهلاك الماء والغذاء، في الوقت الذي يسارع فيه إلى تخفيف أثر تآكل الرياح. ولكن العلماء في محطة أبحاث السهول الكبيرة الوسطى في أكرون كولو وجدوا أن زراعة القمح الشتوي في المنطقة التي كانت نباتات دوار الشمس قد ازهرت فيها لتوها قد أنتجت كمية وفيرة من القمح في الأكر الواحد زيادة عن المعتاد. والواقع أن دوار الشمس الميت هو أفضل من الحي لأن سويقاته الميتة تحتفظ بالرطوبة والغذاء في التربة.

ثاني أكسيد الكربون:

إن زيادة مستويات ثاني أكسيد الكربون المرتبطة بظاهرة بيوت الدفيئة (البيوت الزجاجية) تعزز في الواقع من نمو فول الصويا. هذا ما أفاد به مختبر بحوث حيوية التربة في أوبيرن AUBURN بالأباما. فعندما ضاعف الباحثون مستويات ثاني أكسيد الكربون في الهواء، لتصل إلى المستويات المتوقعة في القرن القادم، ازداد المحصول بمعدل 35٪.

الهواء الفاسد:

الهواء الفاسد مفيد لمزارعي الفواكه الذين يزعجهم ذباب الفواكه المكسيكي. هذا ما ورد في دراسة قامت بها مؤسسة ترانس فريش بكاليفورنيا؛ حيث قام الباحثون بحقن حاويات الجريب فروت بهواء نسبة الأكسجين به1٪. فقط بدلاً من النسبة الطبيعية (29,9٪)، فوجدوا أن هذا النوع من الهواء يقضي على الحشرات.



شبكة الإنترنت في السماء

إعداد: **قسم الترجمة**

يشكل تتبع آلاف الطائرات يوميًا كابوسًا يواجه كل مرشد لحركة المرور الجوية؛ إلا أن «جوستن مولينز» اكتشف وسائل اتصال عن بعد متقدمة جدًا، يمكن أن توفر النظام للممرات الجوية المزدحمة.

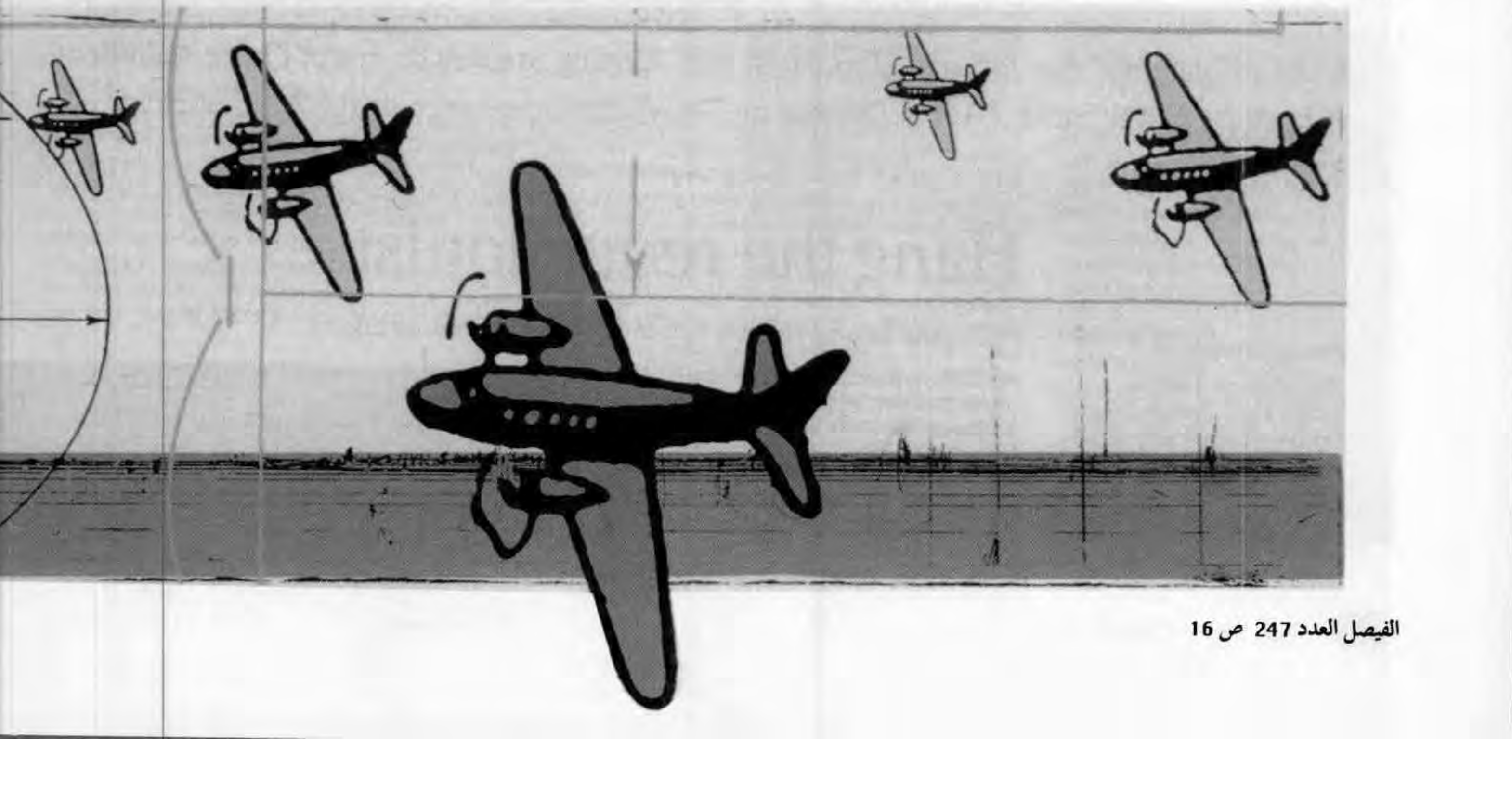
ففي صباح يوم بارد من أيام شهر كانون الثاني/ يناير من هذا العام، أقلعت طائرة قديمة أجريت عليها تعديلات، من القاعدة الجوية في ويلتشير في رحلة يمكن أن تغيّر طرق الملاحة الجوية حول العالم. وكانت الطائرة، وهي من طراز BAC1-11، تحمل نظام أجهزة اتصالات تجريبية يتيح للمرشدين الجويين على الأرض أن يستقبلوا معلومات عن موقع الطائرة وارتفاعها، بل حتى الطريق الذي تسلكه، وكأنهم يتلقون المعلومات من شبكة الإنترنت.

وفي الوقت نفسه تقريبًا بدأ فريق صغير من المرشدين الجويين يعمل على نظام محاكاة لضبط الحركة الجوية في وكالة أبحاث الدفاع في مالفيرن في ورسسترشير. وجهاز المحاكاة عبارة عن منظم لشاشات الرادار ومعدات الاتصالات أنشئ لمحاكاة الحركة الجوية وأصوات الاتصالات فوق شمال شرقي بريطانيا. وهذا الجهاز مزود بنظام حاسوب تجريبي يستطيع أن يحسب ـ مقدمًا ـ ممرات الطيران لجميع الطائرات الواقعة في نطاق نظام المحاكاة. ولكن كانت هناك طائرة حقيقية في نطاق نظام المحاكاة ذلك. وفي منتصف الاختبار ظهرت BAC1-11 على طرف شاشاتهم منفصلة عن خط الالتحام في الحركة الجوية، وكأنها تطير في وسط أكثر الممرات الجوية البريطانية ازدحامًا. وقد احتسبت طريقها بوساطة الحاسوب، وتمت معظم اتصالاتها مع المراقبة الأرضية من خلال حلقة المعطيات المتطورة.

إن طائرة BAC1-11 والتجربة التي شملتها، ما هي إلا جزء من برنامج عالمي لجعل مراقبة الحركة الجوية أكثر فعالية. ذلك أن التحسينات مطلوبة بشكل عاجل؛ حيث يُنتظر أن تتضاعف حركة الطيران الجوية العالمية مع بداية عام 2005م، ومن دون إحداث تغييرات في طرق الحركة الجوية؛ فإن تلك الطرق المزدحمة قد تصل إلى مرحلة حرجة من التعثر.

ويعتقد خبراء الطيران أن حلقات المعطيات العالمية هي المفتاح الأمثل لزيادة الفعالية، لذلك فهم يخططون لتصميم شبكة إنترنت في السماء تربط الطيارين وأنظمة المراقبة الجوية والخطوط الجوية حول العالم. ومن الناحية النظرية فإن هذه الشبكة ستتيح للمراقب الجوي ـ في أي مكان من العالم ـ أن يراقب أي رحلة جوية، وأن يرسل تفاصيل أي طريق جديدة مباشرة إلى نظام إدارة أي طائرة في رحلة جوية، وهذا الأسلوب يعد أكثر فعالية من أي نظام اتصالات صوتي يستخدم في الوقت الراهن.

كما أن الطيارين في الجو سيصبحون قادرين على استخدام شبكة المعطيات؛ بأن يستفسروا عن تغيرات الطرق دون إعاقة قنوات الاتصالات الصوتية المحدودة المستخدمة في الأنظمة الراهنة، إضافة إلى أن وظيفة خطوط الطيران الموضوعة في جداول، وصيانة



أسطول من الطيران سيتم تحديثهما؛ حيث ستعمم التفاصيل الدقيقة لموقع كل طائرة وخططها المستقبلية إلكترونيًا، ومن ثم يتم تحديثها في ثوان حسب تغير الظروف. بل إن المسافرين أنفسهم قد يتمكنون من إرسال بريد إلكتروني.

وعلى المدى الطويل فإن الطيارين سيتمكنون من تحديد مواقع الطائرات الأخرى؛ مما يعطيهم - لأول مرة - صورة كاملة عن الحركة الجوية من حولهم. وفي بعض المناطق التي يكون عدد الرحلات منخفضًا فيها، فقد يتولى الطيارون بعض مهام المراقبين الجويين. وحسب تصريح سلطة الطيران الفيدرالي التي تتولى أمور الطيران في الولايات المتحدة، فإن الفعالية المحسنة التي ستتوافر بسبب حلقات الربط هذه قد توفر مئات الملايين من الدولارات سنويًا. إن المنظومة المؤسسة لهذه الثورة في إدارة حركة الطيران، هي شبكة اتصالات رقمية كانت - قبل عشر سنوات - في مخيلة مؤسسة الطيران المدني الدولية، وهي الهيئة المهيمنة على شؤون الطيران الدولي ومقرها في مونتريال. وبعد تعديل دقيق مطول فإن شبكة الاتصالات الملاحية الجوية تجتاز الآن اختبارًا، والفوائد الهائلة الممكن جنيها قد بدأت تتشكل.

ففي الوقت الذي تشبه فيه شبكة الاتصالات الملاحية الجوية شبكة الإنترنت من حيث توفير شبكة لتبادل المعلومات؛ إلا أن الشبكتين متضاربتان بسبب التباين في القوانين الإلكترونية، أو الاتفاقات الدولية التي يستخدمانها للتعامل مع المعلومات. فجميع المعلومات في شبكة الإنترنت متساوية، والمعطيات الحيوية لمشاريع الأبحاث تخضع لعوامل التأخير نفسها مثل الرسائل بين الأصدقاء. أما في الجو فالأولية تعطى لتبادل المعلومات بين الطائرات والمراقبة الجوية على تفاصيل جداول مواعيد شركات الطيران والبريد الإلكتروني للركاب. كما أن اختيار الطرق الجوية لهذه المعلومات هو أمر ذو أهمية أيضًا. وبوسع الحركة الجوية أن تجري اتصالاتها بوساطة موجات الراديو؛ بما في ذلك الترددات العالية جدًا، والترددات العادية، وأنظمة الاتصالات بالأقمار الصناعية. ويعتمد الاختيار على موقع الطائرة وتكلفة حلقة الربط. فعلى سبيل المثال فإن اتصالات الراديو ذات الذبذبات العالية جدًا التي يمكن الوثوق بها، لا يمكن تحقيقها بما يتجاوز الأفق، لذلك ففي المناطق البعيدة لا بد من تحول الطائرة إلى حلقات ربط أقمار صناعية أكثر تكلفة. ويجب أن يُصَمَّم النظام مستقبلاً حسب أسهل الأساليب التقاطًا للبث بطريقة واضحة للطيار وللمراقب معًا. إن تطوير طرق طيران جوية معتمدة وموثوق بها تعطي الأولية للمعلومات واختيار أسلوب البث، وهذا ليس بالعمل السهل.

إشراف ومراقبة الأقمار الصناعية

تجرى الاختبارات في الوقت الراهن على هذا النظام من قبل سلطات الطيران المدنية والخطوط الجوية. ولم تستطع حتى الآن مواكبة هذه المشكلة؛ لأنها تعتمد على اتصالات الأقمار الصناعية. ويدعى هذا النظام مراقبة تابعة ذاتية ADS، واحتمالات منافعها هائلة. ولأن التغطية الرادارية لا تمتد إلى ما يجاوز الأفق؛ فإن الطائرات فوق المناطق النائية مثل الأطلنطي الشمالي (شمال المحيط الأطلسي) تطير بعيدة من بعضها بعضًا بمقدار 110 كيلو مترات لتجنب أي عدم يقين بالنسبة لمواقعها. ومع توافر تقارير منتظمة ودقيقة فإن هذه المسافة يمكن تقليلها إلى حدود 30 كم، وهذا مما يضاعف مقدار حركة المرور ثلاث مرات بحيث تُضغط لتصبح طريقا واحدًا.

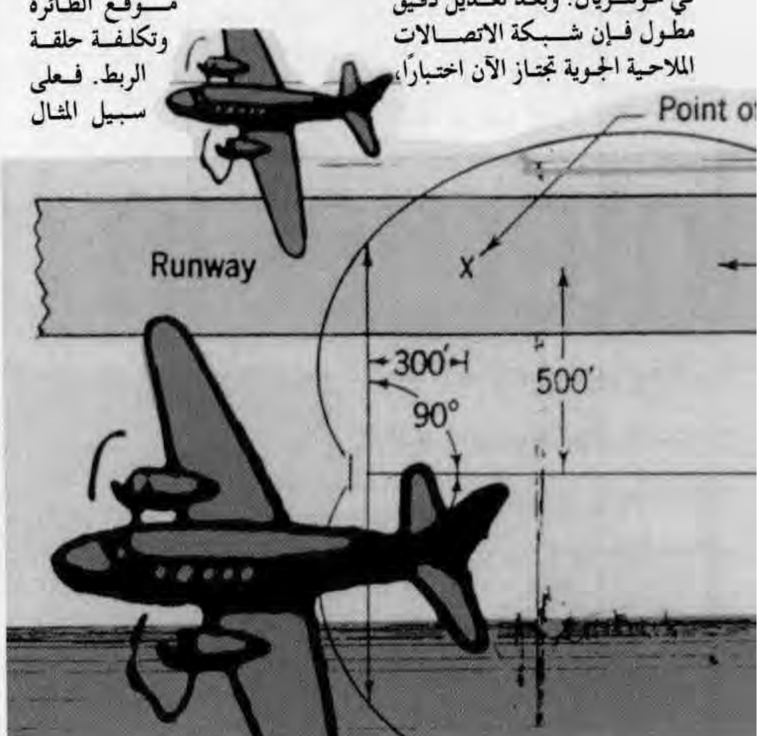
إن التجارب على نظام المراقبة الذاتية للطيران - حسبما ذكرت مجلة نيوسينتست - بدأ في وقت مبكر من هذا العام باستخدام عشر طائرات ركاب تطير بانتظام فوق الأطلنطي الشمالي، ومنذ ذلك الحين سجلت تلك الطائرات ما يزيد على 7400 ساعة طيران. يقول طوني إيفانز رئيس قسم الأبحاث الفنية والتطوير في خدمات الحركة الجوية الوطنية NATS التي تشغل مراقبة الحركة الجوية في المملكة المتحدة: لقد تم تلافي معظم عيوب ذلك الجهاز؛ الأمر الذي أدى إلى تحقيق مستويات جيدة من الإنجازات، كما تجرى اختبارات مماثلة أيضا على الطائرات فوق المحيط الهادئ، وعلى الطائرات الحوامة (الهيلوكبتر) فوق بحر الشمال.

أما الخطوة التالية فهي البدء في تقليل المسافة بين الطائرات فوق تلك المناطق النائية. وإذا سار كل شيء حسب الخطط الموضوعة، فسيبدأ الركاب وشركات الطيران بجني المنافع الناجمة عن تقريب المسافات بين الطائرات في الجو؛ حيث ستصبح رحلات الطيران أكثر فعالية، وتأخير مواعيد الرحلات أقل حدوثًا مع نهاية هذا القرن، وفوق ذلك فإن الخطط ستصبح أكثر طموحًا.

إن المعطيات الناجمة عن اختبار طائرة BAC1-11 ستساعد على تحديث أنظمة مراقبة الحركة الجوية في جميع أنحاء أوربا مع بداية عام 2005 تقريبًا.

وفي الوقت الحاضر يعمل المراقبون الجويون، من طريق تخيل المسار المستقبلي للطائرات تحت إشرافهم، لتشخيص أي تصادم محتمل، وعندما يحددون بالضبط هذا التضارب فإنهم يرشدون الطيار بوساطة الراديو لتغيير اتجاهه، وسرعته، وارتفاعه. والمراقبون المدربون تدريبًا عاليًا يمكن أن يتعاملوا بأمان مع عشر طائرات في وقت واحد. وفي الوقت الذي يعد فيه ذلك عملاً فذًا للعقلية الذكية؛ إلا أنه أيضا العامل الأساس الذي يحدد عدد رحلات الطيران التي يمكن أن تمر في وقت واحد من خلال قطاع الحيز الجوي الذي يتعامل معه كل مراقب جوي. وفي المستقبل فإن هذا العدد لن يكون كافيًا.

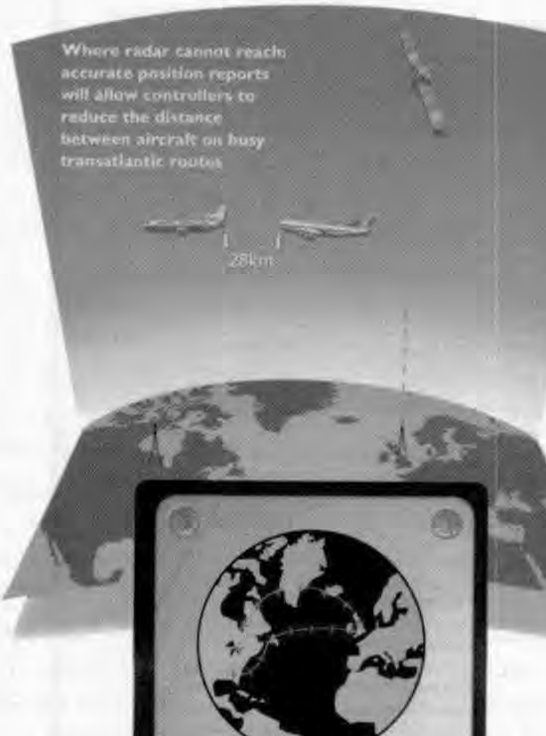
والسؤال هو: كيف نستطيع أن نقلل من عبء العمل الذي يقوم به المراقبون الجويون؟ هذا السؤال يوجهه جراهام ستامب من خدمات



شبكة الإنترنت في السماء

الحركة الجوية الوطنية NATS في بورتهاوث وهو مدير أبحاث تطوير مراقبة الحركة الجوية أيضا. إن إحدى الوسائل لتحسين الأمور تقليل حجم قطاع كل مراقب. ولكن ذلك يتطلب زيادة موازية في عدد المراقبين، بالإضافة إلى المعدات والمساندة التي يحتاجون إليها للقيام بذلك العمل. والأمر البديل لذلك هو تنمية فعالية المراقبين. ويعتقد ستامب أن الحاسوب يمكن أن يساعد في ذلك بالقيام ببعض الأعمال الروتينية للمراقبين مثل التوقع المستقبلي لاحتمالات التضارب.

وهذا الأمر يشكل تحديًا. إن التحقق من أن اقتراحًا بالتغيير في مسار طائرة ما سيكون آمنًا يوجب على الحاسوب أن يكون قادرًا على التوقع المستقبلي لجميع مسارات الطائرة بثلاثة أبعاد في ذلك القطاع. ومن ثم، يجب التحقق من أن تغيير مسار الطائرة لا يجعل المسافة قريبة بين أي طائرة وطائرة أخرى. وحالما يقتنع المراقب بأن ذلك التعديل آمنٌ فيجب عليه أن يبلغ ذلك التعديل إلى الطائرة بشكل يعرض بسهولة في ركن الطيار، وربما على شكل خارطة حاسوبية توضح المسار الجديد. ومن ثم، يواصل الحاسوب مراقبة موقع الطائرة باستخدام المراقبة التابعة الذاتية ADC للتأكد من التزام ممر الطيران المتفق عليه. وأخيراً يجب القيام بكل ذلك بنسبة 100٪ من الدقة المطلوبة؛ حيث إن خطأً واحدًا يمكن أن يؤدي إلى كارثة.



يقول ستامب: إن الاختبارات التي أجريت في وقت مبكر من هذا العام على طائرة BAC1-11 كانت خطوة لها شأنها إلى الأمام. ومن خلال التجربة، وفي وسط أحاديث المراقبين وهم يتبادلون الآراء حول تغيير مسارات بسيطة مع طائرة المحاكاة، فإن طائرة BAC1-11 بقيت هادئة بشكل غير اعتيادي، واستطاع قائدها أن يرسل طلباته لتغييرات في المسار من خلال معطيات حلقة الاتصالات بفعالية بوساطة البريد الإلكتروني. وعلى الأرض كان الحاسوب يحلل تلك الطلبات بسرعة؛ موضحًا للمراقبين ما إذا كان المسار الجديد سيشكل تداخلاً خطرًا مع مسارات طائرات أخرى أم لا، وبعد اقتناع المراقبين بالمرور الآمن، فإنهم يرسلون ببساطة رسائل إلكترونية بتأكيد ذلك المسار. ويقول ستامب: إنهم قد أوضحوا أن ذلك يمكن فعله بأمان.

وفي الربيع القادم ستتواصل الاختبارات، ومن المقرر أن تسير مؤسسة أبحاث الحركة الجوية الألمانية DLR - التي مقرها برونشويج - طائرة معدلة مماثلة من مطار صغير بالقرب من هانوفر، باستخدام نموذج محاكاة للتحكم بحركة الطيران يشبه ذلك الذي استخدم في مالفيرن. وسوف يقوم الفريق بإقلاع وهبوط محاكاة في مطار فرانكفورت الدولي. ويقول ستامب: إن الفكرة هي أن تعمل التجارب اللاحقة على تسيير رحلات محاكاة جوية من الأرض إلى الأرض.

إحصاءات أساسية مهمة

الخطوة التالية هي كيفية تحسين هذا النظام وإمكان حدوث ذلك؟ يود ستامب أن يرى فيما إذا كانت الإحصاءات الأساسية، مثل الأوزان (التي تتباين خلال الرحلة) وقياسات سرعة الدوران (تغيير الاتجاهات) الدقيقة يمكن أن تُستخدم لتوقع المسارات بشكل أفضل، وتقليل عدم التيقن من المواقع المستقبلية. ويوضح أهمية التوقعات الأكثر دقة لأنها تقلل من احتمال إمكان التضارب.

إن حلقة المعطيات هي المفتاح الرئيس، وينبغي أن تؤدي إلى حشد من المنافع الأخرى أيضا.

ففي الاختبارات التي أجريت فوق المحيط الهادي استخدمت شركات الخطوط الجوية حلقات المعطيات لطلب مسارات مع تغيير الاتجاه التالي لتوفير الوقت والمال. وتقدر سلطة الطيران الفيدرالي في الولايات المتحدة أن ذلك قد يوفر على مشغلي شركات الخطوط ماقيمته 200 مليون دولار سنويًا على شكل وقود ووقت.

إن لدى وكالة الطيران الاتحادية خططًا أخرى، فمع أن الحركة الجوية كثيفة فوق أجواء معظم الدول الأوربية، إلا أنها تعد خفيفة فوق أجزاء كبيرة من الولايات المتحدة. وفي هذه المناطق فإن خطط وكالة الطيران الاتحادية تتيح للطائرات أن تطير من دون قيود نسبيًا من قبل المراقبين على الأرض، وباستخدام إذاعة المعلومات عن الموقع بوساطة كل طائرة فإن الطيارين يكوّنون صورة عن الحركة الجوية في الفضاء من حولهم، ويستخدمون ذلك لتخطيط رحلاتهم. ويُعرف هذا النظام باسم الطيران الحر، وينبغي له أن يتيح مزيدًا من المسارات المباشرة بين الأماكن المقصودة وقدرًا أقل من التأخير. أما في المناطق ذات الكثافة العالية وحول المطارات فسيتولى الأمر المراقبون على الأرض.

ما مدى الفعالية التي ستصل إليها مراقبة الحركة الجوية. إن ستامب وإيفانز متحفظان بالنسبة لتوقعاتهم. فالهدف، كما يقولان، هو مواكبة تضاعف الحركة الجوية مرتين خلال عشر سنوات.

فهل يمكن أن يأتي ذلك اليوم الذي تُسيّر فيه رحلة جوية بين لندن وواشنطن عبر الأطلسي بوساطة الحاسوب؟ يرى ستامب الأمر غير ممكن، ويوضح أن الطرق الجوية المسيّرة آليا غير ممكنة بعد؛ لأن برامج الحاسوب التي تتحكم فيها لا يمكن ضمانها بشكل لا يتطرق الشك إليها أبدًا. فالطيارون البشريون ومراقبو الحركة الجوية لا يمكن الاستغناء عنهم بأي حال من الأحوال، على الأقل في المستقبل المنظور. أما بعد ذلك فمن يدري؟

من التخبط اليهودي: اليهود المرَّان!



د. حسن ظاظا

يكاد التاريخ اليهودي كله، باستثناء المعجزات الإلهية، يمثل نماذج من التخبط السياسي والاقتصادي والعقائدي والحربي، الذي لا يقع فيه إنسان عاقل «إلا بخذلان من الله تعالى» كما يقول الجاحظ. والأمثلة على ذلك في التاريخ اليهودي لا تكاد تُحصى. فمثلاً، عندما أبلغهم موسى - عليه السلام - بالأمر الإلهي بأن يخرجوا معه من مصر - في أواسط الألف الثاني قبل الميلاد - هاربين من ظلم فرعون لهم، وكفره بربهم ورسولهم، نراهم استغلوا هذه الفرصة (وهي أعياد الربيع في أمم هذه المنطقة كلها) في اقتراض الحليّ من الجارات المصريات، بنيّة الهرب بها من أرض مصر، وهم خارجون مع موسى وهارون! وهكذا يبدأ خروجهم بأعمال نصب واحتيال وسوء استغلال للثقة وحسن النية، بخيانة الجيران، ونهب ما أمكن من ممتلكاتهم! هكذا ترد القصة في التوراة (الخروج)، وقد لقوا جزاءهم عن هذه الجرائم، بأن استجاب المصريون لنداء فرعون بمطاردة بني إسرائيل، لشعورهم بأنهم ضحايا، وأصحاب حق مباشر. ثم بعد أن نجوا - بمعجزة أخرى - عُذّبوا بالعطش في سيناء، حتى تمرد كثير منهم على موسى، ونادوا بالعودة إلى مصر، ليأكلوا من عدسها وبصلها وفومها وقثائها. ثم وقعوا في الجرم الأكبر، وهو الكفر، عندما اعتزلهم موسى ليخلو إلى ربه على الجبل، فحنّوا من جديد إلى وثنية المصريين، وصنعوا من الحليّ المسروقة من مصر صنماً مماثلاً للعجل «أبيس» معبود الفراعنة!

شعب عنيد غليظ الرقبة!

ونظراً لكثرة الخارجين مع موسى - أكثر من ستمئة ألف رجل قادرين على الحرب وحمل السلاح، غير الصغار والأطفال وكبار السن والنساء - ممّا دعا أكثر الباحثين إلى أن يؤكدوا أن من يسمّون «بني إسرائيل» كانوا أخلاطاً من الناس الذين ما كانوا يملكون شيئاً في مصر، وليسوا من بني إسرائيل، ولا من بقايا الساميين (الهكسوس) الذين كانوا يحكمون مصر عندما عاش فيها يوسف - عليه السلام - هو وأبوه يعقوب وإخوته. ويبدو أن غلبة (الأجانب) في الخارجين مع موسى، كانت السبب الأساسي الذي اقتضى أن يختار من قومه هو سبعين رجلاً يعينونه على إقامة شريعته في هذا الجمهور الهائل من الناس، على اختلاف أصولهم وألوانهم وأعراقهم.

وهكذا يكون الله تعالى قد (فضلهم على العالمين) لسبقهم إلى الإيمان بدعوة موسى، وانتمائهم إليه، وهو وهارون وأختهما مريم - وهي غير مريم العذراء - من بني إسرائيل انتماءً ونسباً، وكذلك السبعين رجلاً الذين عينهم موسى ليكونوا حكّاماً وقادة مسؤولين عن ذلك المعسكر الضخم، غير المنسجم العناصر، وغير المقبول من جميع القبائل التي مرّ بها، حتى إن رحلته تلك استغرقت أربعين عاماً، ولو أمنوا فيها ولم يضطرّوا إلى فرض أنفسهم بالقوة، أو بالانكماش والصبر، لما استغرقت هذه الهجرة أكثر من بضعة أيام. ولعل قرائي الكرام يتذكرون مواقف أخرى عَقَّدَ فيها اليهود على أنفسهم أموراً كان حلها سهلاً لولا من كانوا يقومون في (بني إسرائيل) فيوجهونهم إلى مزيد من الإصرار والعناد، حتى وصفهم كثير من أنبيائهم بأنهم شعب غبيّ؛ غليظ الرقبة، عنيد، يابس الرأس.

واستمر ذلك معهم إلى يومنا هذا، لا يقارعون الحجة بالحجة، ولكن بالنسف والقتل والاغتيال، وأحياناً بالغدر. وقد تعنّ لي فرصة أتحدث فيها عن أحد أدباء اليهود ومفكريهم في العصر الحديث، هو «آشرْ غينزبورغ» المشهور بتوقيعه الأدبي «أحد هاعام» أي «واحد من العامّة». ففي مجموع مقالات بقلمه، نشرها بعد ذلك في كتاب بعنوان «ليس هذا بالطريق الصحيح» يناقش فيه صهيونيه «تيودور هرتْسل» وجعْله احتلال فلسطين لتكون وطناً قومياً لليهودَ هَدَفاً لحركته. فأشار إلى أن اليهود قد عاشوا أكثر أيام تاريخهم خارج فلسطين، وكانت (التوراة والتلمود) هما «الوطن القومي» للأمة اليهودية، ومحور تفكيرها، وقد تعنّ لنا - إن شاء الله - فرصة نعرض فيها التصورات المختلفة لفكرة «الوطن القومي اليهودي» في العصر الحديث، وأشكالها المختلفة، وما اعتراها من اختلاف في التصور وتخبُّط في التنفيذ، مازالت إسرائيل الصهيونية تعاني منه إلى الآن.

أصل «المرّان» ومعناه

أما ما اخترته موضوعا لهذا المقال، فإنه تاريخ فرقة دينية يهودية بقيت في تخليطها وتخبطها حتى بادت، وأصبحت اليوم في خبر كان، شأنها في ذلك شأن غيرها من فرق اليهود. واسم هذه الفرقة «المَرّان» أو «المارانُوس».

ولكن ما أصل هذه التسمية؟

تخبط اليهود - وغيرهم - في تحديد أصل هذا الاسم، ومعناه. فالمعاجم العبرية، ودوائر المعارف الصهيونية إما أن تتناسى هذه الكلمة، وإمّا أن تزعم أنها تسمية إسبانية قديمة معناها «الخنزير». وأوغل بعض لغوييهم في الشرح قائلين إن «مرّان» كلمة دخيلة في المعجم الإسباني، وأن أصلها عربي، مثل آلاف من الألفاظ المحرفة عن اللغة العربية منذ قرون الحضارة الإسلامية في الأندلس، وأن أصلها بالعربية «مُحَرَّم» والخنزير محرم في الشريعة الإسلامية، وتحريف محرم إلى مرّان كثير في الألفاظ العربية الدخيلة في اللغة الإسبانية والبرتغالية في العصور الوسطى. فتكون كلمة «مرّان» ألصقها النصارى الإسبان الكاثوليك بهذه الطائفة من اليهود، التي كانت تخفي - حماية لنفسها من القتل - بتحويل المظاهر الدينية الظاهرة للعيان: من معابد، وملابس، وطقوس شعبية للأعياد، إلى ما يشبه

المظهر المماثل في المجتمع المسيحي، عندما دخلت الدولة العربية الإسلامية في إسبانيا في مرحلة الاحتضار، وصار الأمراء الإقطاعيون الكاثوليك، هم وقساوسة هذا الدين ورهبانه، حكاما في أكثر أقاليم الخلافة الإسلامية، لهم اليد العليا، والقوة الضاربة، والكلمة المطاعة في عامة الإسبان، الذين بقوا على نصرانيتهم، لانشغال المسلمين بالمتاع الدنيوي الذي ألهاهم عن دعوة الناس عامة إلى الإسلام. كل هذا يبدو معقولاً، ولكن.. لماذا لم يطلق الكاثوليك هذا الاسم على المسلمين، وهم الذين فتحوا هذه البلاد باسم الإسلام، وهم الذين سمحوا لليهود بأن يأتوا إليها من كل صوب وحدب، وأن يدعوا لأنفسهم أقوى حركة إحياء للغة والأدب العبري، مع خطوات عملاقة في الطب والصناعة والفنون والكيمياء والفلك والفلسفة، حتى أقيمت في «أليسنّة» - بالقرب من قرطبة - جامعة ومكتبة ومدينة جامعية خاصة باليهود؟ ونصارى إسبانيا كانوا يعلمون تمام العلم أن الخنزير (محرّم) على المسلمين بنص القرآن الكريم، في حين أن تحريمه على اليهود جاء قياساً، لنقص بعض شروط الحلال في الخنزير. لهذا أشعر بصعوبة تأصيل هذه التسمية بردّها إلى اللفظة العربية «محرّم». وقد شاركني في هذا الشعور ما وجدته منقولاً عن يهود آخرين يردّون الكلمة إلى «المرائين» في اللغة العربية، وقال أصحاب هذا الرأي إن «المرّانوس» يبطنون اليهودية ويظهرون النصرانية، فهم (مُراؤون)، ثم صُرفت الكلمة العربية إلى (مرّان). وهذا أيضا مرفوض، لأن اليهود على مدى حكم الدولة الإسلامية في إسبانيا والبرتغال لم يسمّهم أحد بهذا الاسم، فلم يصفهم بالرياء، والاتجاه إلى هذا التخريج في أصل اسم (المرانوس) غير مريح، لأنه غير مقنع. وفي رأي بعض الباحثين أن هذه التسمية عبرية أصيلة. ففي اللغة العبرية لفظة «أنُوس» تعني الإنسان المُكْرَه على ترك دينه. فصاغ منها أتباع هذه الطائفة اسما لهم يتقدمه لقب «مار» أي «السيد»، فيصير «مارانوس» وتعني السيد، أو الحرّ، الذي أكره على إخفاء عبادته. وإذا كانت سطوة الكاثوليك لم تتوافر لهم في الأندلس إلا في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي، فإن الاشتقاق العبري للاسم (مارانوس)، بما فيه من تلاعب بالألفاظ، يلائم تمام الملاءمة فزع اليهود الذين وجدوا أنفسهم بلا حماية، أمام «محاكم التفتيش» النصرانية الرهيبة، ولعل أحد نصارى الإسبان سمع لفظة (مارانوس) فانطبق معناها في ذهنه على الخنزير. فالمارانوس هو يهودي أكره على إخفاء دينه (اشتقاق عبري صرف) وهو (منافق) في هذا العمل، فهو مرّانوس التي تعني (الخنزير) لأنه (مُحرّم).

المعاجم العبرية، ودوائر المعارف الصهيونية إما أن تتناسى كلمة «المرّان»، وإما أن تزعم أنها تسمية إسبانية قديمة معناها «الخنزير». كما زعم بعض لغوييهم أن أصلها عربي!

وفي كل تلك الأحوال فالمسلمون أبرياء من تسمية أولئك اليهود بهذا الاسم، فإن التنابز بالألقاب في هذا الموقف محصور تماماً بين اليهود والنصارى، ولم يرد استعمال هذه التسمية في أي نص من النصوص الإسلامية على مدى تاريخ المسلمين في إسبانيا. ويبدو لنا أن السرعة التي تم بها انهيار الدولة الإسلامية في الأندلس، والفوضى التي واكبت عودة الأمراء الكاثوليك إلى مراكز القوة في أقاليم كثيرة من إسبانيا، مثل أراغون أو قشتالة أو سرقسطة أو برشلونة وحتى إشبيلية وغيرها من المراكز الإسلامية، آلت فيها الغلبة إلى الكاثوليك، يضاف إلى هذا أن (الطاعون الأسود) الذي اجتاح شمال أوروبا وشرقها لم يقف عند حدود غرب القارة وجنوبها، بل تفشى في شعوبها أيضا، مما أشاع فيهم الرعب من المجهول، وتصديق كل الخرافات التي كان يسكبها في آذانهم الرهبان والوعاظ والسحرة، مطالبين الناس بمطالب عقائدية تعصبية، وتضحيات مادية باهظة لا علاقة لها ببذل أدنى جهد في مكافحة الوباء. فإذا أضفنا إلى ذلك أن التنافس بين الأمراء الكاثوليك المنتصرين على المسلمين قد أحدث بين بعضهم بعضاً جواً من التآمر وعدم الثقة، بحيث كانوا جميعاً يكرهون المسلمين، ويحقدون عليهم وعلى من أخلص في خدمتهم كاليهود، ويخافون من سطوة الكنيسة - الحاقدة بدورها على المسلمين - بعد هزائمها المنكرة، والنهائية، في الحروب الصليبية، ثم قيام المغول والترك والسلاجقة في الشرق بالقضاء على الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى، ودخول السلطان محمد الثاني (الفاتح) من غزاة العثمانيين إلى القسطنطينية (استنبول) عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، واتخاذها جسراً لعبور الإسلام إلى أوربا من الشرق، بعد أن فتكت به هذه القارة من الغرب! (كل هذا، وكانت أمريكا مجهولة، لم يتم كشفها بعد). أما الحضارة الإسلامية فإنها، بوصولها إلى البلقان وجنوب شرق أوروبا، قد تهيأ لها أن تلتحم بالشعوب الإسلامية في غرب آسيا وجنوبها، وهي شعوب ودول سبقت إلى الإسلام، بعضها في عهد عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين، وبعضها في عهد بني أمية وبني العباس حتى امتدت فشملت معظم جنوب آسيا وقلبها، وملأت الشعوب الإسلامية البقاع من المحيط الأطلسي غربا إلى المحيط الهندي جنوباً إلى المحيط الهادئ شرقًا بجزائره في إندونيسيا وماليزيا وأقاليم واسعة من جزر الفلبين.

التلمود عندهم يعلو على التوراة!

كل هذا حتى يشعر القارئ الكريم بأن اليهود قد ضيّقوا على أنفسهم عندما حوّلوا دين موسى - عليه السلام - من العالمية إلى عصبية قومية مناقبية، اضطرتهم، على طول تاريخهم، إلى أن تمتد أيديهم إلى جوهر هذا الدين السماوي العظيم بالنقص والزيادة والتحريف والتأويل والتغيير والتبديل لتكون هذه كلها أسواراً تمنع الناس من الدخول فيه أفواجا، مع أنها لم تمنع تسرّب العناصر الغريبة إليه! ثم لما ظهرت تراجم لكتابهم إلى لغات أمم أخرى، كالآرامية والسريانية واليونانية واللاتينية والقبطية والحبشية، تأكد لليهود أن أسرار كتابهم «العهد القديم» قد شاعت وذاعت، وأصبح في مقدور الناس جميعاً أن يناقشوهم فيها، ويعارضوهم ويدحضوا حُجتهم. فكان لابّد لليهود من كتاب (سرّي) بديل، فبدؤوا يكتبون التلمود بعد موسى بنحو ألفي سنة، بلغة آرامية ذات أسلوب صعب، ولهجة خاصة في التعبير، واحتمالات غير نهائية في الشرح والتفسير، حتى جاء بطوله يعادل توراة موسى - أو المنسوبة إليه - بأجزائها الخمسة: التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية، نحو خمسين مرة، وجعلوه ركنا من أركان الإيمان اليهودي له أهمية التوراة، بل أكثر، وسموه (التوراة الشفهية)؛ أي المروية عن موسى والمنسوبة إليه، وأنها (أوحيت) إليه لتعليم الصفوة المختارة من بني إسرائيل! وليس هناك أدنى دليل - عقلي أو نقلي - على إمكان ذلك، فضلا عن صحته وجدارته بالثقة، حتى إن شيوخهم يحكمون بالكفر على من يشك فيه، وقد سبق شرح ذلك في مقال لنا في عدد سابق من مجلتكم (الفيصل) الغرّاء عن «اليهود القرّائين». وإذا كانت طائفة اليهود القرائين قد بقيت على قيد الحياة إلى الآن، فذلك لأن مؤسسها «عنان بن داود» قد أظهر دعوته إلى إبطال التلمود في ظل الخلافة العباسية، وفي أوج حضارتها وقوتها. أما «اليهود المرّان» فقد ظهرت دعوتهم في إبان النكبة الإسلامية في الأندلس، كما أنها كانت دعوة إلى (حلّ مريح) للجميع! وكانت النتيجة أن هذا الحلّ أغضب الجميع.

الرابطة العنصرية أهم عند اليهود من التوحيد!

لكن.. إذا كان اليهود المرّان قد انقرضوا الآن، فما الداعي إلى الحديث عنهم؟ للإجابة عن هذا التساؤل نشير - على سبيل المثال - إلى أن أية حركة

من التخبط اليهودي:
اليهود المرّان!

مهمة تظهر في أي دين من الأديان، تترك للأجيال التالية ما أثارته - في زمنها - من تساؤلات. ففي أمتنا الإسلامية انقرض أتباع «المعتزلة»، ومع ذلك فإن الكثير من كتبهم مازال مقروءاً إلى الآن. فتفسير القرآن الكريم «الكشّاف» للزمخشري - وهو معتزل من أئمتهم - ما يزال في أيدي المسلمين على تعدد مذاهبهم، يرجعون إليه حتى الآن، وكذلك القاضي المعتزلي عبد الجبار بن أحمد (ت:415هـ) بقي كتابه «تنزيه القرآن عن المطاعن» مرجعاً لجميع الباحثين في القرآن الكريم. فهذا مسوغ لمن أراد أن يتعمق تطور المجتمع اليهودي؛ فلا يهمل مذهباً أو حركة أو اتجاها من دون بحث أو تمحيص، خصوصاً في الدين اليهودي، الذي ظل أتباعه يغيرون فيه ويبدلون حتى كادت صلته بين ما وصل إليه الآن وبين الرسول الكريم الذي بلغه عن الله تعالى إلى بني إسرائيل تختفي تماماً تحت ما تسرّب إليه، عبر ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة، من رواسب كثيفة. حتى سيرة موسى، لولا ما كتبه رواة التوراة عن حياته، وجاء أوثقه في القرآن الكريم، لما عرف الناس من هو موسى، ولا في أي عصر كان؟ ولم يرد أي ذكر لأسماء الفراعنة الذين حكموا مصر في أيامه، وقد توفي بعد أن عاش مئة وعشرين عاماً. وعرفنا من سيرته أنه ولد في عهد ملك طاغية يكره اليهود، ويسومهم نير العبودية، بل يأمر بقتل المواليد الذكور، واستحياء الإناث ليصبحن (جواري) في بيوت المصريين. فإذا كان هذا قد استمر قرابة قرن من الزمان، وبيوت المصريين ملأى من (جواري بني إسرائيل) وذريتهن - من المصريين - فإننا - في تلك الحالة - نميل إلى القول بأن «شعب الله المختار» ليس باليهود كلهم، ولا بعضهم، ولكنهم الذين خرجوا مع موسى وهارون وأختهما مريم، وحتى هؤلاء لم يكن أكثرهم من بني إسرائيل ولا من المؤمنين بالتوراة، وإلاّ لما صنعوا لأنفسهم صنما من ذهب، وعبدوه، وموسى بالقرب منهم، فوق الجبل، يتلقى الشريعة من ربه، وأخوه هارون باق معهم نيابة عن موسى، ثم يأتي غضب موسى من كفر الجمهور الذي سار وراءه، فإذا به يختار جماعة من عشيرته الأقربين «سبعين رجلاً» للسهر على إقامة الشريعة في أولئك العصاة. فإذا كان موسى - عليه السلام - قد انتقاهم واصطفاهم، فإنهم وحدهم - دون غيرهم - شعب الله المختار! ومن قال بالدعوة العنصرية اليهودية فقد وقع في خلط خطير، ولو أخذنا بمنطق عوامّ اليهود، من أنّ اليهودي هو من كانت «أمه» يهودية - وهو نص قانون الجنسية الصهيوني في دولة إسرائيل - لجاز لنا، انطلاقا من (جواري) بني إسرائيل في العهد الفرعوني أن نلحق معظم المصريين ببني إسرائيل، إلاّ من طرأ على مصر بعد تلك الأزمان.

والخلاصة أن اليهود أقاموا دينهم على دعامتين: إحداهما توحيد الآلهة، وثانيتهما الرابطة العنصرية التي تجمعهم، وهذه الدعامة الثانية - تاريخيًا وعاطفيًا وعمليا - أهم من الأولى، ولم يستثن اليهود من ارتدّ منهم عن عبادة الله بنفس التأكيد والحسم إلا في حالة واحدة وهي أن ينفصل (قوميًا) عن اليهود، وأن يحاربهم، ويحالف أعداءهم ضدّهم، ومن أمثلة ذلك اليهود القرّاؤون في العصر العباسي، وهم باقون حتى اليوم، وإن كانت الصهيونية قد أضعفتهم، ثم نقلت أكثرهم - رغم أنفهم - إلى إسرائيل ليكونوا هناك (رهائن) وعبرة لكل يهودي قرائي يعيش في الخارج وتحدثه نفسه أن (يتوسع) في كشف الخبث الصهيوني.

اضطهاد اليهود يبدأ من الفاتيكان!

أما اليهود المرّان فإنهم لم يكفروا بالتوراة، ولا بموسى، ولا بالتلمود، ولا بالوحدانية، ولا بالعبادات والشعائر والطقوس، وكل ما صنعوه - حماية لأنفسهم وأرواحهم وأموالهم وأهليهم - أنهم غيروا المظهر الخارجي فقط، وما يقتضيه ذلك من تعديل طفيف في التوقيت، حتى تتقارب مواعيد الأعياد، مع بعض التساهل في الملابس التقليدية اليهودية بأشكالها وألوانها الخاصة المميّزة، مع أن معظمها قد فرضه أعداء اليهود عليهم، في عصور الشتات والاضطهاد!

يرجع بدء اضطهاد النصارى الكاثوليك لليهود في إسبانيا إلى رسالة جاءت من الفاتيكان (مقر البابوية في روما) إلى «ألفونس الثامن» ملك قشتالة، الذي امتد سلطانه فشمل قطلونية وبرشلونة، يلومه فيها البابا «إنوسنت الثالث» على تسامحه مع اليهود، وكان ذلك عام 1205م. وفي عام 1212م دخل ملك أراغون وقشتالة في حرب ضد المسلمين، انتهت بهزيمة المسلمين في وادي «طرطوشة». وفي هذه الحرب انطلق الكاثوليك من بلاد بعيدة متطوعين لمساعدة إخوانهم (الصليبيين) - كما يسميهم مؤرخو اليهود - ضد المسلمين. وفي طريقهم إلى المعركة كانوا إذا مرّوا بأرض يسكنها يهود عاثوا فيها فسادا، واعتدوا على أهلها، اعتمادا على فتوى تحضّهم على ذلك، أصدرها «أرنولد» رئيس أساقفة طليطلة، عملاً بتوجيهات الفاتيكان. وكان عدد اليهود كبيرا في الأندلس، يكثر فيهم المشتغلون بالزراعة وتربية الماشية، والمشتغلون بنسج الأقمشة وصباغتها، والعاملون في المعادن لإنتاج الأسلحة أو في الذهب والفضة والجواهر لإنتاج المصوغات والحليّ. وكان العاملون في صياغة المعادن النفيسة من الكثرة في الأندلس لدرجة أن البابا «بندكت الثالث عشر» أصدر مرسومًا بابويًا عام 1145م يحرّم على النصارى الالتجاء إلى اليهود في صناعة الصُلبان، أو آنية القداس، أو أية أجهزة تدخل في الشعائر النصرانية، وأحسّ اليهود بأن الهوّة بينهم وبين النصارى تتسع شيئًا فشيئًا، فتجمعوا في ما يشبه النقابات، وزاد تقرّبهم إلى العرب المسلمين، فكانت الكنيسة إذا حرّمت على النصراني أن يعمل أجيرا عند بعض كبار الملاك الزراعيين اليهود، حلّ العامل الزراعي المسلم محلهم في الحال. ثم بدأت موارد الرزق تضيق من حولهم، وتزداد كل يوم ضيقًا مع غلبة النصارى، فاشتغل كثير من أولئك اليهود بالتجارة الخارجية، في الحبوب، والزيوت، والزعفران، والخمر، والكتان، والصوف والماشية، مما اضطرهم إلى مغادرة مواطنهم؛ إما إلى شمال إسبانيا وشرقها (فرنسا وإيطاليا والبلقان)، وإما إلى جنوبها (جزر ميورقة ومنورقة، والشمال الإفريقي المغاربي، وحتى مصر وبلاد الشام وتركيا)، مع الجزائر الكثيرة في البحر المتوسط. وهكذا بدأ «اليهودي العالمي» ليس من بولندة وروسيا وألمانيا، بل من الإمبراطورية الإسلامية، وما كانت تضمه من أقطار شاسعة، وأقاليم غنية، وفرص مشجعة، ونظم سياسية واجتماعية مناسبة.

المسلمون يغرسون الأمن والنصارى يجتثونه!

ومن القرن الثاني عشر الميلادي إلى أواسط القرن الخامس عشر، كانت النصرانية مشغولة بمحو ما كان غرسه الإسلام من أمن وحرية في الناس، على اختلاف أصولهم ولغاتهم وأديانهم، وكان لابد من عملية (تطهير) شاملة وجذرية لصالح الكاثوليك. فليس عجيبًا أن يتزعم راهب إسباني هو الأب «توركو يمادا» تنظيم (محاكم التفتيش) على نحو يُنزل جهنّم على الأرض! المسلمون من العرب والبربر، واليهود من كل مذهب، والنصارى المتحرّرون - علميًا وحضاريًا - كل هؤلاء يستتابون بالتعذيب بالسياط والتجويع والكيّ بالنار، فإن لم يتوبوا أُخذت كتبهم وملابسهم وأوراقهم وأمتعة بيوتهم وصُنعت منها كومة حول حزمة من الحطب، أو جزع نخلة أو شجرة يُربط فيه

الرابطة العنصرية التي تجمع اليهود أهم عندهم - تاريخيا وعاطفيا وعمليا - من التوحيد. وعلاقة اليهود التلموديين باليهود القرائين خير مثال على ذلك!

الذي صدر بحقه «حكم الحرمان»، ثم يقوم الرهبان - وهم ملثمون لا يعرف أحد مَن هم - بإشعال النار في الكومة كلها، إلى أن تتحول الكومة إلى رماد هي والإنسان الواقف عليها في قيوده وأصفاده! وليس غريبًا أن يظهر إسباني آخر في أوائل القرن الخامس عشر فيتصور أن حياة الرهبان في أديرتهم يجب أن تخضع لتنظيم عسكري دقيق، وأن يشتغلوا بتربية النشء تربية خاصة، أساسها الوصول إلى الصدارة في المجتمع، واختيار المساعدين والأتباع والأعوان ممن هم على هذا المستوى نفسه من (الالتزام) وبذل أقصى الجهد في (تنصير) غير النصارى من التلاميذ، والأساتذة أيضا إذا اضطرتهم الضرورة إلى استخدام غير النصارى، وسميّ هذا الراهب جماعته هذه باسم «كتيبة يسوع»، وعيّن لكل جماعة في الإقليم الذي تعمل فيه قائدًا عامًا هو راهب يسوعي يحمل لقب (جنرال). وكان المؤسس لهذا النظام الذي أصبح قدوة تحذو حذوها أنظمة أخرى في الأديان الأخرى، أو في الأحزاب السياسية، أو فيهما معًا، كما هي الحال في الصهيونية في فلسطين. واسم الراهب المؤسس لنظام الرهبانية النصرانية المتشددة المسماة «كتيبة يسوع» هو القديس «إغناطيوس دي لُويُولا» المولود في إسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر.

خبز معجون بدم البشر!!

وفي عام 1468م مات ملك قشتالة «كاستيًّا» فخلفته الأميرة «إيزابلاّ»، وكان أحد أبناء عمومتها «فرديناند» أميرًا على أراغون، وهي الإمارة القوية الغنيّة في شرق الأندلس. وبدأ عداء الكاثوليك لليهود يتبلور، ويزداد ضخامة وصلابة، إلى أن حدثت تهمة خطف ولد كاثوليكي صغير، وقتله، وإدخال دمه في خبز عيد الفصح عند اليهود، وهو عيد سنوي يقع في التقويم اليهودي مع بداية فصل الربيع، احتفالاً بنجاة موسى (وبني إسرائيل) من فرعون. ويحرم على اليهود في أسبوع الفصح هذا وضع الخميرة في العجين، تعبيرًا عن العجلة التي أحدثها الفزع من فرعون، وأنهم كانوا يعجنون الدقيق بالماء بلا ملح ولا خميرة، وينضجونه على الجمر بسرعة، ثم يأكلونه مع لحم الغنم المشوي، والمُرار (وهو نبات تلقائي ينبت في الصحراوات من فصيلة الهندباء). ولهم تفاصيل ودقائق حتى في شكل الجلوس إلى مائدة الفصح، وذكر قصة موسى وعبور البحر: بنصها في التوراة للولد المتعلّم، ومبسّطة للذي لم ينل قسطًا كافيًا من النضج والتعليم، ومختصرة شائقة للطفل الذي لم يبلغ سنّ الذهاب إلى المدرسة. وانتشرت الإشاعات حول خلط اليهود خبز الفصح بدم إنسان، غير يهودي، ذكر، متزوج ولا أولاد له. وكان هذا الخبز العجيب الخاص باليهود في عيدهم هذا مثارًا لمشكلات كثيرة ومتكررة مع الأمم التي يعيشون بين ظهرانيها، فإذا اختفى فيها بعض أولادها، اتّجهت أصابع الاتهام إلى اليهود. بل كان أكثر الناس من غير اليهود يحبسون أولادهم في أيام عيد الفصح اليهودي خوفًا عليهم من الخطف والذبح، وكان اليهود يتبرؤون منها ويسمونها (فرية الدم). أما غيرهم فكانوا يسمونها (جريمة الدم البشري اليهودي)! ومع أن الدم - الحيواني فضلاً عن الآدمي - منصوص على نجاسته في التوراة، فإن انتشار الجهل ورواج الخرافات والاستسلام للمنجمين والسحرة والمشعوذين وإخوان الجن والشياطين من البشر، كانوا - ومازالوا - قادرين على غرس معتقدات وحشية، في ضعاف النفوس من جميع الملل والأديان. والظاهر أن انزلاق بعض ضعاف العقول في تلك المحرّمات كان قد بدا في الإنسان منذ أقدم العصور، ومع ذلك فمازال «القتل الجماعي» من الطقوس التي يتقرب بها الحمقى والذين في قلوبهم مرض إلى الله! رأينا ذلك في زماننا في قتل الصرب للمسلمين، وفي قتل المتطرفين المسلمين لمن لا يشاركونهم الرأي، حتى لو كانوا من المسلمين، وقتل اليهود اليومي للمسلمين والنصارى في الجنوب اللبناني، وفي فلسطين. وقد أشرت إلى وجود بدعة الدم البشري بين اليهود، عند الحديث عن الفرق الدينية المتطرّفة عند اليهود، في كتاب لي تكرر نشره مرارًا بعنوان «الفكر الديني اليهودي، أطواره، ومذاهبه» مما أغضب المستشرق الأمريكي اليهودي المتخصص بالتاريخ الإسلامي الأستاذ برنارد لويس، فأنكر عليّ إشارة إلى جريمة الدم رجعت فيها إلى الملف الرسمي بالتحقيق في قضية اختفاء الراهب الكاثوليكي الفرنسي «توما»، رئيس دير الفرنسيسكان بدمشق في أثناء عيد الفصح اليهودي لعام 1840م، ثم اختفاء بستاني الدير المسلم واسمه «عمارة»، والعثور على بقايا من جثتيهما في «خارة» بحارة اليهود في دمشق. ولم أجد في تشكيك هذا المستشرق ما يستحق الردّ، وحسبت أنه لم يفهم ما أقول - على وضوح لغتي العربية - أو أن الأمر نقل إليه مشوَّهًا. ويكفي أن أشير هنا إلى أنه عند ظهور الطبعة الأولى لهذا الكتاب - على نفقة المعهد العالي للدراسات العربية، التابع لجامعة الدول العربية - حصلت صحيفة «ها آرتس» الصهيونية على نسخة منه، ونشرت مقالاً طويلاً تشهد فيه أن كل ما جاء عن الفكر الديني اليهودي في هذا الكتاب صحيح، لا يتطرق إليه الشك، ماعدا قولي في المقدمة: إن من واجب كل عربي أن يعرف عدوه بدقة. وقال هذا الصحفي المتفائل: إننا لن نظل دائمًا أعداء. وقد مضى على هذه الطبعة من كتابي أكثر من عشرين عامًا، ومازلنا أعداء، والله المستعان! ولو رجع البروفيسور برنارد لويس إلى هذا المقال، لراجع نفسه في اتهامي في الأخذ بالقول الباطل دون تمحيص، مع أنني ذكرت في مراجع كتابي هذا مرجعًا فرنسيًا مفصّلاً عن «جريمة الدم الدينية عند اليهود»، كما أشرت إلى موقف المحقق في نقاشه مع رؤساء الطائفة اليهودية في دمشق، وكان هذا المحقق هو «القنصل الفرنسي بدمشق».

ومعذرة لأصدقائي القُرّاء في هذه الوقفة الاستطرادية، فهي حادثة مماثلة لما حدث في الأندلس منذ خمسمئة سنة، وأهمية حادثة دمشق أنها (بحدوثها عام 1840م) تجدد تاريخ الحركة الصهيونية، التي كان القلب اليهودي يهفو إليها قبل هرتسل بنصف قرن من الزمان، وقبل قيام دولة الصهيونية في فلسطين بقرن كامل أو يزيد. وفي هذا الموضوع نشر الكاتب الصهيوني «ميخائيل آساف»، الذي كان رئيس تحرير جريدة «حقيقة الأمر» باللغة العربية كتابًا عن الصهيونية عنوانه «مئة عام من تاريخ اليهود»، وكان ذلك عام 1940م، وقال إن هذه الأعوام المئة كانت بدايتها «فرية الدم في دمشق»!

استباحة دم اليهود المُرّان في إسبانيا

وفي الأندلس، في سنة 1468م، وفي أسبوع الفصح بالتحديد انطلقت إشاعة اختفاء طفل كاثوليكي، وأن اليهود خطفوه وصلبوه بأمر الحاخام «سالومون بيشو»! حدث هذا - كما ادّعى النصارى - في بلدة إسبانية صغيرة اسمها «سيبولفادا» تابعة لأسقفية «سيغوفي». وأخذ الأسقف «خوان أرياس دافيلا» علمًا بالموضوع. ويذكر المؤرخون اليهود لهذه الحادثة أن هذا الأسقف كان أبوه «ديغو» من المعتنقين الجدد للنصرانية. فأمر بالقبض على عدد من اليهود، وإحراق جانب منهم وشنق الباقين. وتم تنفيذ ذلك عام 1471م. ويقول الذين كتبوا في هذه الفتن من اليهود: إن ولدًا يهوديًا صغيرًا عُفي عنه في محكمة التفتيش بشرط أن يعتنق الدين المسيحي، فألحق بأحد الأديرة ليتعلم دينه الجديد، لكنه هرب من الدير واختفى. وكثرت الإشاعات في ذاك الوقت، وصبّ النصارى جام غضبهم على اليهود، فقتلوا منهم عددًا كبيرًا، وهام الباقي على وجوههم يلتمسون النجاة بالفرار من البلاد، أو اللحاق بالمرّان، هذه الفرقة اليهودية التي تخفي يهوديتها وراء

الأمر الذي أصدره البابا بأحقية ملوك إسبانيا في إنشاء محاكم التفتيش هو سُبّة ويوم أسود في تاريخ الإنسانية كلها. وهو ما دعا بعض المصلحين النصارى إلى التمرد على البابوية الكاثوليكية!

من التخبط اليهودي: اليهود المرَّان!

بعض المظاهر النصرانية. وانكشف أمر «المرّان» بسرعة، وكان استتارهم تحت مظهر نصراني مؤكداً عند أعداء اليهود أن أولئك المختفين المتنكّرين هم أشد اليهود خطراً على النصرانية، لأنهم منافقون متآمرون. وتكونت في قرطبة جماعة (الإخوان النصارى) برئاسة أسقف المدينة «بدْرُو». وكان من أهمّ أهدافها مطاردة المعتنقين الجددَ للنصرانية. ويقول ماكْس مرغوليس وإسكندر ماركس في كتابهما «تاريخ الأمة اليهودية»: إن الإخوان النصارى كانوا يسيرون في قرطبة في موكب حافل في شهر مارس/آذار سنة 1473م لمباركة هذه الجماعة. وفجأة صبّت بنت صغيرة من شباك أحد المنازل إناء من الماء القذر الذي لطخ الموكب، ودنّس تمثال السيدة مريم العذراء أمّ المسيح! وفوراً انبرى العامة للتنكيل باليهود. ولمواجهة هذه الاضطرابات أرسلت فرقة من الجند بقيادة «ألونْزُو فِرْنانديز دي أُغْويلار»، وكانت زوجة هذا الأخير - زعموا - من طائفة المرّان الأثرياء. فثارت العامة، وأخذت أسلحتها، وصار الهدف: القضاء على المرّان. واستمّر القتل، وإحراق المنازل، وما صاحب ذلك من سلب ونهب وفوضى، ثلاثة أيام. ثم انتشر الاعتداء على هذه الطائفة في نواحٍ كثيرة من إسبانيا. ففي «سيغوفي» بدأ زحف العامة على المرّان، فحاول «خوان» أحد رؤساء الشرطة في البلدة منع الناس من القتل والتخريب، فتكاثروا عليه، حتى دخل كنيسة ليحتمي بها، فطارده العامة واغتالوه في داخل الكنيسة! وكان ذلك عام 1474م، وبعد ذلك امتلأت شوارع البلدة بجثث القتلى، ولم ينته الشغَب إلاّ بتوسط القاضي «أنطونيو دا كابريرا».

محاكم التفتيش:

القتل والحرق بأمر البابا وسلطة الملكة!

ولولا ضرورة الاختصار، لأشرت إلى أنه لولا العامل الاقتصادي، وما وصل اليهود بفضله إلى الثروات الطائلة التي أتاحها لهم المسلمون، لما وصل حقد النصارى على اليهود إلى هذه الدرجة من العنف. ووصل الأمر إلى ذروته بعد زواج إيزابيلا - وهي بعد أميرة قشتالة - بابن عمها فرديناند ملك أراغون. وكانت حاشية هذا الملك تتضمن عدداً كبيراً من اليهود المرّان، لكنه - بناء علي طلب إيزابيلا - أقصاهم جميعًا. ثم راح الأمير يضيّق على اليهود الإسبان، إذ تولى زعامة الكنيسة الكاثوليكية في إسبانيا جمع من الرهبان المتشدّدين، وعلى رأسهم ألفونسو دي هوخيدا رئيس دير الدومينيكان في إشبيلية، والراهب الدومينيكاني تُوركو يمادا، الذي كان مشرفًا على تديّن إيزابيلا وهي بعد أميرة صغيرة. ثم إن البابا (سيكست الرابع) عين الكردينال نيكولو فرنكو سفيراً له في إسبانيا، مع تزويده وكالة تبيحُ له الإشراف على محاكم التفتيش. ولكن ملكة إسبانيا إيزابيلا وزوجها فرديناند طلبا من البابا أن يكون حقّ أعمال محاكم التفتيش موكولاً إلى ملوك إسبانيا.

فأصدر البابا عام 1478م أمراً كنسيًا بابويًا بحق إيزابيلا وفرديناند في تشكيل محاكم التفتيش، وتعيين قضاتها، بالقرار المؤرخ في أول تشرين الثاني/نوفمبر 1478م، وهو يوم أسود في تاريخ الإنسانية كلّها - وخصوصاً في تاريخ النصرانية الكاثوليكية -. وهو من أهم الأسباب التي دعت الراهب الألماني الكاثوليكي مارتين لُوثر إلى الخروج عن البابوية الكاثوليكية وتأسيس المذهب البروتسنتي، وانتشاره بمختلف صوره ومذاهبه، يزاحم الأرثوذكسية والكاثوليكية - وأحيانًا اليهودية والإسلام وغيرهما من الديانات - في جميع قارات العالم! وصدر أول مرسوم إسباني بتعيين أول قضاة لمحكمة تفتيش نصرانية كاثوليكية، وتتكون من الراهب الدومينيكاني ميجل دي موريّو، والراهب الدومينيكاني خُوان دي سان مرْتينُو، يعاونهما خوان رويز دي مدينا ومعه دييغو مرلّو. وكانت أول محكمة تفتيش في إسبانيا تنعقد في إشبيلية.

أما عوامّ الناس فرحبوا بمحكمة التفتيش، وأما النبلاء والأثرياء فكان موقفهم منها موقف خوف وحذر، خصوصاً عندما تبيّن بوضوح أنها تنعقد أساساً للتنكيل باليهود - وبالمسلمين أيضاً - وقتلهم، ومصادرة أموالهم، لأن الطبقة العليا من المجتمع كانت تلجأ إلى اليهود - وإلى المرّان على الخصوص - لإمدادها بالقروض التي تحتاج إليها. ولسوء حظ إسبانيا والنصرانية، أن بدأت مؤامرة يهودية ضد محاكم التفتيش، لكن أمرها افتضح في الوقت المناسب - للرهبان القضاة، وليس لعباد اللّه جميعًا - فجرت عقوبات وأعمال انتقام وإرهاب شنيعة، حتى قُدّر عدد الذين فرّوا من إشبيلية وقرطبة وطليطلة - من المرّان وحدهم - بثمانية آلاف ذهبوا إلى قديشة، علّهم يجدون مخرجًا لترك إسبانيا كلّها.

وفي السادس من فبراير/ شباط عام 1481م تم تنفيذ أول حكم بالإحراق في إشبيلية، راح ضحيته اثنا عشر إنسانًا، ستة رجال، وستة نساء. وبعد تنفيذ هذا الحكم الأول يبدو أن المحكمة تشاءمت بسبب موت ألفونسو دي هوخيدا بالطاعون، ثم عادت المحكمة الرهيبة أشد قسوة، في أول نوفمبر/ تشرين الثاني من السنة نفسها، وكان المعذّبون فيها من المرّان، قرابة ثلاثمئة أُحرقوا بالنار، ونحو ثمانين حُكم عليهم بالسجن مدى الحياة، مع مصادرة أملاك الجميع وضمّها إلى ممتلكات التاج. والمتهم الهارب من هذه المحكمة يصدر عليه حكم بالإحراق، وتحرق في مكانه دمية بديلة. أما الذين يموتون في الحبس، أو في أثناء التحقيق معهم، فإن هذه المحكمة تعدّهم من المرتدين، وتستخرج جثثهم من قبورها، وتقوم بإحراقها حسب الأصول!

اليهود المرّان: منافقون حتى النخاع!

واخترعت محاكم التفتيش قواعد لكشف «المتهوّدين»، منها: لبس الملابس النظيفة يوم السبت، ومنها الذهاب بعيدا لشراء اللحم من تاجر يهودي، لأنه لا يبيع لحم الخنزير، وشراء نبيذ الطقوس الدينية من اليهودي، لأن الخمر التي يصنعها الخمّار النصراني «حرام» في العبادة، وكذلك لو لوحظ أنه لا يوقد ناراً يوم السبت، ولا يقبض ولا يعطي نقوداً في ذلك اليوم، أو يسافر من بلد إلى بلد، أويعبُر قنطرة. وكل نصراني يطبق شعيرة خاصة باليهود - ولو سراً - يُعدّ من المرتدين، وعلى ذلك حقّ القول على المرّان، وانتهى أمرهم من إسبانيا والبرتغال، بل من العالم كله. وانتقلت محكمة التفتيش عام 1485م إلى طليطلة، وكان ذلك في شهر مايو/ آيار.

أما الشيء الذي صدق فيه الكاثوليك في حق المرّان، فهو وصفهم بأنهم منافقون، لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، وهذا هو الذي جرّ عليهم الانقراض، لأن اتّجاههم لم يكن إلا سوء تصرف منهم، وحركة خاسرة لا تقوم على قاعدة فكرية راسخة، كاليهود الإصلاحيين، ولا على مبدأ انفصال عن الدين التقليدي بإنكار قدسية التلمود، كاليهود القرائين، ولا بمحاولة التقرب من الحضارات الغالبة على العصر والتعاون معها، والاستعانة بها، والخضوع لها، كالصهيونية، ولا بالمحافظة والصمود وراء متاريس الشريعة والتراث، وتحريم كل مستحدث لم يجد اليهودي آباءه يتبعونه، مثل المهاويس الدينيين اليهود بملابسهم الكرنفالية، والتزامهم (اليديش) لغة الآباء والأجداد، ورفضهم العبرية الصهيونية، وهم - في ذلك - على حق لقبحها، مع حسن أدائها لما تؤديه من المعاني.

ولو أن المرّان اخترعوا خرافة، كالتي جاء بها بعدهم - في تركيا الإسلامية العثمانية - المهرّج اليهودي «شبتاي صبى» بادّعائه أنه «المسيح المنتظر» المخلّص لبني إسرائيل، ثم ادّعى الإسلام، وكان يخفي وراء ذلك خطة لسلخ فلسطين عن الحكم التركي لصالح اليهود، فآمن به جماعة من يهود الشرق الأوسط يظهرون الإسلام ويبطنون «الصهيونية»، الأمر الذي أطال بقاءهم، وجعل منهم «فرقة يهودية منشقة» سماها الأتراك «دونمه»، أي «المنافقون» أيضاً. وقد سبق لي مقال في «الفيصل» في التعريف بهم.

ولعلّي أجد القدرة - إن شاء اللّه - على أن أطرق تاريخ اتصال اليهود بالحضارة الإسلامية، وبصمات هذه الحضارة على الصهيونية المعاصرة. لكن أحب - قبل هذا - أن أعود إلى تاريخ «التقوقع اليهودي»، وما أثاره - في أماكن مختلفة من العالم المعاصر، في الشرق والغرب - من مشكلات تزداد مع الزمن تعقيداً.

أقوال الماضي للحاضر

الألغاز وفهمها


د. عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

الألغاز محك الأفكار، وحلها دليل صفاء العقل، ونباهة الذهن؛ ومن يصوغها لا بد أن يكون متميزاً في تفكيره، بارعا في صياغة أفكاره، قادراً على قول شيء له ظاهر، وله باطن، يتراوح التفكير بينهما، ويضيع في الصحراء التي تفصلهما.

والذي يفك الألغاز لا بد له من الذكاء المفرط، والمعرفة المغرقة، واللمحة السريعة، والنباهة الفائقة، والتجربة العميقة: التجربة عموماً، والتجربة خاصة في اللغز الملقى، ومعرفة عقل من ألقاه، ومجرى تفكيره.

والعرب، مثل بعض الأمم، برعوا في الألغاز، وتمرنوا عليها، وأداموا ممارستها، لا لهواً ولا لعباً، ولكنها تفيدهم في مواقف حرجة، ومضايق خانقة، وقد نفعت أناساً كثيرين، دُوِّنت أخبارهم في كتب التاريخ والأدب، فكان فيها ما يدهش ويعجب.

وهناك مواقف مهلكة لم ينقذ منها إلا الألغاز. ومن الألغاز ما هو مغرق في التعمية، حتى لا يظن الإنسان الساذج أن في الأمر لغزاً، لإحكام فتل حبال اللغز، وشدة حبكه، بحيث يوهم غير المقصود، ويبقى المقصود حصناً مُؤمَّناً، لا يعرف مدخله إلا من أوتي حكمة وعقلاً.

واللغز الذي سوف نسوقه فيه شيء من هذا، فقد أتقنه قائله، ولكنه وقع على باقعة حَلَّهُ وفك طلاسمه، بسهولة ويسر، وقد استطاع هذا من منطلق متعدد الجوانب، فهو قائد جيش، يهتم بكل صغيرة وكبيرة، وموقعه من المسؤولية يجعله يشك بكل شيء، ولا يطمئن إليه إلا بعد أن يمتحنه امتحانا دقيقا، ويزيل عنه الشوائب، ويصل إلى كنهه؛ ثم هناك حاسة الحاكم المتكونة من نظرته للأمور، ومعرفته بأنفس الناس، ومرامي أقوالهم، وعدم التهاون فيما يبدونه؛ وهو يعرف فيمن يضع اطمئنانه، وفيمن يبقي عليه شكه، وهذا ما فعله مروان بن محمد (72-132هـ= 692-750م) آخر خلفاء الأمويين.

كان مروان داهية من الدواهي، إلا أنه جاء بعد أن تفككت عرا الدولة، ونخر السوس في أجزائها، وتمكن منها الداء، ولم يعد بالإمكان إيقافها على قدميها؛ ومع هذا فقد بذل جهده، وأعطى كل ما يستطيع، ولكن الحمل كان أثقل من أن تحمله أكتافه.

واللغز أظهر مدى قوة عقل مروان بن محمد، وغوصه على مبهم الأمور، ومعرفة ما لم يعرفه غيره من المحيطين به؛ وكان في هذا مثل مفسر الأحلام الحاذق؛ قارَن بين أجزاء اللغز، والحالة التي هم عليها، فما خاب في تفسيره، وما نبا سيفه في حدسه، ولا طاش سهمه في تقديره، بل أصابت الضربة المفصل، وكان الأمر كما ظن، بل كما يتقن، والقصة هكذا:

«قيل: لما حارب أهل حمص مروان بن محمد،

وعليهم السّمط، وكان معاوية السكسكي، فارسُ أهل الشام، معهم، فأسر مروان معاوية السكسكي، فقال: دعني أكلم أهل حمص، وأدعوهم إلى طاعتك.

فأرسله مروان، ووكل به من يحفظه.

فأتاهم، فكلَّمهم، فشتموه من فوق السور، وشتموا مروان؛ فقال لهم: أمـا إذْ أبيتم، فأرسلوا إليَّ غلامي ميسرة الأسود، ولتكن معه ثيابي كلها.

ورجع إلى مروان الذين كانوا معه، فقال لهم: ماذا قال لهم؟

فأخبروه، فقال مروان: أتدرون ما أراد؟

قالوا: لا.

قال: أمرهم (أن) يبيِّتونا، وقال لهم: إذا أمسيتم، فالبسوا سلاحكم، واحملوا على الميسرة.

ثم أمر بمعاوية، فقطعت يداه ورجلاه.

ولما أمسوا صيروا الفرسان، وأهل النجدة في الميسرة.

فلما كان في بعض الليل بيَّتهم أهل حمص، فلم يقدروا (منهم) على شيء».

[كتاب لطف التدبير للإسكافي: 200].

وهكذا أراد الله لجيش مروان أن يتفادى مذبحة محققة، بفضل الله ثم بنباهة مروان وحذقه.

كلمات مضيئة

النرجسية.. البلية



سعد البواردي

من فينا من لا يحب نفسه؟ تلك غريزة فطرية متجذرة في أعماق الكائن الحي؛ يلمس من خلالها وجوده، ويتلمس في ضوئها وقع خطاه، وواقع حياته؛ لأن الحب يمثل بالنسبة إليه وجودًا تنعدم من دونه الروابط، وتُفقد الضوابط، وتتناثر حبات العقد، وهي الأخطر.

ولكن أن يتحول الحب الذاتي إلى عقدة استعلاء، أو ادعاء يقفز فوق حائط العقلانية دون توازن بين الواقع والمفقود؛ فإنه بهذا يصب في خانة النرجسية التي تعطي الصورة طلاء مفتعلاً يمجه الذوق، ويأباه الحس، ويرفضه الناس.

وإذا كان مركب النقص لدى الإنسان العادي يدفع به إلى التجمل المظهري سدًا لثغرات النقيصة التي يحس بها، والتي قد تُعَرِّيه أمام أية تجربة أو امتحان لا طاقة له باجتيازه؛ فإن الأخطر أن يركب المثقف ومن يتعاطى مع الكلمة حصان النرجسية الخاسر طمعًا في ظهور لا يستحقه، وانتشار لا تؤهله قدراته للوصول إليه، وهو العاجز..

لماذا؟ وكيف؟!

إن ظاهرة الادعاء لدى بعضهم أنهم، وأنهم، وأنهم.. يلوكونها بمناسبة وبغير مناسبة في كل حديث عن إنجازاتهم وإعجازاتهم كما لو أنهم قمة في إبداعهم وارتيادهم لآفاق الفكرة، في حين أن تلك المعطيات ليست أكثر من بدايات متواضعة في درب طويل طويل دونه خرط القتاد. وأخطر من هذا أن يلجأ من يلجأ إلى غيره كي يؤلف له، أو يؤلف عنه، أو يكتب عنه إشباعًا لمرض نفسي ينهش دواخله، من أجل رسم صورة مستعارة يواجه بها إحساسه المكبوت بالنقيصة والدنو.. قد يملك غيرها لو أحسن التصرف وحسن الاختيار.

إن الذي يثق عن يقين بقدراته الخلاقة يأبى عليه حسه أن يطرح ذاته مادة إعلانية رخيصة حتى ولو كان ذلك بثمن. فالتقويم والتقييم للمفكر أو غيره لا يأتي أبدًا من استفراغ الذات، وإنما من رصد الحصاد وغربلته والحكم عليه من المتلقي الذي يملك وحده إعطاء درجات الرسوب أو النجاح؛ لأنه هو الذي يتذوق طعم الطبق المعطى له، والذي يحكم على جودته ورداءته. ولكي تحكم على كاتب أو شاعر ما فإن عليك أن ترصد حركته ورؤيته الذاتية لنفسه: ماذا يقول عنها؟ وبماذا يُعبِّر؟! وأين يضع نفسه في ميزان المعادلة العادلة؟!

إن الذين لا يتحدثون عن ذواتهم؛ بل يعطون في صمت من دون دعاية أو ادعاء هم أولئك الذين من حقهم علينا أن نشير إليهم، ونشيد بهم، بعيدًا من عقد النرجسية التي لا مكان لها في عقل الفكر، وفي ضمير الكلمة، وفي وجدان الكاتب الحي.

قبس
من السيرة
النبوية

الهجرة إلى المدينة وحي لا اختيار فيه

د. عائض الردادي



تُعقد في مدينة الرياض جلسات ثقافية في منازل المثقفين - وفيها يطرح المثقفون موضوعات ثقافية - يدور حولها الحوار بموضوعية، ويجد فيها محبو الثقافة متعة لا يعرف طعمها إلا من تشرب الثقافة، وتذوق لذاذة مجالس أهل العلم والفضل.

وفي واحد من تلك المجالس دار حوار حول الهجرة إلى المدينة المنورة، وهل كانت الهجرة إليها وحيًا من الله، أم اختيارًا من الرسول صلى الله عليه وسلم؟ بمعنى هل اختار الرسول مهاجره أم إن الله هو الذي اختار المدينة، لما كان في سابق علمه من فضلها؟

تداول المشاركون الآراء: منهم من رأى أنها وحي من الله، ومنهم من رأى أن الرسول صلى الله عليه وسلم تخيَّر المدينة وفضَّلها على غيرها لما فيها من عناصر تساعد على نشر الدعوة، كوجود حماية فيها من الأنصار ومن المهاجرين، وكوجود وضع اقتصادي جيد فيها يتيح لأصحابه فرص العمل، ونحو ذلك.

وكان من وجهة نظري أن هجرته - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة المنورة وحي من الله، لا خيار له في ذلك، لا من حيث المكان، وهو مادار حوله الخلاف، ولا من حيث الزمان، وهو ما لا خلاف حوله كما سيتضح ذلك من خلال النصوص.

وقد كان صلى الله عليه وسلم يتطلع إلى الهجرة وينتظر الإذنين المكاني والزماني، وقد سبق الأول، لأن الثاني مترتب عليه، فهو صلى الله عليه وسلم قد أُري صفات مهاجره في المرحلة الأولى، ثم جاء الوحي بتحديده مكانًا وهو المدينة، ثم أُذن له بالهجرة زمانًا، فصحب صاحبه أبا بكر رضي الله عنه في حادثة الهجرة المعروفة.

وقد عدت بعد انفضاض ذلك المجلس إلى كتب الحديث الشريف، ووجدت من الأدلة ما يؤكد أن تحديد المدينة مهاجرًا له صلى الله عليه وسلم وحي من الله ولم يكن باختيار منه، وسأورد جملة من تلك الأحاديث مع التوثيق العلمي لها:

- روى البخاري(1) في باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وَهَلي إلى أنها اليمامة أو هَجَر، فإذا هي المدينة يثرب»(2) والوَهَل هو الظن، يقال: وَهَلَ يَهِل وَهْلاً إذا ظن شيئًا فتبين الأمر بخلافه كما قال ابن حجر(3).

- وروى البخاري(4) أيضًا حديثًا طويلاً في هجرة أبي بكر رضي الله عنه، روته أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - حين خرج رضي الله عنه مهاجرًا نحو أرض الحبشة حتى بلغ برك الغماد(5) فلقيه ابن الدغنة(6) فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال: أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، فقال: مثلك - يا أبا بكر - لا يَخْرُج ولا يُخْرَج، فأجاره(7) ابن الدغنة على أن يعبد ربه في داره، لكن أبا بكر ابتنى مسجداً بفناء الدار، وكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن فيتقذَّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يَعْجبون منه، وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكّاء، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك قريشًا، فطلبوا من ابن الدغنة أن يرد إليه جواره؛ لأنه خالف ما اتُّفق عليه، وفتن نساءهم وأبناءهم، فجاء ابن الدغنة إلى أبي بكر وطلب منه رد الجوار، وجاء بعد ذلك في نص البخاري: «فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل، والنبي صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين: «إني أُريت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابتين، وهما الحَرَّتان»(8)، فهاجر من هاجر قبَل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قبَل المدينة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي»، فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه...»

وفي هذا الحديث تحدَّد للرسول صلى الله عليه وسلم مكان الهجرة، فهاجر أصحابه إلى المدينة وبقي هو ينتظر الإذن له بالهجرة (فإني أرجو أن يؤذن لي). وقد جمع ابن حجر

العسقلاني(9) بين هذا الحديث وحديث أبي موسى السابق فقال: «وهذه الرؤيا غير الرؤيا السابقة أول الباب من حديث أبي موسى التي تردد فيها النبي صلى الله عليه وسلم كما سبق، قال ابن التين: كأن النبي صلى الله عليه وسلم أُري دار الهجرة بصفة تجمع المدينة وغيرها، ثم أُري الصفة المختصة بالمدينة، فتعيَّنت».

- وذكر الإمام مسلم(10) في باب (من فضائل أبي ذر رضي الله عنه) حديثًا طويلاً، روى فيه أبو ذر قصته حين قدم مع قومه غِفَار على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة المكرمة، فأسلم، وفيه: «... ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إني قد وُجِّهَتْ لي أرضٌ ذات نخل، لا أراها إلا يثرب، فهل أنت مبلغ عني قومك(11) عسى الله أن ينفعهم بك وبأجرك..».

- وجاء في حديث طويل في قصة مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه رواه عبدالله بن سلام - رضي الله عنه - ما نصّه: «.. ثم اختار له المساكن، فاختار له المدينة، فجعلها دار هجرته، وجعلها دار الإيمان، فو الله مازالت الملائكة حافِّين بالمدينة مذ قدمها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى اليوم». قال الهيثمي في مجمع الزوائد: «الحديث رواه الطبراني برجال ثقات(12)، والشاهد فيه: فاختار له المدينة فجعلها دار هجرته».

- وعن جرير بن عبدالله - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله تعالى أوحى إليَّ: أي هؤلاء البلاد الثلاثة نزلتَ فهي هجرتك: المدينة أو البحرين أو قنسرين» (13) رواه الترمذي، والحاكم وصححه، وأقره الذهبي، والطبراني والبيهقي(14)، قال ابن حجر(15): «وفي ثبوته نظر لأنه مخالف لما في الصحيح من ذكر اليمامة؛ لأن قنسرين من أرض الشام من جهة حلب». ويُفهم من كلام د. خليل إبراهيم ملا خاطر أن ذلك قبل أن يريه الله دار هجرته بأنها ذات نخل(16).

- وفي حديث آخر دلالةٌ أقرب على المدينة حيث وصف أرض الهجرة بأنها سبخة بين حَرَّتين وليس ذلك إلا للمدينة؛ فاليمامة وهجر وقنسرين لا حَرَّة فيها، حيث روى صهيب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أُريت دار هجرتكم، سبخة بين ظهراني حَرَّة، فإما أن تكون هجرًا أو تكون يثرب...». قال د. خليل إبراهيم ملا خاطر في فضائل المدينة: «الحديث رواه الحاكم وصححه وأقره الذهبي»(17).

- ويتضح الأمر بجلاء في أمر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة فيما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أُمرت بقرية تأكل القرى، يقولون يثرب وهي المدينة، تنفي الناس كما ينفي الكير خَبَثَ الحديد»(18)، وفسَّر ابن حجر(19) أُمرت قائلاً: «أي أمرني ربي بالهجرة إليها أو سكناها، فالأول محمول على أنه قاله بمكة والثاني على أنه قاله بالمدينة».

ومما يدلل على أن المدينة مهاجَر بالوحي وليس باختيار النبي صلى الله عليه وسلم أنه عندما قدم المدينة ترك لناقته العنان حتى بركت في موضع مسجده الشريف فقال: «هذا - إن شاء الله - المنزل»(20).

وهكذا توضح هذه الأحاديث الشريفة مهاجَره صلى الله عليه وسلم وهو المدينة، فهي أرض ذات نخل، بين لابتين، سبخة بين ظهراني حَرَّة، قرية تأكل القرى. ثم تحدَّدت تحديداً دقيقًا في حديث هجرة أبي بكر رضي الله عنه السابق، فهاجر إليها من هاجر ورجع عامة من

دلت الأحاديث الشريفة على أن الهجرة إلى المدينة وحي لم يكن للرسول صلى الله عليه وسلم فيه خيار، وقد جاءت المدينة في الوحي بأوصافها: أرض ذات نخل بين لابتين، سبخة بين ظهراني حرة

كان هاجر إلى الحبشة، ومعنى ذلك أنه لم يأذن لأصحابه بالهجرة إليها إلا بعد أن أوحى الله إليه أن المدينة هي أرض الهجرة.

وبعد أنّ حدد الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم دار الهجرة بقي عليه الصلاة والسلام منتظرًا للإذن الزماني بالهجرة إليها حتى جاء ذلك كما روى ابن عباس رضي الله عنهما أنه «أذن له صلى الله عليه وسلم في الهجرة إلى المدينة بقوله تعالى: *وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا*. الإسراء:80». قال ابن حجر: «أخرجه الترمذي وصححه هو والحاكم»(21).

الهوامش:

1- صحيح البخاري، فتح الباري 226/7 طبعة المطبعة السلفية، 1380هـ.

2- اليمامة: إقليم مشهور تقع فيه مدينة الرياض، وقاعدتها: حَجْر، وكانت تسمى قديمًا: جوًا، وانظر ياقوت: معجم البلدان 442/5 ط. صادر. قال ابن الحائك: الهُجَر بلغة حمير والعرب العاربة: القرية، فمنها: هجر البحرين، وهجر نجران. وهجر: الأحساء المعروفة في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، ياقوت: 393/5، ط. صادر.

3- فتح الباري 228/7.

4- صحيح البخاري حديث 3905، فتح الباري 230/7.

5- برك الغماد: بَرْك بفتح فسكون، وحكي بكسر الباء بعدها سكون، وقال ابن دريد: بضم الباء، وهو موضع جنوب مكة، انظر فيه: ابن حجر: فتح الباري 233/7 وياقوت: معجم البلدان 399/1، طبعة صادر.

6- ابن الدغنة: ضبطه أهل اللغة: الدُّغُنَّة بضم الدال والعين وتشديد النون مفتوحة، وضبطه رواة الحديث بفتح الدال وكسر الغين وفتح النون مخففة: الدَّغِنَة. وهو سيد القارة وهم قبيلة من بني الهون بن خزيمة بن مدركة، كانوا حلفاء بني زهرة من قريش، ويضرب بهم المثل في قوة الرمي، انظر في كل ذلك: ابن حجر: فتح الباري 223/7.

7- أجاره: حماه ومنعه من الأذى.

8- الحَرّتان: الحَرّة: أرض ذات حجارة سود كأنها أُحرقت، وفي المدينة حرتان إحداهما في شرقها والأخرى في غربها، وقد شملهما العمران الآن.

9- فتح الباري 234/7.

10- حديث 2473، شرح النووي 263/15.

11- ديار غِفَار هي مدينة بدر اليوم، وهي المكان الذي وقعت فيه معركة بدر الكبرى، ويبعد من المدينة 150 كيلاً من جهة الغرب.

12- مجمع الزوائد 92/9.

13- البحرين: هي قديمًا «من الكويت إلى عُمان، فتشمل الكويت والأحساء وقطر وجزر البحرين المعروفة قديمًا باسم أوال». انظر في ذلك: حمد الجاسر و د. صالح العلي في تحقيق بلاد العرب للأصفهاني 325. والمراد هنا هجر وقد سبق التعريف بها. قِنّسرين: سيأتي تعريفها في كلام ابن حجر.

14- سنن الترمذي: كتاب المناقب باب فضل المدينة رقم 3923، تحقيق أحمد شاكر وآخرين. والمستدرك للحاكم 3/3 برقم 4258 (كتاب الهجرة) بتحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، والطبراني: المعجم الكبير 339/2 تحقيق حمدي السلفي، والبيهقي: دلائل النبوة 458/2، تحقيق د. عبدالمعطي قلعجي.

15- فتح الباري 228/7.

16- فضائل المدينة المنورة 177/1.

17- 177/1برقم 137، وورد الحديث في المعجم الكبير للطبراني 36/8، ودلائل النبوة للبيهقي 522/2، وفتح الباري 228/7 وغيرها. انظر موسوعة أطراف الحديث 494/1.

18- رواه البخاري في الصحيح في باب فضائل المدينة برقم 1871، فتح الباري 87/4. ورواه مسلم برقم 488.

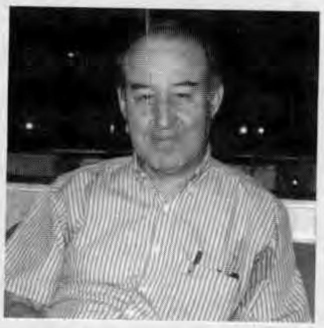
19- فتح الباري 87/4.

20- البخاري: الجامع الصحيح برقم 3906، فتح الباري 339/7، وفي رواية أنه كان يقول: «دَعوا الناقة فإنها مأمورة»، انظر فتح الباري 245/7.

21- فتح الباري 227/7.

الغرب

استمرار أم تراجع ؟



أحمد عبدالسلام البقالي

لم أجد حتى الآن استثناءً للدورة الحضارية الخلدونية. فهي، في حتميتها، شبيهة بالدورة الحياتية (البيولوجية)، وتعاقب الليل والنهار. فكما لا تستثني الطبيعة مخلوقًا حيًا من اجتياز مراحل الحياة من الميلاد إلى الوفاة لا تُستثنى أمة من اجتياز المراحل الحضارية التي تبدأ باليقظة وتنتهي بالاضمحلال. ويشهد على حتمية هذه الدورة عدم وجود دولة لم تمر بها، وبقيت في عنفوان شبابها منذ ولدت حتى الآن.



ويبدو أن عدداً من الناس لم يقتنعوا بعد بحتمية هذه الدورة. فتراهم يتساءلون: «لماذا تَقَدَّم غيرنا وتأخرنا؟»، وكأن التخلف والتقدم من فعلنا، أو أن التخلف ظاهرة عربية وإسلامية بامتياز! ويعاني هؤلاء بسبب هذا الفهم الخاطئ كثيراً من مشاعر القلق واليأس والإحباط.

وبعد أن يعود الواحد منهم من رحلة الفارس المنفرد الفاشل في محاولة إقناع قومه بأن التخلف مرض من صنعهم، يضرب كفًا بكف، ويعلن ما أعلنه الزعيم المصري سعد زغلول: «ما فيش فايدة!» ويضع السلاح، ويتجه إلى الماء والقبلة في انتظار حسن الخاتمة!

وقد بدأت أتساءل مؤخرًا: «تُرى هل يمكن أن يوجد للدورة الحضارية استثناء إذا توافرت ظروفه في المستقبل؟ وهل يمكن لأمة أن تستمر في مسار حضاري أفقي مستقيم، مخالفة بذلك قانون الجاذبية الحضاري؟ بمعنى أن تستمر الدولة في ريعان شبابها لا تشيخ ولا تضمحل. هل يمكن أن يحدث استثناء إذا توافرت معطياته لأمة ما بتغيير الأنماط التي عاشت عليها الإمبراطوريات البائدة، كما هو الشأن بالنسبة للولايات المتحدة بانفتاحها على الهجرة، وتجدد دمائها، وامتصاصها للعبقريات والمطامح القادمة من أمم صاعدة أو مكتهلة أو منقرضة، على ألاّ تصبح إمبراطورية بالمفهوم القديم، كالإمبراطوريات الرومانية والعربية والعثمانية والفرنسية والبريطانية والسوفيتية وغيرها من الإمبراطوريات التي استكملت دورتها الحضارية وانقرضت، وانفصلت عنها جميع البلاد التي احتلتها وضمتها إليها بالقوة؟».

فالظاهر أن الولايات المتحدة الأمريكية هي إمبراطورية من نوع جديد. والجديد فيها هو طبيعة تكوينها السكاني (الديموغرافي)، بحيث أصبحت لوحة فسيفساء تمثل الجنس البشري بأسره. وإن أبناء هذه الأجناس يتسابقون إلى الريادة والقيادة ويتنافسون على الرئاسة والقبول الاجتماعي والتميز داخل هذا الخليط الكبير.

وأهم من هذا أن الولايات المتحدة لابد أن تكون واعية بحتمية الدورة الحضارية، وأنها تنطلق من منظور علمي إلى كسرها والخروج منها، وجعل مسيرتها مستقيمة الخط، أو سلسلة من الدورات الصغيرة يخلف بعضها بعضًا، دون التأثير في أفقية الخط واستمراريته.

وتختلف الولايات المتحدة عن بقية الإمبراطوريات بشيء جديد. ذلك بكونها مركبة من إحدى وخمسين ولاية، كان بعضها دولاً مستقلة قبل الاتحاد. ويمكن اعتبار هذه الولايات الآن، من حيث الحجم دولاً متوسطة الحجم، تتمتع بجميع خصائص الدولة، باستثناء الجيش والخارجية. وإذا وضع الحكماء مخططًا تتسلم بمقتضاه كل ولاية القيادة مدة خمسين عامًا، مثلاً، فقد تعيش الولايات المتحدة ألفين وخمسمئة وخمسين سنة في المستوى الحضاري نفسه (50×51= 2550)، قبل أن تعود القيادة التناوبية إلى الولاية الأولى. وهكذا ستعمل كل ولاية على أن يبقى الخط البياني لمسيرة الأمة مستقيمًا لا يعرف الانحدار.

ويمكن تشبيه هذه الدورات بسباق التتابع (العصيِّ) الذي يسلم فيه المتسابق عصاه لمتسابق آخر في الحلبة، ليواصل العدو. ويتزعم كل دورة جنس من الأجناس التي يتكون منها سكان الدولة. وبهذه الطريقة يمكن أن يستمر السباق من دون تعب، إلى ما لا نهاية ما دام المتسابقون متحمسين للسباق.

شيخوخة أوربا

وبينما نرى الولايات المتحدة تشجع هجرة المواهب إليها، بل تعلن كل سنة عن يانصيب عالمي يتيح لجميع من يفوز فيه الحصول على بطاقات الإقامة الخضراء بالولايات المتحدة، نجد أوربا تصدر «قانون دوبري» للتخلص من المهاجرين، بعد أن قضت منهم وطرها، وبنت بسواعدهم ما خربته الحربان العالميتان، بدعوى أنهم يغيرون المظهر السلالي للفرنسيين ويضيقون عليهم في فرص العمل!

ولا أظن أن علماء أوربا لم ينتبهوا إلى هذا المخطط الأمريكي الافتراضي البعيد المدى. إلا أن موقف أوربا الآن من المهاجرين يدل على أنها إما أن تكون قد أذعنت لضغط المتطرفين، من أمثال «جان ماري لوبين»، لتحقيق مكاسب سياسية وانتخابية عاجلة، وإما أنها لا تؤمن بجدوى المخطط الأمريكي لإطالة عمر الدورة أو كسرها، وأنها تستلم للقضاء والقدر، أو تخشى التدخل في نواميس الطبيعة، هذا التدخل الذي قد ينتهي إلى كارثة أكبر من التي يراد تفاديها.

هل ثمة مخطط ؟

ولا يمكن تأكيد وجود هذا المخطط أو نفيه. فقد يكون من أسرار الدولة الكبرى. ولا دليل لنا عليه إلا الحدس العلمي والاستنتاج المنطقي. فالذين يعرفون الولايات المتحدة وطريقة التفكير الأمريكي لا يصعب عليهم تصديق وجود هذا المخطط. فلم يبق مجال من مجالات المعرفة الإنسانية، مهما صغر شأنه، لم يسلّطوا عليه اهتمامهم، ويكوّنوا له اللّجان أو المراكز أو المعاهد لدراسته، والخروج بنتائج عنه لاستغلالها لصالح البلد.

لغة الجسد

في صيف عام 1960م أذكر أننا توقفنا مرة، ونحن عائدون من كاليفورنيا بالسيارة إلى واشنطن، بمبنى جميل وسط غابة صنوبر غناء. وحين علم مديره أننا طلبة أجانب، دعانا لشرب القهوة، وحدثنا عن المكان، فإذا هو مركز لدراسة لغة الجسد، جسد الشخص العادي لا المعاق، دراسة إشارات يديه وملامح وجهه، وأوضاع جسده عند التعبير عن أي شيء ذي بال، تحت ظروف مخبرية دقيقة، لمعرفة المشترك منها بين الناس، والخاص منها بجنس من الأجناس، أو بمستوى اجتماعي معين. وهو ما أصبح يعرف الآن بـ Body Language، وله اختصاصيون تستعملهم الدولة الأمريكية لدراسة طبائع وشخصيات رؤساء الدول وغيرهم من رجالها في أثناء ظهورهم على شاشات التلفاز. وتؤخذ ملاحظات هؤلاء الخبراء بالحسبان عند التعامل مع هؤلاء القادة.

لعبة الأمم

وأوضح مثال على هذا الميل الأمريكي إلى الدراسة والتجريب المخبري ما رواه مايلز كوبلاند في كتابه لعبة الأمم The Game of Nations، وكيف درسوا وضع الشرق الأوسط، قبل حرب الخامس من حزيران/يونيو 1967م، بحيث كان عدد من الخبراء يتقمّصون شخصيات قادة المنطقة، ويتناقشون فيما بينهم، ويدرسون ردود فعل كل قائد افتراضي تجاه ما ستثيره الولايات المتحدة من أحداث بالمنطقة. وفي ضوء ما انتهوا إليه من نتائج تم التخطيط لانتصار إسرائيل الساحق على عبدالناصر. وانتصرت الجدية والتخطيط الدقيق والتنفيذ المتقن على الهرجلة والارتجال وخبط العشواء!

منع الحروب

ولدراسة إمكان منع الحروب، اجتمع عدد من الحكماء بمكان ما بولاية نيوجيرزي، وأظن أن ذلك كان في عهد الرئيس آيزنهاور الذي خبر الحرب وعرف بشاعتها بوصفه قائد الغزو الأمريكي لأوربا سنة 1944م. وللأسف خرج الحكماء بنتيجة تؤكد استحالة منع اندلاع الحروب، بل حبذوا بقاءها صمامَ أمان وعاملاً مساعداً للعوامل الطبيعية على كبح المد السكاني (الديموغرافي).

درء الاغتيال

ومثال آخر لحرص الأمريكيين على معرفة الأحداث قبل وقوعها: لجنة الأمن الرئاسي التي جمعها الرئيس جون كينيدي بالبيت الأبيض، لدراسة وسائل حماية الرئيس من الاغتيال. وكانت نتائج الدراسة استحالة حماية الرئيس الأمريكي من الاغتيال!

حدث هذا قبل شهر واحد من اغتيال الرئيس كينيدي بدالاس بتكساس على يدي «لي هارفي أوزوالد»، وبعد بضعة أسابيع من توقيعه لأمر اغتيال «ديام»، ملك الفيتنام، بإيعاز من الجنرالات الأمريكيين الذين كان الملك الحكيم يخالفهم الرأي في طريقة معاملة المتمردين الفيتكونغ. ولم يدرك الجنرالات حصافة رأي الملك إلا بعد أن غرقوا إلى آذانهم في الدماء، وخرجوا مدحورين من الفيتنام!

هاجس الخلود

وأحسن من عبر عن هاجس إطالة العمر، بل الخلود إذا كان ممكنًا، الكاتب الأمريكي الفيلسوف «ألدوس هكسلي»؛ ففي روايته «وأخيـرًا تموت البجعة»، يروي قصة مليونير استأجر عدداً من الخبراء في إطالة العمر، وبنى لهم مختبراً لذلك في قصره الضخم، فكانوا يحقنونه بهورمونات الزواحف والأسماك المعروفة بطول العمر كالسلاحف العملاقة وبعض أسماك الأعماق التي تعيش في الظلام من دون حراك، وتطول أعمارها لتصل إلى أكثر من مئتين وخمسين عامًا. ولكن في النهاية يموت المليونير.

ولو كان «ألدوس هكسلي» علم بما وصل إليه العلماء اليوم من فَسْلٍ للأعضاء، واستنساخ للحيوان والإنسان، لما انتهت روايته بموت البجعة، فالعلم مقبل على كسر المحرّم الأكبر: الدورة البيولوجية!

وإذا كانت الإمكانات المادية والبشرية للولايات المتحدة تسمح لها بالإنفاق بسخاء على معاهد ومختبرات لدراسة جميع الظواهر والاتجاهات، مهما تَفهَتْ في نظر غيرها، فإن استمرار شبابها غضًا يَانعًا وطول عمر حضارتها أولى بالدراسة والاهتمام.

مُحمّد مُصطفى هدّارة

د. محمد بن لطفي الصباغ

يشاء الله تعالى أن لا أنتهي من رثاء فقيد العربية العلامة الأستاذ سعيد الأفغاني، حتى أفاجأ بنبأ وفاة أخي وصديقي الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة. لقد هدَّني الخبر وأفزعني.. ولكنني لا أقول إلا ما يرضي الله: إنا لله وإنا إليه راجعون.



د. محمد مصطفى هداره.. مشرفاً على طلبة الدراسات العليا يناقش معهم رسائل الماجستير والدكتوراه

إن وفاة الدكتور هدارة كارثة للأدب وللاتجاه السليم فيه، وثلمة في بناء الثقافة من الصعب أن تُسَدّ. نسأل الله أن يغفر له ويرحمه ويجزيه خير الجزاء وأن يعوض المسلمين العوض الحسن.

توفي الدكتور محمد مصطفى هدارة يوم الجمعة الواقع في 21 شوال 1417هـ (الموافق لـ 1997/2/28م)، وقرأت نعيه في جريدة الأهرام يوم السبت 22 شوال 1417هـ (1997/3/1م).

ولد محمد بن مصطفى هدارة في مدينة الاسكندرية عام 1930م، ودرّس مراحله الدراسية في مصر، وكان في الجامعة أنبغ طلابها، يقول الدكتور محمد محمد حسين ـ يرحمه الله ـ: إن أنبغ طالب مر عليّ في حياتي التدريسية هو محمد هدارة. وذكر لي الدكتور محمد محمد حسين أن هذا الطالب كتب بحثًا ممتازًا وهو طالب، نشرته له بعض دور النشر ولقي استحسانًا من القراء ورواجًا كبيرين. وهذا البحث كان عن أدب المهجر.

لقيته في الرياض أول مرة وتشرفت بمزاملته في التدريس في جامعة الملك سعود، وسعدت بصحبته أيما سعادة، ولقد أحببته منذ أن لقيته، أحببته في الله، وكنا نلتقي يوميًا، وكان جارًا لنا بالسكنى.. فأتاح لي ذلك أن أعرفه تمام المعرفة.

ثم زرت مصر فلقيت من إكرامه مالا أستطيع وصفه ولا شكره أيضا.

كان ـ رحمه الله ـ حريصا على أداء الصلاة في أول وقتها، وكان يشغل وقته بالنافع من العمل، فيقرأ، ويؤلف، ويُقوّم البحوث التي ترسل إليه، ويردّ على المنحرفين الردّ العلميّ المفحم.. أذكر أنه كتب ردًا على واحد من هؤلاء وكان ذا سمعة رنانة وهالة ضخمة، فكتب مقالة ضافية رائعة في الرد عليه وأرسلها إلى عدة مجلات فلم تجرؤ واحدة منها على نشرها خوفًا من صاحب السمعة والهالة حتى نشرتها مجلة إسلامية كويتية، فلقيت هذه المقالة استحسانًا من الأدباء ودعاة الإسلام، وكان ذلك موقفًا محمودًا للمجلة يشكر لها.

درّس في المدارس الثانوية بعد تخرجه في الجامعة مدة قصيرة، وعمل بالجامعة العربية في القاهرة، والتحق بالجامعة للدراسة العليا فنال الماجستير والدكتوراه بدرجة الامتياز، ثم أضحى مدرسًا في الكلية وتدرج في المراتب العلمية حتى بلغ أعلاها؛ فكان رئيسًا لقسم اللغة العربية في كلية الآداب في جامعة الاسكندرية، ثم وكيلاً للكلية، ثم عميدًا لكلية الآدب في طنطا، وعضوا في اللجنة العلمية التي تنظر في ترقية أعضاء هيئة التدريس.

درّس في جامعة الخرطوم في السودان عدة سنوات، وأصدر كتابًا ضخمًا عن تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان، ودرّس في جامعة بيروت العربية، وأعير إلى جامعة الرياض (جامعة الملك سعود) فقضى فيها خمس سنوات، وكان له حضور كبير في الأوساط الأدبية في المملكة وفي الصحافة الأدبية فيها، فكتب عددًا من المقالات النقدية، وألقى عددًا من المحاضرات في الجامعة، وشارك في عدد من المؤتمرات الأدبية والإسلامية والمهرجانات وحلقات الدراسة والندوات في عدد من البلاد العربية. وقد سعدت باجتماعي به في بعضها.

وكان إذا حل في بلد المؤتمر لا يقصر نشاطه على المشاركة العلمية الفعالة فيه، بل كان يبحث ـ في أوقات راحته ـ في مكتبات هذا البلد عن الكتب التي تتصل باهتماماته، سواء في ذلك المخطوطات أم الكتب المطبوعة المعروضة للبيع، وأذكر أننا عندما التقينا في فاس في مؤتمر علمي طاف على المكتبات التي في البلد يشتري الكتب التي تتعلق بالحداثة، وقال لي: هذه الكتب لم تصل إلى مصر وأنا مشغول بكتابة بحث عنها، أكشف فيه اللثام عن هذا الاتجاه الهدام.

زار البلاد العربية وعرف رجالات الأدب والفكر فيها، ورحل إلى أوربا مرات عدة وإلى أمريكا وإلى الصين واليابان والهند، وكنت سمعت منه أنه سيكتب عن بعض هذه الرحلات.

وكانت لديه معرفة واسعة بطبائع أهل كل بلد وبخصائصه، وقد أكسبته هذه الرحلات ثقافة عملية ووصلته بعصره، وزادت خبرته نضجًا واتساعًا.

وكان يتكلم الإنجليزية بطلاقة وتذوق، وهو مشارك بالفرنسية والألمانية.

وكان من المتمكنين في الأدب شعره ونثره، وكان ذا حافظة عظيمة، فلا يُذكر أمامه بيت إلا يورده ويكمل القصيدة، ولا يُذكر عنده أديب عربي أو أجنبي حتى يحدثك عنه حديث العالم، ويذكر لك المظان التي تجد أخباره فيها، وكان متمكنًا من علوم الآلة كالنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع وفقه اللغة، تلمس أثر ذلك إذا تكلم فلا يزل لسانه في لحنة، وهذه الصفة وإن كانت صفة يجب أن تكون لازمة وقائمة بالمتخصصين باللغة العربية، فقد ذكرتها، لأن بعض الأدباء الكبار يقعون في اللحن المعيب إذا تكلموا، فلقد دعيت - مرة - إلى سماع محاضرة لمؤلف كبير في الأدب، فإذا هو يلحن لحنات قبيحات.

وكان يعرف المذاهب الأدبية الغربية ويدرك خطرها على نحوٍ قلّ نظيره.

وقد شارك في برامج أدبية في الإذاعة السعودية، كان يدير بعضها الدكتور عبدالرحمن رأفت الباشا - يرحمه الله -، وكانت هذه البرامج تعنى - في عدد من حلقاتها - بشعراء الدعوة الإسلامية، من أمثال سابق البربري ومحمود الوراق وعبدالله بن المبارك وغيرهم. وكان لهذه البرامج أطيب الأثر في الناس.

وكان له نشاط طيب في وسائل الإعلام المصرية من إذاعة وتلفاز، وقد علمت أنه ظهر قبل وفاته بيومين في برنامج تلفازي ناجح جداً.

وإني لأشهد أن هذا الرجل كان يبارك له في وقته، فلو نظرت إلى الأعمال التي كان يقوم بها لعجبت أشد العجب كيف يمكن أن يقوم بها جميعا وعلى الوجه المتقن؟

فقد كانت لديه أعمال إدارية، كان عميد كلية الآداب بطنطا ورئيس قسم اللغة العربية في الإسكندرية، وكان عنده إشراف على عشرات الرسائل في الدكتوراه والماجستير، وكان يشارك في مناقشات عدد من الرسائل في الجامعات المصرية وغيرها، وكانت له أحاديث إذاعية وتلفازية، وكان ينشر مقالات في الصحف والمجلات وبعضها مقالات أسبوعية.

وكان يلقي بين الفينة والأخرى محاضرات في نواد أدبية؛ هذا كله غير محاضراته الجامعية، وغير الكتب التي يقوّمها للترقية، وغيرِ الكتب التي يؤلفها هو.. وغير الأسفار التي يقوم بها ليلقي في المؤتمرات التي يدعى إليها بحوثًا أعدها.. وغير المسؤوليات العائلية والاجتماعية التي كان يؤديها على أحسن وجه، وكل هذه الأعمال تسير في المنحى الإيجابي الذي يخدم الفكرة الإسلامية ولغة القرآن.

كان - رحمه الله - لطيف المعشر، حلو الحديث، يحب الدعابة المهذبة، لا يمل مجالسه من حديثه. وكان حريصًا على خدمة الناس يغيث الملهوفين، فلقد كان مدة وجوده معنا في الرياض يتلقى الطلبات من كثير من مصريين وعرب آخرين، فبعضهم كان يطلب مطلبا علميا، وبعضهم كان يطلب تأمين عمل لهم، فيجيب هذا وذاك، ويبذل وسعه في تلبية طلبه لا يتأخر ولا يرد سائلاً.

وكان أحيانًا لا ينتظر قدوم طلب إليه.. بل يسارع إلى مساعدة من يعلم أنه بحاجة إلى مساعدته.. وكان يلقى طلابه بصدر واسع ويحل لهم مشكلاتهم ويعين الفقير منهم، وكان وفيًا لأصدقائه في حياتهم وبعد مماتهم، فكم أسدى من المعروف لهؤلاء الأصدقاء.. كان يدفعه الوفاء إلى الدفاع عنهم إذا افترى عليهم مفتر بالباطل، وكان يسعى في تقديم الخير لهم دون أن يعلموا.

وأذكر في ذلك نشره لكتاب الدكتوره نفوسة زكريا عن محمود سامي البارودي بعد وفاتها.. فكان في ذلك العمل وفيا لزميلة كريمة له ووفيًا للعلم بآن.

كان يتفقد المحتاجين من أرحامه ومعارفه بالمعونة والمساعدة ولاسيما في أيام الأعياد.

وكان غاية في الكرم فلا يأتي واحد من أهل العلم ممن يعرفهم إلى مصر إلا ويقيم له دعوة، ويهتم به ويرعاه مدة وجوده في مصر.

وكان حسن المعاملة لأهله وأولاده، شديد العناية بهم، عظيم الرأفة بهم، ترك من الأولاد ثلاثة ذكور، هم الدكتور مصطفى، والدكتور ممدوح، والسيد معتز، وبنتين، هما الدكتوره ميسان والمهندسة منال.

أما آثاره العلمية وكتبه فكثيرة أذكر منها ما حضرني، ولا بد أن يكون قد فاتني منها شيء نستدركه أو يستدركه غيرنا من تلامذته وأولاده وأصدقائه:

1- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، 1963و 1970م.

2- مشكلة السرقات في النقد العربي، 1958م.

3- تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان، 1972م.

4- دراسات في الشعر العربي، 1970م.

5- التجديد في الشعر العربي بالمهجر، 1957م.

6- سرقات أبي نواس لمهلهل بن يموت المزرع (تحقيق ودراسة)، 1957م.

7- مقالات في النقد الأدبي، 1964م و 1983م.

8- ثورة يوليو، 1965م.

9- الإسلام لألفرد جيوم (ترجمة)، 1958م.

10- ملفل الملاح الصغير لجين جولد (ترجمة)، 1962م.

11- قاهر القطب الجنوبي لبيريد (ترجمة)، 1960م.

12- يوميات هيروشيما لهاشيا (ترجمة)، 1958م.

13- عالم القصة لبرنارد ديفوتو (ترجمة)، 1969م.

14- المنصورة (قصة تاريخية)، 1970م.

15- موقف مرجليوث من الشعر العربي، 1985م.

16- الشعر العربي من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول، 1981م.

17- دراسات في الشعر العربي الحديث، 1992م.

18- مصادر دراسة محمود سامي البارودي (إشراف)، 1992م.

19- المأمون الخليفة العالم (من سلسلة أعلام العرب)، 1985م.

20- مئات المقالات والبحوث في المجلات الأدبية المصرية واللبنانية والكويتية والسعودية.

21- مقدمات لعدد كبير من مؤلفات تلامذته ورسائلهم الجامعية ومؤلفات أصدقائه.

22- شارك في تأليف عدد من الكتب المدرسية للمرحلة الثانوية في المملكة العربية السعودية.

وبعد؛ فإن القلم ليعجز عن تصوير الألم لفقده، وعن تصوير الكارثة التي أصابت الأدب الجاد، والفكر النير، والاتجاه الإسلامي السليم في الأدب بفقد أخينا الحبيب أبي مصطفى رحمه الله رحمة واسعة وغفر له، وأكرم نزله، وأبدله دارا خيرًا من داره، وأهلاً خيرًا من أهله.

فلقد كان صوتًا مدويًا من أصوات الحق، وكان مدافعًا قويًا عن الإسلام العظيم، ولغته العظيمة. و: إنا للّه وإنا إليه راجعون.

جماليات الأداء الأسلوبي في الحديث النبوي

د. صابر عبدالدايم

إن جماليات الأداء الأسلوبي في الحديث النبوي تتعدد وجوهها، وتتنوع طرائقها، ولكن الأثر الباقي في النفس الإنسانية المؤمنة برسالة الإسلام، والتي تَعَمَّق فيها الإحساس بعظمة الشخصية المحمدية وعبقريتها، هذا الأثر الباقي هو الإحساس بجمال المنطق، وحلاوة التعبير، وشرف المعنى وصحته، وسمو قصده وحكمته.

والأسلوب هو الرجل - كما يقول النقاد في العصر الحديث -، وجمال الفطرة والخلق الذي تحلّى به المصطفى - صلى االله عليه وسلم -، هو منبع أسرار الجمال في أساليبه وأحاديثه الناطقة بكل معنى عظيم؛ وعن خصال الجمال والكمال التي تحلى بها محمد - صلى الله عليه وسلم -، يقول القاضي عياض: «اعلم أيها المحب لهذا النبي الكريم، الباحث عن تفاصيل جمل قدره العظيم، أن خصال الجمال والكمال في البشر نوعان:

- ضروري دنيوي اقتضته الجبلة وضرورة الحياة الدنيا.

- ومكتسب ديني، وهو ما يُحمَد فاعله، ويقرب إلى الله زلفى.

وهذا المكتسب الديني على فنَّين أيضًا: منها ما يتخلص لأحد الوصفين، ومنها ما يتمازج ويتداخل.

فأما الضروري «الدنيوي» المحض، فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب؛ بل فطرة وطبع، مثل ما كان في جبلته من كمال خلقته وجمال صورته وقوة عقله، وصحة فهمه، وفصاحة لسانه، وقوة حواسه وأعضائه، واعتدال حركاته، وشرف نسبه، وعزة قومه، وكرم أرضه.

وأما المكتسبة الأخروية، فسائر الأخلاق العليَّة والآداب الشرعية من الدين والعلم، والحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والزهد، والتواضع، والعفو، والعفة، وحسن الأدب والمعاشرة وأخواتها وهي التي جماعُها: حُسْن الخلق».

خصال من الكمال والجلال لا يحدها حصر

ثم يؤكد القاضي عياض أن هذه الخصال الجمالية الكمالية التي ينبع منها المنطق الجميل، والفعل الجميل، والأسلوب الجميل، كان لنبينا - صلى الله عليه وسلم - شرف التحلي بها جميعًا، فهو الأسوة الحسنة في الأقوال، وفي الأفعال، وفي الخَلْق والخُلُق.

يقول: «إذا كانت خصال الكمال والجلال - ما ذكرناه ورأينا الواحد منا يتشرف بواحدة منها، أو اثنتين إن اتفقت له في كل عصر - إما من نسب، أو جمال، أو قوة، أو علم، أو حلم، أو شجاعة، أو سماحة، حتى يعظم قدره ويضرب باسمه الأمثال، ويتقرر له بالوصف بذلك في القلوب أثرة وعظمة».

فما ظنك بعظيم قدر منٍ اجتمعت فيه كل هذه الخصال، إلى ما لا يأخذه عدٌ، ولا يُعبِّر عنه مقال، ولا يُنال بمكسب ولا حيلة إلا بتخصيص الكبير المتعال من فضيلة النبوة والرسالة والخلة والمحبة والاصطفاء والإسراء، والرؤية والقرب، والدنو والوحي، والشفاعة والوسيلة، والفضيلة والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود، والبُراق والمعراج، والبعث إلى الأحمر والأسود، والصلاة بالأنبياء، والشهادة بين الأنبياء والأمم، وسيادة ولد آدم، ولواء الحمد والبشارة والنذارة والمكانة عند ذي العرش، والطاعة والأمانة والهداية، ورحمة العالمين، وإعطاء الرضى والسؤال والكوثر، وسماع القول، وإتمام النعمة والعفو عما تقدم وما تأخر، وشرح الصدر، ووضع الإصْر، ورفع الذكر، وعزة النصر، ونزول السكينة، والتأييد بالملائكة، وإيتاء الكتاب والحكمة، والسبع المثاني والقرآن العظيم، وتزكية الأمة والدعاء إلى الله، وصلاة الله تعالى والملائكة، والحكم بين الناس بما أراده الله، ووضع الإصْر والأغلال عنهم، والقسم باسمه وإجابة دعوته، «وتكليم الجمادات والعجم، وإحياء الموتى، وإسماع الصم، ونبع الماء من بين أصابعه، وتكثير القليل، وانشقاق القمر، ورد الشمس، وقلب الأعيان، والنصر بالرعب، والاطلاع على الغيب وظل الغمام، وتسبيح الحصى، وإبراء الآلام، والعصمة من الناس، إلى ما لا يحويه محتفل، ولا يحيط بعلمه إلا مانحه ذلك ومفضله به، لا إله غيره إلى ما أعد له في الدار الآخرة من منازل الكرامة، ودرجات القدس، ومراتب السعادة والحسنى وزيادة، التي تقف دونها العقول، ويحار دون إدراكها الوهم».

إنه المصطفى - صلى الله عليه وسلم - و«لامِرْيَة أنه كان أعقل الناس وأذكاهم»، ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق، وظواهرهم وسياسة العامة والخاصة، مع عجب شمائله، وبديع سيرته، فضلاً عما أفاضه من العلم، وقرره من الشرع، دون تعلم سبق، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه، لم يمتر في رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة، وهذا مما لا يحتاج إلى تقريره لتحققه(1).

وهذا الجمال الشمولي النابع من شخصية المصطفى - صلى الله عليه وسلم -، ليس جمالاً نسبيًا، ولا رأيًا ذاتيًا، ولا ميلاً تعصبيًا، إنما هو حقيقة ساطعة باهرة لم تنطفئ شمسها على توالي العصور وتعاقب الأزمان.

فبيان المصطفى - صلى الله عليه وسلم - مسكون

بالجمال الإنساني، ومنطقة نابع من إنسانيته، ووحي الله عز وجل. وحتى قبل أن يهبط عليه الوحي، كان منطقه جميلاً، أمينًا صادقًا؛ لأن الحق سبحانه يعده لتبليغ الرسالة العظمى، وأداء الأمانة المثلى.

وإذا احتكمنا إلى آراء علماء الجمال، نجد فريقًا منهم يرى أن الجمال هو الصفة المستقرة في ذات الشيء، فحقيقة الجمال مستقرة في ذلك الشيء، ومنهم شوبنهاور وهيدجر.

أما الفريق الآخر فيرى أن الجمال هو الشعور الذي ينبع من نفس الإنسان تجاه شيء ما، وحينئذ تكون حقيقة الجمال مستقرة في نظرة الإنسان من خلال ما يشعر به نحو ذلك الشيء، ومنهم كانت و«كاسيرر الفيلسوفين الألمانيين»(2).

فجمال منطق المصطفى - صلى الله عليه وسلم - طبيعي مكتسب؛ لأن الله فطره على ذلك. ومن وصاياه الكريمة التي تعد من أسباب النجاة من المهالك، ومن فتن الحياة قوله - صلى الله عليه وسلم - لمن سأله عن أسباب النجاة: «أمْسكْ عليك لسانك، وليَسَعْكَ بيتُك، وابكِ على خطيئتكَ». وقوله عليه السلام: «من تكلم فليقُلْ خيراً أو ليصمتْ».

هند بن أبي هالة وتصويره لمنطق المصطفى - صلى الله عليه وسلم -:

وأبلغ شاهد صدق على جمال المنطق النبوي، ما قاله هند بن أبي هالة - رضي الله عنه - حينما سأله الحسن بن علي - رضي الله عنهما - عن منطق رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فأجاب: «كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم فضلاً لا فضول فيه ولا تقصير، دمثًا ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم شيئًا، لم يكن يذم ذواقًا ولا يمدحه، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها، فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غضّ طرفه، جُلُّ ضحكه التبسم، ويفترّ عن مثل حب الغمام»(3).

وتفيض الأوصاف السابقة بصفات الجمال والجلال والكمال التي تحلت بها شخصية المصطفى - صلى الله عليه وسلم -، وهي لم تُرْوَ من بُعد، ولم يبدعها وجدانٌ محبٌ للمصطفى عليه السلام، وإنما هي حقائق واقعية رآها، وعاصرها، وشهد بها واحد من الذين كرمت أبصارهم، وأضيئت بصائرهم بمشاهدة وجه النبي الكريم الذي كرمه الله عز وجل في قوله سبحانه: *وما أرسلْنَاكَ إلاَّ رحمةً للعالمينَ*. **الأنبياء**:107. وفي قوله سبحانه وتعالى مخاطبًا أشرف الخلق: *وإنك لَعَلَى خُلُقٍ عظيم*. **القلم**:4.

ويروى عن ابن عباس: أن النبي - صلى الله عليه وسلم -، كانت روحه نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم بألفي عام. يُسبِّح ذلك النور، وتُسبِّح الملائكة بتسبيحه، فلما خلق الله آدم ألقى ذلك النور في صلبه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «فأهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم، وجعلني في صلب نوح، وقذف بي في صلب إبراهيم، ثم لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الكريمة، والأرحام الطاهرة، حتى أخرجني من أبويَّ، لم يلتقيا على سفاح قط»(4).

والمناقب التي أضفاها هند بن أبي هالة، على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، لا مبالغة فيها ولا تكلف ولا مجاملة ولا رياء، ولا تخالطها عاطفة مشبوهة، ولا عصبية مفرطة في الهوى، وإنما هي مناقب صادقة، وليست أحوالاً طارئة ولا انفعالات خاصة. وتواصل الأحزان في حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام، لا ينبئ عن ضعف أو عدم رضا بالقضاء والقدر، أو اعتراض على مراد الله وعلمه، ولكنه حزن المسؤولية الجسيمة، الملقاة على عاتقه، مسؤولية هداية الناس إلى منهج الله وتبليغهم رسالة رب العالمين، وقد أمره الحق سبحانه بتبليغ الرسالة في مواضع كثيرة في القرآن الكريم.

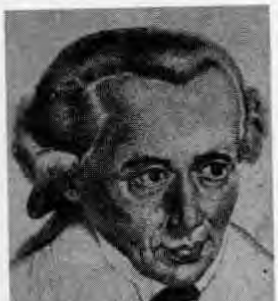
ففي سورة المائدة يجيء الأمر صريحًا، وحاسمًا، وفيه صيغة الإنذار، في قوله عز وجل: *يا أيها الرسولُ بلِّغ ما أُنزلَ إليكَ من ربكَ وإن لم تفعلْ فما بلَّغتَ رسالتَهُ واللهُ يَعصِمُكَ من الناسِ إنَّ اللهَ لا يهدي القومَ الكافرينَ*. **المائدة**:67. ويخفف الرحمنُ الرحيمُ الأحزانَ عن نبيه ومصطفاه، فينادي الحبيبَ المصطفى، نداء حانيًا كريمًا مُطْمَئنًا قلبه ووجدانه، وموحيًا إليه أن لا يترك الحزن يتراكم في نفسه في سبيل الحرص على هداية الناس أجمعين، قال تعالى: *إنكَ لا تهدي مَن أحْبَبْتَ ولكن اللهَ يهدي مَن يشاءُ وهو أعلم بالمهتدينَ*. **القصص**:56.

فكم يتعاظم حزنُ المصطفى عليه الصلاة والسلام وهو يشاهد مسلمًا يرتد عن الإسلام، أو منافقًا يبطن الكفر ويظهر الإسلام، أو فاسقًا ينتهك حدود ما حرم الله. يقول الله عز وجل مُطَمْئنًا مصطفاه وحبيبه: *ياأيها الرسولُ لا يَحْزُنكَ الذينَ يُسارِعُونَ في الكفر من الذينَ قالوا آمنّا بأفواههم ولم تُؤمن قُلوبُهم ومن الذين هادوا سمّاعُونَ للكذبِ سمّاعُونَ لقوم آخرينَ لم يأتوكَ يُحرِّفُونَ الكَلِمَ من بعدِ مواضعه يقولُون إن أُوتيتم هذا فَخُذُوه وإن لم تُؤتوه فاحْذَرُوا ومن يُرد اللّهُ فتنتَهُ فلن تَمْلكَ لَهُ منَ الله شيئًا أولئكَ الذين لم يُرِدِ اللّهُ أن يُطهّر قلوبَهم لهم في الدنيا خِزْيٌ ولهم في الآخرة عذابٌ عظيمٌ*. **المائدة**: 41.

وفي سورة الأنعام نقرأ الحزن في حياة الرسول حقيقة مشاهدة وواقعة انعكاسًا لمواقف الجاحدين المعاندين المستكبرين، فيقول الله عز وجل مؤكدًا واقع الحزن في حياة المصطفى - صلى الله عليه وسلم -: *قد نَعلمُ إنَّهُ ليَحْزُنُكَ الذي يقولون، فإنهم لا يُكذِّبونكَ ولكنَّ الظالمين بآيات الله يَجْحَدُونَ*. **الأنعام**: 33.

ومما يضفي سمة الإيجابية على «صفة الحزن» في شخصية المصطفى عليه الصلاة والسلام أنه دائم الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكَلِم.

وهي صفات تجمع بين الجمال والجلال، لتُعلنَ عن خاصية «الكمال». وكان سكوته - صلى الله عليه وسلم - على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكير. وفي وصف هند لطريقة كلام الرسول في أحاديثه بأنه «يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم»، تفسير لجمال الأداء وجلاله في منطق الرسول عليه السلام.



إيمانويل كانت



مارتن هيدجر

فمدلول هذه الصفة أنه كان يستعمل جميع فمه للتكلم، ولا يقتصر على تحريك الشفتين، وذلك من قوة المنطق والصوت والمعنى، وحضور الذهن واجتماعه. وهذه الطبيعة السوية في النطق والأداء الجميل كانت مظهر فضْل وتفوق عند العرب، فقد كانت العرب تتمادح بسعة الفم، وتذم بصغره؛ لأن السعة أدل على امتلاء الكلام وتحقيق الحروف وجهارة الأداء، وإشباع ذلك في الجملة، ولأن طبيعة لغتهم ومخارج حروفها تقتضي هذا كله، ولا تحسن في النطق إلا به، ولا تبلغ تمامها إلا أن يبلغ فيها، وهو بعد مزيتها الظاهرة في أفصح أساليبها، إذ كانت الفصاحة راحة إلى حسن الملاءمة بين الحروف باعتبار أصواتها ومخارجها، حتى

جماليات الأداء الأسلوبي في الحديث النبوي

تستوي في تأليفها على مذاهب الإيقاع اللغوي.

فكانت محاسن هذا الباب في النبي - صلى الله عليه وسلم -، لأنها عن أسباب طبيعية.

فقد برأ الله - سبحانه - رسوله من عيوب المنطق الخلقية التي لا تتفق مع جلال الرسالة ومهابة التبليغ، حيث برئ الأداء النبوي في منطقه من عيوب النطق مثل التمتمة، والفأفأة، وغيرهما، وبرئ أسلوبه من تنافر الحروف، ومن التعقيد والمعاظلة، ومن الغرابة المستكرهة، ومن الألفاظ الوعرة الوحشية في غير قصد أو غرض، كما برئ المصطفى - صلى الله عليه وسلم - من عيوب النطق التي تصدر عن مبالغة وتكلف كسبًا لرضا المستمعين، واستجلابًا لثنائهم، مثل: التنطع، والتمطق، والتفيهق، وغيرها.

فالتنطع في الكلام هو رمي اللسان إلى نطع الفم، أي الغار الأعلى، مبالغة من المتكلم في إظهار الكلام والتأثير في المستمعين.

والتمطق: هو ضم الشفتين ورفع اللسان إلى الغار الأعلى للفم.

والتفيهق: هو الكلام من أقصى الفم.

وهذه العيوب التي تصيب حاسة النطق عند كثير من الخطباء والعلماء وعامة الناس، قد سلم منها حديث النبي ومنطقه. وهو عليه السلام يقول مؤكدًا رفضه للتكلف في المنطق، والمبالغة الممقوتة في طريقة إخراج الحروف: «أبغضكم إليّ الثَّرثَارُون المتفيهقُون»، وكان عليه الصلاة والسلام يقول: «إيّاكم والتَّشادُق».

فلا جرم كان منطقه عليه الصلاة والسلام على أتم ما يتفق في طبيعة اللغة ويتهيأ لها إحكام الضبط وإتقان الأداء، لفظ مشبع، ولسان بليل، وتجويد فخم، ومنطق عذب، وفصاحة متأدية، ونظم متساوق، وطبع يجمع ذلك كله، مع تثبيت وتحفظ وتبين وترسل وترتيل(5).

ويقول القاضي عياض في معرض إشادته بفصاحة المصطفى - صلى الله عليه وسلم -: «فجمع له بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة ألفاظ الحاضرة،.ورونق كلامها، إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي الذي لا يحيط بعلمه بشر.

قالت أم معبد في وصفها له: «حلو المنطق، فصل لا نزر، ولا هذر، كأن منطقه خرزات نُظمْن»، وكان جهير الصوت حسن النغمة - صلى الله عليه وسلم -»(6).

ويروى عن قتادة أنه قال: «ما بعث الله نبيًا إلا حسن الوجه، حسن الصوت؛ وكان نبيكم - صلى الله عليه وسلم - حسن الوجه، حسن الصوت».

وقد صاحب جمال المنطق وجلاله في شخصية المصطفى - صلى الله عليه وسلم -، كمال الخلقة، وجمال الصورة. وحين نتأمل مدلول الجمال عند علماء اللغة وعند أئمة المسلمين ندرك أن المصطفى - صلى الله عليه وسلم - تجسدت فيه كل القيم الجمالية، الظاهرة والباطنة، القولية والفعلية.

قال ابن سيده: الجمال الحسن يكون في الفعل والخلق. وقال ابن الأثير: والجمال يقع على الصور والمعاني، ومنه الحديث الشريف: «إنّ اللّه جميلٌ يُحب الجمال»، أي: حسن الأفعال وكمال الأوصاف.

وفي كتاب «الفروق في اللغة» يوضح أبو هلال العسكري (تك بعد395هـ) الفرق بين الحُسن والجمال فيقول: «والحسن في الأصل للصورة، ثم استُعمل في الأفعال والأخلاق، والجمال في الأصل للأفعال والأخلاق والأحوال الظاهرة، ثم استعمل في الصور».

والإمام أبو حامد الغزالي، يضع تعريفًا للجمال في صدد حديثه، عن معنى الحسن والجمال، فيقول: «حسن كل شيء في كماله الذي يليق به»، ثم يقول: «كل شيء فجماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له، فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال، وإن كان الحاضر بعضها فَلَهُ من الحسن والجمال بقدر ما حضر».

والإمام ابن القيم يوضّحُ الأمر، ويزيده جلاء، ورؤيته للجمال تقترب من الرؤية الشمولية الكونية للجمال، وهي رؤية تقترب من جمال الخَلق والخُلُق، وجمال القول والفعل، وجمال الأداء والسلوك، في شخصية المصطفى - صلى الله عليه وسلم -. يقول ابن القيم: «اعلم أن الجمال ينقسم إلى قسمين: ظاهر وباطن. فالجمال الباطن: هو المحبوب لذاته، وهو جمال العلم والعقل والجود والعفة والشجاعة.

وأما الجمال الظاهر فزينة خص اللّهُ بها بعض الصور عن بعض، وهي من زيادة الخَلْق التي قال الله تعالى فيها: يزيدُ في الخَلْق ما يشاء. فاطر: 1. قالوا: هو الصوت الحسن، والصورة الحسنة»(7).

وهذا المدلول لحقيقة الجمال، يتفق مع الآثار التي وردت في الإشادة بالشمائل المحمدية، وقد اتفق هذا المدلول مع ما رُوِيَ عن قتادة، الذي ورد سابقًا، أنه قال: ما بعث اللّهُ نبيًا إلا حسنَ الوجه، حسنَ الصوت، وكان نبيكم عليه الصلاة والسلام حسن الوجه، حسن الصوت.

وما أصدق قول أم معبد، وما أجمله في وصف منطق المصطفى - صلى الله عليه وسلم - بأنه: «حلو المنطق، فصل، لا نزر، ولا هزر، كأن منطقه خرزات نُظمْن».

ومما يُكوِّن الصورة العامة لجمال النبوة وجلالها وكمالها ما ورد في وصف هيئة الرسول عليه الصلاة والسلام، «فلقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فَخْمًا مُفَخَّمًا يتلألأ وجهه كوجه القمر ليلة البدر، إذا سرَّه شيءٌ يتلئ بشْرًا، أزج الحواجب، أي دقيقها، وبين الحاجبين فرق، وفي الفرق عرقٌ يظهر إذا غضب - عليه السلام - من شيء، ولرسول الله نور تعلوه هالةٌ من الضياء، وتشع من فوقه، شديد سواد العينين، واسع الفم، سهل الخدين، أي لا يوجد في أحد خديه علو أو بثور أو ورم، مفلج الأسنان، أي أسنانه مستوية بينها مسافات قليلة، دقيقة، عريض الصدر ما بين المَنكِبَين، عنقه في صفاء الفضة، وفي ظهره خاتم النبوة الذي تحدثت عنه الكتب السماوية السابقة، وكان رسول الله أحسن الناس وجهًا، وأعظمهم خلقًا، إذا جلس يكون كتفه أعلى من جميع الجالسين، وإذا صافحه أحد امتلأت يد المصافح برائحة ذكية كأنها العطر، فقد كانت رائحة رسول الله أطيب من العطر، وكان عرق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أزكى من العطر، وكانت رائحة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تسبقه إلى أي مكان يذهب إليه.

وكان - كما يصفه هند بن أبي هالة -: خافض الطرف نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، يبدأ من يلقاه بالسلام، متواصل الحزن، دائم الفكر، طيب الرائحة، لا يتكلم في غير حاجة.

ولقد ترك رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - من نفسه ثلاثة أمور: الرياء، والإكثار، وما لا يعنيه. وترك الناسَ في ثلاثة أمور: «لا يذم أحدًا، ولا يعيِّرُ أحدًا، ولا يطلب عورة أو عيوب أحد، إذ تكلم سكت جلساؤه، وإذا سكت تكلم أصحابه، كلٌ حسب دوره، لا حسب مكانته، لا يقاطع أحدهم الآخر، ولا يقاطع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أحدهم، وكان صبورًا حليمًا، صبرًا على الغضب، وحلمًا على الجهل، وكان حازمًا في رد النفاق، كان صبيح الوجه، حسن الصوت، عليه الصلاة والسلام».

وما أجمل قول المصطفى - عليه السلام -: «أنا محمد النبيّ الأميّ، ولا نبيّ بعدي»، قالها ثلاثًا: أوتيتُ فواتح الكَلِم، وخواتمه، وعلمت كم خزَنة النار وحَمَلة العرش».

الهوامش:

1- انظر: الشفا في أحوال المصطفى للقاضي عياض، و: السيرة النبوية في مفهوم القاضي عياض، د. أحمد جمال العمري، 205- 210.
2- انظر: الظاهرة الجمالية في الإسلام، ص25، صالح أحمد الشامي.
3- انظر: تاريخ آداب العرب للرافعي، ص290- 291.
4- الشفا في أحوال المصطفى للقاضي عياض، ص81 نقلاً عن: السيرة النبوية في مفهوم القاضي عياض. د. أحمد جمال العمري.
5- انظر: تاريخ آداب العرب للرافعي، 295- 296.
6- السيرة النبوية في مفهوم القاضي عياض، ص: 214، وانظر: الشفا بتحقيق حقوق المصطفى للقاضي عياض.
7- انظر: الظاهرة الجمالية في الإسلام، من ص114- 117.

المسرح: والفنون الأدبية الأخرى

د. زياد الحكيم



المسرحية هي عرض حيّ يؤديه ممثلون أمام جمهور. وهذا أعظم ما يمتاز به الفن المسرحي، وهو أيضًا مفتاح لفهم هذا الفن.

وقد تنبأ بعض النقاد بنهاية الفن المسرحي عندما اختُرعت السينما الناطقة، ونظر بعضهم إلى التلفاز والاهتمام الجديد بالسينما - كفنٍ راق - على أنهما تهديد للفن المسرحي. ولكن الحقيقة هي أن عدد المسارح الجديدة يزداد، وأن كثيرًا من المدن الصغيرة في مختلف أنحاء العالم أصبح فيها فرق مسرحية مقيمة تؤدي عروضًا مسرحية. وتقام مسارح جامعية بأفضل التجهيزات الممكنة. وواضح من زيادة عدد المسارح أن هناك حاجة حقيقية إلى العروض المسرحية.

ولاشك أن لكل من السينما والمسرح نقاط قوة ونقاط ضعف. ولما كانت أعظم نقطة قوة في المسرح هي التأثير النفسي الذي يشكله الممثلون؛ فإن المؤلفين المسرحيين المعاصرين يؤكدون هذه الناحية في الفن المسرحي. فبعضهم مثلاً يفضل المسارح التي يحيط فيها الجمهور بالخشبة من جوانب ثلاثة. في حين أن آخرين يفضلون المسرح الدائري ويكتبون مسرحياتهم بشكل يستفيدون فيه من هذا التصميم. ويذهب بعض الكتّاب الآخرين إلى أبعد من هذا فيجعلون شخصياتهم تختلط بالجمهور. ففي مسرحية وليام كارلوس وليامز «عشاق كثيرون» مثلاً يمكث المخرج والمؤلف بين صفوف الجمهور ويوقفان العرض مرة بعد مرة لمناقشة المسرحية والغرض منها متنقلين في حرية بين عالم المشاهدين وعالم الممثلين. ويشبه تأثير ذلك في الجمهور تأثير الحلم الذي يصحو منه المرء عدة مرات.

ولكن سواء كانت المسرحية تجريبية أو تقليدية كما هو الحال في مسرحية آرثر ميلر «الثمن»، فإن الفن المسرحي يتميز من كل من السينما والشعر والقصة بأنه فن حي.

ست خصائص أساسية للمسرحية (الدراما)

للدراما خصائص تميزها، كما هو الحال في القصة. وتنجم هذه الخصائص عن كون المسرحية عرضًا حيًا. وهناك مسرحيات تفتقر إلى خاصة أو خاصتين من هذه الخصائص، كما تفتقر بعض القصائد الشعرية إلى خاصة الإيقاع، أو كما تفتقر بعض القصص إلى الحوار. والواقع أن هذه الخصائص ليست قواعد، ولكنها مجرد صفات مميزة تتكرر في معظم المسرحيات، ويعدّها معظم المؤلفين المسرحيين مصدر قوة في هذا النوع الأدبي.

1- المسرحية بالتعريف هي فن درامي. وهذا يعني عمومًا أن لها تأثيرًا نفسيًا أو قوة عاطفية؛ ويتشكل هذا التأثير غالبًا في وقت مبكر من المسرحية بسؤال درامي يستحوذ على انتباه الجمهور قبل أن تصبح المسرحية واضحة بوقت طويل. والأسئلة الدرامية عادة مباشرة وبسيطة: هل يشكل

هذا الغـريب خطرًا؟ مـن ينتظر هؤلاء؟ لماذا تمقت هذه الشـخصيات بعضهـا بعضًـا؟ وتتحـول هذه الأسئلة الأوليـة في أغلب الحـالات إلى صراعـات محددة. وعلى الرغم من أن الحـاجة إلى توتر كهذا ليـست ملحـة جدًا فـي المسرحيـات القـصيـرة أو الضـاحكة (الكوميـديات) إلا أنها في العـادة أكثـر إلحاحًا في الدراما منها في القصة أو الشعر.

على أنه مـن الصـعب أن نطيـل بقـاء التـأثير الدرامي؛ ولهذا السبب تصل معظم المسرحيات إلى سلسلة من الذرا مجيزة بذلك لعواطف الجمهور أن تهـدأ بين ذروة وأخـرى. وهـذا النظام من العـمل المسرحي الصـاعد والهابط لا يتبع أي قـانون معين، وهو في الغالب حدسي مـن قبل المؤلف المسرحي - كما هو الحال تمامًا في كتابة القصة القصيرة.

2- الدرامـا فن مرئـي: فالفـعل المسـرحي على الخـشبـة عادة مـا يكون جـزءًا مهـمًـا وعضـويًا من العـرض ككل. ولا يكفـي في القـرن العـشـرين أن تتحرك الشخصيات جيئة وذَهابًا على الخشبة ملقية بالشعر على غـرار ما تفعله الشخصيات في المسرح الإغريقي التقليدي. إن حـركة الشـخصيات على الخـشبـة في أغلب الأحـيان تـساوي في أهميـتهـا التعبيرية أهمية السطور نفسها.

ويذهب الاهتـمام بالجانـب المرئي في المسرحية إلى أبعد من الشخـصيات، فتهيئة المسرح (الديكور) نفـسه غـالبًا مـا تكون جزءًا مـهمًـا آخر في العـرض. ويمكن لنظام الإضاءة المعقـد أن يحيل (الديكور) إلى عامل حركيّ حيّ (ديناميكي) في تطوير الجو في كل مشهـد. أضف إلى ذلك أن إسقاط الصور المتـحركة والثابتة على الخشبة يقوي الجانب المرئي عليها.

3- الدراما فن سمعي: والكلمات في المسرحية هي حديث في المقـام الأول خلافًـا لما هو الحال في القـصـة. ويقـترب الـكاتب المسـرحي في ذلك من الشـاعر أكـثـر مما يقتـرب من الروائي. ويتـعين على المؤلف المسرحي أن يقرأ ما يكتب بصـوت مسموع كما يفعل الشاعر ليتعرّف تأثير الكلمات ووقعها.

ويدفع هذا بعض المؤلفين إلى كتابة مسرحيات شـعرية. في حين أن مـؤلـفين آخـرين يرون الحـوار الدرامي وسـيلة لتشكيل خبـرة حالمة تعتـمـد على الانطبـاعـات أكثـر مما تعتـمـد على حـبكة مطورة تطويرًا مـنطقـيًـا. وهذه خـاصـة مـرتبطـة بمسـرح «اللامعقول». ويمكن أن تكـون فترات الصمت بين السطور ذات مغزى كـبير، ففي أعـمال هارولد بنتر مـثلاً تعـادل فـترات الصـمت في أهمـيتـهـا أهميـة السطور ذاتها أو تكاد.

4- الدراما فن حسّيّ: ويميل المؤلفون المسرحيون المبـتـدئون إلى الاعتـقـاد بأن هذه الخـاصة قـيـد من القيود. فالديكور يجب أن يُبنى بالخشب والمسامير. ولا يسـتطيع النص المسـرحي أن يتـجـاهل مـصـمـم الديكور و(طاقم) الخشبة.

ولكن الجانب الحسي في العـرض المسرحي يُعدّ مصـدر قوة كـبيرة. فـعندما تُقَـدَّم المسرحيـة بشكل واقعي فـإنها تكتـسب نوعًا من المصداقيـة المكثـفة. وعندما تكون المسرحـية تعبيرية فإنها تـفتح الخيال لما هو إيحائي ورمـزي. وهناك جملة من التـقنيات التي تخلط الممثلين بالجمهور والجـمهور بوهم المسرحية. وهي تقنيات لا نجد لها مـثيلاً في أي نوع من الفنون الأخرى بما في ذلك السينما.

5- الدراما فن متصل: يخـتلف جمهور المسرح



وليم شكسبير

عن قـراء القصـة أو الشـعـر في أنه يتلقى المسـرحيـة بالوتيـرة التي يحـددها المـؤلف. فـهـو لا يسـتـطيع التوقف للتأمل في ملاحظة حكيـمة أو حادثة مؤثرة، ولا يسـتطيع العودة إلى صـفحـة سابقـة أو مراجـعة مـشهـد مـضى. وهذه الخـاصة لا تجـعل المسـرحيـة أفضـل أو أسوأ من غـيرها من الفنون، ولكنهـا ميـزة يمكن للكاتب المسرحي أن يستفيد منها.

6- الدراما فن للمـشاهدة: واسـتـجابة الجـمـهور على جانب كبير من الأهمية. ولعل موقف الجمهور هنا أكـثـر أهمـيـة مـن مـوقف جـمـهـور المبـاريات الرياضـيـة. فالشـعـراء لا يهـتـمـون باسـتجـابة قـراء قصـائدهم. ومن النادر أن تجد شـاعرًا يغـير بيتًا من قصيدة له استجابة لمقالة نقدية. والروائيون أكثر تأثرًا بموقف القُـراء من الشعـراء، فجـمهـورهم أوسع من جمـهور الشـعراء، وهم يعـرفون ذلك. ولذلـك فإن كثيـرًا من الروائيين يدخلون تعديلات واسعـة أحيانًا على رواياتهم اسـتجـابة لاقتـراحات المحرر. تـوماس وولف مثلاً وضع ثقته في محـرره ماكسويل بيركنز وأجـاز له أن يحـذف ما شـاء من نصـوص رواياته. وسكوت فـتزجرالد ذهب إلـى أبعد من ذلك فـأعاد كـتابة روايتـه «الليل الهـادئ» بعد نشـرها بسنوات محاولاً أن يتغلب على موقف القُرّاء السلبي منها.

أما المؤلف المسرحي فهو أكثر تحسسًا لاستجابة الجمـهور. فهو قـد يكون شديد التوتـر بينما يجلس في مؤخـرة صالة المسـرح ليلة افـتتاح العـرض. وهو شديد الـتنبه لتلك اللحظات الرهيبـة التي يـضحك فيها الجمهور في الوقت غير المناسب أو التي يتململ فيهـا بدافع الضجر. وتجـده يتسقط التعليـقات التي يتبادلها الجمهور في أثنـاء فترة الاستراحة. وهو يهتم اهتـمامًـا كـبيـرًا - وربما أكثـر مما يجب - بالمقـالات النقدية التي تصدر في الصحف في اليوم التالي.



آرثر ميلر

وهـذا لا يعني أن المؤلف الجـاد هو عبد لما يمليه عليـه النقاد والجـمهور. فـفي أغلب الأحيـان يكون للكاتب تصور أسـاسي للعمل يبقى من دون تغيير. ولكن لما كـان الكاتب يتـعامل مع عرض حي ومع جمهـور يمر بخبرة جماعيـة، فإن اهتمامه باسـتجابة مشاهدية أمر مشروع.

الحدود الطبيعية للدراما

ليس هناك حـدود قـاطعة بين الفنون الأدبيـة. فالقصيدة قد تعتمد اعتـمادًا كبيرًا على لغة رمزية غير غنائيـة، وبذلك تغدو أقـرب إلى النثر. والقصـة التي تتوسع في السرد تبدو أقـرب إلى المقالة. والقصة التي تعتمـد على الحوار اعتمـادًا كبيرًا تقترب من الدراما. ويبـدو أن حدود أي نوع أدبي قـد رُسمت بناء على الأثر الذي يحدثه النوع في نفس المتلقي. وإذا اقترب الكاتب من نوع أدبي آخـر، فـإن مسـؤوليـات معينة

تتولد، وعليه أن يأخذها بالحسبان. ولكن من أجل أن نفـهم الإمكانات الكاملة لأي نوع أدبي علينا أن نستكشف حدوده الخارجية.

من الممكن على سبيل المثال أن تقترب المسرحية من الشعر. فالمسرحيات الإغريقية قد كُتبت شعرًا. وكذلك الدراما الفرنسية الكلاسيكية في القرن السابع عشر. وتخيَّر شكسبير طريقًا وسطًا جاعلاً الشعر المرسل حرًا تمامًا، ولجأ إلى النثر في حوار الشخصيات الهزلية والوضيعة. وكتب الكتاب الأمريكيون في القرن العشرين من أمثال ماكسويل أندرسون وروبرت لويل دراما شعرية لمعالجة موضوعات راهنة. وواضح من هذه الأمثلة أن استخدام الشعر في المسرحية لا يقلل من تأثيرها ولا يبطئ من وتيرتها.

ولكن تبدأ مشكلات الشعر في الدراما بالظهور عندما تقترب الأبيات من التعقيد اللفظي



الكاتبان المسرحيان هارولد بنتر وتينسي وليامز

والمعنوي الذي نربطه غالبًا بالشعر. فالدراما شكل مستمر ولا يستطيع الجمهور أن يراجع الأبيات لفهم استعارة معقدة. ولهذا السبب فإن الشعر المعقد فيها يُعدّ نقطة ضعف وليس نقطة قوة. إذن يمكن أن تقترب الدراما من القصيدة، ولكن يجب ألاّ نخلط بينها وبين الشعر نفسه.

وبالمثل نجد في الدراما عناصر المقالة. فتُعطى الشخصيات غالبًا سطورًا تبدو في القصة ذات نزعة تعليمية وتوجيهية. وقد يلجأ الكاتب المسرحي إلى هذا ضمن حدود معينة تستحوذ على الجمهور من خلال مناجاة تشبه المقالة، إذا كانت هذه المناجاة ليست أطول مما يجب.

وتتوسع بعض المسرحيات في معالجة موضوعات أخلاقية أو اجتماعية أو سياسية. فمسرح المقاومة والاحتجاج، والدراما العمالية في الثلاثينيات من القرن العشرين في الولايات المتحدة ـ كما في مسرحية «بانتظار لفتي» للكاتب كليفورد أوديت مثلاً ـ والمسرحيات الأخلاقية في العصور الوسطى، كلها دراما هادفة بمعنى أن كلاً منها يحمل رسالة معينة ويناصرها، وكان معظمها خبرات مسرحية مؤثرة بالنسبة إلى الجمهور في ذلك الوقت.

وتتميز هذه المسرحيات بكونها مبسطة من الناحية الأدبية. وهي تعتمد على موضوعات الساعة سواء السياسية منها أو الأخلاقية. ولكن ما إن يفوت الوقت على هذه الموضوعات حتى تغدو المسرحيات عتيقة الطراز. إن مسرحية «مغزى» للكاتب سكلتون مثلاً حظيت بنجاح وافر عند أولئك الذي عانوا من تطرف هنري الثامن قبل خمسمئة عام. وأمتعت مسرحية «ماكبرد» للكاتبة باربرا غارسون نقاد الرئيس جونسون عام 1966م. غير أن المسرحيتين مبنيتان على موضوعات سياسية واجتماعية لا تغري رواد المسرح اليوم بمشاهدتها.

ومن غير المفيد أن نجادل فيما إذا كان يجب على المسرحية أن تعالج قضايا اجتماعية راهنة أو أن تكون ذات رسالة كما هو الحال في المقالة، أو فيما إذا كان يجب عليها أن تهتم بالموضوعات الإنسانية ذات المضامين التي لا يمكن أن ينال منها الزمن. إن لكل من هذين الاتجاهين فوائده المختلفة ويؤدي وظائف مختلفة: فالأول يؤثر في المجتمع الراهن تأثيرًا محددًا، وبذلك يقوم بمهمة الإصلاح، في حين أن الثاني يتمتع بصفة الاستمرارية والبقاء والقدرة على مخاطبة الثقافات المختلفة عبر القرون.

وكما هو الحال في الدراما الشعرية هناك مشكلة ضعف قوة التأثير. فإذا كانت المسرحية تشبه المقالة شبهًا كبيرًا فإنها تفقد الوهم الدرامي الذي يجيز للجمهور أن يدخل إلى العمل المسرحي وأن يتأثر به، فيظل المشاهد خارج العمل كما لو كان يستمع إلى خطبة، وفي هذه الحال تفقد الدراما القدرة على إثارة عواطف الجمهور وذكرياته، وتفقد القدرة على التعليم من طريق المثال الحي. إذن يستطيع الكاتب المسرحي أن يتحرك باتجاه المقالة ولكنه يجب ألاّ يخلط بين المسرحية والمقالة كنوعين أدبيين.

وعلى الرغم من أن الدراما في بعض نواحيها تشبه القصة، إلا أنها تفقد الكثير من فعاليتها، إذا أجيز لها أن تهيم بعيدًا في هذا الاتجاه أيضًا. فالحبكات القصصية في الغالب تفتقر إلى الوحدة الدرامية الضرورية في العروض المسرحية. وهي تقفز عدة قفزات في الزمان والمكان. أما الدراما من الناحية الأخرى فتمتاز بوحدة أكبر. وهناك استثناءات كثيرة، غير أن القيود الميكانيكية للديكور والحاجة إلى الانسجام تشجع الكاتب المسرحي على جعل حبكته تتحرك في نسق تاريخي ودون تنقل كثير في المكان.

ومن الخصائص الأخرى للقصة أنها تستعمل الخاطرة. وبإمكان الدراما الإفادة من هذه الخاصة بجعل الشخصيات تتحدث عن نفسها أو تخاطب الجمهور مباشرة أو باستخدام (الجوقة) أو بالاستماع إلى شريط مسجل. وعلى أي حال، تعتمد المسرحية عمومًا على مصادر القوة فيها؛ أي على الفعل المسرحي والحوار، فبإمكان الجمهور تَعَرُّف أفكار الشخصية بالاعتماد على ما تفعله وما تقوله. ومن شأن التعبير عن الخواطر بصورة مباشرة أن يبطئ الوتيرة في المسرحية، وهو أقل استخدامًا في المسرحية مما هو في القصة.

هناك استثناءات لكل ما ذكرناه عن حدود الدراما. فالتجريب في المسرح اليوم يفوق ما كان عليه في أي وقت في التاريخ. إننا نجد مسرحيات تتحرك بحرية إلى أمام وإلى وراء زمنيًا مثل أي رواية فضفاضة، كما في مسرحية «بعد السقوط» لأرثر ميلر. وهناك مسرحيات لا تستفيد من العنصر البصري كما في مسرحية «المذكرات الكاملة لبرنارد ميرجينديلر» لجولز فيفر، وهي مسرحية تُعرض في ظلام دامس. وهناك مسرحيات ليس فيها ممثلون كما في مسرحية «الرغبة» لبيكاسو، وهي مؤلفة من مشهد كامل يصور «رقصة» لجسمين متحركين.

ولكن لاشك أن العروض الحية التي تُقدَّم على الخشبة تمتاز بمصادر قوة لا نجد لها مثيلاً في الأنواع الأدبية الأخرى. ويهتم بعض المؤلفين المسرحيين بتطوير هذه المصادر والاستفادة منها أكثر مما يهتمون بمحاكاة تلك الأنواع الأدبية.

المراجع:

Archer, William Playmaking (Chapman Hall, 1988).
Baker, George Pierce Dramatic Technique (Houghton Mifflin, 1982).
Compton, David Becoming a Playwright (Robert Hale, 1992).
Egri, Lajos Dramatic Writing (Pitman 1990).

قصة قصيدة

حُب لم يَدُم

كتب هذه الحلقة: **عبدالعزيز بن صالح العسكر**

قال عروة بن الورد:

أرقت وصحبتي، بمضيق عمق، ... لبرقٍ، في تهامة مستطير
إذا قلت استهلّ على قديد، ... يحور رَبَابُهُ حَوَرَ الكسير(1)
تَكَشُّفَ عائذٍ بَلقاءَ تنفي ... ذكور الخيل عن ولدٍ شَفور(2)
سقى سلمى، وأين ديارُ سلمى، ... إذا حلت مجاورة السرير(3)
إذا حَلَّت بأرض بني عليّ ... وأهلي بين زامرة وكِير(4)
ذكرت منازلاً من أمّ وهبٍ ... محلَّ الحيّ أسفل ذي النقير
وأحدث معهدًا من أم وهب ... مُعَرَّسُنا بدار بني النضير
وقالوا: ما تشاء؟ فقلت: ألهو ... إلى الإصباح، آثِرَ ذي أثير
بآنسةِ الحديث، رُضابُ فيها، ... بُعيدَ النوم، كالعنب العصير
أطعت الآمرين بصرم سلمى، ... فطاروا في عضاه اليَستعور(5)
سقوني النَّسْءَ، ثم تكنّفوني ... عُداةُ الله من كَذِبٍ وزُور(6)
وقالوا: لست بعد فداء سلمى، ... بمُغْنٍ، ما لديك، ولا فقير
ألا وأبيك، لو كاليوم أمري، ... ومن لك بالتَّدبُّر في الأمور
إذًا لملكت عصمة أمّ وهبٍ، ... على ما كان من حسك الصُّدور(7)
فيا لَلنَّاس! كيف غلبت نفسي ... على شيء، ويكرهه ضميري
ألا يا ليتني عاصيت طلقًا، ... وجبّارًا، ومن لي من أمير(8)

الشاعر قائل هذه القصيدة هو: عروة بن الورد بن زيد العبسي، من غطفان، من شعراء الجاهلية وفرسانها وأجوادها، كان يلقب بعروة الصعاليك، لجمعه إياهم، وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم. قال عبدالملك بن مروان: من قال إن حاتمًا أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد. قيل إن سبب تلقيبه بـ «الصعلوك» بسبب قوله:

لحا الله صعلوكًا، إذا جَنَّ ليله
مشى في المشاش آلفًا كل مَجْزَرِ

كانت وفاته سنة 30 قبل الهجرة تقريبًا، وله ديوان شعر مطبوع.

وبين يدي الحديث عن قصة القصيدة ومناسبتها، لابد من أن نشير إلى أنَّ عروة كان قائدًا فذًّا؛ فهو - كما أسلفنا - قائدٌ للصعاليك، وهو فذٌّ لأنه كان يؤثرهم على نفسه ويتحمل من أجل الضعفاء والفقراء المشاق والمصاعب، وينسى جَوْعَةَ بطنه وألم جسمه في سبيل المجد - كما يراه -. إنّه يصور موقفه ممن يلومه على التضحية والبذل والإيثار حينما يجيبهم بقوله:

إني امرؤ عافي إنائي شِرْكَةٌ
وأنت امرؤ عافي إنائك واحد
أتهزأ مني أن سمنتَ، وأن ترى
بوجهي شحوبَ الحقِّ، والحق جاهد
أُقَسِّمُ جسمي في جسوم كثيرة،
وأحسو قراح الماء، والماء بارد

أيها اللائم إنك امرؤ تستأثر بإنائك، ولا يشاركك أحد في طعام أو شراب، ولذا بدا الفرق بيني وبينك واضحًا وكبيرًا، أنت تحمل جسمًا ممتلئًا تبدو عليه آثار السمن، وأنا امرؤ يميزني الشحوب، وتظهر عليّ علامات الإجهاد والتعب.. وما السبب في ذلك؟ إنّه واضح ومعروف فأنا:

أُقَسِّمُ جسمي في جسوم كثيرة

والحقُّ جاهد.. وحقًا ما قال، فشتان ما بين من يعيش لنفسه ومن يعيش لغيره! فالأول تسيّره شهواته الشخصية، ويحكمه

مزاجه وأنانيته، ولا يرى أبعد من أرنبة أنفه، ويعيش ما عاش صغيرًا ويموت حقيرًا، ثم يُنْسَى ولا يبقى لاسمه ذكر!. أما الثاني فإنّه يعيش كبيرًا نابهًا عالي الذكر والشأن، وهو يحفر - بأعماله وبطولاته وسخائه وجوده - يحفر بكل ذلك اسمه حفرًا في التاريخ، فإن عاش عاش معززًا مكرمًا، وإن مات بقي ذكره خالدًا في التاريخ.

ولنعد إلى قصيدة عروة. فقد ورد في مناسبة الأبيات وقصتها: أن الشاعر أصاب امرأة من بني كنانة بكرًا يقال لها سلمى، وتكنى أمّ وهب، فأعتقها واتخذها لنفسه، فمكثت عنده بضع عشرة سنة، وولدت له أولادًا، وهو لا يشكّ في أنّها أرغب الناس فيه، وهي تقول له: لو حججت بي، فأمرّ على أهلي وأراهم. فحجَّ بها فأتى مكة ثم أتى المدينة، وكان يخالط من أهل يثرب بني النّضير، فيقرضونه إن احتاج ويبايعهم إذا غنم.

وكان قومها يخالطون بني النّضير، فأتوهم، وهو عندهم، فقالت لهم سلمى: إنه خارج بي قبل أن يخرج الشهر الحرام. فتعالوا إليه وأخبروه أنكم تستحيون أن تكون امرأة منكم معروفة النّسب، صحيحته، سبيّةً، وافتدوني منه، فإنّه لا يرى أن أفارقه، ولا أختار عليه أحدًا. فأتوه، فسقوه الشّراب، فلمّا ثمل قالوا له: فادنا بصاحبتنا، فإنّها وسيطة النّسب فينا، معروفةٌ، وإنّ علينا سُبّة أن تكون سبيَّةً، فإذا صارت إلينا وأردت معاودتها، فاخطبها إلينا، فإنّنا ننكحك.

فقال لهم: ذاك لكم، ولكن لي الشّرط فيها أن تُخَيِّروها؛ فإن اختارتني انطلقت معي إلى ولدها، وإن اختارتكم انطلقتم بها.

قالوا: ذاك لك.

قال: دعوني الليلة وأفاديها غدًا.

فلما كان الغد جاؤوه فامتنع من فدائها. فقالوا له: قد فاديتنا بها منذ البارحة. وشهد بذلك جماعةٌ ممن حضر، فلم يقدر على الامتناع وفاداها. فلمّا فادوه بها خيّروها فاختارت أهلها، ثم أقبلت عليه فقالت:

يا عروة: أما إنّي أقول فيك، وإن فارقتك، الحق. والله ما أعلم امرأةً من العرب ألقت سترها على بعلٍ خير منك وأغضّ طرفًا وأقل فحشًا وأجود يدًا وأحمى للحقيقة. وما مرّ عليّ يومٌ، منذ كنت عندك، إلا والموت فيه أحب إليّ من الحياة بين قومك لأنني لم أكن أشاء أن أسمع امرأةً من قومك تقول: قالت أَمَةُ عروة كذا وكذا، إلاّ سمعته. ووالله لا أنظر في وجه غطفانية أبدًا. فارجع راشدًا إلى ولدك وأحسن إليهم.

فكان من نتاج ذلك الحوار وتلك الحيلة والشِّدة القصيدة التي نعرض لها(9).

ونستطيع أن نخلص من دراسة القصيدة وقصتها إلى الحقائق التالية:

1- حرص العرب على القيم والمبادئ التي كانت تسود مجتمعاتهم وتحكمها؛ فهذا عروة يتخذ «الكنانية» زوجة بعد أن أعتقها، ثم يلبي رغبتها في زيارة أهلها - وهو يحسن النيّة بطلبها -، ثم إن قومها لم يعمدوا إلى أخذها منه بالقوة، وإنما حاكموه إلى القيم التي يؤمن بها.. ثم يستسلم في النهاية لما أقدم عليه وسيق له بالحيلة.. كان الدافع إلى تلك الأعمال جميعها إيمان العرب بمبادئهم ومحافظتهم عليها.

2 - قد يستمر الحبّ ولكنه لا يدوم! وبعبارة أخرى قد تطول المودة ولكنّ طولها لا يعني عمقًا في النفس أو قناعة من الطرفين.. وإنّما طالت لعدم إمكان العلاج وهي بطولها مدة انتظار للفرج! وهذا ما كان في بضع عشرة سنة عاشتها «الكنانية» عند عروة.

3 - «سَقَوني النَّسْءَ»، والجاهليون على ما كان عندهم من مثل وقيم عليا، من مثل: النجدة والشجاعة والعفّة والكرم.. لم تمنعهم تلك القيم من اقتراف ما يكدر صفوها، فـ «بنت الكرم» - كما كانوا يلقبونها - كانت تلعب بعقولهم، وتسفه أحلامهم، ولطالما أوقعتهم في المهالك، وفرّقت شملهم، ودمرت ما بنوه من حب وشرف وصلات.

4 - ويبلغ الصّدق وألم الفراق حدّه حينما يتذكر الشاعر ويردد حقيقة لاجدال فيها: «لو كاليوم أمري»، «إذا لملكت عصمة أمّ وهب»، وأنا حينما أفعل ذلك لن يحول بيني وبينه غل وعداوة.. لقد تركتها حينما سرت عليّ حيلتهم، وحجبت عقلي خمرهم.

5 - ولا يلام محب حينما يبكي على محبوبه؛ وبخاصة حينما يكون المحبوب شريكة الحياة، ذاق معها قرينها حلو الحياة ومرها لعدد من السنين.. وتاريخ الأدب العربي يسجل في ذلك دواوين وأسفارًا سطَّرها الشعراء والشاعرات بمداد دموعهم ودمائهم، وهذا الميدان من أرحب ميادين القول وأوسعها عند شعراء العربية على مر العصور..

ولقد وَقَفْتُ على دواوين خصَّها أصحابها بهذا الباب، ومنهم في العصر الحديث محمد رجب البيومي في ديوانه «حصاد الدمع» وهو في رثاء زوجته.

وفي المقابل: الشاعرة: أمينة قطب في ديوانها «رسائل إلى شهيد» وهو ديوان كامل ضَمَّ مشاعر الشاعرة وشجونها في رثاء زوجها.

الهوامش:

1- يرجع ربابه وهو السحاب، والكسير: الذي يبطئ في المشي.
2- يتكشف البرق تكشف عائذ والعائذ: حديثة النتاج من الخيل وهي تطرد ذكور الخيل عن ولدها.
3- السرير: موضع في بلاد بني كنانة.
4- زامرة وكير: موضعان.
5- اليستعور: موضع فيه عضاه من سمر وطلح.
6- النَّسْء: الشراب القوي المزيل للعقل.
7- الحسك: الغل والعداوة.
8- الأمير هنا: المستشار، وطلق وجبار: أخوه وابن عمه.
9- انظر ديوان الشاعر. وفي أخبار الشاعر انظر: الأعلام ج4 ص227، وجمهرة أشعار العرب ج2 ص579.

خواطر مجنحة..

اختزال اللغة وإطلاق الدلالة!

حين نفتش في معاجم اللغة عن مدلول «خواطر» و«مجنحة» نجدها تقودنا إلى معان تقربنا من معطيات ذلك العنوان الذي اخترت أن أنطلق منه، لأتحدث عن صاحبه. فالعنوان ذو إغراء، والكتاب الذي سُمِّي به فيه تلك المعاني التي حملها العنوان، وفيه معايير أو قل تفريعات لغتنا الشاعرة، التي تفنن كاتبنا في صياغة معانيها المباشرة والمجازية، لأنه عاشق لهذه اللغة، ولا يرقى إلى إتقان العمل المتخَيَّر إلا عاشق، ذلك أن الممارسة وحدها لا تحقق إتقانًا، ولا تفضي إلى معانٍ مبتكرة وإيجابيات، فاللغة فلسفة تحملها أو تؤديها كلمات تقرأ من خلف معاني حروفها، التي هي رسم توحي إليها رمزًا لا تصريحًا، لأنها بيان، من خصائصه المشعة أنه «سحر»!



عبدالفتاح أبو مدين

ولقد قرأت، وقرأ العالمون بمزايا اللغة العربية وجمالها، أن البلاغة «إيجاز»، وقالوا: كل بلاغة فصاحة، وليس كل فصيح بليغًا؛ فالبلاغة أصل سحر البيان، لأنها اختزال وإطلاق دلالة، تقود إلى خصائص جمالية، منها: فكرة التوقيعات، والاستعارة، والطباق، والمقابلة، والجناس.. إلخ.

وحين نتوقف عند العنوان: «خواطر مجنحة»، نتأمل: بماذا توحي هذه الجملة الاسمية؟ حين نجنح إلى معاجم اللغة، نجد تفسير لفظة «خطر» الأمر له: لاح في فكره، والخاطر يجمع على خواطر، وهو ما يخطر بالقلب من أمر أو تدبير، والهاجس قد يُطلق على القلب والنفس مجازًا، فيقال: وقع في خاطري، أي في نفسي، و: جاش الشعر في خاطري، وفلان سريع الخاطر، أي عاجل البديهة. ومن اشتقاق هذه اللفظة ومعانيها، أن يقال: فلان ليس له خطير، أي عديل، بمعنى أنه شريف. وخَطُر: صار رفيع المقام وذا قدر، فهو خطير!

وإذا تحوّلنا إلى اللفظة الأخرى «مجنحة»، فتقول المعاجم: جنح إلى كذا: مال إليه. وسُمِّي الجناحان جناحين لميلهما في الشقين، ويقال للطائفة من الليل: جُنح وجِنح، كأنه شبه بالجناح، وهو طائفة من جسم الطائر، استعير للَّيل هيكل. والجوانح: الأضلاع، لأنها مائلة، وجنحت الإبل: أسرعت، فهذا من الجناح، كأنها أعملت الأجنحة! وفي الكتاب العزيز: *وإن جَنَحوا للسَّلْمِ فَاجنَح لها*. **الأنفال**:61. أي مالوا إلى السلام.

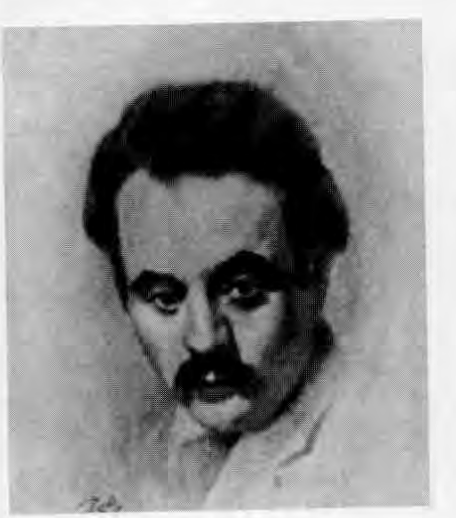
إذن.. فهذا العنوان الذي أمامنا يعني ما يعتمل في النفس من إيحاءات سريعة طائرة، والطيران هنا السرعة التي تؤول إلى إيجاز يحمل معاني ذات معان، فيها ميل للتحليق من مدلول اللفظة. والكلام الجيّد، حين يوسَم أو يُعنوَن بهاجسِ النفس والفضاء الواسع، لأنه مجنح، فطابعه السرعَة، وهو في الوقت نفسه يبعد بنا من الأرض إلى مساحات انعدام الوزن، فيكون المدلول للمضمون أو للنص من عالم غير عاديّ، وهذا ما يفضي به، عبر كلمات قصار تتجاوز مدلولها التلقائي، إلى مدلول جديد، عبر إيحاء ألفاظ اتّخذت من الطيران عنوانًا ومعنى، في حركتها الظاهرة، ولكنها تحمل عمقًا، وهو القيمة في معطياتها، التي تجعلها أثيرة، يحفل بها الفكر المجدد، الذي استثقل الرتابة، لأن ألفاظها فقدت معانيها من كثرة التكرار والتداول، ولاسيما حينما يتناولها قلم ركيك، وفكر يجنح إلى الدعة والخمول، ويؤثر العافية، لأنه رخي، رضي بما نال، وهو لم ينل شيئًا.

ومقالتي هذه عن رجل صنّاعة للمعاني، لأنه عاشق للغته الشاعرة، وعندي أنه خطيب أكثر منه كاتبًا، أعني البلاغة في عباراته وما يجري على لسانه، فهو يتحدث على سجيته، ولعله قبل ذلك، يزوّر في نفسه الألفاظ لتنداح جمالاً، مما تحمل من مدلولات تضفي عليها رونقًا فيه عمق البلاغة وسحر البيان، حين يجري تلقائيًا، وقد ارتسمت المناسبة التي أمام الخطيب، ليعطيها حظها من الوصف، في قول بديع، ذي بداعة من الاستعارة والطلاوة والصفاء والتشبيه الذي يوائم العبارة المجنّحة، وكأنّ الخطيب يعبُر الفضاء على جناح، وأمامه الأبراج ودراري السماء، ينظم منها عقودًا، ثم يعرضها على أشعة البدر، مثمنا أقيامها في مقوماتها الجمالية، عبر رؤى من قوارير، في بهائها وصفائها، وبعده من الأرض التي حفلت بما أفسد الجمال والمتاع الراقي، الذي يغني الخيال الشاعر، فيكون الحلم اللائح للذين يعشقون الجمال الوديع، نقيًا، كندى الفجر، وأشعة البدر؛ وصفاء الملهمين.

وعلى أني أمام لغة كثيرة المعاني، إلا أنها قليلة الكلمات لأنها بليغة، غير أن الاستطراد يطاردني، ولعلها عدوى من الأستاذ العميد، وهو يشكو الحال نفسها،



مصطفى صادق الرافعي



جبران خليل جبران



محمد حسين زيدان

ويردها إلى الأستاذ المازني، رحمهما اللّه.

صاحبي الذي اخترت، أستمتع به خطيبًا أكثر منه كاتبًا، ولعل الكتابة تشغله عن عباراته الهائمة، وهو يرسمها بالقلم أو يمليها في أيام سنيه الأخيرة إلى من يكتبها، ولعل ترداد الكلمة في إبطاء رسمها يعوق اندلاع العبارة التي نقرؤها بأسماعنا من خطيبنا، الذي لا يُعنَى بالمقدمات، لأن العبارات تتدافع لتسبق لسانه، وهو قد صبغها بتلك الألوان، التي أتقنها من قراءاته واختياراته، في التراث ومنه؛ فهو مغرم بالرافعي، في معانيه ومتن معجمه وتركيباته الجزلة الناضحة بالبلاغة الواضحة. ذلكم هو الأستاذ محمد حسين زيدان، يرحمه اللّه.

والزيدان، إذا تحدث تهيب غيره أن يكون بعده خطيبًا، لأن الأول لم يترك للآخر ما يقول، مع أن الزيدان لم يكن يطيل حين يقول وحين يكتب، وتلك سمات البلاغة والفصاحة، لأنها الإيجاز في غير إخلال، كما قالت العرب.

ليلة احتفاء نادي جدة بهذا العلم مساء يوم 1408/6/26هـ، وقد تحدث رجال كبار في تلك الليلة، تقديراً لهذا الرائد والرمز. وحين انتهى الشعراء والخطباء من أقوالهم، وقف الزيدان، ليشكر، بتلك المعاني التي وعاها وأتقنها وكساها حليًا غاليًا، ليس معدنًا وأحجارا كريمة، ولكنّها خواطر أثمن وأغلى وأنفس، فهي بلاغة من استعارة وتشبيه ومجاز مرسل وكناية وجناس وطباق، مما يتفاعل في نفسه من فكر بلاغي، في تناغم صاف كالجدول الرقراق، وهو ما يزهو به صفوة البلغاء المتميزين، في أمتنا المجيدة!

وقف الزيدان ليقول، من جماليات العبارات الرفّافة: «إن أحمد جمال زخرف جريدة الندوة، حين زخرفني بما كتب، وي، هل أنا عند صاحب الثبات والإثبات في منزلة التكريم، لم يحضرها وإنما حاضر عنها». هذا البيان غير محتاج مني إلى بيان، وقال عن أحد الغائبين الذي كتب يوم تكريمه ولم يحضر للنادي: «أجاد فيما كتب.. لا، بل جاد فيما كتب، فليس كل إجادة جودًا، بل كل الجود.. إجادة». وعن الأستاذ عبدالمقصود خوجة، الذي كان خارج البلاد، وهاتف أنه سيحضر، وقال له الزيدان لا تجشم نفسك عناء الحضور، وحين جاء وتكلم، رد الزيدان: «أشكره ليس حرفًا في كلمة، وإنما هو الحرف من وجود الكلمة، في وجدان المتكلم». وقال الزيدان: «تكرّموا فكرموني، فلم يمد أحدهم يده إلى جيبه، وإنما التي امتدت ندوة رخاء، من نسائم القلب، فإذا أنا آتيه رهوًا ولا آتيه ضياعًا، أتأوه من كلمة رقصت، ومنعني الحياء أن أتراقص بها، ولكن الحياة مازالت راقصة، كأنها قد أعادت إليَّ الناعية: يموت الكتكوت وعينه في الدشيشة». وقال: «والأستاذ أبوالضياء عزيز، مازال هو العزيز.. الذي يحكمني أن أركب بعيري لأمتار من فيضه، فليس هو يوسف عليه السلام، ولا أنا أحد إخوة يوسف، هم امتاروا ما يُكال، وأنا أمتار نظيم الكيل، تكبد المشقة، وما يدري أنه استراح بالوفاء». وقال الزيدان: «وشاعرنا، وأنا من هذه الأمة، الأستاذ عبداللّه بلخير، حين كرمني بالنثر، وتمنيت لو كرمني بالشعر، لكن النثر أوسع مجالاً للثناء، وإلا فله الشكر أن وقف أمام المذياع يتكلم، مع أنه يوم كان وزيراً للمذياع، يتكلم عنه». وقال الأستاذ: «وارتقى المنبر شاعر المدينة الأستاذ هاشم رشيد، فرد اغترابي عنها، إلى اقترابي منها». وقال: «أما الدكتور عبداللّه الغذّامي، فما خرج من طبعه، وإنما أخرجني من انطباع. كان خطابه ملء إهابه، ملء مواهبه، كرّمني، فإذا بعض السامعات العارفات قلن: هو الغذّامي، هو الغذّامي، كأنه سرق المذياع، كقول المصورين: سرق الكاميرا، والخطيب البارع يسرق المذياع، لأن صوته ومعرفته، هي الإذاعة، بدون مذياع».

وذكر أحد حاضري تكريمه، فقال: «كأني كنت الذي أزوره «ضحى» كل يوم، يوم كان لي «ضحى»، لأني أصبحت أعيش «المساء»..». وهذا يعني، أن بصره قد عشا، ضعف، فضحاه أصبحت ليلاً. ولست أطيل الحديث، وإن كان الكلام الجوهر ينبغي أن يطول الوقوف معه، ولا أقول عليه، ولن أنسى تلك الكلمات التي غامت بها عينا الأستاذ الزيدان، وهو يدب إلى منصة الخطابة، فقال: «هذا حفل وداع»، كأنه استشعر الرحيل من مشاعر التكريم، وهزت هذه الجملة كل من سمعها ظاهراً وباطنًا؛ ولعل موقفًا كهذا يذكر ذوي الشفافية النفسية بالوداع، كما قال الزيدان.

ولست أتوقف مع تلك الكلمات، التي ألقى بها الرجل المكرَّم ردًا على تحيات الذين جاؤوا مشاركين متحدّثين وحفاوتهم، ففي كلمات الزيدان حروف نسقها إبهار في معاني الدلالة، يتكئ عليها بلسان ذلق، فاللمحة من الخطيب تجري فيما يقول، والإلماح يُغني فيه، كما في سر الفصاحة، وصدق زهير بن أبي سلمى القائل - والبيتان ينسبان كذلك، لأبي الأعور السلمي -:

وكائِن تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعجِب
زِيادَتُهُ أو نَقْصُهُ في التكلّم
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ
فلم يبقَ إلا صورةُ اللحمِ والدَّمِ

وقال أبو تمام:

ومِمّا كانت الحكماءُ قالت
لسانُ المرءِ من خَدَمِ الفؤاد

ومن المجاز عن منطق الطير قول القائل:

عجبتُ لها أنّى يكون غناؤها
فصيحًا ولم تَفْغَر بمنطقها فمًا

ومن الاستعارة قول الخنساء:

وداهية من دواهي المَنون
ترهّبها الناس لا فا لها

فجعلت للداهية فما ـ استعارة ـ، وقال الشاعر:

وسألتُ من لا يستجيبُ فكنتُ في اسْـ
ـتخباره كمُجيب مَنْ لا يسألُ

وهذا دليل على أن العرب عُنيت بشرف الكلام، وأن القليل المفيد منه عندهم كثير، فيقولون: «وقال فلان في كلمته» يريدون القصيدة، وقالوا: والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر. وسمّوا الكلام الفصيح بيانًا؛ لإعرابه عما عُبِّر به عنه، وإظهاره له إظهارًا جليًا. وقال سهل بن هارون (ت:215هـ) الكاتب البليغ: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم. وقال علماء اللغة: إن الكلام اسم للمصدر، والمصدر التكلم؛ قال تعالى: *وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا*. **النساء:164**. والكلم: اسم يدل على الجنس، وتكالَمَا: تدل على المشاركة. والكلام مهمل ومستعمل؛ فالمهمل ما لم يوضع في اللغة، والمستعمل: هو الموضوع لمعنى أو فائدة. والكلام يفيد بالمواضعة أي ما اصطلح عليه. والكلام أجل ما يوصف به الإنسان. ويقال للإنسان الذي يورد ما تقل فائدته: هذا ليس بكلام. وليس أدل على ذلك من قول النبي صلى الله عليه وسلم للعباس، وقد سأله: فيم الجمال؟ فقال: «في اللسان». ونقل صاحب سر الفصاحة، فقال: «لما دخل ضمرة بن ضمرة بن جابر النهشلي ـ وهو شاعر جاهلي من الشجعان الرؤساء ـ على النعمان بن المنذر، احتقره النعمان لما رأى من دمامته، وقال: تسمعُ بالمُعَيْديّ خيرٌ من أن تَرَاه. فقال: أبيتَ اللعن، إن الرجال لا تُكالُ بالقفزان، وليست تستقي فيها، وإنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، إن صال، صال بجنان، وإن نطق، نطق بلسان، وأنشد:

وكائن تَرَى من صامت لك معجب
زيادتُه أو نقصُه في التكلم».

ومن ذلك قول طرفة بن العبد:

فإن القوافي يَتّلجْنَ موالجا
تَضَايَقُ عنها أن تولّجها الإبَرْ

إن الفصاحة كما تقول العرب: الظهور والبيان، ومنها أفصح اللبن، إذا انجلت رغوته، قال الشاعر:

وتحت الرُّغوة اللبن الفصيح

وقالوا أفصح الصبح إذا بان ضوءه، وأفصح كلُّ شيء إذا وضح، وفي الكتاب العزيز: *وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي*. **القصص:34**. وسُمي الكلام الفصيح بيانًا، لإعرابه عما عبّر عنه، وإظهاره إظهارًا جليًا. والفرق بين الفصاحة والبلاغة، أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفًا للألفاظ مع المعاني، وقد حَدَّ الناس البلاغة بحدود، فمن ذلك قول بعضهم: «لمحة دالة». والبلاغة اختيار الكلام، والفصاحة شطرها وأحد جزأيها. والبيان عطاء الله لعباده، حيث علمهم البيان والجمال في اللسان. وإن من وَضْع الألفاظ في مواضعها حسن الاستعارة، وهي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل، مثل قول الله تعالى: *وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا*. **مريم:4**. استعارة، لأن الاشتعال للنار، ولم يوضع في أصل اللغة للشيب، فلما نُقل إليه بان المعنى لما اكتسبه من الشبيه. وحقيقة هذا المعنى: «كثر شيب الرأس».

تجنيح الخواطر..!

حين أتحدث عن بيان الأستاذ الزيدان، رحمه الله، وهو من هو: ذلاقة لسان، وأمير بيان، لأنه يُعنى بجماليات اللغة، بكل مواصفات الجمال فيها. تقرأ أذنك، وتسمع عينك توقيعاته، حين يجعل بين تضاعيف عباراته مقاصد الحاجة، بحذف الفضول. والذَّلاقة: أن يعتمد عليها بذَلَق اللسان، وهو طرفه، وتعني البلاغة والفصاحة، وذلق كل شيء: حده. وكأني بالمتنبي ينشد بين يدي كافور الإخشيدي:

وهل نافعي أن تُرْفَعَ الحُجْبُ بيننا
ودونَ الذي أمَّلْتُ منك حجَابُ
وفي النفس حاجاتٌ وفيكَ فَطَانَةٌ
سُكُوتي بيانٌ عِندَهَا وخِطَابُ

الزيدان ذو أسلوب فريد في تركيباته وألفاظه التي تحمل ما يشبه المفاجآت للمتلقي، عبر تلك الأنغام، كأنه يعزف «سيمفونية»!

فليس حديثي أن أحيط بكل مناحي كتابات الرجل، رحمه الله، وإنما عن مظهر واحد من مظاهر آثاره، وهو عنايته وبراعته في سبحه اللغوي، لأن ما يمارسه الزيدان من فن جميل، يأتي على نحو توقيعات، وهو يبعد من الحشو، لأن الحشو يفسد جمال البلاغة، ويضيع بدائع الإيقاع والتشبيه والاستعارة والدلالة والجناس والطباق. والسَّردُ والاستطرادُ يفسدان تركيب العبارة الملمحة، واقتناص اللفظة الشاردة، وهي إيحاء يتلقفها بذهنه المتقد، لتكون التعبير المبتكر، لأنه بكر في سباق الخطاب الوجيز، الذي يزدحم بالمعاني المشعة في مدلولات التركيب اللغوي من خلال الروافد الجمالية التي تغنيه وتثريه. فيه حلي جميل من جواهر الألفاظ المتجددة، وتلك سمة الأديب المبتكر المجدد، الذي يروعك حين يتحدث من غير ظواهر: أما بعد، لأن انطلاقة العبارة المجنحة أغنت عن التقديم وتهيئة الأذهان لتلقي إيحاء تناسق حروف «فن القول»، ليكون على غير مثال، لأنه إبداع، والزيدان مبدع في هذا النمط من الخطاب، لأنه متوثب الخيال، بصير بإيقاع نغم العبارة التي يرسلها، وقد زوّرها في وجدانه، فكانت شعرًا من مشاعر. وهو حتى حين يأتي بالاستعارة المقلوبة، في سياق خطابه، يتفوق فيما برع فيه فطاحل خطباء العرب، وقد أعجز الارتجال الكثير من بلغائهم.

قبل أن ألامس صفحات الخواطر المجنحة، أريد أن أشير إلى أن أستاذنا الزيدان عليه رحمات ربي، مهندس بياني وخطيب متفنن، فحين يقول: «فاللّذة بالألم فلسفة»، ويقول: «الألم هو اللّذة»، فإن هذا يعني أن الألم طريق إلى اللّذة، ليكون أثرها أعمق، لأنها جاءت بعد عناء ونَصَب، وهي تختلف عن لذة ترف؛ تختلف عن الأخرى، فالأولى عبر رحلة «ألم» ومعاناة وشقاء، وحين يعقبها انفراج وتحوّل إلى الأمتع، يكون لهذا التحوّل مذاقُ الشهد المصفّى، وهو غير سبل مذاق لم يسبقه مسغبة ومخمصة واحتراق، كأن ذائق العذاب يشبه البخور الذي يضوع طيبًا حين يحترق، وكأن الذين يبحثون عن اللذة يسعون إليها بطريق العذاب، ليكون الاستمتاع ملمسًا حريريًا، ولذلك يقول جبران خليل جبران: «ابتغوا اللذة بالألم، وابتغوا الألم بالحب». إذن الحب يقود إلى الألم، لأن الحب حرمان ومرارة، يدفع إلى مثله، لينتج من مضاعفات الألم لذة وفجر وحلم جميل. الطريق الصعب يوصل إلى هذه: إننا في معادلة رياضية رائعة. وقال الزيدان عن رجل تعب في فجر حياته: «كم لقي من العذاب، ولكنه عذاب ذاق فيه طعم العذوبة».

«إن العبارة البيانية مجنحة، لا تنحصر في المعنى الواحد، وإنما هي تتسع وتتسع لكثير من المعاني»، كما يقول الزيدان. وسمعت صاحبي يهاتف صاحبه، وكأن الآخر يقول له: أنسيتني، وكان رد صاحبي السريع: «العقل ينسى، والقلب لا ينسى». والزيدان كما يقول: يعيش نعمة الخيال، وعنده وعند شريحة من المنعمين أن «الحياة الحب، والحب الحياة» كما يقول شوقي.

ونجنح مع الخواطر في فن القول عند الزيدان، لنرى قدرة أديبنا على البناء اللغوي في معنى مبتكر، والمعاني كما يقول عبدالقاهر الجرجاني: «تختلف باختلاف الصور»، وعبارات الزيدان تتميز بدلالاتها التي ترمز إلى المدلول في قدرة وبراعة تركيب، يُظهر معاني مبتكرة وهي من مفاخر اللغة، «إذ الألفاظ فيها، غير الألفاظ في الكلام الذي يدور على ألسنة الناس، كالفرق بين المادة الخام والمادة المصنعة، لأن الكلام ملكة فردية، تبدو فيه براعة المتكلم، من خلال مدلولات أنظمة اللغة

المتعددة»(1). والزيدان ذو أسلوب فريد، في تركيباته وألفاظه التي تحمل ما يشبه المفاجآت للمتلقي، عبر تلك الأنغام، كأنه يعزف سيمفونية، وكأنه صاحب مدرسة، بناء لفظ ومعنى، تفضي إلى جاذبية قوية، لا تفجأ ولكنها تطرب، ومرد ذلك حاسة أذنه الواعية، وذوقه، والذوق نعمة، وحسه الشفيف الدلالة. إن هندسة الجملة وبناء التراكيب اللغوية قدرة؛ نجدها عند البارعين، من الخطباء والكاتبين، الذين وَعَوا اللغة، فَأَحْكَمُوا بناء العبارة، لأن ألسنتهم طوَّعتها، فانبثقت بليغة، يسيغها الإنسان، حتى غير المعنيّ بالبلاغة والبيان، لأنه يطرب للأداء الجميل، ذلك أنّا نحب الجمال في كل شيء، والزيدان الذي حافظ على التجديد، فهو ذو ذاكرة قويّة حافظة، وهو قد قرأ لكبار رجال البيان في الأدب العربي، ولعل في مقدمة المعاصرين مصطفى صادق الرافعي؛ فأتقن الدرس، لأنه عاشق للغة العربية الشاعرة، التي بهرته وسحرته بإشراق بيانها وجمالها، فالرجل عاشق للجمال، لذلك انقاد إلى هذه اللغة المطواع في أول الأمر، لتنقاد إليه، بعد أن ملك قيادَها، لأنه محب، والمحب مطواع حتى وإن ملك.! وهو تابع في ظاهر الحال، ولكنه بتأثيره وأثره ذو سلطان خفي، وهو مرد شخصيته وإرادته ووفائه وإيثاره، وليس أَثرته، لأنها أنانية، تأخذ ولا تعطي! الرجل ذو أذن عاشقة للجرس الموسيقي، ولسان قادر على التزيّي بجمال البيان، لأنه ذو مرانة جعلت منه خطيبًا مفوّهًا، ولسانًا ذربًا، لاندماجه في آليات الخطابة بأبكار المعاني واللفظة البليغة، في إتقان وإيجاز، ذلك أن من صفات البليغ وسماته، ألا يطيل؛ كي لا تضيع المعاني في مسارات الاستطراد والسرد. ولعل الزيدان يصدق عليه قول علماء اللغة: «إن الذهن يميل دائمًا إلى جمع الكلمات، وإلى اكتشاف عُرى جديدة تجمع بينها؛ والكلمات تتشبث دائمًا بروابط لغوية، بواسطة دال المعنى؛ أو بواسطة الأصوات اللغوية التي تتركب منها»(2). ويقول البدراوي زهران: «اللغة مجموعة علاقات، وليست مجموعة ألفاظ». وتقول إحدى النظريات: «إن المعاني وحدها هي المجسمة لجوهر الأسلوب؛ فما الأسلوب سوى ما نضفي على أفكارنا من نسق وحركة»(3).

إن أسلوب الزيدان في ضوء الدرس اللغوي، وحسّه اللغوي متميز في تصيّد الألفاظ المجنحة، ثم في ربطها بكلمات أخرى، لتؤلف صياغة متموجة جذابة، بليغة، عبر نسيج وبناء متناسق في بلاغته وبيانه ومعانيه، وتلك خصائص الكلام البليغ ومقوّماته. ونحن حين نبحث عن مصطلح الأسلوب عند ابن قتيبة - مثلاً - (ت:276هـ)، نجد أنه الافتنان في القول، ونجده يصف الخطيب بقوله: «الخطيب من العرب، إذا ارتجل كلامًا في شيء من أمور الحياة، فنقول: لم يأت به من وادٍ واحد، بل يفتن، فيختصر تارة إرادة التخفيف، ويطيل تارة إرادة الإفهام، ويكرر تارة إرادة التوكيد؛ ويخفي بعض معانيه حتى يغمض عن أكثر السامعين، ويكشف بعضها حتى يفهم بعض الأعجمين، ويشير إلى الشيء، ويكني عن الشيء، وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال، وقدر الحفل، وكثرة الحشد، وجلالة المقام»(4).

لعل هذا التصوير يشغل الذين يعنون بالبلاغة، وهو منهج الذين يخطبون في المحافل الكبرى، السياسية والاجتماعية والأدبية وما إليها، وهم الخطباء الذين يتحدثون فيطيلون الوقوف أمام الجماهير، وأمام المعنيين بالقضايا التي تُنصب لها المنابر، ويجتمع لها الناس، ولعلها اليوم قد قلت، لأن أساليب الحياة تغيرت، والزمن ضاق، والسرعة أصبحت طابع العصر ولغته وحركته الدائبة.

ويقول أحمد الشايب إن «مصطلح الأسلوب ينصب بداهة على العنصر اللفظي، فهو الصورة اللفظية التي يعبّر بها عن المعاني؛ أو نظم الكلام وتأليفه، لأداء الأفكار وعرض الخيال، وهو العبارة اللفظية المنسقة، لأداء المعاني»(5). ويقول عبدالسلام المسدّي: «عرف الأسلوب بأنه بصمات تحملها صياغة الخطاب، فتكون كالصورة التي لا تمحّى»(6). وسنرى بعد هذه الوقفات منهج الزيدان في خواطره المجنحة!

في مقدمة «الخواطر» نقرأ الزيدان: «فالكلمة اليوم أصبحت مصدر التيه والزهو، فإن عصر الفرس، عصر الخيل الذي اشتق اسمها من الخيلاء». والزيدان يهدي كتابه إلى أستاذه السيد أحمد صقر، رحمه الله، ويعلن الزيدان أنه عشق الكلمة حين قرأ الرافعي - فعنده يجد جرس الكلمة وهو عنده راق سخي - إلى جانب نهج البلاغة، والبيان والتبيين، وكليلة ودمنة، وأصحاب الترسّل، وفحول الشعراء، ويقول: «وأنا تابع لهم، يقرؤون بالأذن، فالجرس هو عطاء التفهيم لفهم الكلام». ذلك هو مفتاح شخصية الزيدان الخطيب أولاً، والكاتب ثانيًا، وأنا - كما أشرت آنفًا - مع الزيدان الخطيب المرتجل للكلمة في وقتها وساعتها، وحين نخطو مع خطيبنا نسمعه يعلن في تصيّد المعاني، عبر كلمات قصار، أقل من لغة البرقيات، كما يقولون، نقرأ بآذاننا كما يعلن إلينا: «الزهد حلية الأتقياء، والمال قيمة الكرماء»، ونسمعه: «إذا كان الجفاء طبعًا فهو خليقة، فليُعْذَر، وإذا كانت الجفوة تبطّرًا، فهي خُلُق، فلتُحذَر»، وعبر حوار مع بائعة «تمر» نقرؤه: «كل

اختزال اللغة وإطلاق الدلالة!

ما فيك فصاحة، تكلمين بالصمت، ليكون النطق خاتمة أحلام اليقظة، التي أراها تجرني إلى بعيد، فقد بَعُد عليّ أن أكون القريب».

كلام الصمت لغة من اللغة، وحين يبدأ النطق، ينتهي الكلام بأشكاله، وهو حلم يقظان، وكأنّها بعد، وكأن أحلام المنام قرب، وإن اختلف اللقيا، بين حال وحال، تلك معطيات الحوار مع اللغة، لتكون المحصلة ما نرى من جمال متموج رقراق، على نحو ما يقول الشاعر: «في النور المذاب»؛ و«خلته ذَوَّب في كَأسِيَ عطره».

ونجنح لنستمع إلى الأستاذ ينظم لآليه: «متعة أن ترى الجمال، وشقوة ألا يراك الجميل». ويفلسف لغته، كأنه ينفس عن نفسه أو يسلي المحرومين، وإن كان لا يجدي، ولكنه تله؛ إذ ذلك هو المتاح، يقول: «فالشقوة ألم، والألم متعة، حين تمتد به الذكرى إلى بعيد»، فالمتعة والشقوة، هذا المزاج عنده، نقله إلى متعة جديدة، والرجل يتكئ على الحلم، حين بعد عن يقظة الحلم، لأنه شاعر بالرؤى، فلا يريد أن تنقطع أحلامه، لأنها روافد فكره، ووحي خياله، وزاد تعبيره.

ويقول: «ليس الحرمان ألاّ تجد، وإنما الحرمان أن تفقد ما وجدت». يصوغ خطيبنا وكاتبنا، أنساقًا من حسّه ووجدانه وتجاربه في الحياة، بلغة سهلة سلسة، ليغني ويُغنّي بما يقول، وهو يعبِر ويعبّر معًا. ويقول في حوار: «قالت أرنب للديك: أيُّنا أشهى طعامًا؟ قال الديك: أنت لمن صادك، وأنا لمن اشتراني، وكان الغراب على الشجرة، فقال: وأين أنا؟ قالت الأرنب: أنت لا تباع ولا تصاد. قال الديك: لا.. ولا، إنه قد يكون أشهى طعامًا، حينما يكون جيفة لجائع»، إنها فلسفة الحياة، وحياة الفلسفة!

ويقول بيان الزيدان: «شعور الجميلة بالجمال، يكسوها الجلال، يعطيها من الغطرسة سلطانًا، تفرضه على الحبيب، فسلطان الغطرسة منها ليس تكبّرًا؛ وإنما هو كبرياء، في باطنه عطاء التواضع، مغلفًا بالجلال».

انظروا إلى هذه المقابلات، بين التكبّر والكبرياء، والجلال في الجمال، والجلال في التواضع، وسلطان الغطرسة، وغطرسة السلطان!، هذا التقديم والتأخير في سياق المعاني، كم يضفي من الجمال في العبارات

> بعض كلام الزيدان يأتي على هيئة أمثال بارعة بليغة، مثل قوله: «البخل: شحك بما تملك، والحسد: شحك بما لا تملك»!

خواطر مجنحة..

اختزال اللغة وإطلاق الدلالة!

الإيجازية، لأنها بلاغة؟ ويقول في وصف تقصر عنه ألسنة الكاتبين والخطباء: «ما أحلى وأبهى طغيان الجمال، وما أسوأ طغيان الجميلة».

والشاعر بشار بن برد يقول:

إنَّ الفؤادَ يرى مالا يَرَى النَّظرُ

وما أجمل قوله «البخل: شحك بما تملك، والحسد: شحك بما لا تملك»، أي بيان، وأي جمال في هذه الأمثال المنسابة البليغة؟، ويقول: «أسعد أيام الضعف، ما كان يصدر عن قوّة الحب، وأتعس أيام القوّة، ما كان يصدر عن ضعف الكراهية».

نعم، الحب يدفع إلى ضعف المحب فيتراجع فيما يقدم عليه، ولكن في أعماقه قوًى، أقوى من القوة، وهي دافعه، وإن كان ظاهره مسكنة وهزالا. واندفاع القوّة، ليس إصرارًا في موقف، وتحزمًا بإرادة وإباء، ولكنها بغض، أذاب القوّة وأضعفها، فصارت نمطًا بغيضًا، لأنها تبطن هزيمة، وإن بدت في ظاهرها قوّة موقف، وموقف تجلد، إلا أن في داخلها كرهًا، لعل مرده ضعف ارتكاز، وفشل سياسة، أديا إخفاقه إلى شنآن.

يقول الزيدان: «الحب هو الإطار، كحياة للحياة، أما العشق، فهو انتماء الإنسان، أحب نفسه أولاً، فعشق الجمال من أجلها؛ فالعشق ليس بتضحية من العاشق، وإنما هو ذروة الأنانية فيه، فالتضحية لها، في التزاوج، بين عشق الذات «الأنا»، يتجه به عطاء الأخذ من المعشوق، فالعشق قبل أن يكون ذوقًا، وقبل أن يكون مفاجأة، هو نداء المعشوق للعاشق، وإن كان الإعلان عنه، طلب العاشق من المعشوق».

يلقي الأستاذ الزيدان رحمه الله بهذه النمنمة اللفظية، التي توشيها المعاني، كأنه أراد أن يدغدغ عواطفه، قبل أن ينتقل الحديث إلى من يقرؤه؛ فهو يعلن أن العشق انتماء، انتماء لأي شيء؟ للإنسان، للأرض والوطن، وللأداء والعمل، وإذا كان الزيدان لا يعني هذا، فإن مدلول فكره، أن من يحب نفسه، عشق ما تحب النفس، وذو الحس يفتش عن الجمال في أي شيء، من عطاء الصانع الذي أضفى على ما خلق البهاء والرونق البهيج، أتقن كل شيء خلق وأبدع، لأنه بديع السموات والأرض، وعاشق الجمال أحب نفسه ليمتعها بما يرى ويبصر ويحس، ليعيش إليها، ويحلم في صحوه وسباته، وغدوه ورواحه. وحين يقول: «إن العشق ليس تضحية من العاشق، وإنما هو بعد بعيد في الأنانية فيه»، لأن المحب يتطلع إلى امتلاك ما يهوى، وصحيح أن التضحية في الالتقاء المباح، لأنه يعني الكثير من التنازلات، ليبقى الود والوئام، ولتبقى الحياة في أكنان الملتقى، وهذه العلاقة أخذ وعطاء، وجميل هذه العبارة، عطاء الأخذ من المعشوق، كأن الشطر الآخر أخذ، وفي اللحظة ذاتها أعطى، ولعل نداء المعشوق يعني الجاذبية والتواصل، ولعله الحس عبر الفكر، فالأفكار يقرأ بعضُها بعضًا، وليست كلّها!. إن هذه التراكيب، التي يسبق فيها آخر الكلام أوله، وتتقدم لفظة عن أخرى، ليكون جمال المداخلة في المعنى. تأخذ الألفاظ بعضها مواقع بعض، وتلك صناعة الذي يحذق تداخل اللفظة، لتحمل معنى، حين تسبق، وحين تعقب، ليكون لها عبق جمالي، يضفي المزيد من الإشعاعات البلاغية في إطارها الفصيح لأنه معنى.

وبعد!

إن هذه النصوص التي وقفت إزاءها تشبه الخلخال والحجْل في ساق غادة نثيرة الجمال، لأنها جمال، وهي ذاتَ دلالة نرتقي بها إلى فضاء بعيد على مستوى الطرح الذي تتضافر معانيه البلاغية ليكون في ذروة النص المبتغى؛ من حيث المعنى الذي ينضوي فيه التعبير الذي ينبغي أن يتوقف عنده، لأنه نموذج لا أقول: لا يقاس عليه، ولكنني أقول: إنه بلاغة من البلاغة التي يقاس عليها الأداء الذي يجد صدى عند قارئيه بآذانهم قبل عيونهم، لأنه من صفاء الجمال الذي يعشقه ويحتفي به، ويستحق أن يُرتقى به ويتحدث عنه.

إنني أرى استكمالاً للحديث، أن أجنح إلى بعض جوانب الرجل، فربما لا يكفي الوقوف عند خواطره المجنحة، ولعل قارئًا يتطلع إلى شيء من حياة الرجل، وأنا لن أطيل، ولكني أحاول الكلام الموجز.

فالأستاذ الزيدان عرفته كاتبًا في جريدة البلاد السعودية - البلاد اليوم - يوم كانت تصدر في مكة، ويرأس تحريرها الصحافي الناجح البارز الأستاذ عبدالله عريف، رحمه الله، وكان الزيدان يومها مدير مالية مكة، وهذا التاريخ يتجاوز ثلث القرن، ثم جاء الرجل إلى جدة، حين أصبح «ممثلاً ماليًا» أيام كان الشيخ محمد سرور الصبّان، رحمه الله، وزيراً للمالية، وعمل الزيدان مع حسن قزاز - حين اندمجت جريدة البلاد السعودية بعد انتقالها إلى جدة، مع جريدة عرفات التي يملكها القزاز، خلال عام 1378هـ - مديراً للتحرير، وحين قامت المؤسسات الصحافية، في أواخر عام 1383هـ، بَعُد حسن قزاز والزيدان، حيث تغيّرت إدارات الصحافة، في ظل المؤسسات الصحافية. وأصبح الزيدان كاتبًا، ومتحدثًا في الإذاعة، وقد تقاعد من وظيفته في وزارة المالية، مع ضياءالدين رجب، رحمه الله، وياسين طه ومن إليهم.

والرجل قارئ للتاريخ، وذو ذاكرة قويّة، وحافظة تختزن الكثير مما وعت، وهو نسّابة، يعرف القبائل في الجزيرة العربية وأفخاذها التي تفرعت عنها. ويعنى بالسِّير، وله كتاب عنوانه «سيرة بطل»، يتحدث فيه عن بعض الصحابة والتابعين، وبعض أبطال الإسلام في مختلف العصور، وهو يعي الكثير من أسماء العلماء والساسة في العالم العربي، ولاسيما في العصر الحديث، فهو قد قرأ وسمع ومحّص ما تلقى وعرف، وكان للرجل أحاديث في الإذاعة، منها «كلمة ونص»، ثم في رمضان، كان له برنامج يومي قبيل المغرب، يقدم فيه أحاديث شتى من التاريخ. والرجل يعنى بالحديث عن المدينة المنورة مربع الصبا والصديق، وكان يرود النادي الأدبي الثقافي بجدة، ويعلق على المحاضرات التي يلقيها الضيف الذين كنا نستقدمهم من الخارج؛ ويحاورهم، ويتحدث عن مثقفي بلادهم وعلمائهم.

وكان يغشى اثنينية الأستاذ عبدالمقصود خوجة بجدة، وكان يتحدث عن الكبار، الحديث الماتع الجميل من النمط الذي سقت آنفًا طرفًا منه؛ بلاغة وأسلوبًا أخاذًا، ويتحاور مع ما يسمع بتلك الديباجة المجنحة، وبعبارات تعني في مضمونها الشيء الكثير من المعاني التي يوظف الرجل كلماته فيها، لتكون هاجس المتلقي من ضيف النادي والاثنينية.

وللرجل كتب ليست كثيرة، ولكنها قيّمة، لأنها قيّمة، منها، كما أشرت، سيرة بطل، وكلمة ونص، والعهود الثلاثة. وذهب الزيدان لتبقى آثاره، ندرسها ونتعلم منها، ونردد تلك المواقف التي كانت له، ولاسيما حينما يكون رائقًا، ويسمع كلمة عن بطل أو مجاهد، فيفرك يديه، ويأتي بالجميل من القول؛ وأذكر مرة، أنه جاء ذكر المجاهد الشهيد عمر المختار، رحمه الله، فانبرى الزيدان يردد قول شوقي في المجاهد الشهيد:

لكنْ أخُو خيلٍ حمى صَهَواتِها
وأدارَ من أعرافها الهيجَاءَ

ويتحدث عن بطولته وشجاعته. وما أكثر ما يتحدث الزيدان مع صحبه، عن زعماء الإسلام وأبطالهم وتاريخهم الحافل بالمفاخر، وهو حديث وثقافة، وكثير من شباب اليوم لا يلمون بها، لأنهم بعيد، ولأنهم شغلوا بالحياة وهمومها، أعانهم الله. وكان الزيدان حين يكرب، ويرى ما ينكر، يضيق بما حوله، فيردد قول الشاعر القديم:

ذَهَبَ الذينَ يُعاشُ في أكنافِهِم
وبَقِيتُ منبوذًا كجلد الأجرب

وكان يعرف الكبار، ويَقدر الكبار، وصدق أمير الشعراء أحمد شوقي القائل:

إنّما يقدُرُ الكــرامَ كريمٌ
ويقيم الرجالُ وزن الرجال

الهوامش:

1ـ أسلوب طه حسين في ضوء الدرس اللغوي الحديث، البدراوي زهران، ص23، مع بعض التحوير.
2ـ أسلوب طه حسين في ضوء الدرس اللغوي الحديث، ص50-51.
3ـ المصدر نفسه، ص88، والأسلوبية والأسلوب، عبدالسلام المسدي، ص60.
4ـ تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر، 1954م، ص10-11.
5ـ الأسلوب، ص44.
6ـ الأسلوبية، ص66.

الحِيَلُ الحَرْبِيَّة في دولة المماليك

1382-1517م

ثناء يوسف المحضر

المماليك جماعة من الرقيق الأبيض استخدمهم الخلفاء العباسيون في خدمتهم، ولاسيما الخليفة المعتصم الذي استعان بهم ليحمي سلطانه ويقوي نفوذه في الدولة. وأصبح اقتناء المماليك سنّةً متبعة عند بقية الدول الإسلامية؛ فاقتنى الطولونيون والإخشيديون والفاطميون والأيوبيون عددًا كبيرًا منهم.

كان المماليك خليطًا من عناصر مختلفة، فيهم التركي، والشركسي، والرومي، والكردي، والأرمني، وبعض الأوربيين، جاء بهم النخاسون من بلاد ما وراء النهر وشبه جزيرة القرم وقفقاسيا والقفجاق والخزر وأواسط أوربا، وكانوا يحملونهم إلى مصر والبلاد الإسلامية الأخرى ويبيعونهم أحداثًا في أسواق النخاسة، ثم يربيهم أسيادهم تربية حسنة ويدربونهم على الحرب والفروسية ويعلمونهم القراءة والكتابة والفقه والحساب. وكانوا ينتسبون إلى أسيادهم الذين اشتروهم. فأيبك كان ينتسب إلى سيده الملك الصالح نجم الدين أيوب، لذلك تسمى «بالصالحي النجمي»، وقد استكثر الملك الصالح نجم الدين أيوب من اقتناء المماليك حتى تغلبوا على دولته الأيوبية، وبعد وفاته لم يستطع ابنه توران شاه أن يكبح جماحهم فقتلوه وولوا أمه «شجرة الدر» مكانه، فحكمت البلاد وخُطب لها من فوق منابر مصر، وضُربت النقود باسمها، إلا أن الأحوال قد اضطربت في عهدها بسبب امتناع أمراء دمشق وحلب من الاعتراف بسلطتها فتزوجت بعز الدين أيبك، وجعلته أتابكًا (حاكمًا) على الدولة، وبذلك تم انتقال الحكم من الأيوبيين إلى المماليك الذين حكموا مصر والشام قرابة ثلاثة قرون حكم في خلالها خمسون سلطانًا أظهر بعضهم كفاءة منقطعة النظير.

كانت الدولة التي أقامها المماليك دولة عسكرية قامت وليدة معركة المنصورة ضد الصليبيين، ثم أثبتت جدارتها في ساحة الحرب ضد الأخطار الكبرى التي هددت الوطن العربي من جانب التتار حينًا، ومن جانب الصليبيين والغرب الأوربي أحيانًا. ومازالت مواقع عين جالوت ومرج الصفر وأنطاكية وطرابلس وعكا وخبروكيتا تنطق بالبطولة والشجاعة للمماليك.

موقف الشرع والعقل من الحيل

مما لاشك فيه أن الخديعة والحيل في الحرب مطلوبة شرعًا وعقلاً، أما الشرع فقد ورد في الصحيحين أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «الحرب خدعة». ومن أقوال العرب: «رب حيلة أنفع من وسيلة». وأما من الناحية العقلية فلا خلاف «أن ما حصل من الظفر بحسن الحيلة ولطف المكيدة مع سلامة النفس وحفظ الجنود والراحة من التعب أحسن وأجمل وأعلى في الفضل وأرفع في الرتبة»(1). فالهرب المصطنع، والمباغتات والهجمات الليلية، والكمائن والمفاوضات التي لا يُقصد بها إلا كسب الوقت، كل هذه وغيرها كانت وما تزال وسائل مقبولة في الحرب. والباحث في كتب التاريخ وسير الملوك سواء في الجاهلية أو الإسلام يجد الكثير من الحيل التي تمكن بها أصحابها من تحقيق النصر على أعدائهم دون جهد كبير.

الحيل في كتب الفنون الحربية

أدرك المماليك أهمية الحيل ليس في السياسة فحسب، بل في الحروب أيضًا، فقام بعض الكتّاب والعسكريين باستغلال خبراتهم الواسعة ومواهبهم الأدبية في تأليف الرسائل العسكرية للمساهمة في تجديد الروح العسكرية القتالية، ومعرفة الحيل والمكايد والثقافات التي فيها إظهار القوة على العدو، والظفر به، ومعرفة الاحتراس من مكايد العدو وغوائله.

والباحث في فهارس المخطوطات يجد الكثير من تلك المؤلفات، منها على سبيل المثال:

- التذكرة الهروية في الحيل الحربية، تأليف أبي الحسن علي بن أبي بكر بن علي الهروي المتوفى سنة 611هـ/1214م.
- الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، لمحمد بن منكلي المصري.
- وقطع مبتدعة لإرهاب العدو في الحرب، لم يعلم مؤلفها.

وقد تناول هؤلاء الكتّاب الثقافات التي يجب أن يلم بها الجنود في المواقف المختلفة، وبالأسلحة المختلفة حتى يكون الجندي «عند شدائد الأمور أروغ من ثعلب وأثقف من هر، وأشد احتراسًا من سلحفاة، وعند فرصتك أخطف من باز خطوف»(2). فتحدثوا عن التدريبات على الأسلحة المختلفة التي يجب أن يتدرب عليها الجنود مثل: كيف يحسن العمل بالسيف فارسًا وراجلاً، وكيف يستخدم الترس الذي يقي به نفسه من رميات الأعداء وضرباتهم، والحيل التي يجب أن يلم بها المقاتل حتى يتمكن من أن يقي نفسه من جميع أنواع الضربات فيقولون: «إذا أردت أن تقي نفسك من ضربات السيف فيكون ذلك بوسط الترس، فإن كان ترسك من النوع الذي تنشب فيه السيوف فتلقى ضربات سيف خصمك بحرفه، أما الحجارة

التي تُلقى عليك من الأعداء فتلقاها بوسط الترس، ثم الوِ الترس يمنة عن محاذاة جبينك ليزل الحجر عن الترس فلا يشتد وقعه على الترس. أما السهام فتلقاها بأطراف الترس لئلا ينفذ في نفسك أو ذراعك والوِ الترس ليزل عنه، أما إذا كثرت عليك السهام فلا تتوقاها بحماية وجهك بترسك، فإن ذلك هلاك، ولكن ترّس بدنك بترسك وأحرز وجهك بالروغان، وفي جميع الحالات ينبغي أن يكون نظرك إلى العدو من جانب الترس، وإياك أن تشغل قلبك وبصرك لغير سلاح عدوك ووجهته»(3). ثم تحدث هؤلاء الكتّاب عن المواقف المختلفة التي تواجه المقاتل في أثناء القتال والحيل التي يمكن بها التخلص من تلك المواقف الحرجة.

وحرص كتّاب الحيل على إرشاد قائد الجيش إذا أراد عمل كمين بأن يختار له «الدواب القليلة الشغب، لا صهيل لها ولا حمحمة، ولا تخير ولا نفار، صابرة لا تضجر، حسنة الأخلاق، لا تصول، ساكنة لا سعال لها ولا خراط، ولا منع الإسراج والإلجام، ولا زعارة بها». ويشير بعض الكتّاب على قائد الجيش بحيلة تضمن له عدم صدور صوت من جانب خيل الكمين، وذلك «بربط ألسنة خيول أصحابه حتى لا تصهل. وبخصي الخيل ومراعاة أن تكون جميع خيول الكمين ذكوراً أو إناثًا، لأن اجتماع ذكر الخيل وإناثها ربما أوجب إثارة جلبة من صهيل الخيل أو صياحها فيؤدي ذلك إلى العلم بالكمين»(4). ثم تحدث الكتّاب عن الحيل التي تستخدم لعمل النفوط على اختلاف أنواعها، وكيفية الإسراج حول المعسكر أو في السير مع وجود الريح الشديدة. ثم يذكر الكتّاب كثيرًا من الحيل التي يخرج منها نار شديدة تحرق الأعداء إذا اقتربوا منها، مثال ذلك «حسك»(*) مربوط في جفان مملوءة مواد مشتعلة توضع حول المعسكر، «فإذا أقبل العدو ولم يجد بدًا من تحريك الحسك ورفعه، فإذا مسَّ الحسك أفلتت المشاقيص(**)، وانفتحت الجفان عن نار مهلكة ودخان مظلم متراكم ورائحة منتنة لا يقوم لها شيء». كذلك يصف المؤلفون كيفية عمل تماثيل من نحاس إذا مسّها الأعداء «انفتحت التماثيل عن نار مهلكة مثيرة». كذلك يصفون عمل حسك تقتل ما استقبلها من إنسان أو دابة. كما تناولوا عمل المرايا المحرقة «التي تحرق ما وقع شعاعها عليه على مسافة قدرها ما بين مئة ذراع إلى ألف ذراع»، فشعاعها «لو وقع على ألف رجل وألف دابة أحرقهم بإذن الله تعالى».

حيل المماليك في تعبئة الجيش للقتال

جرت عادة الدولة المملوكية قبل الدخول في معركة من المعارك أن يُعقد مجلس الجيش برئاسة السلطان وعضوية أتابك العسكر والخليفة وقضاة المذاهب الأربعة والأمراء، وكان الغرض من هذه المجالس الاستنارة بآراء كبار الدولة قبل الإقدام على حرب، وجعل إعلان الحرب أمرًا مشروعًا. وهنا يأمر السلطان باستدعاء الجنود من مختلف جهات مصر، أي يبدأ بحشد القوات، وتدبير كل القوى اللازمة للقتال سواء كانت تلك القوى مادية أم معنوية، وسواء أكان ذلك قبل المعركة بمدة طويلة، أم في المعركة ذاتها، ففي كلتا الحالتين تظهر دراية الحكام وبراعة القواد وعلى مقدارهما يكون النصر، أو الخسارة في المعارك المختلفة.

ففي تحريك القوات واختيار مواقعها المناسبة والتنسيق بينها خلال المعركة في حالة الهجوم أو الدفاع، وإعداد حاجتها التي تكفيها؛ كل هذه المعاني يطلق عليها كلمة «التعبئة»، لذلك يحتاج الولاة إلى أحكام التعبئة على ماهي أحصن وأكيد لئلا يجد العدو في عسكر الوالي الفرصة ولا يرى فيه الخلل(5).

ولما كانت أحوال الحرب لا تجري على نظام واحد، بل تختلف أحوالها وتتغير بحسب الظروف في ميدان المعركة؛ ففي هذه الحالة على القائد أن يغير من خطته ويعمل بما يقتضيه رأيه ويؤدي إليه اجتهاده.

والواقع أن صناعة الحرب تعتمد على أمرين: أحدهما القوة والآخر الحيلة، والحيلة ربما كانت أجرأ من القوة لذلك لا غنى للجيش عن الحيلة. ونظرًا لاعتماد هذه الحيل على شخصية القائد وبراعته، فإنّ كُتّاب الحيل الحربية اهتموا بالحديث عن القائد والصفات التي يجب أن تتوافر فيه.

ترتيب الجنود في ميدان المعركة

اتفق مؤلفو كتب الحيل على أن أحسن نظام لمقابلة العدو هو أن يصفّ القائد كل جزء من أجزاء الجيش صفوفًا منتظمة، كأنها صفوف الصلاة: إن اللّهَ يُحبُّ الذينَ يُقاتلونَ في سبيله صَفًّا كأنَّهُمْ بُنيانٌ مرصوص. الصف:4. فترتب الرجالة على ثلاثة صفوف، ثم ينصح الكتّاب القائد إذا كان العدو ناشبة أو زارقة (مسلح بنوع من الرماح) بأن «يقعد الصف الأول وقد ستروا أنفسهم بأترستهم حتى لا يُرى منهم إلا الحدق من جوانب تراسهم، ثم يصير الصف الثاني من وراء الصف الأول يسترون بهم ما استتر منهم، ويسترون من أنفسهم مقدار ترسهم من علوهم إلى حيث ستر منهم، فهم وقوف على مقدار قامة الراكع. أما الصف الثالث فيكونون منضمين ملتصقين بظهورهم يستر كل رجل منهم برجلين أمامه ما استتر منهم ويسترون ما بقي من تمام القامة بأترسهم، وعلى الجميع لزوم السكون والصمت كأنهم الجدر»، ومن ورائهم الناشبة يمطرون السهام على عدوهم رشًا متداركًا. وينصح كتّاب الحيل قائد الجيش أن يرتب صفوف المقاتلة على النحو الذي يمكن أن يَدخل فيه صف على صف، ويجوز صف عن صف من بين خلل الرجال(6). ومثال ذلك «كأن الصف الأول كانوا ناشبة، والصف الثاني رامحة، فيأمر الناشبة أن ينشبوا الحرب، فإن دنا العدو منهم خرج الصف الثاني الذين هم رامحة فكدوا عدوهم ساعة، ثم جاء الصف الثالث فدخلوا من بينهم وخرجوا على عدوهم وباشروا قتالهم. فلا يزالون كذلك حتى يزيلوهم عن مواضعهم ويقتلعوهم عن مراكزهم». ومن الحيل أن يرسل القائد بعض جنوده إلى العدو ليتقهقروا أمامه وتكون الخيول (الخيالة) على أتم الاستعداد، فإذا نجحت الحيلة وأخرجوا الأعداء عن مواقعهم «يتقوسوا رويداً رويداً لئلا يرتدعوا.. ثم يجعلها عليهم دفعة واحدة».

أمثلة لبعض معارك المماليك وما فيها من حيل

تحايل المماليك في معركة «عين جالوت» على عدم إثارة عدوين في وقت واحد، فقد أرسل المماليك قبل خروجهم لملاقاة المغول إلى حكومة عكا الصليبية في السماح لجيوشهم بعبور الأراضي الصليبية لمحاربة المغول، وكان أن وافق الصليبيون في عكا على ذلك الطلب، إذ رأوا فيه انتقامًا من

حرص كُتّاب الحيل على إرشاد قائد الجيش إلى طرق عمل الكمائن لعدوه، كما تحدثوا عن الحيل التي تستخدم لعمل النفوط على اختلاف أنواعها وكيفية إشعالها، وتحريك القوات واختيار مواقعها المناسبة

المغول لما حلَّ بصيدا من ناحية، ولتخوفهم من وحشية المغول من ناحية أخرى، وبفضل هذه الحيلة سار قطز بجيشه سالمًا بحذاء ساحل مدينة عكا الصليبية. بل إن الصليبيين في عكا خرجوا إلى السلطان قطز (ت:658هـ) ومعهم الهدايا وأرادوا أن يسيروا معه نجدة فشكرهم وخلع عليهم واستحلفهم ألا يكونوا لا له ولا عليه. وقد لجأ قطز إلى حيلة حربية ناجحة، فأخفى قواته الرئيسة بين الأحراش والأشجار المحيطة بعين جالوت، وترك مقدمة الجيش بقيادة بيبرس (ت:676هـ) فتابع سيرها وحدها تجاه التتار ووقع كتبغا في الفخ، فبادر بالهجوم بجيشه على قوات المماليك التي احتشدت أمامه، وأخذ بيبرس في مناوشتهم، فتارة يقدم وتارة يحجم ويرتد إلى التلال، فاشتدت مطاردة المغول حتى اكتمل تطويق الجيش المغولي من ثلاث جهات، وتم القضاء على المغول قضاءً تامًا وولوا الأدبار لا يلوون على شيء. وبهذه الحيلة البارعة في عين جالوت (658هـ) انتصر المماليك فأنقذوا مصر والشام من وحشية المغول ولم تقم لهم بعدها قائمة.

ومن حيل المماليك في الحروب إخفاء وجهة الحملة حتى لا يأخذ الأعداء حذرهم، ومثال ذلك عندما أراد السلطان الظاهر بيبرس الاستيلاء على قيسارية سنة 663هـ/1265م تظاهر بالتلهي في حملة صيد في التلال الواقعة وراء أرسوف، ثم ظهر أمام قيسارية فسقطت المدينة على الفور.

كذلك عندما أراد بيبرس الإغارة على أنطاكية دخل إلى حماة، ولا يعرف أحد أي جهة يقصد، وهناك قسم جيشه ثلاث فرق:

- فرقة صحبة الأمير بدر الدين الخازندار اتجهت إلى ميناء السويدية (وهي ميناء أنطاكية) لتقطع الصلة بين أنطاكية والبحر.

- والثانية: بقيادة الأمير عزالدين إيفان اتجهت إلى درب بساك لتسد الممرات بين كيليكية والشام (في جبال طوروس) لمنع وصول أية مساعدة إلى أنطاكية من أرمينية الصغرى (كيليكية). في حين أخذت القوة الرئيسة تحت قيادة بيبرس نفسه تطويق المدينة. ولم تلبث أن سقطت أنطاكية فدخلها المماليك وغنموا منها غنائم طائلة، وقد بلغ من كثرة الغنائم أن «قسمت النقود بالطاسات! كما بلغ من كثرة الأسرى أنه لم يبق غلام إلا وله غلام»(7)، على أن بيبرس أبدى استعداده لعقد هدنة مع الصليبيين لما تردد من الشائعات من تحرك المغول، واحتمال رجوع لويس التاسع إلى الشرق.

وتشير المصادر إلى أن سياسة بيبرس تجاه الصليبيين امتازت بظاهرتين واضحتين:

الأولى: حرصه على عدم مصالحة الصليبيين جميعًا في وقت واحد، وإنما أخذ يهادن فريقًا في الوقت الذي يهاجم فريقًا آخر.

والظاهرة الثانية: أنه كان لا يحترم شروط الصلح مع الصليبيين طويلاً، فيعقد صلحًا أَمَدَهُ عشر سنوات مثلاً، ولكنه لا يلبث أن ينقضه بعد سنة واحدة أو بضعة أشهر، إذا وجد أن مصالحه تتطلب ذلك.

> جرت عادة المماليك قبل الدخول في معركة من المعارك على عقد مجلس الجيش برئاسة السلطان وعضوية أتابك العسكر وقضاة المذاهب الأربعة، للاستنارة بآراء كبار رجال الدولة وجعل الحرب أمرًا مشروعًا

ومن الحيل في حروب دولة المماليك استغلال الخلافات والمنازعات بين الأعداء لتحقيق الانتصارات والمكاسب، ومثال ذلك ما حدث في ربيع سنة 1287م إذ نشبت الحرب في إيطاليا بين بيزا وجنوا، وامتدت بعد قليل إلى بلاد الشام، حيث أتى أسطول جنوي بقيادة أميري البحر توماس سبينولا وأورلاندو أشيري لمهاجمة البيازنة ومستعمراتهم(8). وقد حرص قائد الأسطول الجنوي سبينولا على المرور بالاسكندرية للحصول على رضا قلاوون وتأييده، في حين أخذت بقية سفنه بقيادة أشيري تنزل جام غضبها بالبيازنة وسفنهم عند عكا. هذا في الوقت الذي انتهز السلطان قلاوون فرصة انشغال الأساطيل الإيطالية بالحروب فيما بينها، وأرسل حملة بقيادة الأمير حسام الدين طرنطاي استولت على اللاذقية في نيسان/أبريل سنة 1287م.

ومن الحيل الحربية أيضًا سرعة إنهاء الخلافات الداخلية حتى لا يستفيد منها الأعداء، ومثال ذلك عند استرداد عكا من الصليبيين، فلم يكد السلطان قلاوون يفرغ من استعداداته الحربية كافة ويغادر القاهرة فعلاً لحرب الصليبيين بالشام، حتى دهمه الموت سنة 1290م. وسرعان ما هلل الصليبيون لتلك الوفاة وظنوا أنها إرادة الله تدخلت لإنقاذ عكا، ولاسيما أنهم سمعوا عن أخبار الخلافات التي دبت بين أمراء المماليك حول العرش، وعن الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة، ولكن سرعان ما خاب ظن الصليبيين، إذ نجح الأشرف خليل (ت: 693هـ) في التغلب على الصعوبات التي اعترضت سبيل وصوله إلى الحكم والقضاء على المؤامرة وقتل الأمير طرنطاي، وبذلك هدأت الأمور وتفرغ الأشرف لتنفيذ مشروع أبيه الخاص بالاستيلاء على عكا. وفي أحد الأيام شدد السلطان الأشرف خليل هجومه على عكا ونجحت قواته في اقتحام المدينة فعلاً، على المقاومة العنيدة التي أبداها مقدم الداوية وقائد الاسبتارية حتى خرَّ كلاهما قتيلاً في المعركة. وهكذا وجد الصليبيون أنفسهم ولا عاصم لهم، فالمسلمون أمامهم والبحر خلفهم، فهرعوا إلى السفن فارين بأرواحهم، ولكن السفن الباقية في ميناء عكا لم تكن كافية فغرق بعضها في البحر بسبب حمولتها وكثرة من اكتظ فيها من طلاب النجاة. وقد وقع عدد كبير من أهل عكا في قبضة المسلمين ليقتلوا أو يؤسروا. وكان آخر موضع استسلم في عكا هو بيت الداوية الذي تحصنوا فيه، ولم يلقوا السلاح إلا في سنة 1291م. ثم أمر الأشرف خليل بتدمير كل ما يقع على الشاطئ من قلاع حتى لا يعود الفرنج للنزول بها.

هكذا كان المماليك في حروبهم، أظهروا من البطولة وضروب الحيل في الدفاع عن الوطن الإسلامي ما جنّبه الأخطار الكبرى التي هددته من جانب التتار والصليبيين(9).

الهوامش:

1- عمر بن إبراهيم الأوسي الأنصاري: تفريج الكروب في تدبير الحروب، ص27.
2- ابن منكلي: الحيل في الحروب، ق144.
3- ابن منكلي، الحيل في الحروب، ق141-142-144.
4- الهروي، التذكرة الهروية، ص18.
(*) الحسك (المثلثات) وهي قطعة حديد ذات شعب تطرح في جبهة القتال حول المعسكرات، أو أمام الخيل لعرقلتها.
(**) المشاقيص جمع مشاق: وبر الصوف. وقد يُقصد بها: المشاقص (جمع مشقص)، وهي نصال السهام إذا كانت طويلة غير عريضة.
5- ابن منكلي، الحيل في الحروب، ق197.
6- ابن منكلي، الحيل في الحروب، ق200.
7- المقريزي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، 1/ 568.
8- سعيد عاشور، الحركة الصليبية 2/ 1170.
9- أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، 4/ 25.

صداع العقول

السياق القرآني عن عاد قوم هود



الشيخ أبو عبد الرحمن
ابن عقيل الظاهري

المعروف أنه لا رسول لعاد غير هود عليه السلام، فكيف ورد النص بأنهم كذَّبوا المرسَلين؟ ولماذا ذُكروا في القرآن الكريم ولم يُذكَروا في التوراة والإنجيل؟ وهل يدل النص القرآني الكريم على أن عاداً فنيت كلّها؟ ولماذا ذُكروا بعض المرات بغير الترتيب التاريخيّ للأمم؟ وكيف مُيِّزَتْ عاد بأنها الأولى ولا يعرف أمةٌ تسمى عاداً لها رسول خاص أهلكت بتكذيبه غيرَ عاد قوم هود؟

إن حل هذه الإشكالات يرد في استعراض النصوص، وبيان وجه دلالتها في الجملة:

لقد ذكر الله هوداً وقومه عاداً بعد نوح وقومه، وقبل قوم صالح: ثمود.

قال الله سبحانه وتعالى: *وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ. قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ. أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ. فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ.* **الأعراف**:65-72.

قال أبو عبدالرحمن: في هذه الآيات الكريمات أن هوداً عليه السلام من عاد لقوله تعالى: *عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ*، ولتكرر كلمة «ياقوم»، وعلى هذا فقوله تعالى: *وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا*، مثل قول العربي وغيره للعربي: يا أخا العرب.

وفي الآيات أن عاداً لم تكفر كلّها؛ لقوله تعالى: *قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ*، ففي هذا إيحاء بأن ناساً من قومه لم يكفروا، ثم جاء البيان بقوله تعالى: *فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ*، وبقوله في قصر الهلاك على الكافرين: *وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ*.

وفي الآيات أنهم المستخلفون بعد قوم نوح لقوله تعالى: *إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ*.

وفي الآيات عن قوتهم قوله تعالى: *وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً*.

وفي الآيات أنهم وآباءَهُمْ عبّادُ أصنام لقوله تعالى: *وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا*، وقوله: *سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ*.

ونص الله على أن ثمود خلفت عاداً، فقال تعالى: *وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ*. **الأعراف**:74. فهذا حكاية لخطاب صالح لقومه ثمود.

وجاء في السياق القرآني أن عاداً قبل إبراهيم عليه السلام وقومه. قال تعالى: *أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ*. **التوبة**:70.

وقال تعالى عن هود وقومه: *وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ. يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ. وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ. قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ*

حفيظٌ. وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ. وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ. **هود**:50-60.

قال أبو عبدالرحمن: في هذه الآيات الكريمات إضافة إفادات على ما سبق، منها ما يُشعر بأنه مرّ بهم قحط فدعاهم إلى التوبة والاستغفار ليُغاثوا، وأنّهم يطالبون ببينة، وأن الله نجّى هودًا والَّذين آمنوا معه، وأن عادًا عصوا رُسل الله واتّبعوا أمر كل جبّار عنيد، وأنّ الله أغلظ وعيدهم.

وقال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ. **هود**:89.

وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ. **إبراهيم**:9.

واستمرت الآيات حتى الآية الثامنة عشرة وفيها كلها وحدة كلمة الكافرين ومحاجّتهم لرسلهم، ووحدة كلام الرسل وأتباعهم، واختلاف مصير الفريقين.

وقال تعالى مسلّيًا لنبيّه محمد صلى الله عليه وسلم: وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ. وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ. وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ. **الحج**:42-44.

وفي الآيات بعد ذلك الأمر بالسير في الأرض ولعل ذلك للنظر في آثار الهالكين.

وقال تعالى بعد سياق الكلام عن قوم نوح: كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ. إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. **الشعراء**:123-139.

قال أبو عبدالرحمن: في هذه الآيات أيضًا أن عادًا كذّبوا المرسلينَ لا رسولاً واحدًا.

وأضافت هذه الآيات الكريمات الكلام عن قوّة أسبابهم الدنيوية وجبروتهم وما لديهم من نعمة ورغد وذلك قبل أن يصيبهم القحط.

وقص الله أنه أهلكهم والمراد إهلاك المكذّبين من قوم هود، لأن الله قال آخر الآية: وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. فالمعنى أنّ فيهم مؤمنين.

وقال تعالى عن كفار قريش: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ. وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ. **ص**:12-13.

قال أبو عبدالرحمن: هذه أول مرة - في سياقي هذا - يُذكر قوم فرعون قبل ثمود، مع أن ثمود قبلهم بقرون، ولعل السر في ذلك أن فرعون وقومه يضارعون عادًا في العتو، وقد مرّ عليّ نصٌّ لشيخ الإسلام ابن تيمية يذكر أن جُرهم ثمود أقل من جُرهم عاد.

قال أبو عبدالرحمن: وإنما تَرِد ثمود بعد عاد مباشرة؛ لأنهم خلفوهم زمنًا.

وقال تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ. مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ. **غافر**:30-31.

قال أبو عبدالرحمن: هذا نص صريح من مؤمن آل فرعون يذكر الأمم قبل قومه، ومن ضمنهم ثمود.

وقال تعالى عن كُفّار قريش: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ. إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ. **فصلت**:13-16.

قال أبو عبدالرحمن: ذهب جمهور المفسرين إلى أن الذي أُرسل إلى عاد رسول واحد فقط هو هود عليه السلام، وحملوا الموضعَين اللذَيْن مرّا من ذكر المرسلين على أن المراد رسول واحد، وهذا هو الحق؛ لأن المراد بالرسل على صيغة الجمع تعدد المرسلين إلى الأمم لا تعدّد الرسل إلى عاد.

وكل الأقوام المعذّبة وُصفوا بتكذيب الرسل بصيغة الجمع كقوله تعالى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قوم نوح المرسلين. وقوله: كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ، وقوله: كَذَّبَتْ قومُ لوطٍ المرسلين، وقوله: كَذَّبَ أصحابُ الأيكة المرسلين. وهذا يعني أن تكذيبهم لرسولهم تكذيب لمن سبقه من الرسل؛ لأن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يخبر بعضهم عن بعض، وربما بشر بعضهم ببعض.

وأما الصاعقة فأضيفت إلى عاد وثمود معًا، ولكن السياق بيَّن أن الريح لعاد والصاعقة لثمود.

والجديد في هذه الآيات ذكر العذاب الذي عوقبوا به، والنص على شدة قوّتهم التي كانت من عوامل استكبارهم.

وقال تعالى مخاطبًا نبيّه محمدًا صلى الله عليه وسلم: وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ

صدى العقول

السياق القرآني

عن عـاد قوم هود

وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ. فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ. وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. **الأحقاف**:21-26.

قال أبو عبدالرحمن: هذا هو النص الرابع الذي يُشعر بتعدد الرسل إلى عاد، والواقع أنه إشارة إلى رُسُل خلت جاؤوا بمثل ما جاء به، وليس ذلك نصًا على أنهم بُعثوا لعاد، ولكن تكذيب عاد لهود تكذيب لهود ولمن خلا من النذر.

والجديد في هذه الآيات النص على مسكنهم، وأنه الأحقاف وهو معروف لدى الجغرافيين بهذه الرملة العميقة من الربع الخالي ما بين اليمن وحضرموت.

ولم يرد في كتب أهل الكتاب لا في العهد القديم، ولا في الجديد، ولا في التلمود (كما استقصى ذلك عدد من الباحثين المعاصرين) أيّ ذِكْر لعاد، والأمر لا يعدو احتمالين:

أضعفهما: أنهم بُلغوا ذلك فجحده كَتَبَة الكتّاب المتأخرون.

وأرجحهما: أنه لم يُذكر لأهل الكتاب خبر عاد؛ ليقيم الله الحجة عليهم بما يحمله النبي الأمي عليه الصلاة والسلام من علمٍ عندهم خبره، وعلم لم يقص عليهم خبره ودليله حسي باق مشار إليه بقوله تعالى: *لا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ.*

كما أنّ الله قص على الأنبياء من الرسل والأمم ما لم يقصصه على النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وقال تعالى عن كُفّار قريش: *كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ. وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ. وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ.* **ق**:12-14.

قال أبو عبدالرحمن: هذا أول موضع - في سياقي هذا - تُذكر فيه عاد بغير الترتيب الزمني بين الأمم الهالكة.

وقال تعالى بعد الحديث عن فرعون وهلاكه: *وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ.* **الذاريات**:41-42.

قال أبو عبدالرحمن: ذكرت جميع الأمم في هذه السورة الكريمة غير مرتبة ترتيبًا زمنيًا، والترتيب الزمني مفهوم نصًا بنصوص أخرى، والحكمة في ذكر الأمم في بعض المواضع بغير الترتيب الزمني من شأن المعنيين بالدراسات القرآنية الحديثة عن الوحدة الموضوعية والترابط والتناسب، وإنما غرضي في هذا البحث هود عليه السلام وقومه، والاكتفاء بما ثبت بالدليل القاطع بأنّهم الّذينَ خلفوا قوم نوح ويؤيد ذلك سياق التاريخ العالمي.

وقال تعالى بعد ذِكْر قوم نوح: *كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ. تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ.* **القمر**:18-20.

وقال تعالى: *كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ. فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ. وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ.* **الحاقة**:4-8.

قال أبو عبدالرحمن: لعل السر في تقديم ثمود وهم متأخرون زمنًا عن عاد، أن الحديث عنهم في السياق قليل، وأن الآيات أسهبت عن قوم عاد، ومن عادة الأسلوب العربي تقديم القول عن المؤخر إذا كان القول عنه موجزًا لإعانة الذاكرة على استيعاب الخبر.

قال أبو عبدالرحمن: مر في الآيات السابقات أن الله نجّى هودًا والذين آمنوا معه، كما دلّ التاريخ العالمي على قبائل بادت بغير هلاك بعقوبة، أو اندمجت في غيرها، ومن ضمنهم قومٌ من عاد ومن أبناء عمومتهم كجُرْهُم الأولى غير جُرهم القحطانية، وعلى هذا يكون قوله تعالى: *فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ*، خبرًا عن المذكورين في السياق، وهم المكذّبون المهلكُون لا جميع عاد.

وقال تعالى: *أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ.* **الفجر**:6-8.

قال أبو عبدالرحمن: في هذه الآيات إفادات جديدة عن تميزهم بين الأمم.

وقال سبحانه وتعالى بعد كلامه عن قوم نوح: *وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا. وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا.* **الفرقان**:38-39.

وقال تعالى: *وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ.* العنكبوت:38.

ثم ذكر الله بعد ذك أصناف العذاب للأمم المذكورين في السورة بغير ترتيب زمني، فذكر نصيب عاد بقوله تعالى: *فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا.* **العنكبوت**: 40.

وقال تعالى في معرض قسمه سبحانه وتعالى: *وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى. وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى. وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى.* **النجم**: 50-52.

هذه الآيات الكريمات نص صريح على أن قوم نوح أطغى، وعلى هذا يُحمل تمييز الله لقوم عاد بالطغيان على أن ذلك بالنسبة لغير قوم نوح.

قال أبو عبدالرحمن: ليس هناك عاد ثانية أهلكت لها نبيّ مرسَل لها خاصة، وقوله تعالى: *وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى.* يترجح أن المراد بذكر الأولى أنهم أول الأمم من ذرية نوح بعد قوم نوح، ولهذا لا يذكر قوم نوح باسم يميزهم سوى وصفهم بالإضافة إلى نوح بينما الأمم بعده تُذكر بأسمائها.

حوار مع

د. شوقي الفنجري:



الاقتصاد الإسلامي ثابت ومتغير!

أجراه من قسم التحرير: **حسين حسن حسين**

ينظر كثيرون إلى الصراع الحضاري في عالم اليوم على أنه صراعٌ اقتصادي في المقام الأول، وتنافس محموم بين الدول وأصحاب الحضارات المختلفة تمليه المصالح. ولقد فرض واقع اليوم بصراعاته المتشعبة ضرورة أن تتحصن الأمم بهوياتها وخصوصياتها لمواجهة التحديات التي تجابهها. وعلى المستوى الإسلامي، يظل هناك كثير من المفاهيم الذاتية التي تحتاج إلى تعميق نظري وتطبيق عملي، يوضحان أبعادها، ويؤكدان أصالتها، وفعاليتها في عالم متغير ومتجدد.

ويعدّ مفهوم الاقتصاد الإسلامي من أكثر المفاهيم التي تلاقي التشكيك والهجوم من كثيرين، ولاسيما مع وجود عثرات عديدة في التطبيق.

في هذا الحوار، يفصح الدكتور محمد شوقي الفنجري عن بعض رؤاه لمفهوم الاقتصاد الإسلامي، تنظيرًا وتطبيقًا، بوصفه من القلائل الذين يولون هذا الموضوع اهتمامًا خاصًا منذ سنوات طويلة مضت.

• هناك من يشكك في مفهوم الاقتصاد الإسلامي، ويصفه بأنه مجموعة مبادئ، وليس نظامًا متكاملاً يستوعب متغيرات الحياة وتقلباتها؟

- مفهوم الاقتصاد الإسلامي - ببساطة - هو: الأصول والمبادئ التي توجه النشاط الاقتصادي وفقًا لأصول الإسلام وتعاليمه. ووفقًا لذلك، فإن السياسة الاقتصادية الإسلامية ثابتة من حيث أصولها، ومتغيرة في تطبيقاتها، وأعني بذلك أن الاقتصاد الإسلامي إلهي من حيث المذهب، ووضعي من ناحية النظام أو التطبيق.

وبعبارة أخرى، فإن الاقتصاد الإسلامي عملة ذات وجهين، وجه ثابت وهو الأصول، وآخر متغير وهو التطبيق، الذي يختلف باختلاف الأزمان والأماكن. وقد تجاوز الإسلام في مذهبه الاقتصادي ما كان سائدًا من عبودية وتخلف، فجاء مقررًا منذ البداية المساواة الفعلية، وضمان حد الكفاية، ومبدأ الملكية المزدوجة الخاصة والعامة، ومبدأ الحرية الاقتصادية المنضبطة، وحدود تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي.

وهذه المرونة التي يتميز بها الاقتصاد الإسلامي تتيح تعدد التطبيقات الاقتصادية الإسلامية بحسب ظروف كل مجتمع، وذلك في إطار المبادئ والأصول الاقتصادية الإسلامية، فقد يتوسع أحد المجتمعات الإسلامية - مثلاً - في الملكية العامة على حساب الملكية الخاصة، وقد يضيّق آخر من الملكية العامة لحساب الملكية الخاصة، ولكن يظل الاقتصاد في كلا المجتمعين إسلاميًا مادام ملتزمًا أصول الاقتصاد الإسلامي ومبادئه العامة. فأساس التشريع الاقتصادي الإسلامي هو المصلحة، وقد قال بعض الفقهاء: «حيث وجدت المصلحة فثمة شرع الله». وتحقيق المصالح يختلف باختلاف الظروف، فما يعد مصلحة في ظرف ما، ربما لا يكون كذلك في ظرف آخر.

• هل هناك حدود لدور كل من القطاعين العام والخاص في المفهوم الإسلامي للاقتصاد؟

- الأصل في الاقتصاد الإسلامي هو نشاط الأفراد والحرية الاقتصادية، ثم يأتي دور الدولة مكملاً لنشاط الأفراد، إذ عليها أن تقوم بالأنشطة التي يعجز عنها الأفراد، فعلى سبيل المثال، الأفراد لن يقيموا مرافق أساسية، فعليها إذن أن تقيم هذه المرافق، وهناك أنشطة مماثلة خارج نطاق قدرات الأفراد، على الدولة أن تقوم بها، مثل تعمير الصحارى، وإنشاء المصانع الضخمة كمصانع الحديد والصلب وصناعة الأسلحة، وغيرها. فالدولة في هذه الحالة لا تنافس الأفراد، وإنما تهيئ لهم السبل والوسائل التي تضمن نجاح مشروعاتهم، بحيث يتكامل دورا القطاعين العام والخاص في النهوض بالمستوى الاقتصادي للمجتمع.

• ما أوجه الموازنة التي يمكن أن تكون بين الاقتصاد الإسلامي وغيره من النظم الاقتصادية؟

- إذا وازنا بين المذهب الاقتصادي الإسلامي والفكرين الماركسي والرأسمالي نجد فروقًا جوهرية، فإذا كان الاقتصاد الماركسي يؤكد حتمية الصلة بين تطور أدوات الإنتاج والنظام الاجتماعي، وأنه من

المستحيل احتفاظ نظام اجتماعي واحد بوجوده على مر الزمن، أو أن يصلح هذا النظام للحياة الإنسانية في مراحلها المتعددة، فإن المذهب الاقتصادي الإسلامي لا يرتبط بمرحلة تاريخية معينة أو أشكال محددة للإنتاج. ونجد أن الاقتصاد الماركسي يعطي رعايته لمصلحة المجتمع بوصفها رعاية غير مباشرة لمصلحة الفرد، بينما ترعى السياسة الاقتصادية الإسلامية المصلحتين معًا، وتحاول المواءمة بينهما. ومن ناحية أخرى، يتوجه اهتمام الاقتصاد الرأسمالي إلى الفرد، على أساس أن رعاية مصالح الأفراد هي رعاية غير مباشرة لمصلحة المجتمع، وقد أدت تطبيقات النظامين الماركسي والرأسمالي إلى مشكلات عديدة، ففي المجتمع الرأسمالي انتشرت الأنانية والبطالة واستئثار الأقلية بخيرات المجتمع، بينما حَدَّ المجتمع الماركسي من حريات الأفراد وكَبَتَ القدرات الذاتية، وكان ذلك من أسباب انهيار الماركسية في أكبر معاقلها.

أما الشرع الإسلامي فينفرد بميزة ليست لغيره من الأنظمة والشرائع، فالإسلام مثلاً يسمح للإنسان أن يكون مليونيرًا، ولكن عندما يتأمل هذا الإنسان نفسه، عالمنا الإسلامي، ومشكلة الفقر نسبية تختلف باختلاف الزمان والمكان.

وقد أدرك الفكر الاقتصادي الإسلامي أن الفقر لا يعني ظاهرة الجوع أو العجز عن إشباع الحاجات الأساسية للحياة، أو كما يعبر عنه الفكر الاقتصادي التقليدي باصطلاح «حد الكفاف»، وإنما الفقر في المفهوم الإسلامي هو عدم بلوغ الفرد مستوى المعيشة اللائق بحسب ما هو سائد في المجتمع، وهذا المستوى - بلا شك - مختلف باختلاف الزمان والمكان، وهذا ما يعرفه الفكر الاقتصادي الإسلامي بحد الكفاية أو حد الغنى. فإذا كان على الفرد أن يعمل ويجتهد، فإن على الدولة أن تؤمِّن له المستوى المعيشي اللائق إذا عجز عن ذلك لظروف خارجة عن إرادته؛ كمرض أو عجز أو شيخوخة، فسيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول: «إن الله استخلفنا على عباده، لنؤمن حياتهم، ونسدّ جوعتهم، فإن لم نفعل، فلا طاعة لنا عليهم». وقد انفرد الإسلام بمؤسسة الزكاة منذ خمسة عشر قرنًا بوصفها مؤسسة للضمان الاجتماعي، وجعل الزكاة الفرض التالي

- إن المجتمعات الحديثة ما قررت الضمانات والتأمينات الاجتماعية عند العجز أو المرض أو البطالة أو الشيخوخة إلا بعد زمن طويل من الكفاح وصراع الطبقات والتضحيات الجسيمة، بخلاف الإسلام الذي قرر مبدأ الضمان الاجتماعي للعامل وكفالته عند الحاجة، وأنشأ لهذا الغرض مؤسسة مستقلة لها مواردها الخاصة ألا وهي مؤسسة الزكاة التي تعدّ بالمعنى الحديث مؤسسة الضمان الاجتماعي.

وتحل هذه المؤسسة مشكلة الفقر جذريًا في حال تطبيقها تطبيقًا صحيحًا، فقد كان الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يعطي لمن لا يعمل رأس مال يبدأ به عملاً شريفًا يناسب قدراته، حتى يتحول من مستحق للزكاة إلى معط لها، وهذه هي الفكرة الرئيسة في الزكاة التي يمكن تطبيقها في هذا العصر، كأن يكون هناك صندوق للزكاة في كل دولة يوجه أموال الزكاة لإقامة المؤسسات والمصانع التي توظف الأيدي العاملة، وتتيح للفقراء فرص العمل الملائمة، ليضمنوا بذلك حد الكفاية الذي قرره الإسلام. وكلنا يعرف قصة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع اليهودي الضرير، حين رفع عنه الجزية، وقرر له راتبًا مستمرًا من بيت المال قائلاً في كتابه المشهور إلى خازن المال: «انظر إلى هذا وأضرابه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ونخذله عند الهرم».

وإلى جانب ذلك، هناك مؤسسة الوقف التي كانت تقوم بأدوار عظيمة في تحقيق الضمان الاجتماعي من خلال ما كان يوقفه القادرون من أموال ومؤسسات لأغراض خيرية مختلفة.

الإسلام حين يتيح للإنسان حرية ممارسة النشاط الاقتصادي، يضع ضوابط وقيوداً تحدد أسلوب ممارسة هذه الحرية

يجد أنه مليونير بشكل نظري أو على الورق فقط، لأن الإسلام حين يتيح للإنسان حرية ممارسة النشاط الاقتصادي، يضع ضوابط تحدد أسلوب ممارسة هذه الحرية، وهو يضع قيودًا على النشاط الاقتصادي للأفراد، فلا يجوز للإنسان أن يستثمر ماله في أنشطة غير مشروعة كإنتاج الخمور مثلاً، أو التعامل بالربا، أو الاحتكار، كما أنه ليس مسموحًا للإنسان أن يحبس المال عن التداول أو الإنتاج، إذ لابد للمسلم الحائز المال أن يستثمره، وأن يتصرف فيه وفق مقتضى العقل، وإلا عُدّ سفيهًا، وجاز الحجر على ماله، لأن المال في الإسلام مملوك لله سبحانه وتعالى والبشر مستخلفون فيه، فيجب أن يتصرف المالك فيما استخلف فيه وفقًا لأحكام الشرع.

• رسالتكم للدكتوراه عنوانها «مشكلة تخلف العالم الإسلامي»، فما حقيقة هذا التخلف وأسبابه في رأيكم؟

- المشكلة الاقتصادية - بوجه عام - هي أهم مشكلات الحياة، وهي مشكلة تعدد الحاجات وقلة الموارد، أي إن الفقر هو أهم المشكلات التي تواجه للصلاة، وحقًا من حقوق الله، الذي يعد إنكاره إنكارًا أو إغفالاً أو تكذيبًا للدين الإسلامي، لقوله تعالى: *أرأيتَ الَّذي يُكذِّبُ بالدِّين. فذلكَ الذي يَدُعُّ اليتيمَ. ولا يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين*. **الماعون: 1- 3.**

ومشكلة الفقر في المفهوم الإسلامي ليس مردها الفقراء أو قلة الموارد، كما فسرها الاقتصاد الرأسمالي، وليس سببها الأغنياء واستئثارهم بالثروة كما يصورها الاقتصاد الماركسي، وإنما السبب في مشكلة الفقر - في التصور الإسلامي - هو سوء استغلال الموارد الطبيعية، وأنانية بعض الأغنياء الذين يستأثرون بالمال لأنفسهم، فالمشكلة - إذن - في الإنسان الذي لا يستغل الموارد الطبيعية، وفي الإنسان الذي تحكمه الأنانية في علاقته بأخيه الإنسان؛ وحل هذه المشكلة بالعمل والإنتاج من أجل استغلال أفضل للموارد، وقد أقام الإسلام مؤسسة الزكاة لتحقيق التكامل الاجتماعي بين أفراد المجتمع.

• أراكم تعولون كثيرًا على الزكاة في تحقيق التكافل الاجتماعي في المجتمع الإسلامي، فما أبعاد هذا الدور الذي تؤديه الزكاة؟

• تناولتم في أحد مؤلفاتكم قضية التأمين من وجهة نظر إسلامية، إلى جانب تطور صيغته عبر العصور. فهل من صورة مبسطة لما انتهيتم إليه؛ ولاسيما أن هذه القضية تنال اهتمامًا متزايدًا في مجتمع اليوم؟

- بدأ التأمين تعاونيًا منذ قرون مضت، حين كان الناس يتعارفون بشكل أفضل عما هو حادث الآن، فكانوا يتكاتفون بعضهم مع بعض عند حدوث ملمة لأحدهم، وكان هذا ما يفعله أصحاب الحرف، إذ كان لكل حرفة تجمُّعُها الخاص، فإذا حدث مكروه لأحد من المنتمين للحرفة، تعاون زملاؤه للتخفيف عنه ومساعدته على تجاوز الأزمة.

واتخذ التأمين شكله التجاري مع اتساع الحياة، وصعوبة اتصال الناس بالشكل القديم، فكان لابد من وجود وسيط تَمَثَّل في شركات التأمين التجاري، التي اتجهت، مع اتساع نشاطها، إلى تقديم قروض للمستأمنين بشروط تعسفية واستغلالهم، إضافة إلى

الاقتصاد الإسلامي
ثابت ومتغيّر!!

سيطرتها على الاقتصاد الوطني، والجنوح إلى استغلال أموالها في الكسب السريع بما يلحق أضراراً بمصالح المجتمع، وحين تفاقمت هذه السيطرة، تدخلت الحكومات من أجل تنظيم عمل شركات التأمين التجاري، حتى عادت بعض الدول كأمريكا وبعض بلدان أوربا إلى التأمين التعاوني، حيث تتعاقد منظمات التأمين التعاوني مع كل مستأمن على حدة، على أساس تعاوني لا تجاري، فتُحَصِّل من المستأمنين أقساطاً مخفضة، وتؤمن لهم حماية رخيصة بسعر التكلفة باتباع أساليب حديثة.

وقد نالت قضية التأمين اهتمام بعض المفكرين الإسلاميين في هذا العصر، فاتفقوا على شرعية التأمين التعاوني، واختلفوا حول شرعية التأمين التجاري. وإجمالاً يمكن القول بأن التأمين التعاوني هو البديل الشرعي للتأمين التجاري، الذي أخذ في الانكماش والزوال، حتى في الغرب، بينما يُمارس في دول آسيا وأفريقيا المتخلفة من خلال شركات أجنبية ترمي إلى السيطرة والاستغلال.

• ما تقويمكم لتطبيقات مبادئ الاقتصاد الإسلامي في بعض البلاد الإسلامية؟

ـ تُعدّ المصارف الإسلامية أبرز صورة لتطبيق مبادئ الاقتصاد الإسلامي، وهي تحتاج منا إلى الدعم والتشجيع، ولكن يمكن القول بأنه حدث انحراف واضح في بعض تطبيقاتها للمبادئ الاقتصادية، فقد كان من المأمول أن تكون هذه المصارف مؤسسات استثمار وإنتاج فعلية، ولكنها بكل أسف، لجأت في كثير من الأحيان إلى تغليب كفة التجارة على الاستثمار، فنجدها تتاجر في العقارات، وتقوم بالاستيراد أكثر من التصدير، مما يضر بالاقتصاد الوطني. كما أن من المفترض أن تتساوى أصوات المشاركين في مجالس إدارات هذه المصارف، فلا يكون تحديدها مرتبطاً بمقدار رأس المال الذي يسهم به المشارك، لأن الأساس الذي تقوم عليه هذه المصارف وفق التصور الإسلامي هو التعاون، وكذلك ينبغي أن يكون لأصحاب الودائع تمثيل في هذه المصارف.

وبصفة عامة يتعين علينا النظر إلى اختلاف الرأي حول العمليات المصرفية وغيرها من المعاملات المالية المستخدمة بوصفه نعمة يُحرص عليها لخير الناس والتيسير على المسلمين، لأنه اختلاف في التصور والتطبيق لا في الأصل والمبدأ، ومن ثم، يمكن ترتيب عمليات المصارف غير الإسلامية في مجتمعاتنا وتطويعها لمقتضيات الشرع بمنعها من استثمار أموال المودعين في أوجه غير مشروعة، أو الإقراض بفائدة سوى مصاريفها الإدارية، فتتحول بذلك هذه المصارف إلى وسيط متعاون لا وسيط مستغل. وهذا ما سيؤدي إلى تلاشي الفروق بين المصارف الإسلامية وغيرها، حين تلتزم جميعها مقتضيات الشرع في تعاملاتها.

• ما موقع الاقتصاد ـ في رأيكم ـ في الصراع الحضاري في عالم اليوم؟

ـ لقد أدت ثورات المعلومات والاتصالات السريعة والتقنية المتقدمة إلى إيجاد مجتمع متشابك المصالح في شؤون المال والاقتصاد، والتقانة، والإعلام، والسياحة، وهذا الواقع ما يطلق عليه مصطلح العولمة. ومجتمع العولمة هذا يقوم على المنافسة الحرة، إذ لا مجال لأية جماعة أو أية دولة أن تبقى بعيداً من ساحة العولمة. ولقد ترتب على هذا تغيّر في المفاهيم والسلوكيات في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع، ولاشك أن تلك المنافسة الحرة التي أوجدتها العولمة هي على المستوى الخارجي للدولة في صالح الدول الغنية المتقدمة على حساب الدول الفقيرة المتخلفة، وهي على المستوى الداخلي تصب في صالح الأفراد الأغنياء على حساب الأفراد الفقراء، ومن ثم، فالأغنياء ـ دولاً كانوا أو أفراداً ـ يزدادون غنى، بينما الفقراء ـ دولاً كانوا أو أفراداً ـ يزدادون فقراً.

وتؤدي المؤسسات الاقتصادية الدولية كالبنك الدولي للإنشاء والتعمير، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية (الجات)، ومنظمات الاتحاد الأوربي دوراً كبيراً في أسواق المال العالمية، كما أن للشركات المتعددة الجنسيات دوراً أكبر في توجيه الاقتصاد العالمي لكبر حجم نشاطها الذي يتجاوز ألف مليار دولار يومياً، بينما مجموع الصادرات العالمية خلال سنة لا يتجاوز ثلاثة مليارات دولار. وبفضل توافر تقنية المعلومات والاتصال أصبح تركيز الإنتاج يتم في أي موقع من العالم تنخفض فيه كلفة الإنتاج، مما أدى إلى تنشيط التجارة الدولية التي أصبحت تمثل مركز الصدارة في اقتصاد أي دولة، حتى باتت المنافسة أمراً مفروضاً على كل دولة.

ويفرض مجتمع العولمة ضرورة وجود حوار بين الحضارات، لا أن تسود حضارة واحدة كما يريد الغرب.

وإذا جاء الحديث عن التباين بين العالم الإسلامي والغرب، نجد أن أزمة عالمنا الإسلامي أزمة تطبيق، بينما أزمة الغرب تتمثل في النظرة الأحادية التي تقوم على أساس المصلحة وليس المبدأ، فإذا كنا نغبط الغرب على بعض الفضائل مثل الصدق في القول والعمل، فإن هذه الفضائل أساسها المصلحة، التي تغيِّب الرقابة الداخلية النابعة من ذات الإنسان، معتمدة على الرقابة الخارجية الصادرة من قوة القانون، والدليل على ذلك ما نراه من تفاوت في تطبيق مبدأ احترام حقوق الإنسان، فهو يطبق فيما بينهم بمثالية واضحة، بينما يختلف الأمر حين يمس حقوق الآخرين من غير الغربيين. ومن هنا، فإن التقنية المتقدمة التي يمتلكها الغرب لا صمام أمان لها، ولا أدل على ذلك من بعض الظواهر المعاصرة التي يشهدها المجتمع الغربي، مثل جنون البقر، وقضية الاستنساخ الحيوي وغيرهما، والتي تنشأ من غياب الضوابط القيمية التي تنظم حركة المجتمع.

د. محمد شوقي الفنجري في سطور:



ـ من مواليد محافظة الشرقية، مصر 1926م.

ـ تخرج في كلية الحقوق، جامعة القاهرة 1948م، وحصل على دبلوم الدراسات العليا في الاقتصاد الإسلامي 1950م، ودبلوم الدراسات العليا في الشريعة الإسلامية1951. ثم حصل على دبلوم الدراسات العليا في العلوم السياسية من فرنسا 1963م، فالدكتوراه بموضوع «مشكلة تخلف العالم الإسلامي» 1966م.

ـ تدرج في السلك القضائي في مصر حتى وصل إلى منصب نائب رئيس مجلس الدولة.

ـ درّس الاقتصاد الإسلامي في كليات الشريعة والتجارة والبنات بجامعة الأزهر.

ـ عمل بالتدريس في جامعة الملك سعود مدة عشر سنوات ابتداءً من عام 1974م، وقام بمناقشة رسائل الدكتوراه والماجستير في المعهد العالي للقضاء، والمعهد العالي للدعوة الإسلامية، وكلية الشريعة.

ـ عمل مستشاراً قانونياً بالدار السعودية للخدمات الاستشارية بالرياض.

ـ من مؤلفاته:

«المدخل إلى الاقتصاد الإسلامي»، «نحو اقتصاد إسلامي»، «ذاتية السياسة الاقتصادية الإسلامية» (ترجمته الإيسيسكو إلى اللغتين الفرنسية والإنجليزية)، «الإسلام والمشكلة الاقتصادية»، «الإسلام والتأمين»، «المذهب الاقتصادي في الإسلام»، وغيرها.

شِعْرُنَا العَرَبِيّ في ضَوْءِ العَرَاقَةِ وَالتَّفتُّح



د. عبده بــدوي

الشعر العربي في أغلب عصوره كان مجرد ردّ فعلٍ للبيئة، ولظروف الحياة التي تُحيط به، والتي كانت تَتَّسِمُ عادة بالمشقة والعدمية والقحْط على حدّ ما سموه «بالسنوات الشهب» التي كانت تستمرّ عدداً من السنوات، بالإضافة إلى شدّة الحر، وشدّة البرد، بل إلى نوعية الطعام التي أشار إليها ابن خلدون(1).

ومع ذلك كان العربيّ يحبّ الصحراء، ويرى سعادة في التنقّل والعيش والرَّعْي والحرب، مع المشقّة في كلٍّ ذلك، بالإضافة إلى استثناءات قليلة حين تهبّ الصَّبا ويهطلُ المطر الذي كان من مُفْرداته «الغيث»، وحين تُكْسَى بعضُ المناطق بالعشب والشجر وعيون الماء، هذا إلى جانب نُبوغ الشاعر، والانتصار على الآخر.. وفي ضوء هذا نراه في الحَضَر والوَبَر ينجح في الأعمال المركَّبة كالمعلَّقات، والأعمال البسيطة كالقصيدة، إلى جانب الأعمال الرافضة والمعاندة كشعْر الصّعاليك والشعراء السود. فالشعر في كلٍّ كان يَتَّسم بالبَساطة والمبالغة والجَزَالة والحسّية والمكانيّة، إلى جانب تكرار المعاني إلى حد استْنفادها، مع ارتفاع صاخب لصَوْت الموسيقى(2)، ولتجاوز الوطنية والقومية إلى الإنسانية، على حد ما نعَرَف من المقدمات مثلاً، فهو يبدأ بالحديث عن الطلل، ورمزه «الموت»، ثم يتكلم عن الحب، ورمزه «استمرارية الحياة»، ثم الرِّحلة، ورمزُها «متوسط عمره في الحياة»، وبعد أن يسرع إلى ما يسمى «حسن التخلُّص» نراه يلجأ إلى ما يحب من غرض؛ فخرًا، أو مدحًا، أو رثاء... إلخ.

المهم أنه قد نجح في أنْ يُحَوِّلَ كل هذا من بيئته الطبيعية إلي بيئة فنية، وأن يتجاوز التقليد، والمحاكاة، والتعبير، إلى حالات نادرَة تُسمّى «الخَلْق» أو «إعادة الخَلق»، وقد كان هذا طبيعيًا، لأن الحياةَ من حوله تقومُ على التّدافع والتّناقض وحركة الحياة السريعة، ثم إن العربي لصلته بالصحراء العدمية كان قلقًا، ومُتوتِّرًا، ومُجْهَدًا، ومضطرًا للاحتكاك بالعوالم الجديدة بلا مقوّمات حضارية من قَبْل الإسلام، فالعربي، بصفة عامة، كما يقول أحمد أمين: «أسرعُ ما يكون قبولاً للتأقلم والتّحضّر، فإذا تحضّروا انغَمَسوا في النّعيم، ومالوا إلى خصْب العيش، وتأنّقوا في المأكل والملبس والشراب، فإذا انغمسوا في النّعيم وقعَوا في سيئات الحضارة، ففقدوا صرَاحَتَهم وبساطتهم»(3).

ومَعنى هذا أنهم بعد مدة هَرْوَلُوا إلى ما عند «الآخر»، والتاريخ يشهد أنّهم كانوا دائمًا متنازعين بين العَراقة وبين التفتح، فكما كان هناك من يلتصق بالتراث، كان هناك من يقول كابن المعتز: لكلٍّ جديد لذّة، ومن يقول: إن الشعر يجب أن يكون أشبه بالزمان، وأشْكل بالدَّهر(4)، وعلى حدّ قول الحسن بن رشيق (ت: 463هـ): «طريق القدماء خولفت إلى ما هو أليق بالوقت، وأشكل بأهله»(5).

هل الشعر مقصور على العرب؟

ليس هناك خلافٌ حول ارتباط الشعر بالغناء، لأنهما يصدران عن الوزن والإيقاع، وإن كان هناك من يُنَحِّي ظاهرةَ الغناء، لأن الغناء ليس من عمل الشاعر(6) مع استبدال ظاهرة «الإنشاد» بها، والملاحظ أن هناك شبه عدمية في مراحل التقليد الكثيرة، وفي التشبُّث بنظرية «عمود الشعر»، والصدور عنها، حين ركز أبو علي أحمد بن محمد المرْزُوقي (ت: 421هـ) على شَرَف المعْنَى، وصحّته، وجزالة اللفظ واستقامته، وإصابة الموضوع، والمقاربة في التشبيه(7)، فالشَاعر لكيْ يكون شاعرًا لابد أن تتوافر له قوةٌ حافظةٌ، وقوةٌ مائزة ـ يميز بها ما يلائم الموضعَ والنظمَ والأسلوب ـ وقوة صانعة ـ تتولّى جميع ما تَلْتَئِمُ به كليات الصناعة في الشعر(8) ـ، وقد كان وراء هذا التعصُّب والحماسة للشعر، على حد قول الجاحظ (ت: 255هـ): «فضيلة الشعر مقصَورة على العَرب، وعلى من تكلّم بلسان العرب، والشعر لا يُستَطَاعُ أن يُتَرْجَم، ولا يجوزُ عليه النَّقْل، ومتَى حُوِّل تَقَطَّع نَظْمُه، وبَطلَ وَزْنُه، وذَهَب حُسْنُه، وسقط موضع العجب»(9) مع ملاحظة أن هناك من أبدع في الترجمة من لغة إلى لغة مثل: فيتزجرالد في إنجلترا، وجاك بيرك في فرنسا، وبوريس باسترناك في روسيا، وأحمد رامي وأحمد الصافي النجفي في العالم العربي، والملاحظ أن عبدالملك بن محمد الثعالبي (ت: 429هـ) يكاد يكرر مقولة الجاحظ حين يقول: «الشعر عمدة

الأدب، وعلم العرب، الذي اختصتْ به عن سائر الشعوب، وبلسانهم جاء كتاب الله المنزل»(10)، ومثل هذا الموقف لا يَخْلُو من الشّعوبية والتّعصب، فهو يجمع بين ثبات المعنى وثبات المبنى، ويقيس من وجه آخر الأدب على الدين(11).

الوزن أعظم أركان الشعر

ولكن كل هذا الثبات - من قبل ومن بعد - قد تَزَلْزَل بآراء مُتَطورة، على نحو ما نعرف من ضَغْط الواقع، ومن آراء المعتزلة، وبخاصة القاضي عبدالجبار بن أحمد (ت: 415هـ) الذي رأى أن التّحدي بإعجاز القرآن، لا يقعُ بالمعاني، وإنما يقع في التعبير عن هذه المعاني، كما كان هناك رأي الجاحظ الذي يرى أن المعاني مطروحة في الطّريق يعرفها العجمي والعربي.. وكل هذا أدّى إلى أن الشأن كل الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، ومن ثم كان القول «بالتّضَام» الذي يتم بطريقة مخصوصة، ومن ثم يكون هناك تجاوزٌ لدلالة الكلمة معجميًا خارج السياق، ولدلالة الكلمة في السياق «فلها عند الأنضمام صَنْعَة»، ولعل هذا كان تمهيدًا لرأي عبدالقاهر الجرجاني (ت: 471هـ) الذي رأى أن المعنى يتغيّر لتَغَيّر اللفظ. ولقوله بالوحدة بين المعْنى والتركيب النحوي، فقد أطلق النحوَ وَفَجَّرَ إمكاناته، وبحثَ عن مناطق غَيْبيّة تخصّ المعنى(12)، وإن كان يؤخذ على نظريته في النظم قوله بأوّليّة المعنى وتبعية اللفظ، ومعنى هذا أنه أراد أن يكون النقد وصفيًا يَنْطَلق من النّص، لا استْدلاليًا ينطلقُ من معايير جاهزة سابقة للنص(13)، وهكذا تكَون الدّلالة لابد منَ توليدها، وَالوصول إلى «معنى المعنى»، فالشعر، بالإضافة إلى الطبع، لابد فيه من الغوص «فالشعرُ لا يُوْصَل إلى دُرّه إلاّ بالغوص»(14)، مع ملاحظة أن الرأي الذي كان سائدًا هو الاعتماد علىَ أن الأدب صناعة(15)، وعلى ضرورة الاعتماد على النموذج، والحفظ، ولعل مما ساعد على هذا تخصيص ثلاثة علوم لخدمة الشعر هي: علم العروض، وعلم القافية، وعلم الضرائر، فالموسيقى كانت أساسية وضرورية للاعتماد في المقام الأول على الرّواية، ومع أنه أمكن إعادة تشكيلها في كل عصر، إلا أن الوزن كان أعظم أركان الشعر، وأولاها به خصوصية، فالشعر كان نظير اللؤلؤ في النظم، كما ذكر ابن منظور (ت:711هـ)(16).

القافية وراء ترتيب بعض المعاجم

كلّ النقاد العرب ركزوا على أن أبرز شيء في الشعر هو الوزن الذي تَنْتَظمُ في إطاره المقاطعُ الصوتية، والقوالب الإيقاعية، ومن هنا ارتفع صوتُ العروضيين إلى أن مَيَّزَ قُدامة بن جعفر (ت: 337هـ) بين العروض والنقد(17)، فالنقد هو علم أن تسأل، قبل أن يكون علم أن تسرع إلى الإجابة(18)، أما ابن رشيق فقد ركّز على أن الوزن أعظم أركان الشعر، وأولاها به خصوصية(19)، وقد أكثر النقادُ من الحديث عن موسيقي الشعر، حين وقفوا على أوزانه، وعلى الجناس بأنواعه، والتّصْريع، وما يُسمّى البحور المعكوسة، والمقاطع، والمطالع، وبثّ مجموعة من الأصوات المتكررة، كما أنها كانت وراء «الشعر التعليمي»، ومطولات الأراجيز، ودخول بعض الأعمال النثرية دائرة الشعر ككليلة ودمنة المنظومة.

أما القافية فكانت مكمّلة للوزن، وشريكة له في الاختصاص، ولها وظيفة معنوية إلى جانب الوظيفة الوزنية، ولا يسمي الشعر شعرًا حتى يكون له وزن وقافية(20)، وهي حوافر الشعر، عليها جَرَيانُه واطّرادُه، على أن تكون مُستقلةً ومنفصلة، وغير مفتقرة إلى ما بعدها، ولا مفتقر ما بعدها إليها(21)، ولقد كانت وراء ترتيب بعض المعاجم، ليسهل على الشعراء الاهتداء إلى القوافي، وإلى جانب الوزن والقافية كان هناك ما يسمى موسيقى الحشو المتولد من إيقاع متميز من تركيب الأصوات في الشعر، وموسيقى لزوم ما لا يلزم على حد ما نعرف عند أبي العلاء المَعَرّي (ت:449هـ).



د. أحمد أمين

وعلى كل فابتداء من القرن الثالث حرّكُوا رتَابة القافية، وكثر المُزْدَوَج، والمخمَّس، والمُسمَّط، بالإضافة إلى دور الموشّحات التي قسمت القصيدة إلى مقطوعات، ويسّرت الوزن وسَهّلَت للسّمع الانتقال بين القوافي في مواقعها المنتظرة، كما أنه سمح للخَرْجَة أن تكون فصيحةً مُعْربة، وملحُونةً عاميةً، وأن تكون أعْجَمِيّةً(22)، فالتقفية مطلب نفسيّ (سيكولوجي) فني ملح، بحيث تكون الأشطر السّائبة نَقْصًا، وإخفاتًا للنّغم الجميل.

أرسطو يرفض التمييز على أساس الوزن

وعلى كل فالعلاقات التي تربطُ بين مختلف الأشكال العروضية - بيتًا وتفعيلة - هي أساسًا علاقات دورانية، فطن إليها الخليل، وجعلها أساسًا لنظريته. فمثلاً البحور الثلاثة - الطويل والمديد والبسيط - من الدائرة الأولى، وكل عنصر يَنْتجُ عن شبيهه بتبديل دوراني(23)، وإذا كان العروض يطبّق قوانين مسبقة، فالإيقاع يخلق قوانينه بنفسه، وكما يشمل العروضَ يشمل عدّةَ ميادين في مقدمتها الموسيقى، ثم إن ظاهرة الرّنين - كما في الفيزياء - تؤدي دورًا أساسيًا حين ترصدُ موجات الشعر التي تصدر عن الوجدان والمشاعر الدّفينة، وتُعْطينا تَرَدُّدات سرعان ما تتجاوب مع تردّد أجهزة الاستقبال عندنا(24). أمّا الفلاسفة فقد كان لهم رأيٌ آخر، فأرسطو ابتداءً رفض تمييز الشعر من غيره على أساس الوزن فقط، وقد اعتمدوا على العدد وعلى الزّمن للوصول إلى التناسب الموسيقي، والملاحظ أن الفارابي (ت:339هـ) يرى الوزن دون المحاكاة والتّخْييل، كما يرى أن التفعيلةَ ليست هي الوحدة الأساسية للإيقاع، وإنما المعوّل على البيت كلّه «وهو في هذا يقترب من النظرة الحديثة التي ترى أن البيت كله هو الوحدة الأساسية للإيقاع، وأن التفعيلات ليس لها وجود مستقل من حيث هي تفعيلات، وإنما من حيث علاقتها بالقصيدة ككل»(25).

أوزان جديدة تفرضها الحياة

وقد كان للشعراء دورٌ عمليٌ في النظرة للشعر، فمعلقة عَبيد بن الأبرص، التي أولها:

أَقْفَرَ منْ أَهْله مَلْحُوبُ
فالقطَّبِيّات فالذَّنُوبُ

لا تجري على وزن مُطّرد، ومثل هذا نراه فيما يُنسب لامرئ القيس، والمرقّش الأكبر، وعدي بن زيد العبادي، كما وُجدت أوزان جديدة، فرضتها الحياةُ، فأبو العتاهية (ت:211هـ) حَين سمع صوت مَدَقّة حاكاها:

للمنون دائرا
تٌ يدورُ صَرْفُها(26)

وسَلْم الخاسر (ت:186هـ) ابتدع الرّجز على جزء واحد، في أرجوزته التي أولها:

غيثٌ بكَر
ثمّ اتّسَر(27)

والشاعـر رَزين الملقب بالعروضي (ت:247هـ)، كان ينظم قـصائده على أوزان غريبة متأثراً بأستاذه عبدالله بن هارون، والدماميني (ت:827هـ) في شرح الخزْرجية تحيّر في أن يُسْلكَ البحر الذي قاله البهاء زهير (ت: 656هـ) في دائرة العروض، حين قال:

يامَنْ لعبتْ به شَمُول
ماألْطفَ هذه الشّمائل
نشوان يهزّه دلال
كالغُصْن على النّسيم مائل

وقد استمرت ظاهرة التجديد من الشعراء في كل العصور، مثل: مطيع بن إياس، (ت:166هـ)، وأبي تمام (ت: 231هـ)، وابن المعتز (ت: 296هـ) والمتنبي (ت:354هـ)، كما وجدناه عند البارودي حين اخترع وزنًا أجزاؤه: فاعلن. فَعَلْ:

املأ القَدَحْ
واعصِ مَنْ نَصَحْ

وقد جاراه شوقي (ت:1932م) في هذا البحر، وابتدع «نشيد العلم» بالمسرح، ونازك الملائكة أضافت إلى البحور الصافية، حين كتبتْ «نجمة الدم»، فقد لاحظت أن من الممكن أن نقسم شطر مُخلَّع البسيط قسمين متساويَيْن هما: مستفعلن فا، عيلن فعولن - بإضافة ياء - فهنا تساوى المقطعان، وأصبحَ يمكن التعبير عن المقطعين بتفعيلة واحدة هي: «مستفعلاتن» المساوية لكل من المقطعين(28). وفي العصر الحديث ظهرت اتجاهات تسمى: مجمع البحور، والشعر المُرْسل، والشعر المدوّر، والشعر الصّافي، والشعر الحرّ، وشعر بنثر، وقصيدة النثر. والملاحظ أن كلَّ تجديد كان يعتمد على إضعاف صوت الموسيقى(29)، وكما ابتعدتْ الموسيقى من الخط (الميلودي) إلى ما يسمى التَّمْجيد، والزّائدة، بالإضافة إلى التّرعيدات، والتّمزيجات، والتّفريعات، من وقت بعيد، وابتعدتْ من نظرية «عمود الشعر»، ظهرت تجاوزات متعددة، فالنظام الخليلي لا ينفي طرقًا أخرى ممكنة كالنظام الإيقاعي، الذي يعتمد على ركيزتين:

1- التركيب النّووي بدلاً من نظام التفاعيل والمقاطع.

2- الطبيعة النبرية التي تعتمد على التفاعُل بين الكمّ والنّبر(30) في البنية الإيقاعية.

مفاهيم ومصطلحات جديدة

ولعل وراء ذلك الاطلاع على ما عند «الآخر»، وعلى تأثير النّثر في الشعر؛ فمن قديم كان رأي أبي حيان التوحيدي (ت: 400هـ): أحسنُ الكلام ما قامتْ صورته بين نَثْر كأنّه نَظْم، ونظم كأنه نثر(31)، وابن خلدون (ت:808هـ) أدخل النثر الفني في دائرة الشعر(32)، وكانت هناك محاولة الجمع بينهما، بحيث يُغْني النثرُ عن الشطر الأول، ثم يكون الشعر في الشطر الثاني، كما قال بديع الزمان (ت:398هـ):

أنا بقرب الأستاذ أطال الله بقاءَهُ

«كما طَرِبَ النشوانُ لذّ به الخمر»

وقريبٌ من هذا ما يُعرف «بالمولد النبوي»، وما يُعرف «بالبَنْد العراقي»(33)، كما ساعد عليه القول بأن اللغة ليست فطرةً، لأنها - كما قيلَ - بلا حدود، ومتغيرة، ونسبية، وأنّه يجبُ غَسْلها من كل ما عَلق بها من العصور، فاللغة كمّا يقال: خيانة، وبلا منهج، وبلا تخطيط، وكما نعرفَ فقد أصبح التَّعامل مع الذاكرة البصرية أكثر من التعامل مع الذاكرة السمعية، زدْ على ذلك الالتفات إلى الجَدَل، وإلى الاختلاف في الائتلاف، كما كان هناك تأكيد الذات، واللجوء إلى الرمز - لخلق ذاكرة ثانية في الكلمة - والأسطورة، والقناع والدراما، وخَلْق معادل للشعور المرغوب في التعبير عنه، والوصول إلى ما يسمى «أدبية الأدب»؛ بمعنى أن يكون للأدب كيانٌ مستقل عن صاحبه(34)، وعن قارئه، كما كان هناك الاقتباس من الفنون الأخرى بعد سيطرة مقولة «الشعر مستطيع بنفسه»، ومن ثم سمعنا ما يقال مثلاً عن المونولوج، والديالوج، والحوار، والإضاءة، والتقطيع الخشن، والناعم، بالإضافة إلى الوحدة العضوية، والشكل المقطعي والنبري والإيقاع الخفي، والمعاني المترابطة؛ ومن ثم كان لا بد من دخول مفاهيم ومصطلحات جديدة، مثل الانْزياح أو الانحراف، والتّناصّ، والاقتباس، والتّمفصل، والمختلف في المؤتلف، والماورائي، والدلالي، وفتق التراكيب، وتوليد الدلالات، والتشكيل المتدافع، والالتزام، والإرْجاء، والانتقال من الصورة إلى الفضاء الشعري، وجدلية الزمن، وموسيقى المكان، والكلمة المفتاح، وتجليّات النص، وإدخال الواقعي في المجرد، والانشطار حين يُخلق المحال من المألوف؛ كل هذا فيه إضافة للرصيد النقدي، ولكنْ فيه كذلك نوع من النَّقْل والتغريب، والتعامل مع النظريات التي تُجووزَت، وانتزاع للنص من سياقه الاجتماعي والسياسي والثقافي، ولعل في المقدمة احتضان الغرابة والإدهاش، وتبني المقولة الخاطئة التي تقول: اكتب ما لا يُفهم، وترجم ما لا يُفهم تكنْ أعظم الكتاب(35).

تيارات متدافعة!

من كل هذا نرى أن الساحة ملأى بالشعر، وأنه لم يُنَحَّ بالرِّواية، وأن هناك



عبدالله بن خميس



أحمد الصافي النجفي



محمد محمود الزبيري

شعرنا العربي في ضوء العراقة والتفتح

عدداً من التيارات التي تتدافع، التي يجيء في مقدمتها:

1- الشعر البياني الممتلئ بالأرصدة القديمة، مثل: عبدالله بن خميس، ومحمد حسن فقي، ومحمد التهامي.

2- الشعر التجريدي الذي يسعى وراء مَكْنونات الحياة الخفية، ويحلق في عوالم التَّصوف والأزمنة والأمكنة الضائعة مثل: أدونيس، ومحمد علي شمس الدين، ويوسف الخال، وأحمد مشاري العدواني.

3- الشعر المكثف بتوليد الصور، وبدائية الفطرة مثل: محمود حسن إسماعيل، ومحمد عفيفي مطر.

4- الشعر العبثي المتلاعب باللّغة والحروف، والمعتمد على الذكاء العقلي مثل حسن طلب.

5- الشعر الذي ينطلق من الواقع في شكله المحس بأبعاد درامية، بحيث لا يكون استنساخًا للواقع، وإنما هو غَوْصٌ في النفس، وخَلْقٌ لما لا يستطيع الواقع خلقه مثل: نازك الملائكة، وعبدالوهاب البياتي، وأحمد حجازي، وغازي القصيبي، ومحمود درويش، وخليفة الوقيان.

6- الشعر الرافض، الذي يرفض حضارته، ويواجه الحقائق الباطنية، ويرى الشعرَ كَشْفًا ورُؤيا، واللغةَ نوعًا من السِّحر مثل: أدونيس، ومحمد الفيتوري.

7- الشعر السياسي الذي يتعرض للأنظمة والزعامات، والملاحظ أن الشعر منذ مدة ابتعد من هاتين المنطقتين الخطرتين، عملاً بنصيحة ابن رشيق حين علّق على مقتل الشاعر سُدَيف (عام: 146هـ)، فقال: «وما للشاعر والتعرّض للحتوف، وإنما هو طالب فَضْل؟ فلمَ يُضَيِّعُ رأسَ ماله؟ وكلّ شيء يُحتمل إلا الطعن في الدول»، ولقوله: «والشاعر أولى من كفَّ منطقه، وأقال عثرات اللسان»(36)، ولكن في العصر الحديث رأينا فريقًا يقترب من هاتين المنطقتين بوساطة الرمز، كقصيدة «عودة ذي الوجه الكئيب» لصلاح عبد الصبور، وبعض قصائد كمال عبدالحليم، وإن كان هناك من جاهر بتوجس في العراق كمحمد مهدي الجواهري، وعبدالمحسن الكاظمي، وجميل صدقي الزهاوي، وفي اليمن كمحمد محمود الزّبيري، وعبدالله البردوني، أما الذين صرخوا بالإدانة فيجيء في مقدمتهم: نزار قباني، ومظفّر النواب.

التجديد بين الزحف والهرولة

وما يجمع الأمر كله أن الشعر في تجلياته الماضية كان أشبه بالزمان، وأشكل بالدهر، وأن عملية التجدّد كانت تَزْحف بين الحين والحين، وإن كانت قد هرولت في العصر الحديث، فقد اقتحم الشعر الماضي والواقع إلى المستقبل والمجهول، وغاص بجدارة على مكنونات الوجود الخفية، وفي الوقت نفسه نراه يدير ظهره للمفيد والعملي والمباشر والمسيَّس والمُؤَدْلَجِ، ومعنى ذلك رفض الشموليات السياسية والفكرية والمنطقية، حتى لا يصبح الشعر مجرد بوق، بالإضافة إلى رفض كل مفهوم مسبق للشعر، لأنه يعادي طبيعة الكتابة الشعرية، ويخلق لها سقفًا يقفل فضاءها(37)، ومعناه كذلك أنه يدور في شبه دوّامة لا تتوقف، فإذا كان كل ما ازدهر في الماضي يُصَادَر في القصيدة الحديثة، فإن ما يشكل العصر من قلق وخوف وسقوط وعقم واستلاب يبقى متوهجًا في كيان القصيدة، مع ملاحظة أن القصيدة الحديثة يكون لها محْوَرٌ تفرع عليه، أو تعود إليه بعد مدة كما تعود الدائرة، ولهذا تتميز بالحيوية والتدفق والتركيب، والوصول إلى مايُسمَّى «الذّروة»، فبعد أن كانت تضع الشطر في مقابل الشطر، والشيء في مقابل نقيضه فيما يسمى «الطباق» أصبحت تعتمد على مجموعة من التوافق والتضاد تُبَثّ في القصيدة بمهارة(38)، ولقد ساعد على ذلك أنها تتحدث - أكثر ما تتحدث - عن حالات ضاغطة كالغُربة، والحب والموت، والنفي والهوان، والحرية والأسر... إلخ. كما أنها تتخفَّف من الصور الكثيفة، والموسيقى الجوفاء الزاعقة، وتصل إلى كثير مما تريد بالرّوح الدرامية، والإيقاع اللامع، واللغة النثرية التي تتبنّى الدهشة والغرابة، والفضاءات التي لا تنتهي، ولعل هذا جعلها تتجاوز عددًا من الأطر، إلى إطار ما يسمى الخلق، أو إعادة الخلق.

الهوامش:

1- وتَنْشأ أمعاؤُهم أيضًا على نسبة أمعاء الإبلِ في الصحة والغلَظ، فلا يطرقُها الوهَنُ والضّعْفُ، ولا ينالُها من مضار الأغذية ما ينال غيرهم. المقدمة، تحقيق د. علي عبدالواحد وافي 43/1.

2- لكل عصر إيقاعه، فالجاهلي لم يعرف المجتث، والمضارع، والمقتضب مثلا.

3- ظُهر الإسلام 633/1، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

4- الكامل للمبرد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، 302.

5- العمدة في محاسن الشعر، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، 301/1، بيروت.

6- موسيقى الشعر، د. إبراهيم أنيس، 180، بيروت.

7- شرح ديوان الحماسة، تحقيق أحمد أمين وعبدالسلام هارون، القاهرة.

8- منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، ص43، بيروت.

9- الحيوان 74/1، 75.

10- يتيمة الدهر، تحقيق د. محمد مفيد قميحة، 25/1، دار الكتب العلمية.

11- شكل القصيدة العربية، جودت فخر الدين، 248، طبعة المناهل، بيروت.

12- نظرية المعنى في النقد العربي، د. مصطفى ناصف، 35، دار الأندلس، بيروت.

13- شكل القصيدة العربية، 65.

14- رسائل الإعجاز لعبدالقاهر، تحقيق محمد رشيد رضا، 56، دار المعرفة، بيروت.

15- الصناعتين لأبي هلال العسكري (ت: 395هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي.

16- مادة: نظم.

17- نقد الشعر، تحقيق كمال الدين مصطفى، مطبعة السعادة 1963م.

18- تحليل النص الشعري، يورى لوتمان، ترجمة د. محمد فتوح أحمد، المقدمة، دار المعارف.

19- العمدة 134/1.

20- العمدة 151/2.

21- منهاج البلغاء 271.

22- جيش التوشيح، لسان الدين بن الخطيب (ت:776هـ)، تحقيق هلال ناجي، المقدمة.

23- اللسانيات والرياضة والعروض، د. مصطفى حركات، 36، دار الحداثة 1988م.

24- مقال: الحركة التوافقية في الألوان والشعر، د. أحمد سعيد الدمرداش، مجلة الشعر، ع5، يناير 1977م.

25- نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، د. ألفت الروبي 53، ط. 3، دار التنوير.

26- جاء في الأغاني: وله أوزان لا تدخل في العروض 400/3.

27- هو ما سمي بالمقطع، ويدل على الاقتدار في الشعر. شعراء عباسيون، غوستاف فون غرنباوم، 88.

28- قضايا حول الشعر، د. عبده بدوي، 140/1، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

29- نفسه 150/1.

30- في البنية الإيقاعية للشعر العربي، د. كمال أبوديب 531، دار الكتاب العربي.

31- الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، 145/2.

32- المقدمة 523، دار الكتاب العربي.

33- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، 190، دار الآداب، بيروت.

34- هناك مفهوم «موت المؤلف» والمقصود الحيادية المطلقة.

35- نقد الحداثة، د. حامد أبو حامد، 55، الرياض.

36- العمدة، وديوانه: 4، 25، 26، 34.

37- من الصورة إلى الفضاء الشعري، د. ديزيزة سقال، 133، دار الفكر اللبناني.

38- تأمل قول جرير: «لايقال للشعر: شعر إلا أن يكون بعضه آخذًا برقاب بعض»، المذاكرة في ألقاب الشعراء للشيباني، تحقيق شاكر العاشور، 69، بغداد.



بوريس باسترناك



د. غازي القصيبي

بداية تاريخ المطابع والنـ

د. إبراهيم بن عويض العتيبي

الكتاب وعاء العلم، وقد مرت الكتابة بمراحل تاريخية حسب ما توافر لكتَّاب العصور الماضية من وسائل الكتابة وطرائق حفظها، ثم تُوِّجت هذه المراحل باختراع الطباعة وما نتج منها من ثورة في نشر الكتاب وتبادل المعارف الإنسانية بين الشعوب. وصناعة الكتاب ترتبط بالطباعة وتطورها، وقد مرت هي الأخرى بمراحل مختلفة من الحفر على الخشب إلى استخدام الحاسبات الآلية وإنشاء دور النشر الكبرى التي أسهمت في نشر الكتاب بصورة لم تعرفها البشرية من قبل.

وتشهد المملكة اليوم نهضة علمية ووفرة في الكتاب، حتى إن المتاجر العادية تخصص ركنًا من أركانها تعرض فيه الكُتب وبعض الدوريات. فهل نعرف كيف دخلت الطباعة إلى المملكة ومتى بدأ النشر فيها؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال يحسن التمهيد بشيء عن تاريخ التدوين مرورًا باختراع الطباعة، ومن ثم الوصول إلى بدايات تاريخ الطباعة والنشر في المملكة موضوع السؤال.

البداية على الخشب والطين

بدأت المحاولات الأولى لتدوين الكتابة في منتصف الألف السادس قبل الميلاد تقريبًا من طريق تسجيل الوقائع وبعض المعلومات على ألواح من الخشب، ثم ألواح الطين(1).

وفي بلاد الرافدين وُجدت مدوَّنات من الحضارة السومرية (5000 ق م) تثبت بعض الوقائع على ألواح من الطين عن موضوعات مختلفة في شؤون الدولة. وخَلَفَهُم البابليون الذين استخدموا الكتابة السومرية وكتبوا على الطين الشيء الكثير حتى تراكمت الألواح ونظمت بما يشبه دار الكتب اليوم وقد ازدهرت في عهد حمورابي (18ق م)(2).

وفي عهد الآشوريين ـ الألف الأول قبل الميلاد ـ وجدت بقايا مكتبة من الألواح أو الرقم الطينية تجاوز عددها 31 ألف رَقْم طيني وخاصة في عهد آشور بانيبال (668-626 ق م)(3).

وطور الفينيقيون، سكان الشام، في الألف الأول قبل الميلاد طريقة الكتابة التي اقتبسوها من اللغات القديمة من هيروغليفية ومسمارية؛ فوضعوا أبجدية تتكون من 22 رمزًا، واستخدموا أوراق البَرْديِّ(4).

وفي مصر (4000 ق م) سجل المصريون على جدران المعابد والقبور والألواح رموزًا وإشارات تدل على التدوين، وعندما استخدموا أوراق البَرديّ في بداية الألف الرابع قبل الميلاد دونوا عليها كتابات باللغة الهيروغليفية(5). ولهذه الأمم البائدة فضل، وحسبها أنها باشرت تدوين شيء عن حضارتها بما تيسر لها من وسائل التدوين، ومن المؤكد أن الذي وصل إلينا منها نزر يسير.

رحلة الورق من الصين إلى العرب ثم أوربا

وبصورة عامة تطورت أساليب التدوين من ألواح الخشب والطين إلى ورق البردي إلى جلود الحيوانات على الرغم من صعوبة نقل هذه الأوعية، وعدم ثبات الكتابة على بعضها وندرة موادها الخام؛ مما أضاع الكثير من معارف الأمم البائدة، ولكن اختراع الورق سهل عملية التدوين.

تمكن الصينيون من صناعة الورق عام 105م من أوراق الأشجار وبقايا الملابس البالية وخاصة الحرير، ثم نقل العرب عن الصين الورق وطريقة صناعته في القرن الثامن الميلادي بعد أن اتصلوا بالصين في أثناء الفتوحات الإسلامية شرقًا. وأنشؤوا له مصنعًا في بغداد في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد. ومن الدولة الإسلامية في إسبانيا (كان في مدينة طليطلة الإسلامية مصنع للورق) وصل الورق إلى أوربا في القرن الثاني عشر الميلادي(6). وبعد أن انتقلت صناعة الورق إلى أوربا توافرت كمياته مما سهل عملية نشر الكتب. ومن هنا بدأت الخطوات الأولى للطباعة الحديثة منتقلة من الرسم على الألواح والجلود إلى استخدام الورق الذي امتاز بسهولة التصنيع وخفة الحمل ووضوح الكتابة وبقائها مدة زمنية أطول. وقد توج هذا الجهد باختراع الطباعة.

نشر في المملكة

الطباعة: من الحفر على الخشب إلى الحروف المعدنية

تمكن الصينيون من حفر رموز الكتابة مفرقة على قطع من الخشب واستخدموها في الطباعة(7). ويُعدّ «وانج شيه» من مقاطعة كانزو في الصين أول من طبع كتابًا بوساطة حروف محفورة على الخشب عام 868م، وفي عام 905م طُبعت في الصين أول عملة ورقية صينية بهذه الطريقة. ومن المؤكد أن فكرة استخدام الحروف المحفورة على الخشب انتقلت إلى أوربا، وأول من تلقاها الهولنديون(8).

وفي عام 1435م - وقيل عام 1440م - تمكن الألماني «يوحنا جوتنبرغ» من حفر الحروف الأبجدية على رؤوس قطع من النحاس بحيث تصف في خطوط مستقيمة مما يسهل عملية تكييفها حسب الطلب، ومن ثَم توزع بسهولة بعد الانتهاء من الطبع لتستخدم مرة أخرى بطريقة شبه آلية(9)، وهذه الطريقة تعدّ بداية الطباعة الحديثة بالحروف المتحركة التي يسرت عملية الطبع، ثم تبعه عدد من المخترعين طوروا أساليب الطباعة وتقنيتها إلى أن وصلت إلى الطباعة الإلكترونية باستخدام الحاسبات الآلية في العصر الحديث(10).

انتقال المطبعة إلى العالم الإسلامي

وبعد أن تطورت الطباعة ووسائلها في أوربا، بعد اختراع مطبعة «جوتنبرغ» وتضافر جهود المطورين من بعده، انتقلت إلى العالم الإسلامي متأخرة، نتيجة رفض السلطات العثمانية استخدام المطابع خوفًا على المصحف من التزوير ولأسباب أخرى(11)، فكان تأسيس أول مطبعة بحروف عربية في الدولة العثمانية في مدينة اسطنبول عام 1726م، وقبلها جُلبت إلى لبنان عام 1610م مطبعة سرعان ما توقفت، كما تأسست في حلب مطبعة عام 1706م، ثم توالت إجراءات جلب المطابع إلى البلاد العربية سواء من طريق الحكومات أو المؤسسات العربية(12)، ولكنها لم تدخل إلى الحجاز إلا في وقت متأخر. وضمّ الحجاز إلى نجد وملحقاتها، وتوحيد المملكة العربية السعودية، يُعَدّ بداية الطباعة والنشر في المملكة.

والنشر في المملكة بصورة عامة لم يتوقف على إنشاء المطبعة العثمانية التي جُلبت إلى الحجاز أول مرة عام 1300هـ، فقد كان علماء هذه البلاد


المملكة العربية السعودية
مطبعة الحكومة

الرقم ...
التاريخ ...
المشفوعات

صاحب السعادة وكيل وزارة المالية الأفخم

بعد التحية والاحترام .-

بالإشارة إلى أمركم رقم ٤٤١٧٧/٧ وتاريخ ١٣٧٠/١١/٢٩ بشأن المعلومات التي يطلبها خليل صابات باشا أحد مدرسي معهد التحرير والترجمة والصحافة بجامعة فؤاد الأول بمصر .. عن المطبعة لتحضير رسالة دكتوراه في تاريخ المطابع بالشرق الأدنى .

وأتشرف بأن أرفع لسعادتكم الإجابة عن كل سؤال .

١ – تاريخ إنشاء مطبعة الحكومة

ج – لم يعرف الحجاز فن الطباعة إلا في عام ١٣٠٠ إذ فيه استحضرت الحكومة التركية مطبعة ((بدائية)) صغيرة تدار باليد، ثم في عام ١٣٠٢ استحضرت مطبعة متوسطة ... مطبعة حجرية، وبوجود هذه المطابع الثلاث سميت آنذاك ... المطابع كانت صغيرة وتدار باليد فقط ...

على مولد صحة ... ماسبب هذا القول من الصحة ؟ وما مصير هذه المطبعة

أسست أول مطبعة في مكة . ماسبب هذا القول من الصحة ؟ ... ما يناقض قول الأستاذ جرجي زيدان بك

ج – بالاطلاع على ماكتبه المؤرخون في هذا الشأن ظهر لنا ما يناقض قول الأستاذ جرجي زيدان بك من أن أول مطبعة أنشئت بالحجاز كانت عام ١٣٠٣ فقد جاء في مقال صاحب السعادة رئيس الشعبة السياسية الشيخ رشدي ملحس المنشور في جريدة أم القرى في العدد رقم ٢٠٧ في شهر رجب عام ١٣٤٧ والعدد رقم ٢١١ في ٣٠ رجب عام ١٣٤٧ عن الصحافة والمطابع في الحجاز أن أول مطبعة أسست في الحجاز كانت عام ١٣٠٠ أستقدمتها الحكومة التركية وأطلقت عليها آنذاك اسم ((حجاز ولايتي .. مطبعة سي)) أي مطبعة ولاية الحجاز .

وكانت تصدر جريدة بأسم الحجاز اعتبارًا من عام ١٣٠١ أي قبل التاريخ الذي أشار إليه الأستاذ جرجي زيدان بك .

ولسعادتكم عظيم الإجلال

مدير مطبعة الحكومة

١٣٧١/١/٢٠هـ

الشؤون الاقتصادية

الصفحتان الأولى والأخيرة من الوثيقة



عثمان حافظ



د. محمد عبد الرحمن الشامخ



يوهان جوتنبرغ

يطبعون مؤلفاتهم أو الكتب التي يحققونها أو يتبنون طباعتها في مطابع الشام ومصر. وحيث إن تتبع إنشاء المطابع التي جُلبت إلى المملكة وإصدار الصحف فيها سبق أن تناوله عدد من الباحثين السعوديين(13) مما يغني عن الإعادة، إلا أن المعلومات الواردة في الوثيقة الرسمية المنشورة في آخر البحث جديدة على الباحثين وتنشر لأول مرة.

وثيقة تاريخية عن بدايات المطابع في المملكة

في أثناء بحثي في وثائق وزارة المالية عثرت على وثيقة مكونة من (6) صفحات مطبوعة على الآلة الكاتبة، وهي عبارة عن خطاب رفعه مدير مطبعة الحكومة إلى وكيل وزارة المالية برقم 110 في 1371/1/30هـ بناء على استفسار ورد من أحد الباحثين المصريين عن تاريخ الطباعة في الحجاز. ونص الوثيقة يلي هذه المقدمة، وفيها سرد تاريخي عن تطور مطبعة الحكومة، وهي أول مطبعة دخلت الحجاز في أثناء الولاية العثمانية. ولما قام الشريف حسين بالثورة وتمكن من إخراج القوات العثمانية من مدن الحجاز، استولى على المطبعة وطبع فيها جريدته المسماة «القبلة». ولما تمكن الملك عبدالعزيز آل سعود - يرحمه الله - من دخول الحجاز عام 1343هـ استخدمها في طباعة جريدة «أم القرى» وبعض المطبوعات الرسمية. واستمرت بعد تطويرها في طبع معظم الكتب الحكومية والتجارية إلى أن انتشرت المطابع في المملكة، فاقتصر عمل هذه المطبعة على طبع جريدة أم القرى الرسمية وبعض مطبوعات للدولة مثل الأنظمة.

والوثيقة توضح تطور هذه المطبعة تاريخيًا وإمكاناتها الفنية، أردت نشرها ليطلع عليها الباحثون، وفيها إضافة نافعة تفيد دارس تاريخ الصحافة والحركة العلمية في المملكة وجهود الملك عبدالعزيز في طبع كتب العقيدة. ومن الوثيقة يتضح تصحيح بعض المعلومات التاريخية عن بداية إنشاء المطابع وإصدار الصحف في المملكة، وخاصة تساؤلات الدكتور محمد عبدالرحمن الشامخ في كتابه «الصحافة في الحجاز» عن تاريخ صدور بعض الصحف(14)، ولن أتعرض لمزيد من التعليق على الموضوع حتى لا تفقد الوثيقة قيمتها.

وقد أشار معد الخطاب إلى ما نشره الشيخ رشدي ملحس رئيس الشعبة السياسية - آنذاك - في عددين من جريدة أم القرى عن الصحافة والمطابع في الحجاز. وبعد الرجوع إلى جريدة أم القرى وجدت المعلومات التالية:

* نشر في العدد (207) في 1347/7/2هـ= 1928/12/14م في باب سوانح تاريخية تحت عنوان «تاريخ الطباعة والصحافة في الحجاز» الحلقة الأولى دون ذكر الكاتب، ولكن المذكرة تبين أنه الشيخ رشدي ملحس. وقد قصر الحديث فيه على

نص الوثيقة

المملكة العربية السعودية

مطبعة الحكومة

صاحب السعادة وكيل وزارة المالية الأفخم

بعد التحية والاحترام.

بالإشارة إلى أمركم رقم 7/44177 - 1370/11/29هـ بشأن المعلومات التي يطلبها خليل صابات باشا أحد مدرسي معهد التحرير والترجمة والصحافة بجامعة فؤاد الأول بمصر، عن المطبعة لتحضير رسالة دكتوراه في تاريخ المطابع بالشرق الأدنى.

وأتشرف بأن أرفع لسعادتكم الإجابة عن كل سؤال.

1- تاريخ إنشاء مطبعة الحكومة:

ج - لم يعرف الحجاز فن الطباعة إلا في عام 1300هـ، إذ فيه استحضرت الحكومة التركية مطبعة «بدال» صغيرة تدار باليد؛ ثم في عام 1302 استحضرت مطبعة متوسطة، وبعد عدة سنوات استحضرت مطبعة حجرية، وبوجود هذه المطابع الثلاث سُمّيت آنذاك بالمطبعة الأميرية، وبالرغم من أن هذه المطابع كانت صغيرة وتدار باليد فقد أدّت خدمات جليلة في سبيل رفع المستوى العلمي والثقافي، وساعدت على مولد صحيفة تصدر من هذه البلاد المقدسة باسم «الحجاز» رغم الوسائل الاقتصادية والملابسات السياسية التي كانت تكتنف هذا الوطن.

وبعد أن استتب الأمر لحكومة جلالة مولاي الملك المعظم سميت بمطبعة أم القرى، وعنيت بفن الطباعة، واستحضرت بعض الخبراء، وعقدت معهم اتفاقًا على تعليم بعض الحجازيين، وقد تم ذلك في عام 1346هـ، ومن هذا التاريخ بدأ التفكير من المسؤولين يتجه نحو ترقية هذا الفن وتشجيعه، ففي عام 1357هـ أرسلت بعثة إلى الجارة الشقيقة مصر مؤلفة من سبعة عشر شخصًا للتخصص في

المطابع، متفقًا مع ما ورد في الوثيقة أن أول مطبعة وصلت إلى الحجاز كانت في عام 1300هـ وسميت المطبعة «الأميرية» وهي المطبعة التي تؤرخ لها الوثيقة مدار البحث. وعلاوة على هذه المطبعة ذكر رشدي ملحس تاريخ تأسيس ست مطابع أخرى في الحجاز. وهذه المعلومات عن المطابع غير متاحة في معظم المصادر والمراجع المتداولة مما يعطي أهمية للمقال الذي أذكره ملخصًا فيما يلي:

1- مطبعة الإصلاح: أسست عام 1327هـ في جدة من قبل شركة تجارية، ثم انتقلت إلى الشيخ محمد بن علي زينل الذي عهد إلى إدارة مدرسة الفلاح بجدة بإدارتها.

2- مطبعة شمس الحقيقة: أسستها عام 1327هـ شركة تجارية في مكة المكرمة، وبعد أن توقفت في أواخر العام المذكور اشتراها الشيخ محمد بن ماجد الكردي.

3- المطبعة الماجدية: أسسها الشيخ محمد بن ماجد الكردي عام 1327هـ، في مكة المكرمة وهي مجهزة بآلة طباعة كبيرة ولا زالت قائمة. وحسب ما ورد في الفقرة (2) من شراء ماجد الكردي لمطبعة شمس الحقيقة، ربما سماها المطبعة الماجدية وطورها.

4-5 مطبعتا المدينة: في عام 1328هـ أسس أحد تجار المدينة مطبعة تجارية أقفلت عام 1335هـ، ولم يبين سبب إقفالها، ويبدو أن ظروف الحرب القائمة آنذاك هي السبب، أو أن المطبعة كانت تطبع مواد تعارض سياسة الحكومة العثمانية التي مازالت حاميتها في المدينة، ويدعم هذا الاعتقاد إقدام فخري باشا قائد حامية المدينة العثماني على تأسيس مطبعة صغيرة في عام 1335هـ في المدينة. ويقول رشدي ملحس: إن بقايا هذه المطبعة لازالت موجودة حتى وقت كتابة المقال، وهذه المطابع في العهد العثماني. أما المطبعة السادسة فقد أسست في العهد السعودي، فقد ذكر - علاوة على مطبعة أم القرى - مطبعة الحفر والزنك(15) التي أسست عام 1346هـ في مكة المكرمة لطبع طوابع الحكومة و«الكليشهات» الرسمية والأهلية.

* ونشر في العدد (211) في 1347/7/30هـ= 1929/1/11م، الحلقة الثانية من المقال المنشور أوله في العدد (207)، وهذا الجزء خُصِّص للحديث عن الصحف التي صدرت في الحجاز في مرحلة سابقة، ولكن أحد معاصري كاتب المقال رد عليه مصححًا بعض المعلومات، ورأيت من الفائدة تلخيص المقال والتصحيحات. والصحف التي وردت في المقال هي:

1- الحجاز:

ذكر أنها جريدة أدبية علمية أسبوعية تصدر باللغتين العربية والتركية في أربع صفحات تطبع في مطبعة الحكومة التي كانت تسمى «المطبعة الأميرية»، أصدرتها السلطة العثمانية في الحجاز عام 1301هـ، واستمرت في الصدور حتى خروج العثمانيين من الحجاز عام 1334هـ بعد إعلان ثورة الشريف حسين. وقد ذكر عثمان حافظ أن بداية تاريخ صدور هذه الجريدة في 8 شوال 1326هـ الموافق 3 تشرين الثاني/نوفمبر 1908م(16). والفرق بين التاريخين المذكورين لصدور الصحيفة كبير، والراجح أن صحة تاريخ إصدار هذه الصحيفة هو عام 1301هـ لتوافق هذا التاريخ مع ما دُوّن في الوثيقة، ولأن الشيخ ماجد بن محمد كردي مدير الأوقاف في مكة حينها تدارك على كاتب المقال بعض الأخطاء ونشرها في أم القرى عدد (212) في 1347/8/7هـ= 1929/1/18م، ولم يعترض على تاريخ بداية إصدار هذه الصحيفة مما يؤكد صحته. وقد صحح ماجد الكردي معلومات أوردها كاتب المقال خطأ عن جريدتي الإصلاح والصفا.

2- جريدة الصفا (صفا الحجاز):

قال إنها جريدة سياسية أصدرها باللغة العربية في جدة شاب مصري لم يتمكن كاتب المقال من معرفة اسمه، وقد صدر منها عدد واحد عام 1327هـ، وكانت تطبع على الجلاتين. ولكن الشيخ

فن الطباعة وشعبه، وقد عاد هؤلاء الأشخاص مزودين بالخبرة والتمكن من هذا الفن، وهم الآن يؤدون واجبهم في المطبعة بما يحقق الرغبة من ابتعاثهم.

وفي عام 1357هـ سميت بمطبعة الحكومة بناء على التعليمات التي أصدرتها وزارة المالية في ذلك التاريخ.

2- المديرون الذين تعاقبوا على المطبعة وسنة تعيينهم وسنة خروجهم:

ج - أما المديرون الذين تعاقبوا على إدارة المطبعة، فمنهم عبدالغني الشويكي وإبراهيم أدهم وعمر كردي وعباس بندقجي وهاشم النقشبندي والشيخ محمود شلهوب. وكان ذلك في عهد الحكومة التركية. وبعد خروج الأتراك من الديار الحجازية انتقلت إدارتها إلى عهدة موظفي جريدة «القبلة»، وفي العهد الأخير إلى موظفي أم القرى. ثم في عام 1343هـ عين مديرًا لها معالي الشيخ يوسف يس - وكيل وزارة الخارجية حاليًا - ثم عقبه سعادة الشيخ رشدي ملحس في عام 1345هـ - رئيس الشعبة السياسية حاليًا - ثم عين محمد سعيد عبدالمقصود في عام 1349 وبعد وفاته في عام 1359 عين بدلاً عنه عادل كردي ومكث بها حتى نهاية عام 1368هـ، ثم نقل إلى جهة أخرى وعين بدلاً عنه السيد يس طه اعتبارًا من الشهر الثالث من عام 1369هـ ولا يزال المذكور مديرًا حتى الآن.

3- عدد معدات المطبعة وأنواعها والسنة التي جلبت فيها:

ج - لقد استحضرت الحكومة التركية في عام 1300هـ مطبعة بدال صغيرة، ثم في عام 1302هـ استحضرت مطبعة متوسطة من النوع المعروف بالفرنساوي مقاس 82X57 سنتمترًا، وبعدها استوردت مطبعة حجرية مقاس 70X50 سنتمترًا.

أما في زمن الحكومة الهاشمية فلم يستحضر لها جديدًا إلا الوسائل الاستهلاكية اللازمة للمطبوعات كالورق والحبر والحروف أحيانًا، فكانت تؤدي أعمالها الحكومية بآلاتها وأدواتها الموجودة في زمن الحكومة التركية.

وفي عام 1350هـ ابتاعت حكومة جلالة مولاي الملك المعظم مكنة من مصر مقاس 112X82 سنتمترًا وهي مستعملة، إذ إنها كانت تعمل هناك ما لا يقل عن عشرين عامًا قبل جلبها.

وفي عام 1354هـ ابتاعت الحكومة للمطبعة أيضًا المكائن العائدة لفرع المطبعة السلفية المستوردة من مصر في 1347هـ وهي عبارة عن مكنة متوسطة الحجم مقاس 62X82 سنتمترًا ومكنة بدال مقاس 22X30 سنتمترًا ومكنة قص ومكنة خزم ومكنة تخريم ومكنة يد، وكانت هذه المكائن تعمل قبل جلبها للحجاز في عام 1347هـ سنين طويلة بمصر. وفي عام 1355هـ استوردت وزارة المالية مكنة بدال مقاس 32X45 سنتمترًا، كما استوردت في عام 1357هـ مكنة قص ومكنة خزم ومكنة خياطة ومكنة تخريم ومكنة لسنّ سكاكين مكائن القص، وهي من أحدث ما أنتجته مصانع ألمانيا لم يستعمل منها سوى مكنتي القص والخزم.

أما المكائن الباقية فهي متوقفة على وصول دنموات السلف ومولد الكهرباء ومحلات متسعة لتركيب وإدارة هذه المكائن.

وفي عام 1368هـ ابتاعت وزارة المالية أربعة ماكينات اثنين منها للطباعة أحدها مقاس 25X38 سنتمترًا والثانية مقاس 20X30 سنتمترًا والاثنين الأخرى هي ماكينة قص وماكينة تسطير.

4- وزن حروف المطبعة وأنواعها والمصدر الذي اشتريت منه.

ج - إن وزن حروف المطبعة يبلغ تقريبًا سبعة آلاف كيلو غرام، وهي على أنواع. منها العربي ويحوي أبناطًا مختلفة من 54 و36 و24 و20 و16 و12 و9.

والأحرف الإنكليزية «أبناطها» 48 و24 و20 و16 و12 و10 و9 و6.

ماجد بن محمد كردي استدرك على كاتب المقال حول اسم هذه الجريدة فقال: «جريدة الصفا: الصواب (صفا الحجاز) وهي جريدة يومية سياسية أدبية تجارية، صاحب امتيازها أحمد رأفت الاسكندراني، ويظهر مما هو منشور في الوجه الأول من العدد الثاني أنه كان في نية صاحبها إصدار عدد يومي منها، وآخر أسبوعي، وقد صدر منها عددان أسبوعيان لا عدد واحد، وتاريخ العدد الأول 12 شعبان 1327هـ، والثاني في 20 شعبان من السنة المذكورة، توقفت عن الصدور، والعدد الثاني طبع منه الوجه الأول من الصفحة فقط».

3ـ الإصلاح :

جريدة سياسية أسبوعية صدرت عن شركة مطبعة الإصلاح بجدة، تولى تحريرها أديب هراري اللبناني، نشر العدد الأول منها عام 1327هـ وتوقفت بعد بضعة أشهر. وقد علق ماجد كردي على هذه المعلومة قائلاً: «جريدة الإصلاح: هي جريدة عثمانية أسبوعية، أنشئت عام 1327هـ في جدة لمؤسسها وصاحب امتيازها راغب مصطفى نوكل، ومحررها أديب هراري، صدر العدد الأول منها في شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة». لقد صحح ماجد كردي معلومة مهمة عن الصحيفتين (جريدة الصفا والإصلاح).

4ـ شمس الحقيقة (شمس حقيقت) :

جريدة يومية سياسية صدرت عام 1327هـ بمكة المكرمة، وكانت تطبع في المطبعة الأميرية، ثم طبعت بعد ذلك في مطبعة خاصة بها، ومديرها محمد توفيق مكي. صدرت باللغتين العربية والتركية. صدر القسم العربي منها باسم (شمس الحقيقة)، وصدر القسم التركي باسم (شمس حقيقت)، وهي تمثل لسان حال جمعية الاتحاد والترقي التركية بالحجاز، واستمر صدورها بضعة أشهر ثم توقفت نهائيًا.

5ـ القبلة :

جريدة دينية سياسية اجتماعية، تصدر مرتين في الأسبوع بمكة المكرمة، تطبع في المطبعة الأميرية التي ورثها الملك حسين عن الأتراك بعد خروجهم من الحجاز. صدر العدد الأول منها في 15 شوال 1334هـ، وآخر عدد صدر منها في 25 صفر 1343هـ بعد أن صدر منها (823) عددًا في ثماني سنوات ونصف السنة تقريبًا. وهي الجريدة الرسمية لحكومة الملك حسين.

6ـ المدينة المنورة :

جريدة أسبوعية أصدرها الجيش التركي الذي كان محاصرًا في المدينة المنورة عام 1335هـ، وتوقفت بعد أن صدر منها بضعة أعداد. وسبب توقفها هو خروج القوات العثمانية من المدينة نتيجة هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى وخروجهم من جزيرة العرب حسب شروط وقف العمليات الحربية.

7ـ الفلاح :

جريدة سياسية نصف أسبوعية، صاحبها عمر شاكر، صدر العدد الأول منها عام 1338هـ بمكة المكرمة، وتوقفت عن الصدور مدة، ثم عادت في ذي الحجة عام 1338هـ، ولم تنتظم في الصدور، وإجمالي ما صدر منها بضعة وخمسون عددًا.

8ـ بريد الحجاز :

جريدة سياسية، تصدر مرتين في الأسبوع مؤقتًا وتطبع في مطبعة رمزي. صدر العدد الأول منها يوم 29 ربيع الثاني 1343هـ، وتوقفت عن الصدور يوم 17 من ذي الحجة من العام نفسه بعد أن صدر منها (54) عددًا.

9ـ أم القرى :

صدر أول عدد منها في 15 جمادى الأولى عام 1343هـ وما تزال تصدر.

وذكر كاتب المقال مجلتين صدرتا في الحجاز في تلك الحقبة هما:

1ـ المجلة الزراعية :

وهي شهرية تولى تحريرها طلاب مدرسة جرول الزراعية بمكة المكرمة، صدر منها ثلاثة أعداد فقط، الأول في غرة رجب والثاني في رمضان والثالث في شوال عام 1338هـ.

وخطوط مختلفة من رقعة ونسخ وخط رفيع وحروف مائلة إنجليزي وخطوط متينة.
وهي مستوردة من المسابك المصرية وبعضها من المسابك الألمانية والمسابك البريطانية.
5ـ أشهر مطبوعات المطبعة والسنة التي طبعت فيها:
ج ـ في عام 1352هـ طبع كتاب الدرر السنية في الأجوبة النجدية أربعة مجلدات.
وفي عام 1354هـ طبعت الأناشيد العربية.
وفي عام 1357هـ طبع كتاب أوضح البرهان في تفسير القرآن.
وفي عام 1357هـ طبع كتاب تاريخ حمد بن محمد بن لعبون.
وفي عام 1357هـ طبع كتاب مبلغ الأرب في فضائل العرب.
وفي عام 1357هـ طبع كتاب تحفة السلطان في وتر رمضان.
وفي عام 1357هـ طبع كتاب تذكرة السامع والمتكلم.
وفي عام 1357هـ طبع كتاب تقويم الأوقاف لعرض المملكة العربية السعودية.
وفي عام 1357هـ طبع كتاب التخويف من النار.
وفي عام 1360هـ طبع كتاب قصيدة الدر المنظوم في نصرة النبي المعصوم.
وفي عام 1360هـ طبع كتاب الدلائل اليقينيات في الفرق بين كرامة الأحياء والأموات.
وفي عام 1361هـ طبع كتاب آداب المشي إلى الصلاة.
وفي عام 1361هـ طبع كتاب تحفة الناسك بأحكام المناسك.
وفي عام 1361هـ طبع كتاب شروط الصلاة.
وفي عام 1363هـ طبع كتاب توحيد الله على العبيد.
وفي عام 1364هـ طبع كتاب النصيحة للإمام الشيخ محمد عبدالوهاب.
وفي عام 1369هـ طبع كتاب الواضح المستقيم في كيفية إنزال القرآن الكريم.

كما أن الحكومة العثمانية كانت تصدر منها جريدة أسبوعية باسم «الحجاز» اعتبارًا من عام 1301هـ باللغتين التركية والعربية، واستمر إصدارها إلى عام 1334هـ، ثم انقطعت عن الصدور حين خروج الحكومة التركية من هذه البلاد، وكانت تطبع بأربع صفحات، وكانت تصدر أيضًا جريدة يومية من عام 1327هـ باسم «شمس الحقيقة» واستمر صدورها بضعة أشهر، ثم انقطعت عن الصدور. كما كانت تصدر جريدة دينية سياسية اجتماعية مرتين في الأسبوع باسم جريدة «القبلة» صدر العدد الأول منها يوم 15 شوال 1334هـ، ثم انقطعت عن الصدور يوم 25 صفر عام 1343هـ، أي إنها صدرت مدة ثمانية أعوام ونصف. كما كانت تصدر أيضًا جريدة باسم جريدة «الفلاح» في عام 1338هـ، وكانت تصدر مرة وتنقطع أخرى، وأيضًا كانت تصدر جريدة أسبوعية باسم جريدة «أم القرى» نشر العدد الأول منها يوم 15 جمادى الأولى عام 1343هـ وما تزال تصدر حتى اليوم، وقد دخلت في عامها الثامن والعشرون، كما هي الآن قائمة بعمل الطوابع الحكومية والأوراق ذات القيمة ومجلة الحج والتقويم السنوي المعروف بتقويم أم القرى الذي لا يزال يوالي صدوره من عام 1348هـ حتى اليوم، وهو في عامه الرابع والعشرون. إلى جانب ذلك المطبوعات اللازمة للدولة والأنظمة الوزارية ومجموعات النظم وغيرها من النظم التي سنّتها حكومة مولاي صاحب الجلالة الملك المعظم.

6ـ أنواع الورق الذي يستخدم في الطبع والبلاد التي يُستورد منها:

ج ـ إن الورق المستعمل حاليًا هو من وزن 74 غرامًا مقاس 110X80وهو وزن جديد، كما أننا نستعمل ورق مقاس 100X70 وزن 74 وورق خشن مقاس 100X70و65X70 وورق مقاس 42X56 وورق مقاس 50X70 برستون.

2ـ مجلة الإصلاح:

مجلة دينيـة علمية، تصدر مرتـين في كل شهر مؤقتًا، أصدرتها شعبة الطبع والنشر بمكة المكرمة، صـدر العـدد الأول منهـا في 15 صفـر 1347هـ، وكـانت تصـدر حتـى كـتـابة المقـال، كـمـا أشـار الكاتب، وهي أول مـجلة صـدرت في العـهـد السعودي.

ويلاحظ أن ثماني صحـف ومجلة واحدة من القائمـة أعلاه قد صدرت في العهد العثماني، وأن معظمهـا لم يستمر في الصـدور، وربما مرد هذا إلى أنها صـحافة أفراد، تتـأثر بالعوامل السياسـية والمادية والفنيـة، ولذلك لم يـكتب لهـا الاسـتـمـرار في الصـدور. ولكن هذه مـحاولات دلت على وجـود الروح الصـحـفـيـة بين أهالي الحـجـاز، وهي النواة الأولى لصحافة المملكة(17).

والقـائمـة التي أوردها الشـيخ رشـدي ملحس تختلف عـن القائمة التي أوردها عـثمـان حافظ في مـؤلـفـه «تطور الـصـحــافـة في المملكـة العـربـيـة السعودية»، وخاصـة أن رشدي ملحس أسقط اسم جـريدتين صـدرتا في الحـقـبـة التي تناولهـا المقـال، وأثبت صدورهما عثمان حافظ وهما:

ـ جـريدة الرقـيب: صـدرت في المدينة المنورة عام 1909م.

جريدة الحجاز: صدرت في المدينة المنورة في 1334/12/9هـ.

وما ذهب إلـيه عثـمان حـافظ أوثق، لأنه أثبت صور بعضـهـا وعلق على بعضها الآخـر نقلاً عنها أو عن معـاصرين. وحيث إن مقـصد هذه المقـدمة هو التقـديم للوثيقـة الرسمـية، فـإن استـقصـاء أمر هذه الصـحـف خـارج عن الغـرض، وما ذكـر مـا هو إلا زيادة اطلاع القارئ على تطور الصـحافة المبني على تأسيس المطابع.

آمل أن يجـد القـارئ في هـذه العـجـالة وفي الوثيـقة الشيء النافع، وفي الوقت نفـسه، أدعـو من لديه معلومـات أخرى أن ينشرها طلبًا للفـائدة ونشر العلم، والله الموفق.

الهوامش:

1ـ د. موريس أبو السعد ميخائيل: الكتاب: تحريره ونشره، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنيـة، السلسلة الثـانيـة، الرياض، 1416هـ/1995م، ص3.

2ـ ادوارد كييرا: كتبوا على الطين، رُقم الطين البابلية تتحدث اليـوم، ترجمة: د. محمود حسين الأمين، الطبعة الثانية، مكتبة المثني، بغـداد 1964/12/10م، ص80، 92، وفي ص105 صور شمسية لهذه الألواح، وفي ص213 صـور أختـام، وفي ص242 أبجدية مقارنة. وبصـورة عامة في الكتاب صـور ومـعلومـات عـن أسـاليب الكـتـابة القديمة في الشام ومصر والعراق.

3ـ كييرا: المصدر السابق، ص190.

4-6ـ مــوريس: المرجع الســابق، ص6،4،10،11.

7-8ـ عثـمـان حافظ: تطور الصحـافة في المملكة العربيـة السعودية، شركـة المدينة للطباعة والنشر، جدة، (دت)، ص29.

9ـ عن جوتنبرج ومطبـعتـه، انظر: إبراهيم متفرقة وجهوده في إنشاء المطبعة العربية ومطبـوعاته، تأليف: د. سـهيل صـابان، مراجعة: د. عبـاس صالح طاشكندي، مطبـوعات مكتبـة الملك فـهـد الوطنيـة، السلسلة الثـانيـة (23)، الرياض 1416هـ/1995م، ص18.

10ـ لمعرفة تفاصيل تطور الطباعة والبلدان التي طورتها وأسـمـاء المخترعين، يرجع إلى: مــوريس: المرجع الســابق، ص13-15، وعـثـمـان حـافظ، المرجع السابق، ص29-30.

11ـ صـابان: المرجع السـابق، ص24-31، وعن أول كـتـاب طبع بحروف عـربيـة وبداية الكتب العربيـة في أوربـا والبـلاد العربية انظر ص18-23.

12ـ لمعرفـة تفاصيل جلب المطابع إلى البلاد العـربيـة، يرجع إلى: مـوريس: المرجع السابق، ص16-21.

13ـ عن تطور الطباعة وإنشاء المطابع والنشر في المملكة، انظر :

ـ د. أحـمـد بن مـحـمـد الضـبيب: بواكـير الطبـاعـة والمطبـوعـات في بلاد الحـرمين الشـريفين، الرياض، مكتبـة الملك فـهـد الوطنة، 1408هـ.

ـ د. يحيى السـاعاتي: حركة التـأليف والنشر في المملكة العـربيـة السـعودية، الرياض، النادي الأدبي، 1399هـ.

ـ عثمـان حافظ: تطور الصحافة في المملكة العربية السعودية، شركـة المدينة للطبـاعة والنشر، جدة، (دت).

ـ د. محـمد عبدالرحمن الشـامخ: الصحـافة في الحــجــاز 1908-1941م، دراســة ونصـوص، الطبـعـة الأولى، دار الأمـانة، بيروت 1391هـ/1971م.

وفي مراجع كـتاب موريس أعلاه، معلومات كاملة عن مـصادر هذا الموضـوع، فليرجع إليها من أراد الاستزادة.

14ـ الشامخ: المرجع السابق، هامش ص14، وص27.

15ـ فُصل مـعمل الـزنك عن مطبـعة الحـفـر وألحق بمطبـعة أم القـرى بالقـرار الوزاري رقم 43 في 1385/5/27هـ. صــورة القـرار في معهـد الإدارة العامـة بالرياض (الباحث).

16-17ـ عثـمـان حـافظ: المرجع الســابق، ص36،69.

ورق مقاس 50X70 برستول أبيض.

ورق غلاف ملون 57X82.

هذا هو الورق الرئيسي الموجود والذي عليه مدار العمل، ويوجد بقـايا أنواع كثيرة تستعمل في النادرمن كروت وغلاف وورق.

ويستورد من السويد، والنرويج، وأمريكا، وبريطانيا، وفلندا.

7ـ عدد موظفي المطبعة وعمالها:

ج ـ إن عدد موظفي المطبعة وعمالها مائة وأربعة وعشرين موظف وعامل في الأعوام 65 و66 و1367هـ

ومائة وسبعة عشر موظف وعامل في عام 1368هـ.

ومائة وثمانية عشر موظف وعامل في عام 1369هـ.

ومائة واثنين وثلاثين موظف وعامل في عام 1370هـ.

أما الأعوام التي قبل 1365هـ، فيمكن الاستدلال على عدد موظفي وعمال المطبعة من سجلات مالية مكة وديوان المحاسبات العامة والموظفين، لأن إدارة المطبعة لم تمسك قيدا بذلك إلا في عام 1365هـ.

8ـ ميزانية المطبعة منذ تأسيسها إلى اليوم:

ج ـ إن ميزانيـة المطبعة هي (137225) قرشًا سعوديًا في عام 1365هـ، و(137665) قرشًا سعوديًا في عـام 1366هـ، و(137665) قـرشًا سعوديًا في عـام 1367هـ، و(209330) قرشًا سعوديًا في عـام 1368هـ، و(212905) قـرشًا سعوديًا في عـام 1369هـ، و(241945) قرشًا سعوديًا في عام 1370هـ. أما ميزانية المطبعة لما قبل 1365هـ، فيمكن الاستدلال عليها من سجلات ديوان المحاسبات ومالية مكة، لأن المطبعة لم تمسك قيدًا بذلك إلا في عام 1365هـ.

9ـ هل ما زالت المطبعة في البناء الذي أسست فيه أم نقلت إلى بناء أكبر.

ـ كانت المطبعة في عام 1300هـ تعمل في مؤسسة بتكية السيدة فاطمة التابع لأوقاف مكة. ولما استوردت المكنة الفرنساوية والمكنة الحجرية، فكرت الحكومة التركية بإنشاء هذه العمارة التي تقيم فيهـا الآن المطبعة في عام 1303هـ، ونقلت إليها المكائن المشار إليها وأطلقت عليها المطبعة الأميرية، ولازالت تعمل في هذه المؤسسة حتى اليوم بعد أن أنشأت عليها طابقًا ثالثًا.

وقد فكرت الحكومة السعودية في إنشاء بناية حديثة للمطبعة. وقد أخذ فعلا في وضع اللازم لها بواسطة مهندسين فنيين.

10ـ يقول جرجي زيدان في كتابه آداب اللغة العربيـة الجزء الرابع، إنه حوالي عام 1303هـ أسست أول مطبعة في مكة. ما نصيب هذا القول من الصحة؟ وما مصير هذه المطبعة:

ج ـ بالاطلاع على ما كتبه المؤرخون في هذا الشأن ظهر لنا ما يناقض قول الأستاذ جرجي زيدان بك من أن أول مطبعة أنشئت بالحجاز كانت عام 1303هـ، فقد جاء في مقال صاحب السعادة رئيس الشعبة السياسية الشيخ رشدي ملحس المنشور في جريدة أم القرى في العدد 207 في شهر رجب عام 1347هـ والعدد رقم 211 في 30رجب عام 1347هـ عن الصحافة والمطابع في الحجاز، أن أول مطبعة أسست في الحجاز كانت عام 1300هـ استقدمتها الحكومة التركية وأطلقت عليها آنذاك اسم «حجاز ولايتي، مطبعة سي» أي مطبعة ولاية الحجاز.

وكانت تصدر جريدة باسم الحجاز اعتبارًا من عام 1301هـ أي قبل التاريخ الذي أشار إليه الأستاذ جرجي زيدان بك.

ولسعادتكم عظيم الإجلال

مدير مطبعة الحكومة

1371/1/30هـ

آن صوفي شدها عدل الإسلام فآمنت به

هي سـويدية، ولـدت في تلك البـلاد التي تعطي الفرد حرية لا حـدود لها تتـجاوز كل القيم والأعـراف، ولا عجب فالعرف الوحيد المعترف بـه هناك هو أن يفعل المرء ما يريـد مـادام لا يسبب مـشكلات لغيره، فمن حقّه أن يؤمن أو يكفر، أن يتعرى، وأن يخالف سنن الحياة؛ فتتزوج المرأة المرأة، ويتزوج الرجل الرجل، فهذه هي الحرية كمـا يريدونها، وكمـا يفهمـونها، ومَنْ لم يعجبه فليشرب من ماء البحر.

فهم خاطئ للحرية

وسط هذا الجو المشبع بالفهم الخاطئ للحرية، والذي يجـعلها رديفًا للانحلال، ويعلي مـن شأن المتـعة على حـسـاب الشـرائع، ويحـول المرأة من إنسـانة كرّمـها اللّه بالأمـومـة إلى آلة خُلقت لمتعة الرجل، ولتلبية رغباته، فأصبحت وقد فقدت العفة أرجوحة يتلهّى بها الرجـال، وخسرت بنزولها إلى سوق العـمل أنوثتها بـعدما صـارت تشارك الرجل في الأعـمـال الشـاقـة التي لـم تُخلق لهـا، ولا تناسبها.. وسط هـذا الجو الموبوء، كـان مولد «آن صوفي رولـد» ابنة لأبوين نصرانيين، يعـيشـان مثل غيرهمـا من أبناء المجـتمع السويـدي، ويحمـلان التـصور السلبي ذاته الذي يشيـع في المجـتمع عن الإسـلام، نتـيجـة لما يسـمعونه في الكنائس عن الإسلام والمسلـمين، ومـا يقـرؤونه فـي الصـحـف وغيرها من وسائل الإعلام.

ومنذ طفولتها كـانت الصغيرة آن ترى مظاهر الانحلال في مجتمعها، وتلمس كيف تُهان المرأة باسم الحـرية، فـشب في داخلهـا عـدم اقـتناع بأوضـاع المرأة في بلادهـا، وحـيـاة التـحـرر غـيـر المحدودة التـي تمارس بلا رقـيب أو حـسـيب، أو تفكير في عواقب.

دراسة الأديان

حين كبرت آن صوفي رولـد ودخلت الجامعة اختـارت أن تتـخـصص لدراسـة الأديان، ربما من منطلق إحساسهـا الداخلي بأنها تتبع الدين الخطأ، وربما كـانت مصادفـة قادتهـا إليهـا العناية الإلهـية دون تخطيط أو تدبير من جانبها. وسواء أكان هذا أم ذاك، فـالأمـر الذي يعنينا هنا أن هذا الاخـتـيـار كان بداية انعـتاق روحهـا، وتعرفهـا إلى الإسلام: شريعة وعقيدة وسلوكًا.

بدأت آن صـوفي رولد دراسـة الأديان عـام 1981م، ومع هـذه الدراسـة درسـت اللغـة العـربية أيضًـا، كي تستطيع أن تفهم الإسلام من مصـادره الأصلية، بعيـدًا من شحطات القسيسين والمستـشـرقين، ودعـايات المغـرضين وأقـاويلهم، وأتاحت لها دراستـها أن تعقد مـوازنة بين شريعتي الإسلام والنصرانية، وما فـيهما من أفكار وتعاليم، فوجدت ذاتها تنجـذب إلى الإسلام؛ إذ لم تتوافق روحهـا الميالة إلى العـدالة مع الفكر الذي تنادي به النصـرانيـة، الذي يجـعل المجـرم يفلت من عـقـابه الأخروي بمجـرد اعترافـه للقسيس بما ارتكبـه أو ما يسمونه في شـريعتهم «سر الاعـتراف». في المقابل شـدتها عـدالة الإسلام التي تحاسب المخطئ حتى يُكَفِّـر عن ذنبـه، مما يحـول بين المرء والخطايا والجرائم، لأنه يعلم تمامًا مـا ينتظره من عـقـاب دنيـوي وأخـروي. ولم يصعب على آن صـوفي رولد أن تدرك أن تناقض النصـرانية وتراخيـهـا في عـقـاب المخطئ من أسـبـاب انتـشـار العنف في بلادها. ففي السويد ـ مثل كل بلدان أوربا بشكل عام ـ تكثـر جرائم القتل والمخدرات والاغـتصاب، وهو أمر يثير الحيرة في بلد يعـتمد الحرية الجنسية شعـارًا له، بينما تكاد مـثل هذه الجرائم تنعدم في بلدان الشرق المسلمـة موازنة بأوربا، نتيـجة لإيمان المسلـمـين بالقـــانـون الإلهي الـذي يرفـض هذه الممارسات ويشدد عقوباتها.

عدل الإسلام

لقد رأت آن في الحدود الشرعية التي جاء بها الإسـلام حمـاية للمجـتمـع وحمـاية للفرد، فـهي تحمي المجتمع من انتشـار الجريمة في أركانه، وتحقق له الأمن والأمـان الذي يتيح له أن يتابع مـسيـرة التنمـية بما يخـدم مخططاته ويحـقق له الازدهار، ويحقق للـفرد أن يحمي نفـسه من السلبيات التي تتيحها الحرية غير المحدودة وغير المنضبطة والمطلقة التي يمارسـهـا أقرانه في الغـرب، لأنه بذلك ينجـو من مصير لا يرتضيه عاقل لنفسه.

ووازنت آن بين مـا يأخـذه القـسـيـسـون والحـاقـدون على الإسـلام من إقـراره بمبـدأ تعـدد الزوجات، وبين ما يمارسه الغـربيون فعلاً من اتخاذ زوجـة وأكـثـر من خليلة، فـرأت أن التـعـدد جـاء رحمة من اللّه لعباده، وأن ما قد يحدث من خلل في التطبيق إنما يعود إلى الإنسان، وليس إلى النص الديني الذي يشترط العدل.

تكريم الإسلام للمرأة

وأعجبـتها أيضًا نظرة الإسلام للمرأة وتكريمه لها، أمًّا وأختًا وزوجة وابنة، إذ رأت في الحـقوق التي قـررهـا الإسـلام للمـرأة مـا لم تحـصل عليـه نظيـرتهـا الأوربية، حيث عـاملهـا الإسلام بعـدل متناه، وأوصى بهـا. ولم يـفـتـهـا أن تلحظ سبق الإسلام إلى تحـقيق العدالة الاجـتماعية، وتوقفت عند حديث الرسـول صلى اللّه عليه وسلم: «ليس منا من بات شبعـان وجاره جائع»، إذ وجدت في هذا الحـديث الشريف، على قلة كلمـاته، دستورًا

للتكافل الاجتماعي لم تبلغه أرقى التشريعات الغربية الحديثة.

عند ذلك لم يكن أمام آن، وقد اقتنع عقلها بقيم الإسلام وأحكامه، واستكان قلبها أمام روحانيته، إلا أن تشهر إسلامها عن قناعة واقتناع كاملين، فدخلت الإسلام عام 1982م تاركة خلفها ديانة لم تعتقد يومًا بها اعتقادًا حقيقيًا، ومثيرة عاصفة من التساؤلات التي عصفت بالعقول عندما رأت تلك السويدية التي نبذت - في رأيهم - الحرية لترضى بأن تكون أمة مسلمة حسب تصورهم، إذ لم تستطع العقول المنغلقة أن تدرك أن المهتدية الجديدة حين التحقت بقافلة الإسلام قد نالت حريتها الحقيقية، لا المزيفة التي يبغونها.

فهم صحيح للإسلام

لقد حسن إسلام آن صوفي رولد، وتزوجت شابًا مسلمًا، واستطاعت أن تنال درجة الدكتوراه عن التربية والحركات الإسلامية في ماليزيا والأردن، وساعدتها هذه الرسالة الجامعية في أن تتفهم الإسلام أكثر، وأن تدرك مدى الحاجة إلى العودة للثقافة الإسلامية الأصيلة، في مواجهة جبروت الغرب وغزوه الفكري، وما يطرحه من حين لآخر من دعوات تحمل في ظاهرها الرحمة وفي باطنها السوء المقيم، مثل العولمة وتلاقح الثقافات وحوارها، وغير ذلك من الأفكار والطروحات التي يحاول بها التسلل إلى العالم الإسلامي، ليدخله عصر التبعية الفكرية بعد أن غرب عصر التبعية الاستعمارية.

وقد كان هذا ما حذرت منه آن صوفي في خلال مشاركتها الفاعلة في مؤتمر «صراع حضارات أم حوار ثقافات» الذي نظمته في القاهرة - مؤخرًا - منظمة تضامن الشعوب الأفروآسيوية، فأثار طرحها جدلاً بين المشاركين لما لمسوا فيه من قوّة منطق، وصدق في التعامل مع الفكرة المطروحة للنقاش، حيث رأت فيها أنها فكرة سياسية، نبعت من بحث الغرب عن عدو جديد يتلهى بمحاربته بعد أن سقطت الشيوعية، فلم يجدوا غير الإسلام ليحاربوه، فكان رد آن الحازم على هذه الدعوة المشبوهة: أنا ضد فكرة الصراع، ومع فكرة الحوار على طول الخط.

قصيدة

بريق

شعر: **محمد حمد الصويغ**

اذكريني..
سوف أفنى واثقًا
أن ظلي..
بين عينيــك
صديق..

* * *

رددي الصوت الذي
كنا بــه..
نعشق الدنيا
وبالهجر نضيق

* * *

وإذا شئت لقائي
فاقرئـي..
من قصيدي
إنني فيه طليق

* * *

وعلى قبري
أطيلي شرحــه
لرفـاق..
غرّهــم منه بريق

طريق الهدى

فضيلة الشيخ
د. صالح الفوزان

الأسماء والصفات وشرح حديث

ـ ما منهج الإمام السيوطي في الأسماء والصفات في ضوء تفسيره «الجلالين»؟ وما حكم ذلك؟

ـ اشرحوا لنا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وغفار وأشجع مواليّ ليس لهم مولى دون الله ورسوله» رواه البخاري. ولماذا خُصّت هذه القبائل بالذكر في هذا الحديث؟

عيسى صلاح الرجبي
ص.ب 20731، المدينة المنورة.

ـ منهج الإمام السيوطي في «الجلالين» منهج الأشاعرة في الأسماء والصفات حيث إنه يؤول الأسماء والصفات جريا على مذهبهم. وهذا لا يجوز؛ لأن الواجب إثبات الأسماء والصفات على الوجه اللائق بالله عز وجل، ولا يجوز تأويلها وصرفها عن مدلولها. قال تعالى: *وللّه الأسماءُ الحُسنى فادعُوه بها وذَرُوا الّذينَ يُلحِدُونَ في أسْمائه سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يعملونَ*. **الأعراف**: 180. ومن الإلحاد فيها تأويلها.

ـ المراد بالحديث الموالاة والمناصرة، فهم أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحبابه لأنهم ممن بادر إلى الإسلام. فالمراد من آمن منهم بالله ورسوله.

فوائد البنوك

لي مبلغ مالي بالبنك أقبض عنه فائدة سنوية. فهل تلك الفائدة حرام؟ وهل تُعدّ ربا؟ وإذا كانت تلك الفائدة حلالا، هل يجوز لي تسليمها لوالدتي الساكنة بعيدة مني، وأنا من بين إخوتي الذين يصرفون عليها، باعتبار تلك الفائدة زكاة؟

زينة خرضيض
المملكة المغربية.

هذه الفائدة إن كانت ناتجة من تعامل ربوي فهي حرام؛ لأن الله حرّم الربا وتوعد عليه بأشد الوعيد. والغالب على معاملات البنوك أنها ربوية فعليكي بتقوى الله في نفسك واحذري من الربا لئلا تكوني ممن لعنهم الله ورسوله وآذنهم بالحرب من الله ورسوله، وعليكي بتنمية أموالك بالمعاملات المباحة من مضاربة وبيع وشراء؛ ففي الحلال الطيب غنية عن الحرام: *وَمَنْ يَتّقِ اللّهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ*. **الطلاق**: 2،3. ووالدتك لا تحل لها هذه الفائدة الربوية ولا تحل لها أيضًا زكاتك، لأن الزكاة لا تحل للأصول ولا للفروع.

التسليف والزكاة

شخص غنيٌّ أسلف كثيرًا من الفقراء مبالغ من المال، وطالت المدة نظرًا لعدم استطاعة الفقراء سداد دينهم له، فقرر هذه السنة السماح لهم بالدين مقابل عدم دفع الزكاة لهم. فهل يجوز له شرعا ذلك، أم يدفع الزكاة لهم وينتظر دينه منهم؟

صلاح الدين سيد علي
ولاية المسيلة، الجزائر.

إسقاط الدين لا يجزئ عن دفع الزكاة عن الأموال التي في يد المرء، لأن الله أمر بإيتاء الزكاة؛ أي دفعها إلى مستحقيها، وإسقاط الدين ليس دفعا، فعليه أن يدفع الزكاة من ماله الموجود وينتظر سداد ديونه منهم.

رسم الأشخاص

هل رسم الأشخاص: وجه، أو نصف إنسان، أو إنسان كامل بخط اليد حرام أم حلال؟ وما الشواهد على ذلك؟ وما الحرام في الرسم وما الحلال؟! وهل الضرورات تبيح المحظورات في هذا الأمر، مثل رسم قصص الأطفال؟!

حيان النحلاوي
دمشق، سورية.

رسم وجه الإنسان أو رسم وجهه مع نصفه أو كله تصوير محرم ملعون من فعله ومتوعد بأشد الوعيد في الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. والرسم الجائز هو رسم المناظر؛ كالمباني والأشجار والبحار والجبال وكل ما لا روح فيه. ولا يجوز تصوير ذوات الأرواح أو رسمها في قصص الأطفال أو غيرها لعموم الأحاديث، ولأن في هذا تربية الأولاد على الصور المحرمة وعلى عدم استنكارها.

كتب الأطفال المتميزة..

المرسومة والمصورة



عبدالتواب يوسف

كتاب الأطفال يجب أن يكون متميّزًا، وعلى أعلى مستوى: فكرةً وكتابةً وأسلوبًا، ورسمًا وتلوينًا وإخراجًا، وورقًا وطباعةً وتغليفًا، لأنه يثقف عيني الطفل، وعقله، ويجدر به أن يتجاوز كتاب الكبار، بهذه العناصر، دون أن يفوتنا أن كاتبًا عبقريًا، طُبعت أعماله على ورق عادي، وبأسلوب تقليدي، ومع ذلك حاز جائزة نوبل. وقد صار الحديث عن الكتب القماش أو البلاستيك، أو رقائق الخشب، والكتب المجسدة، بل حتى تلك المسجلة على قرص مدمج (أسطوانة ليزر)، حديثًا معتادًا مكرّرًا، لسبب واحد: ما الذي يضيفه هذا الكتاب لقارئه؟

نحن نستعين بكتب اللمس، وبكتب تُرى بقدر ما تُقرأ، وكتب تجري حوارًا مع الأطفال لكي نجتذب القُرّاء صغارًا وكبارًا، ولابد من الشكل الفني للكتابة أولاً، قصة أو رواية أو مسرحية، نثرًا أو شعرًا. وقد فوجئت منذ سنوات بكتاب صادر في سبعة أشكال مختلفة: مربع، مستطيل، دائرة، مثلث... إلخ. وقال لي الناشر: إن بعض الآباء يشترون الطبعات السبع كلها!

ولقد أصبحت بعض الكتب أشبه بنوافذ العرض في المجلات التجارية، ولعل ذلك من أجل تغطية العري العقلي والفكري لها، وهناك رسوم لها أبعاد ثلاثية، وكتب مجسّمة لها الأبعاد نفسها أيضًا. ويبرز سؤال: هل يليق بنا أن نصنع هذا بالكتاب؟! وهل هذا الذي يحدث له ضرورته، أم تراها أشياء موقوتة تشد الأنظار ثم تختفي؟!

العلم والتقنية (التكنولوجيا) في مجال كتب الأطفال

جميل أن نكون طموحين إلى كتاب متميّز للأطفال، ونحن غير قادرين على أن نقدم لهم كتابًا معقولاً مقبولاً منهم، وبخاصة كتبنا المدرسية، ومن الضروري أن نتحمس لهذه الفكرة ونسعى لتحقيقها، ولست أنسى أنني ذات يوم انحزت إلى رأي يقول بأن نكتفي بالتلفاز أبيض وأسود، وما من مسوّغ لأن يكون ملوّنًا ـ في بلد نامٍ ـ، وأتساءل: ماذا لو أن هذا التيار حقق وجهة نظره؟! إن الوقوف في وجه التقنية الحديثة، تحت أي مسوّغ خطيئة كبرى، وتخلُّف يجب أن نربأ بأنفسنا عنه، شريطة أن نعرف موضع أقدامنا ونحن نخطو إليها، فلا نقفز حتى لا نتعثر، ونكبو، ونحن في أشد الحاجة إلى مجاراة عالمنا، ومواكبة تقدمه، إذ إن الوقوف في مكاننا يوسع من الهوة بيننا وبينه، ونحن جديرون بأن نلهث لنلحق به.

وقد رأيت - مؤخرًا - فيلمًا يهاجم هذا الزحف التقني، وكيف أصبحت الحياة خاوية روحيًا بسببه، وهو بالطبع لا يريد أن يوقف هذا الزحف، لكنه ينبه فحسب على ضرورة المحافظة خلاله على القيم الروحية التي تجعل للحياة ذاتها قيمة، كما يرمي إلى ضرورة ألا تجتاح التقنية المعاني الأساسية للحياة وتغتالها.

لذلك نحن في صف الكتاب المتميِّز للأطفال، على علمنا أنه سوف يكون - غالبًا - للصفوة القادرة على أن تدفع ثمن التقنية المتقدمة التي دخلت في صناعته، ومع أن الحاسوب قد تطور ليضم إلى إمكاناته أن يكون إذاعة مسموعة ومرئية، ومبرقة ترسل وتستقبل - ولست أدري إلى أين يمضي بالإنسانية - إلا أن أطفالاً كثيرين يقبلون على الطبيعة، ويلعبون مع (فرقع لوز) لعبتهم الشهيرة: كم الساعة؟ ويمتطي الواحد منهم عصًا، لا على أنها حصان - كما كنا نفعل - بل على أنها صاروخ ينطلق به إلى الفضاء، وصولاً لا إلى

تتحدث عما عرفوا، وعما لم يعرفوا، كانت في عشرين فقرة: هل عرفوا كذا؟ نعم، وكذا؟ نعم، والفقرة العشرون كانت وحدها التي تحمل كلمة: لا، والسؤال كان: هل عرفوا القراءة والكتابة؟! وقال مرافقي:

- كان لابد من أن يجيب عن سؤالي شخص من بلد عرف الحضارة!

إن القراءة والكتابة أساس، ولا سبيل للحاسوب ذاته إلا من خلالهما، ولعل الحكاية التي أرويها كثيرًا عن الكاتب إسحق أسيموف خير نموذج لما سيكون عليه الحال مستقبلاً، فقد عثر طفل في عام 2080م على كتاب، فحمله إلى أبيه يطرح عليه ألف سؤال عن هذا «الشيء»، فما عرفه الصغير، وقال الأب يجيب: إن هذا الشيء اسمه «كتاب»، وكان يتعلم فيه الأطفال في المدرسة، وكان السؤال التالي: وما المدرسة؟.. بناء، فيه مدرسون، و... ويجيء السؤال المفاجأة: ألم يكن كل منهم يشتري المدرس الخاص به كما نفعل الآن؟! إنه يتنبأ حتى باختفاء مهنة المعلم

حين نقدم كتابًا بلا مضمون حقيقي، ونستخدم فيه التقنية الحديثة ليكون جذابًا وبراقًا، فنحن نغش الأطفال ونخون قضيتنا معًا!

القمر، بل يريدون تجاوزه إلى المريخ. إذن، يليق بهم كتاب «متميز»؛ ليس لأنهم متميِّزون فحسب، بل ربما لأننا في عصر متميز، وسوف ندخل قريبًا في عصر أكثر تميّزًا، بل فائق التميّز، لا تصلح له الكتب التقليدية. لكن ذلك لا يجعلنا نتوقف عن الإعجاب بتلك النصوص التي كُتبت على الجلد، أو ورق البردي، بل على الحجر، فهي تراث إنساني، وصل بنا إلى ما نحن فيه. ولست أنسى زيارة لمتحف للهنود الحمر في أمريكا وتطور حياتهم من الجمع والالتقاط إلى الرعي، ثم الزراعة، فالصناعة، وسألني مرافقي الأمريكي:

- لماذا لم يصنعوا حضارة مثل حضارتكم؟

قلت: ربما لأنهم لم يعرفوا القراءة والكتابة.

وفي نهاية المعرض، كانت هناك لوحة ضخمة

اعتمادًا على أن الحاسوب سينهض بمهمته، غير أننا على يقين من أن العنصر الإنساني سوف تبقى له المكانة الأولى، واليد الطولى في عملية التعليم وغيرها، ومع ذلك يجدر بنا أن نقدم مرة أخرى هذه الموازنة لعناصر الطاقة الإنتاجية:

عام 1850م:
ما تنتجه الآلات 6 ٪
ما ينتجه الإنسان 15٪
ما يقدمه الحيوان 79٪
عام 1950م:
ما تنتجه الآلات 94٪
ما ينتجه الإنسان 3٪
ما يقدمه الحيوان 3٪

إذن، لا وقوف في طريق التميز، بل ننحاز إليه بقوّة.

كيف يكون كتاب الطفل متميزًا مما عداه؟!

إذا كان الكتاب المتميز ضرورة، فما السبل التي تصل بنا إلى هذا التميز؟! وما التميز الذي نبتغيه ونسعى إليه؟! إن أحدهم يتجول ببعض كتب تصدر أصواتًا، أو تعزف الموسيقى، أو.. ويتيه كأنه صانعها ومبتكرها، لكنه أشبه بالشحاذ والحاوي القديم، وباعة شربة «داود». نحن لا نستهدف أن يصبح الكتاب «لعبة»، ومن يحولونه إليها يرتكبون في حق الكتاب، وفي حق الأطفال جريمة كبرى. ليس هذا هو ما نعنيه بالكتاب المتميز، وليس بين مقاصدنا أن نبهر الأطفال بهذا اللون من العبث، لأن هناك سؤالاً أساسيًا: ما مضمون هذا الكتاب؟ هل يتفق شكله مع مضمونه؟ وهل ما يقدمه من فكر يرقى لهذا الشكل التقني، أم إن التقنية مجرد وسيلة لجذب الأنظار وشد الانتباه؟! إننا حين نقدم كتابًا بلا مضمون حقيقي، ونستخدم فيه التقنية الحديثة ليكون جذابًا وبراقًا، فنحن نغشُّ الأطفال ونخون قضيتنا معًا. إن ما في الكتاب من أفكار يجب أن تكون، بل أن تتجاوز التقنية المستخدمة في صناعته، ولابد أن تقوم التقنية بخدمة الفكرة ذاتها، لأنها - أي الفكرة - هي المقصد الأساسي، وليس مجرد الإبهار وإثارة الدهشة على تأكيدنا أهمية هذه للأطفال. التقنية هنا ليست مقصدًا في ذاتها، بل هي مجرد وسيلة إلى شيء أكثر أهمية وحيوية. إنها «مطية»، نمضي بها نحو ما هو أهم وأفضل. ولست أستهين بأهمية «الشكل» قط، ولا أقلل مطلقًا من دوره، فهو إذا لم يكن «جذابًا» للطفل، فلن يقبل على القراءة بحماسة، وإذا لم يقرأ فما جدوى محتوى الكتاب، ومضمونه، وفكره وما نبتغيه من كتابته؟! ومرة أخرى، يجب ألا يطغى الشكل على المضمون، بل لابد لهما من أن يتوافقا ويندمجا بطريقة عضوية، تجعل الفصل بينهما صعبًا، من أجل أن نحقق ما نتوخاه من الكتاب. وإذا كان الإناء الزجاجي يمنح السائل المحتوى بداخله شكلاً محددًا، فما بالنا لو أن هذا الإناء انكسر؟! وهكذا الكتاب: يجب ألا ينفصل شكله عن محتواه، ومحتواه عن شكله، فهما «شيء واحد» إن صح التعبير، هما حقًا «كتاب»:

كتب الأطفال المتميزة ..
المرسومة والمصورة

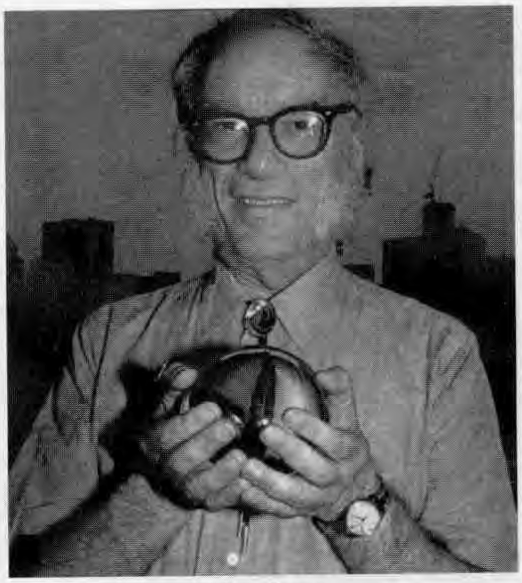
أعظم مخترعات الإنسان ومبتكراته على الأرض، وهو ما بعث اللّه سبحانه وتعالى به إلى البشر كافة ليهديهم سواء السبيل. نحن مع «القرآن الكريم» ندخل آياته إلى الحاسوب ونستخدمها في لحظات، ونعرف تفسيرها، ومعاني كلماتها بالضغط على بضعة أزرار، لنكون أقرب إليه، ويكون أيسر لدينا. الحاسوب يعيننا على استيعاب ما فيه، ولكن: أين منه هذا الحاسوب؟! هذا هو مفهومنا للمادة والمحتوى والمضمون، وهي ما نريد أن نصل إليه من خلال هذا الجهاز الفريد والرائع معًا والذي هو معجزة بشرية تكمن فيه تقنية فائقة، تتطور جيلاً بعد جيل، ولابد لنا أن نركض بأقصى ما نستطيع للحاق بها، وبتطورها المذهل خلال مراحل بالغة القصر، حتى لنكاد نقول إنه يتطور ساعة بعد ساعة. وقد يتساءل فريق عن علاقة الفلاح في حقله بالحاسوب، وهو، أي الفلاح، قد يكون أميًّا لا يعرف القراءة والكتابة. ونحن نعرف أن العلاقة وثيقة، إذ إن ما يستخدمه من أدوات، مثل الجرار وغيره، بل المياه التي يستعملها في الريّ، لا سبيل إليها إلا من خلال الحاسوب. ويجدر بنا ألا نحاول فصل الحاسوب عن الحياة التي نعيشها اليوم، فقد أصبح من أسسها الراسخة وبعضنا يتساءل: كيف كنا نعيش قبله؟! لأن ذلك يتساوى مع: كيف كنا نعيش قبل الآلة؟ كيف كنا نسافر؟! أزعم أنني - مع أنني لست رحالة - قد قطعت مسافات تزيد عشرة أضعاف على ما قطعه جدّاي ابن بطوطة وابن جبير، معًا، وما لي من فضل في ذلك، لكنها التقنية التي يلعنونها أحيانًا من خلال (الميكرفون) الذي هو تقنية، ما كان يمكن لأصواتهم أن تُسمع من غيره. بل إنني أستنكر هذه الإطالة من جانبي حول هذه القضية التي كان لابد من تجاوزها فورًا، للدخول في أساليب استخدام التقنية لتقديم كتاب «متميز» لأطفالنا، على أن يكون تميّزه في كل شيء، وليس في أسلوب شكله وطباعته وألوانه فقط، وفي مقدمة التميز «فكرته» و«موضوعه».

عناصر تميز كتاب الطفل في الوقت الراهن..

والآن: ما الكتاب المتميز؟!

قد يكون الرد: أن كل كتاب متميز بموضوعه وطريقة عرضه وأسلوب كتابته، بجانب رسومه وألوانه وإخراجه.. لكننا نريد من كلمة «متميز» هنا أن تعني تميزه في كل شيء: فكرته، موضوعه، مادته، تحريره، كتابته، جنبًا إلى جنب مع تميزه في الشكل والمظهر والجاذبية والجمال، وما إلى ذلك.

«فكرة» أي كتاب للأطفال يجب أن تكون متميزة، بمعنى أننا لم نعد في حاجة إلى «حواديت» و«حكايات» توضع تحت عنوان عام، ولا صلة لها بعضها ببعض، ولا خيط واحد ينتظمها، ولا يربطها معًا غير اسم الذي نقلها



إسحق آسيموف



توفيق الحكيم

وكتبها. كاتب الأطفال في عصرنا يجب أن تكون له «فلسفته» و«منهجه» وقصده الذي يسعى إليه، وهو لا يمكن أن يكون مجرد «تلقين» المعرفة والموعظة. والصينيون يرون في ذلك نوعًا من «تزغيط البط البكيني»، ويراه الأمريكيون إبريق شاي - هو الكبير - والأطفال فيما يتصور أكواب يسكب فيها مما عنده!..

سُئل كاتب أطفال أمريكي: ما بالك حزينًا ضيق الصدر وأعمالك ناجحة؟ كانت إجابته: منافسي كتب عملاً متميزًا، وبي رغبة في تجاوزه.

هذه هي «المنافسة» التي لا تعني عرقلة الآخر عن الوصول، لأنه سوف يصل رغم الأنوف. والتميز يأتي من القدرة على التأليف والابتكار والإبداع فيما يقدم، إنه جدير به أن يكون صاحب «فكر» وأن يقدم هذا الفكر من خلال أعماله، وليس من خلال نقل أعمال الآخرين وسرقتها، والزمن كفيل بكشف اللصوص، وكم كان أجدادنا العرب المسلمون يأخذون على الشاعر أنه أخذ فكرة، أو كرر معنى، فما بالنا اليوم نجد من يتجاسر لا على الفكرة فحسب، بل على الأعمال كاملة، وأحيانًا بعنوانها نفسه!!

فكرة كتاب الطفل يجب أن تكون متميزة.. وكذلك أسلوب كتابتها وتحريرها، ولابد من أن تتنبه إلى الأشكال والقوالب الأدبية التي توضع فيها، ومراعاة القواعد العلمية لكل فن منها: القصة، الرواية، المقالة، المسرحية، وهي قوالب غير جامدة، بل قابلة باستمرار للتغيير والتطوير والتجديد بشرط استيعابها إلى درجة القدرة على «كسرها»، بالموهبة، والقدرة على تجاوزها. والتميز في الشكل الفني أمر مطلوب في الكتابة، فهذه الكتابة الفنية لها اشتراطاتها التي تخضع لها، فنحكم على عمل ما بأنه قصة، أو ليس كذلك.. مسرحية، أو هي ليست مسرحية. ولعل

تجربة «مسرواية» نموذج لما رمينا إليه، وأيضًا استخدام اللامعقول في «يا طالع الشجرة»، وتوفيق الحكيم في هذين العملين نموذج واضح للمحاولة الدؤوب في تغيير الشكل الفني للكتابة، وأيضًا «الفرافير» ليوسف إدريس، كشكل عربي للتراث المسرحي، وكذلك «مغامرات سيف بن ذي يزن» لفاروق خورشيد، فقد جعل من البطل الشعبي شخصية محورية أدار حولها رواية مؤلفة بالكامل، وليس فيها من القصة التراثية غير بطلها، بل هي منفصلة تمامًا بأحداثها وشخصياتها، وهذا نموذج فذّ لاستيحاء التراث وتوظيفه. ومن الممكن أن أشير إلى أمثلة من أعمالنا للأطفال في هذا السياق، خاصة وقليلون من الكبار هم الذين قرؤوها أو اطّلعوا عليها، وحرصُنا شديد على أن تكون أفكار هذه الأعمال «متميزة» وأيضًا «متفردة» في بابها.

وحتى لا نقسو على أنفسنا، ونصمها بالتخلف، جَلْدًا للذات، وإحساسًا بالدونية، نورد أسماء بعض الكتب «المتميزة»، وليس من السهل ولا باليسير حصرها، لذلك نكتفي ببعض النماذج، وإن اقتصرت على أعمال لنا بذاتها:

- «حياة محمد صلى الله عليه وسلم» في قصص: روينا فيها سيرة الرسول على ألسنة: فيل أبرهة، والناقة التي أقلته من مكة إلى المدينة، والبُرَاق، وبئر بدر وجَبَل أُحد، وشجرة الحُديبية، وأتاح ذلك للفنان أن يشارك بالرسم لأول مرة في كتاب ديني، كان من الصعوبة بمكان اقتحامه (عام 1970م).

وتكرر ذلك في سلسلة «من قصص القرآن عن الطير والحيوان» بالطريقه نفسها، إذ رُويت على ألسنة ما ورد في كتاب الله منها. وكتاب «الله جل جلاله» وقد صدر بأسلوب إخراجي فريد، لأنه كان بطريقة كتب أجدادنا: متن وحاشية، لتعريف الأبناء بهذا الأسلوب الفريد، مربع في وسط الصفحة يحوي قصة، وأخرى من حولها، وأرقام الصفحات وضعت على هلال يكبر ليصبح بدرًا ويصغر ليتلاشى، وكل القصص مرسومة.

وحدث الشيء نفسه مع سلسلة كتب عن نبيّ الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم سلاسل «أطفال أبطال»، و«فرسان الإسلام»، و«محمد خير البشر»، و«المكتبة القرآنية للأطفال»، وقصص من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

- وفي سلسلة «اللقاء الفريد» عقدنا لقاء بين علماء العرب وعلماء الغرب، ممن جمعهم العمل في مجال واحد، كأن التقى الحسن بن الهيثم مع نيوتن، وابن النفيس مع وليم هارفي، وعباس بن فرناس مع الأخوين رايت ولندنبرج، ورُفيدة بنت سعيد مع فلورنس نتينجيل، وابن خلدون مع دوركهايم... إلخ. إنها الحضارات حين تتلاقى، وقد حصل هذا الكتاب على جائزة الدولة التشجيعية في ثقافة الأطفال لأول مرة، بعد أن كانت تقتصر على أدب الأطفال.

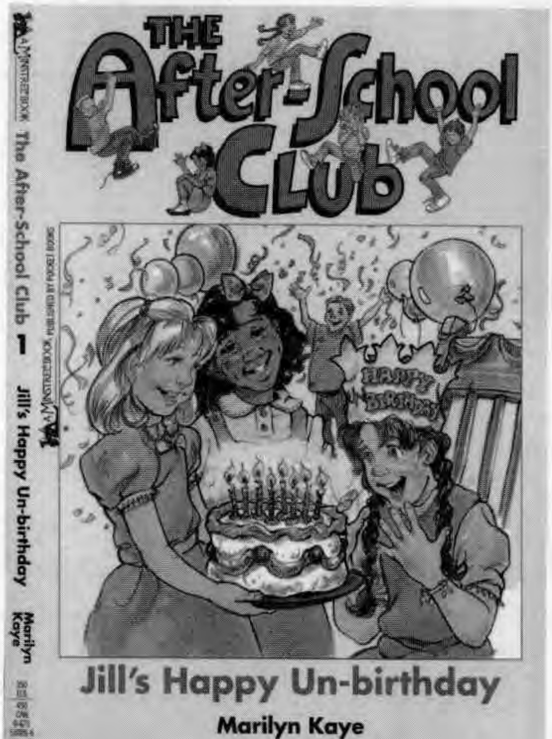
- في سلسلة من تسعة كتيبات عن الألوان، صار كل لون بطلاً ومحورًا لكتيب، يدور حول كل ما يتعلق به: وجوده في الطبيعة، ووظيفته، وما إلى ذلك، بل كيف ورد ذكره في القرآن الكريم، كما تطرق لوجوده في الحكايات مثل ذات الرداء الأحمر، وما إلى ذلك.

- وهناك كتابان «أنا أحب الفلوس»، و«أنا لا أحب المدرسة»، وتداركنا في العنوان فوضعنا كلمة «لا» بعد «أنا» في الأول، وشطبنا كلمة «لا» في الثاني.

- وقصة أصحاب الفيل، وكذلك الكلمات السحرية، كتابان لسنٍّ ما قبل المدرسة، تصاحب الرسوم كلمات قليلَة، لكنْ للكتابين دليل يتجاوز حجم الكتاب نفسه عدة مرات، وكان الحرص على ألا يتغلب الشكل على المضمون في كل هذه الأعمال.

الكتب المصورة المتميزة وعلاقتها بالكتب المرسومة

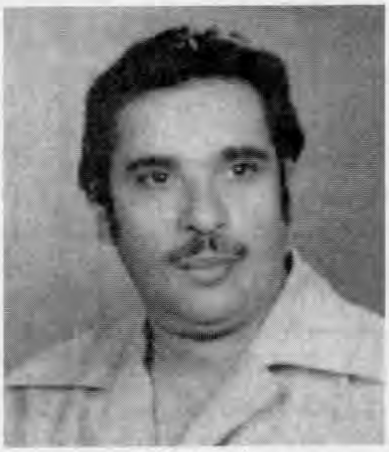
وقد كثر الحديث حول «الكتب المصورة»، وحدث أن طلبت إحدى الهيئات الدولية من جهة مصرية بعض كتبنا المصورة للأطفال، وكانت المفاجأة أن هذه الجهة راحت تبحث في الأسواق ولدى الناشرين عن كتب تضم صورًا «فوتوغرافية»، ولما لم تعثر على شيء منها سألونا المساعدة، وكان من الممكن





كتب الأطفال المتميزة ..

المرسومة والمصورة



فاروق خورشيد

أن يكون الأمر شائنًا لو أن هذا الفهم للكتب المصورة هو السائد لدى جهة تعمل في المجال ذاته، لذلك كان لابد من توضيح ما يعنونه بهذه العبارة، خاصة وقد أصبح لهذا اللون من الكتب تاريخ، اختلف حوله الإنجليز والأمريكيون، لكنهم يقرون معًا أن أول كتاب مصور متطوّر في العصر الحديث هو كتاب «ملايين القطط» للكاتبة الأمريكية - من أصل صيني - وانداجاج، وصدر عام 1928م، وعدته موسوعة اربثنوت في كتب الأطفال منعطف طريق في تاريخ هذه الكتب.

وقد ارتبط الرسم بالكلمة منذ عهد مصر القديمة، وهناك كتب يابانية مرسومة منذ القرن الثاني عشر، وإن كان أول كتاب مطبوع به رسوم قد صدر عام 1659م، وهو كتاب تعليمي، ومن بعده ظهرت حكايات إيسوب عام 1774م، ثم قصص جريم الشعبية عام 1823م، وانهمرت الكتب المرسومة في إنجلترا ما بين عامي 1860 و1870م.

وكان لظهور الكتب المصورة أثر كبير في مجال نشر كتب الأطفال التي لم تعد مجرد رسوم ترافق النص الأدبي فقط، بل باتت هناك مواصفات محددة يجب أن يكون عليها «الكتاب المصور»، حتى لا تختلط علينا الأمور في هذا الشأن؛ والحكاية التي أوردتها في البداية ليست الحادثة الوحيدة التي وقعنا فيها نتيجة عدم دراسة هذا الفن المهم. فقد حدث في بغداد أن قام الراحل فتحي خليل بترجمة كتاب «ملايين القطط»، والكتاب يدرسونه على أنه نموذج للكتب المصورة في ذروة إتقانها، وكانت المفاجأة أن القصة أعيد رسمها من خلال واحد من الفنانين العراقيين الكبار، وبذلك فقد الكتاب قيمته الحقيقية، وتم تدميره بالكامل، على جودة الرسوم الجديدة، والسبب واضح: إنهم تصوروا أنه من الممكن فصل القصة الأصلية عن صورها المتحدة بها، وأسقطوا هذه، واستبدلوا بها رسومًا أخرى جمالية توضيحية، لا تمت بصلة إلى الضفيرة التي هي من القصة والرسم معًا.. وأقطع بأن الأطفال القُرّاء قد أحسّوا بذلك، وشعروا بأن هناك غربة ما بين القصة والرسوم الجديدة.

وهناك كتابات بالعربية، قليلة، حول الكتب المصورة، لابد لنا من الإشارة إليها، وذلك لأهميتها وضرورة الرجوع إليها. صدر في عمان - الأردن 1989م - كتاب ضمن منشورات وزارة الثقافة بعنوان: «كتب الأطفال المصورة: دراسة» تأليف محمد بسام ملص، كما ترجمت مجلة ثقافة الأطفال بالعراق في عددها الثاني دراسة عن الفرنسية حول «الكتب المصورة، أولى كتب القراءة» عن جانين ديسبينيت قامت بها سمية صالح وحيد، وتناثرت بعض فقرات في دراساتي حول هذا اللون من الكتب، من بينها دراسة عن موريس سندال وكتابه الشهير «حيث توجد الأشياء المتوحشة». هذا ما نُشر بالعربية فيما أظن، وفيما أعرف، وأراه لا يكفي، وخاصة أن ما صدر من كتب مصورة بالإنجليزية يتجاوز عشرة آلاف كتاب، وهناك خلط كبير بين الكتب «المصورة»، والكتب «المرسومة» إلى حد أن فريقًا يظن أن (السيناريوهات) حين تصدر في كتاب هو كتاب مصور! وفريقًا آخر يظن أن هذا اللون من الكتب يُقدَّم لسنٍّ ما قبل المدرسة فحسب! لذا بات من الضروري أن نضع أيدينا على الشروط الخاصة بهذه الكتب، والصفات التي يجب أن تتوافر في كتاب ما لكي نقول عنه إنه كتاب مصور وليس مجرد كتاب مرسوم.

وفيما أرى لم تصدر بلادنا كتبًا مصورة للأطفال اللهم إلا تلك التي أصدرها الفنان حسين بيكار في دار المعارف في وقت مبكر في سلسلة تحمل اسم «صندوق الدنيا»، كما أنه من الممكن أن تنطبق هذه الصفات على بعض كتب دار الفتى العربي.

الكتب المصورة والكتب المرسومة والفارق الأساسيّ بينها

تحفل كتب الأطفال - غالبًا - بالرسوم، وهي على الأرجح تكون ملوّنة من أجل أن تجذبهم إليها، لكنّ هناك فارقًا كبيرًا وأساسيًا بين الكتب المرسومة والكتب المصورة، على الرغم من اشتراكهما في صفة واحدة: أن كليهما به رسوم.. رسوم كتب الأطفال «المرسومة» قد تكون للتوضيح والتزيين لا أكثر ولا أقل، إنها جميلة، بل قد تكون رائعة، غير أن دورها قاصر على أن يصوّر مواقف معينة، ويفتح عيون الأطفال على أبطال العمل وشخصياته، ويعرفهم بهم، ويقدمهم إليهم، والتركيز في هذا اللون من الكتب يكون على الكلمات التي تتكفل بالجانب الأكبر من المهمة التي يبتغيها الكتاب، إنه: للقراءة، ودور الرسوم سلبي، أما الكتب «المصورة»، فالكلمات مضفورة مع الصورة، والرسوم ملتحمة عضويًا مع النص، تصافح عيون الأطفال لكي تثير مشاعرهم وانفعالاتهم، وتضيف جديدًا للكلمات، وتشكل لها بعدًا إضافيًا. إن الجمل والعبارات قد تكون ناقصة ومبتورة لتكملها الرسوم، فلا انفصال ولا انفصام ما بين الكلمة والرسم، وجانب منهما لا يكفي للفهم والاستيعاب والتأثر، وقراءة النص وحده يحس معه القارئ بنقص حاد، ومشاهدة الصور متتابعة لا تفيد كثيرًا، إذ لا سبيل إزاء الكتب المصورة غير القراءة للمكتوب والمرسوم معًا.

إن الكتب المصورة ليس لها أدنى علاقة بالصور (الفوتوغرافية)، فهي أيضًا كتب تحوي رسومًا يجب أن تكون في أهمية النص، ومرتبطة به ارتباطًا عضويًا، ولا يمكن فصلهما الواحد عن الآخر قط، أي إن الكلمات إذا قرئت من دون الرسوم، والصور، فإنها لا تُفهم، ولا تشكل وحدها عملاً متكاملاً، بل لابد لها من الرسوم والصور، لأنهما معًا يشكلان العمل فنيًا. إن الكتاب الذي يتضمن رسومًا فحسب، تتوالى على هيئة سيناريو أُعدّ مسبقًا، وعبّرت عنه الرسوم دون حاجة للكلمات، هذا الكتاب ليس كتابًا مصوّرًا، إذ الكتاب المصوّر لابد أن تتضافر فيه الكلمة مع الصورة، والكلمات فيه دائمًا قليلة، ربما لا تزيد على ألفي كلمة، وهي في الغالب «إطار» أدبيّ للعمل، أو هي هيكل عظمي، تكمله الصورة: لحمًا، ودمًا، لتدب فيه الحياة، وينمو ويكبر ويتسع ويعمق، وهي التي «ترسم»

كتب الأطفال المتميزة.. المرسومة والمصورة

الشخصيات وتضعها في مواقفها، معبّرة عن مشاعرها وانفعالاتها، بديلاً عن الوصف بالكلمات، وتكشف لنا عن الجو الذي تعيش فيه، والمكان الذي توجد به، وأيضًا البيئة التي تحيطها. وهي لا تكتفي بذلك، بل إن الصور تحدد لنا العصر الذي تحياه، والزمن من خلال الثياب التي ترتديها، والطراز المعماري للبيوت والمباني، والصور لابد لها من أن تتجاوز ذلك إلى الحالة النفسية لهذه الشخصيات، كاشفة لنا أعماقها، فتوضح أسباب سلوكها، وتصرفاتها، بطريقة لا يسهل على الكلمات أن تقوم بها أو تؤديها.. الصور تجسد ما لا تستطيع العبارات أن تفعله.

هذا، ومن المناسب أن نضرب بعض الأمثلة الناجحة في كتب الأطفال المصورة على مستوى العالم، وقد حاول فناننا حسين بيكار أن يقدم من خلال سلسلة «صندوق الدنيا» بعض النماذج من هذا اللون المتميز، لكن التجربة لم تستمر، على مشاركة فنانين رسموا كتبهم بأنفسهم، وحاولوا

هناك خلط بين الكتب «المصورة» والكتب «المرسومة»، لذا بات من الضروري أن نضع أيدينا على الشروط الخاصة بهذه الكتب، والصفات التي يجب توافرها في كل منهما

أن يربطوا ما بين الكتابة من جانب والرسم من جانب آخر.

ولكم نتطلع إلى أن يدرس كتّابنا وفنّانونا أساليب الكتب المصورة، وهي ليست لسن ما قبل المدرسة فحسب، بل إن بعضها يتجاوزها إلى أعمار أكبر، ومراحل سنِّية أعلى. وأعمال ليوليو نيني وأرنولد لوبيل وموريس صنداك، في واقع الأمر، دُرَا أدبيّة وفنيّة، يصعب على الكثيرين ارتقاؤها، وما من سبيل لنا لكي نضع أنفسنا على خريطة الكتب العالمية المصورة إلا أن نعكف على دراسة هذه الأعمال، والكتب الصادرة عنها.

ما هو الكتاب المصور المتميز ؟!

هذا هو نص ترجمة عنوان الفصل الأول من كتاب «بذور اللوتس» للفنانة مارسيا براون، الذي صدرت أولى طبعاته عام 1949م، وتوالت حتى تجاوزت خمس عشرة طبعة، منها طبعات على التوالي: 82، 83، 84، 85، 1986م (الطبعة التي أحتفظ بها). وفي مقدمة هذا الفصل تقول: «الصورة التي في الذهن هي التي تُحتسب، ويُعتدّ بها، وتصنعها عناصر: الإشارة، والحركة، واللون، والرمز: نفس عناصر القول والحكي».

وهي تشكو في البداية من ذلك السيل العرم من الكتب المصورة التي تخرج من المطابع - عام 1949م -. ونزعم أننا حتى اليوم لا نعرفها جيدًا، وأن الصادر منها لدينا فيما نرى يكاد يعد على أصابع اليدين، في الوقت الذي يقول فيه أحدهم: إننا نجاري أدب الأطفال على مستوى العالم، بل ربما نتفوق عليه؛ والمأساة أنه لم يعرف اسم كاتب واحد من كتّاب أدب الأطفال من بين هؤلاء الذين يشير إليهم.

والفنانة مارسيا براون حققت إنجازًا فنيًا غير مسبوق ولم يتكرر في مجال الكتب المصورة، فقد فازت ثلاث مرات بجائزة كالد كوت أرفع جوائز رسوم كتب الأطفال في أمريكا، وذلك في أعوام 1955 و1962م و1982م. إنه إنجاز فيه الكثير مما يشبه الإعجاز، وكتابها هذا جدير بالترجمة، فهو دراسة رائعة وممتعة، يجدر بالعاملين في مجال كتب الأطفال الاطلاع عليها كتجربة فريدة غير مسبوقة.

أما مارجريت وايز براون فهي عبقرية حلقت بالكتب المصورة إلى آفاق رحبة، مع أنها رحلت عن الدنيا شابة صغيرة في عام 1952م، ولها أعمال تعد ذروة رفيعة المستوى، من بينها «الكتاب الهادئ الصاخب». تتساءل في صفحته الأولى عمن أيقظ الكلب الصغير النائم: هل هي نملة أم فراشة أم.. ويمضي السؤال في الصفحات التالية مع محاولة مرحة للإجابة عنه: هل هي الفراشة التي تحوم حوله، أو النملة التي تزحف، أو النبات وهو ينمو، أو الفيل وهو ينزل من على السلم.. أو..

إنها تورد عدة أشياء يمكن أن تكون هي السبب في إيقاظ الكلب الصغير، وتنفي أن تكون هي التي فعلت ذلك، إن الذي أيقظه هو شروق الشمس وطلوع يوم جديد ينبض بالحياة والحركة، وتبدو الشمس صفراء ضخمة في كبد السماء.

وكتابها «مساء الخير يا قمر» تحفة في مجاله، يبدأ بصفحة لليسار تقول: «في الغرفة الكبيرة الخضراء: تليفون وبالون أحمر وصورة لـ..»، ولليمين صورة للغرفة محتشدة بأشياء كثيرة، غير ما ورد في الكلمات، وعندما نقلب الصفحة نجد صورتين (أبيض وأسود) كانتا معلقتين في الغرفة (بقرة تقفز فوق القمر)، و(ثلاثة دببة تجلس إلى المقاعد)، ويمضي الكتاب: صفحتان ملونتان، وصفحتان دون ألوان، تتقصى الكلمات كل ما في الغرفة، ثم تبدأ همسات: «مساء الخير يا غرفة»... ويا.. ويا..، بل هناك صفحة بيضاء لـ «مساء الخير للا أحد».

وبعد..

إننا بحق نتطلع إلى كتب متميزة للأطفال، مرسومة ومصورة، ولن يتحقق ذلك إلا بالتعاون ما بين الكتاب والمؤلفين من جانب، والرسامين والمخرجين والمصممين من جانب آخر، بالإضافة إلى الناشرين، والطابعين، بل من يصفون الحروف.

صناعة الكتاب أصبحت ضفيرة من كل هذا، وما من سبيل إلى التميز من الكتب إلا بتعاون هؤلاء معًا، دون أن نغفل عن إخصائيي المكتبات وأمنائها، وأيضًا رجال الأعمال، ودور النشر القومية، إذ إن لكلٍّ من هؤلاء دورًا يجب أن يؤديه، ومهمة خاصة تقع على عاتقه.

دراسة لغوية

وَيْهِ

في اللغة والتاريخ والأدب

عبدالله بن سليم الرشيد



ارتبطت كلمة «ويه» بالنحوي الأكبر «سيبويه»، فرُزقت شهرة به، وعلا ذكرها بعلو ذكره رحمه الله.

وقد شغفتُ منذ أمد بالبحث في أصلها ومعناها ومبدأ انتشارها عند العرب، ووقعت في خلال ذلك على لطائف وفوائد آثرت أن أجعلها في هذه المقالة، مضمنًا إياها اجتهادات قد يكون في بعضها بعد وشطط، والله الموفق.

معناها اللغوي

«وَيْه» بالياء الساكنة والهاء المكسورة، وتُسكّن أحيانًا: «إغراء، ويكون للواحد والجمع والمذكر والمؤنث»(1).

وويهًا: كلمة إغراء(2)، ومن رجز هند بنت عتبة يوم أحد:

ويهًا بني عبدالدارْ
ويهًا حماة الأدبارْ
ضربًا بكل بتّار(3)

وهي كلمة «يقولها المغري بالشيء، والمنكر له على القوم المخاطبين»(4). وعن ابن عمر رضي الله عنه: «ويه اسم شيطان»، رواه النوقاني في معاشرة الأهلين(5).

أما في اللغة الفارسية، فلها عدة معان: فتكون حينًا علامة للتصغير: فيلويه: أي الفيل الصغير، وتكون أيضًا علامة للنسبة: سيبويه: أي المنسوب إلى التفاح، ولا تكون إلا لاحقة متصلة(6)، وقد تكون بمعنى: وُجِد(7).

وقد تفيد الاستعطاف والمشابهة والملكية، وتُضبط أحيانًا - في بعض معاجم اللغة الفارسية - بضم الواو وفتح الياء وسكون الهاء: وُيَهْ(8).

ويجدر بي الوقوف عند اسمين شهيرين، للنظر في معناهما، فقد احتدم الخلاف، وتشعب الرأي فيهما، وهما: سيبويه وابن راهويه.

أما سيبويه فلاشك في أنه اسم فارسي، مركب من «سيب» و«ويه».

فأما «ويه» فقد تقدمت معانيها عند الفُرْس، وأما «سيب» فمن معانيها: مدهوش، وتفاح(9)، وعرف الفَرَس أو شَعْر ذيلها(10).

وقيل: إن أصل الكلمة: Sسيب بويه» فخفف بحذف إحدى الباءين(11).

جاء في اللسان (سيب): «السيب: التفاح، فارسي، قال أبو العلاء: وبه سمي سيبويه، سيب تفاح، وويه رائحته فكأنه رائحة تفاح»، وعدّ القاموس المحيط السيب بمعنى التفاح من المعرّبات.

وقيل: إن الكلمة مكونة من «سيب» بمعنى تفاح، و«بوي» بمعنى رائحة، فمعناها رائحة التفاح(12).

وقيل: سي: ثلاثون، وبَوَيْ: الرائحة(13).

وعلى ذلك فإن الرأي تشعّب حول معنى سيبويه إلى ما يلي:

1- رائحة التفاح.

2- ثلاثون رائحة طيب، قال ابن خالويه: «كان سيبويه لا يزال من يلقاه يشم منه رائحة الطيب، فسمي سيبويه»(13)، قال ياقوت الحموي: «ولم أر أحدًا قال ذلك غير ابن خالويه»(13).

3- تفاحي الرائحة(14).

قلت: وعند النظر في معاني ويه عند الفُرس: (النسبة والمشابهة والتصغير)، ترد عدة احتمالات لمعنى سيبويه على هذا النحو:

1- التفّاحيّ.

2- شبيه التفاحة.

3- التفاحة الصغيرة.

وقد لُقِّب به إمام النحاة «لكمال رغبته بالتفاح، بحيث لو رآه صدر منه صوت (ويه)، أو للطافته وحسنه، أو لاعتياده شمّه، أو لأن وجنتيه كانتا كأنهما تفاحتان، أو لأن أمه كانت ترقّصه بذلك في صغره، أو لأن من يلقاه يشم منه رائحة التفاح»(15).

أما راهويه فقيل: هو لقب إبراهيم أبي إسحاق، لأنه وُجد في الطريق، وأصله راهويّ أي طريقيّ(16).

وكلمة «واه» لها معان كثيرة في اللغة الفارسية، منها: الطريق، والشعور، والمقام، والدرجة، والنغمة(17).

وقوله: إن أصله راهويّ أي طريقي، يعضده أن ابن راهويه نفسه قال لما سئل عن اسم أبيه: «إن أبي ولد في الطريق، فقالت المراوزة راهويه، ويعني أنه ولد في الطريق»(18).

قد يؤتى باللقب المختوم بويه، لتقدير المرء أو تشبيهه بمن سبقه بهذا اللقب، وقد تلحق «ويه» الاسم نبزًا وتعييرًا!

كما أن هذا القول يؤيد ما ذهبتُ إليه من أن سيبويه قد تعني التفاحيّ، ويمكننا أن نقيس عليه غيره، فنفطويه يعني: النفطيّ، وبحرويه: البحري، ومسكويه: المسكي، وهلم جرا.

ضبط الأسماء المختومة بوَيْه

ضبط النووي حربويه ضبطين هكذا: حَرْبَوَيْه وحَرْبُوْيَه، ثم قال: «ويجري هذان الوجهان في كل نظائره كسيبويه وراهويه.. فالأول مذهب النحويين، وأهل الأدب، والثاني مذهب المحدثين»(19).

وفي فوائد رحلة ابن رُشَيْد: مذهب النحاة في هذا.. فتح الواو وما قبلها، وسكون الياء ثم هاء، والمحدثون ينحون به نحو الفارسية، فيقولون: هو بضم ما قبل الواو، وسكونها وفتح الياء وإسكان الهاء، فهي هاء على كل حال، والتاء خطأ، قال: وكان الحافظ أبو العلاء العطار يقول: أهل الحديث لا يحبون ويه. ا.هـ

قال ابن حجر: ولهم في ذلك سلف، رويناه في كتاب معاشرة الأهلين عن أبي عمرو عن إبراهيم النخعي أن ويه اسم شيطان(20). وقد مرّ لفظ الحديث مرويًا عن ابن عمر.

قال الشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد: «وعدول المحدثين إلى نطقه بإسكان الواو وفتح الياء، كان للهرب من أمر شاع بين الناس، ولايُفهم منه صحة رفع حديث ابن عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم(21). قلت: لم أجد في تعليل الشيخ أبي زيد - حفظه الله - مستمسكًا.

إذًا فالضبطان الشهيران، أحدهما مذهب النحاة وأهل الأدب، والآخر مذهب المحدّثين.

ويرد أحيانًا ضبط مخالف لهما، تمليه ضرائر الشعر، قال ياقوت في حديثه عن نفطوَيْه: صيّره ابن بسام بضم الطاء وتسكين الواو وفتح الياء، فقال:

رأيت في النوم أبي آدمًا
صلى عليه الله ذو الفضل
فقال أبلغ ولدي كلهم
من كان في حَزْنٍ وفي سهل
بأن حوّا أمهم طالق
إن كان نفْطُوْيَهُ من نسلي»(22)

قلت: وقد جعل هاءه تاءً.

كما ضُبط «جُوَانَوَيْه» في شعر للأبله البغدادي هكذا: جُوَانُوْيَهُ بفتح النون إسكان الواو وفتح الياء(23).

كما حُذفت الياء من سيبويه في قول بشار:

أسيبُوهُ يابن الفارسية ما الذي
تحدثت من شتمي وما كنت تنبذ(24).

أما العجم فهم يضبطون هذه الأسماء كما يضبطها أهل الحديث، قال ابن خلّكان: لأنهم يكرهون أن يقع في آخر الكلمة «ويه» لأنها للندبة(25).

قلت: لم أجد فيما بين يديّ من معاجم اللغة الفارسية أن كلمة ويه تعني الندبة.

هذا، وليس فيما وقعتُ عليه من الأسماء المختومة بويه، ما عُرِّف بـ (ال)، غير اسم واحد، هو «علي بن الدُّوْدُوَيْـه» الذي جرى له ذكر في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ(26).

وضعها النحوي

للاسم المختوم بوَيْه حالات:

الأولى: أن يلزم البناء على الكسر، فتقول: هذا شاهَوَيْه، ورأيت شاهويه، ومررت بشاهويه.

الثانية: أن يُعرب ويُصرف، فتقول: هذا راهويهٌ، ورأيت راهَوَيْهًا، ومررت براهويه.

الثالثة: أن يُعرب ويُمنع من الصرف، فتقول: هذا نفطويهُ، ورأيت نفطويهَ، ومررت بنفطويْهَ(27).

قال سيبويه: «وأما عَمْرَوَيْه، فإنه زعم أنه أعجمي، وأنه ضَرْبٌ من الأسماء الأعجمية، وألزموا آخره شيئًا لم يلزم الأعجمية، فكما تركوا صرف الأعجمية جعلوا ذا بمنزلة الصوت؛ لأنهم رأوه قد جمع أمرين، فحطوه درجة عن إسماعيل وأشباهه، وجعلوه في النكرة بمنزلة غاقٍ منونة مكسورة في كل موضع»(28).

«وعمرويه عندهم بمنزلة حضرموت، في أنه ضم الآخر إلى الأول، وعمرويه في المعرفة مكسور في حال الجر والرفع والنصب غير منون، وفي النكرة تقول: هذا عمرويه آخر»(29). فتأتي به منونًا، كما تقول أيضًا: أيٌّ سيبويه بين عطفيك!

أمّا تثنيته وجمعه، فإن من أعربه إعراب ما لا ينصرف ثنّاه وجمعه، فقال: السيبويهان والسيبويهون، وأما من لم يعربه فإنه يقول في التثنية ذوا سيبويه، وكلاهما سيبويه، ويقول في الجمع: ذوو سيبويه، وكلهم سيبويه(30).

واختار بعض المعاصرين أن يكون هذا المركب المزجي المختوم بويه، مبنيًا على الكسر(31).

كما شاع في تثنيته وجمعه الطريقة غير المباشرة، بأن تسبقه كلمة ذو مثنّاة أو مجموعة كما سبق(32).

مبدأ انتشارها عند العرب وأسبابه

هذا التركيب المزجيّ فارسي الأصل في الغالب، فقد شاع عند الفرس منذ القدم أسماء، مثل: شيرويه وخسرويه، ومزرويه وسروشويْه.

ويـه

في اللغة والتاريخ والأدب

أما العرب فإنها لم تشع عندهم - كما أظن - إلا في العصر العباسي بعد الاختلاط بالفرس وتنفذهم في حياة العرب ودولتهم.

ومن قبل عُرف من الصحابة - رضوان الله عليهم - اثنان ختم اسماهما بوَيْه، وهما:

داذويه، أحد الثلاثة الذين قتلوا الأسود العنسي، ذكره ابن الأثير(33). وسيمويْه البلقاوي، كان نصرانيًا شمّاسًا، فأسلم وحسن إسلامه، ذكره ابن الأثير(34).

وعُرف صحابي ثالث، جاءت ويه في اسم أبيه، وهو محمد بن يفديدويْه الهروي، كان اسمه يفودان، فسماه النبي - صلى الله عليه وسلم - محمدًا(35)، وكلهم كما ترى من غير العرب.

ويغلب على الظن أن مبدأ انتشار ويه عند العرب، كان في اليمن إثر سيطرة الفُرْس قبل البعثة، فقد عُرف مثلاً داذويه الذي مرّ ذكره، وأفنويه الصنعاني، الذي كان أحد ذريته فقيهًا شاعرًا(36)، ولم يعرف زمن وفاة أفنويه هذا، حتى يمكن الجزم.

وبعد ذلك كثرت الأسماء من هذا الضرب وشاعت في العصر العباسي كما أسلفت، ولهذا الشيوع أسباب، منها:

- الاختلاط بالفرس.

- وحياة الترف وغضارة العيش، التي تجعل من أهلها يولعون بالجديد، ويميلون إلى الهزل والدعابة.

والغالب أن تأتي ويه لقبًا لا اسمًا، وقد يكون اللقب غير خاص بامرئ واحد، فمن ذلك أن أهل قزوين كانوا يلقبون الطفل «بابا» أو «بابويْه» يعنون أنه سميّ جده، وبذلك لقّب محمد بن عبدالكريم الرافعي القزويني(37).

وقد يؤتى باللقب المختوم بويه، لتقدير المرء أو تشبيهه بمن سبقه بهذا اللقب، فسيبويْه مثلاً، لقبٌ لستة من النحاة، أولهم صاحب الكتاب، إمام النحاة، وأُطلق بعده على كل من: محمد بن موسى الفقيه المصري، لقب سيبويه لمعرفته النحو والغريب(38). ومحمد بن عبدالعزيز التيمي الأصبهاني، من رجال القرن الرابع. وعلي بن عبدالله الكوفي المغربي(39)، وسيبويه السنجاري(40)، وأبي بكر الموسوس الذي كان يشبّه في حضور جوابه وبيانه وحسن عبارته بأبي العيناء، وله أسجاع وأجوبه طريفة(41).

ولاشك في أن تلقيبهم بذلك منظور فيه إلى إلمامهم بالنحو أو اشتغالهم به، ومازلنا اليوم نسمع من يطلق هذا اللقب على العالم بالنحو.

وقد تضاف ويه إلى لقب النحوي أو اسمه، تشبيهًا له بسيبويه، يقول الثعالبي: إن نفطويه لُقّب بذلك لدمامته وأدمته تشبيهًا بالنفط، وأضيفت ويه، لأنه كان يُنسب في النحو إلى سيبويه، ويجري على طريقته، ويدرّس كتابه(42).

ومن النحاة الذين ألحقت ويه بأسمائهم أو ألقابهم، تشبيهًا لهم بسيبويه في الغالب: حمدويه، وابن حيّويْه، وسلمويْه، وابن علّويه، وقد قال أبو حيان في باب العلم من شرح الألفية: النحاة الذين آخر اسمهم ويه ستة لا سابع لهم. ثم استدرك عليه السيوطي ثلاثة عشر نحويًا(43)، ولم يعدّ الأسماء المشتركة.

قلت: وقد بحثت عن النحاة المنتهية أسماؤهم بويْه، فاجتمع لديّ ما يقارب أربعين اسمًا - مع عدّ المشترك -.

وقد تلحق ويه الاسم نبزًا وتعييرًا، ومما يدل على ذلك أن عبدالله بن طاهر سأل إسحاق بن راهويه: هل تكره أن يقال لك ابن راهويه؟ فقال: لست أكره ذلك(44).

فلو لم يكن ابن طاهر يعلم أن ويه تلحق بعض الأسماء نبزًا، لما سأل ذلك السؤال، وهل يمكن أن يكون جحشويه وبطّويه وديكويه إلا نبزًا وتعييرًا؟!

وأصرح من ذلك أن ابن خلكان قال: إن مَذْلوَيْه لقب كان يُنبز به الرشيد عبدالرحمن بن محمد الشاعر المعروف بابن النابلسي(45).

كما أن زياد بن أيوب الطوسي المحدّث قال: من سمّاني دلّويه لا أجعله في حل(46)، وذلك واضح في كراهة هذا اللقب، ومثله عبدالرحمن بن الأشعث (من عقلاء المجانين)، «كان الصبيان يؤذونه ويقولون: يا دحْمَوَيْه فلا يجيبهم، وإذا قيل: يا عبدالرحمن، قال: لبّيتكم، أنا عبدالرحمن»(47).

ولعل إضافتها لبعض الأسماء العربية مثل: عمرويه وزرقويه وبحرويه كانت انقلابًا عن النداء؛ لأن كلمة ويه تعني الإغراء والتحريض والاستحثاث(48)، فلعلهم سمعوا من يدعو: يا عمرو، ويه، ويا رزق، ويه، أي أحثك يا عمرو ويا رزق، فظنها من لا يعقل معناها اسمًا تامًا مركبًا، فأبقاه على حاله، ونقله إلى العلمية. أقول: هذا اجتهاد مني، ولعل فيه بُعدًا.

علمًا أن اللقب المختوم بويه كثيرًا ما يشتق من الاسم نفسه، ومن الدلائل على ذلك هؤلاء الأعلام:

زكريا بن يحيى المروزي (زكرويه)، أحمد بن بكر (ابن بكرويه)، محمد بن أحمد بن رزق (ابن رزقويه)، علي بن عبدالله بن سيف المغنّي (علّويه)(49)، العباس بن يزيد البصري (عباسويه)، سلمة بن سليمان (سلمويه)، عبدالملك بن سليمان (عبدويه)(50)، أحمد بن الخضر (خضرويه)(51)، خالد بن يزيد مولى بني المهلب (خالويه)(52).

واشتقاق اللقب من الاسم مذهب شائع، فهذا عيسى بن سالم يلقب «عويسًا»(53)، وجعفر بن محمد النيسابوري الأعرج، كان يلقب «جعفرك»(54)، والحسين بن علي النيسابوري، كان يلقب «حسينك»(55)، وما زالت العامة في نجد تلقب من اسمه عبدالله «عبيدًا أو عبادي» ومن اسمه عبدالعزيز «عزوزا أو عزيّزًا»، والأمثلة كثيرة.

ومن اشتُق لقبه من اسمه: صنع الله بن

يغلب على من تلحق أسماءهم «ويه» أن يكونوا من غير العرب. كما أن هذا التركيب لم يشع عند الأندلسيين والمغاربة

ويه
في اللغة والتاريخ والأدب

إبراهيم المتوفى بعد 1050هـ، كان يلقب «صنعي»(56).

هل أضيفت ويه لغير أسماء الرجال؟

الغالب أنها تضاف لأسماء الرجال، أما النساء فلم أجد فيما اطّلعت عليه من أضيف إلى اسمها أو لقبها ويه إلا أربعًا: دسْتَنْبُوَيه (أم ولد المعتضد) وبانويه (لقب قيصر المحدثة)(57) وكردويه (كردَويّة؟) ونَانَويْه (نانويّة؟)(58).

أما البلدان، فقد جاء منها خمسة عشر بلداً فيها ويه، وكلها مضبوطة بضم ما قبل الواو وتسكينها وفتح الياء.

أما غير الأعلام، فلم أجد منها إلا بادرنْجُبُوَيه، ومعناها أترج، ودستنبويه، وهو نوع من البطيخ(59)، وبه لقبت أم ولد المعتضد كما تقدم، وهذان اسمان عَجَميّان كما ترى.

وألحقتها العامة بالصفة، فقالوا في المثل: «طمْعَوَيْه بنى غرفة، فاتويْه قعد فيها»(60)، قال محقق نثر الدر معلقًا: «يبدو أنه مثل عامي، معناه: طماع بني غرفة، فقعد فيها فتى بدون أجر». قلت: لعله يوافق قول العرب: «رب ساع لقاعد».

وفي الغالب: أن من تلحق أسماءهم لفظة ويه من غير العرب، فمن ذلك ابن ماسويه (طبيب سرياني الأصل)، وموسى دالجُويْه (من قواد الموالي في ثورة الزنج)، وابن جيلويه الكردي، ودرمويه الزنجي، وديكويه، وزنجويه، وجعفرويه (غلام علي بن أبان أحد ثوار الزنج)(61)، وخالويه (لقب خالد بن يزيد مولى المهلب)(62)، وقرعويه وبَزْرويه، وهلم جرا، وليس المقام للحصر.

كما أن كثيراً من الفقهاء والمحدثين والنحاة الذين خُتمت أسماؤهم بويه، ينتمون إلى بلاد العجم وينتسبون إليها، كقزوين، ومرو، ونيسابور، وشيراز، وأصبهان، ودينور، وخراسان، وهراة.

وقد لحظت أن هذا التركيب لم يشع عند الأندلسيين والمغاربة، بحسب اطلاعي، كما أنه انعدم في العصور المتأخرة، إلا قليلاً، وممن لا يزال في اسمه لفظة «ويه» الشيخ محمود بن سيبويه البدوي، أحد أعضاء لجنة مراجعة مصحف المدينة النبوية، ومن علماء القراءات في الجامعة الإسلامية.

كما أنه بقيت من هذا التركيب بقايا، تشيع اليوم عند سكان الساحل الشرقي من الجزيرة العربية، إذ يضيفون واوًا وهاء فقط إلى الاسم، فيقولون في حسين: حُسَيْنُوْه، وفي خالد: خالدُوْه، وفي عائشة: عايشوه، وهم يريدون بذلك إما تحقير المرء أو زجره، وقد يطلقونه على من لهم عليه دالّة.

بل إننا نجد مثل هذا عند القدماء - أعني إضافة الواو والهاء فقط - فقد كان بعضهم يُدعى حيكُوه، وآخر يدعى خالَوْه، وثالث يسمى شيركوه(63)، ولا تنس أن بشارًا سمي سيبويه: سيبُوه.

غير أن الفرق بين ويه وبين الواو والهاء التي تشيع مضافة إلى الأسماء في بعض اللهجات المعاصرة، هو أن هذه الأخيرة لا تتجاوز لغة الحديث، ولم يُعهد أن أضيفت إلى اسم أحد ابتداءً، أو لصقت به كتابة وتدوينًا.

ولعل من الملائم أن أثبت قصة المهاجاة بين نفطويه وابن دريد الذي استعمل كلمة ويْه في هجاء خصمه، يقول ياقوت: «وكان بين نفطويه وابن دريد مُمَاظَّة [أي منازعة وخصام] فقال لما صَنَّفَ كتاب الجمهرة:

ابن دريد بقرهْ
وفيه عِيّ وشره
قد ادعى من جهله
وضع كتاب الجمهره
وهو كتاب العين إلا
أنه قد غيّره

فبلغ ذلك ابن دريد، فقال يجيبه:

لو أُنزلَ الوحيُ على نفطَوَيْه
لكان ذاك الوحيُ سخطًا عليه
وشاعر يُدعَى بنصف اسمه
مستأهلٌ للصفع في أخدعيه
أحرقه الله بنصف اسمه
وصيّر الباقي صُراخًا عليه»(64).

وكذلك استخدم ابن عُنين «ويه» في هجاء الرشيد النابلسي الملقب مدلويه (وفي بعض المصادر بالذال المعجمة)، فقال:

جال على حجرته مدلوَيْه
فويْه من أفعاله ثم ويْهْ
كأنه الرّحْبيّ في حمقه
فلعنة الله على والديْهْ(65)

اللهم أعذنا من سلاطة اللسان، وبذاءة القول.

الهوامش:

1- انظر: اللسان والقاموس المحيط (ويه).
2- خزانة الأدب 82/6.
3- تاريخ الطبري 512/2.
4- منال الطالب 520.
5- معجم المناهي اللفظية 338.
6- معجم المعربات الفارسية 159.
7- معجم مقيدات ابن خلكان 138.
8- المعجم الفارسي الكبير 3144/3.
9- المعجم الذهبي 357.
10- المعجم الفارسي الكبير 1651/2.
11- قصد السبيل 173/2.
12- سيبويه إمام النحاة لعلي النجدي ناصف 74.
13- معجم الأدباء 115/16.
14- المعجم الفارسي الكبير 1652/2.
15- قصد السبيل 2-173.
16- تحفة الأبيه 101-102.
17- المعجم الفارسي الكبير 1306/1، وقواعد اللغة الفارسية 208.
18- تدريب الراوي 428/1.
19- تهذيب الأسماء واللغات 258/2.
20- تدريب الراوي 1-428، وطبقات المفسرين 21/1.
21- معجم المناهي اللفظية 338.
22- معجم الأدباء 255/1.
23- ديوان الأبله البغدادي (من نسخة مخطوطة لدى الباحث).
24- الموشح 311.
25- معجم مقيدات ابن خلكان 175.
26- الاعتبار 67.
27- تحفة الأبيه 101-102.
28-29- الكتاب 301/3، 302.
30- لسان العرب (ويه).
31-32- انظر: النحو الوافي 311/1، 678/4.
33-35- أسد الغابة 5/2، 346، 339/4.
36- المحمدون من الشعراء 72.
37- راجع: درة الضرع لحديث أم زرع. مقدمة المحقق ص 11.
38- انظر: القاموس المحيط (سيب)، وكذلك: من أخبار سيبويه المصري 17-18.
39- بغية الوعاة 170/2.
40- إنباه الرواة 71/2.
41- يتيمة الدهر 433/1.
42- انظر: معجم مقيدات ابن خلكان 332، وطبقات المفسرين 21/1.
43- بغية الوعاة 393/2.
44-45- معجم مقيدات ابن خلكان 138، 139، 298.
46- الألقاب 63.
47- عقلاء المجانين 115.
48- المعجم الوسيط (ويه).
49- انظر الأجزاء التالية والصفحات في سير أعلام النبلاء: 347/12، 64/13، 258/17، 303/4.
50- انظر: الألقاب 145، 98، 137.
51- المنتظم 275/11.
52- معجم الأدباء 42/11، 43.
53- الألقاب 135.
54-55- سير أعلام النبلاء 265/14، 407/16.
56- معجم المؤلفين 843/1.
57- الفرج بعد الشدة 46/2، وأعلام النساء 225/4.
58- أعلام النساء 238/4، 162/5.
59- غرائب اللغة العربية 217.
60- نثر الدر 265/4.
61- انظر الأجزاء والصفحات التالية في تاريخ الطبري: 197/8، 565/9، 289، 661، 311، 547.
62- معجم الأدباء 42/11، 43.
63- انظر: سير أعلام النبلاء: 379/15، 380/19، 587/20.
64- معجم الأدباء 264/1.
65- ديوان ابن عنين 186.

الحمام في الشعر العربي

د. نوره صالح الشملان

الحمام هو بريد العشاق وأنيس المحزونين وسمير المغتربين، ومن هنا فقد اهتم العرب بهذا الطائر الرقيق، فلم يكتفوا بوصف جسمه الجميل وصوته الشجيّ، وإنما ألّفوا في نسبه وفي فراسته. وبالعودة إلى كتاب الفهرست لابن النديم (ت: 438هـ) تطالعنا كتب مثل: «فراسة الحمام»، وكتاب «الحمام» لأبي عبيدة مَعْمَر بن المثنى (ت: 209هـ) وغيرهما. والعربي وجد في هديل الحمام بكاءً حزينًا يلقى صدًى في نفسه الملتاعة، وكثيرًا ما سمعنا الشعراء يعاتبون الحمامة، لأنها تنوح نواحًا كاذبًا فهي لا تذرف الدموع، على حين أن نواح الشاعر يكون مصحوبًا بالدمع الهتون، فهذا عوف بن مُحَلِّم الخزاعي (ت: نحو 220هـ) يقول:

وأرّقني بالريّ نَوْحُ حمامة
فنُحْتُ وذو البثِّ الغريب يَنُوحُ
على أنها ناحت ولم تذر دمعةً
ونُحتُ وأسرابُ الدموع سفُوحُ

ويتعجب من نوحها وهي آمنة بين أفراخها، ويعاتبها على ذلك وكأنه يطلب منها أن تترك النواح له ولأمثاله من المغتربين، الذين تركوا ديارهم وأولادهم وأهلهم فيقول:

وناحتْ وفرخاها بحيث تراهُما
ومن دون أفراخي مهامهُ فِيحُ
(ألا ياحمامَ الأيْكِ إلفُك حاضر
وغصنُك ميّاد فَفيمَ تَنُوحُ)

وأبو فراس الحمداني (ت:357هـ) وحمامته أشهر من أن يُذكرا، فقد استمع إلى هديل حمامة وهو في الأسر، فعاتبها لأنها تنوح وهي متمتعة بالحرية، ويعجب من تصاريف القدر التي جعلته يضحك وهو الأسير المكبل بالأغلال، وتبكي الحمامة وهي تنعم بالنعمة التي يفتقدها الشاعر فهو أجدر منها بالبكاء، يقول:

أقولُ وقد ناحتْ بقربي حمامة
أيَا جارتا لو تعلمينَ بحالي
أيا جارتَا ما أنصفَ الدهرُ بيننا
تعالَي أقاسِمْكِ الهُمُومَ تعالي
أيضحكُ مأسورٌ وتبكي طليقةٌ
ويسكُتُ محزون ويندُبُ سَالِي
لقد كنتُ أولى منك بالدمع مُقلةً
ولكنَّ دمعي في الحوادث غالي

والحمام يزيد من غربة المتنبي (ت: 354هـ) وهو يتجول بشعب بَوَّان، وقد اختلطت بأذنيه أصوات القيان بأصوات الحمام. يعبر عن ذلك بالقول:

إذا غنّى الحمام الوُرقُ فيها
أجابته أغانيُّ القيان
ومن بالشِّعبِ أحوجُ من حَمَام
إذا غنّى وناحَ إلى بيان
وقد يَتَقَاربُ الوصفانِ جدًا
وموصوفاهما مُتَبَاعِدَان

المتنبي هنا يتحدث عن شعب بَوّان في بلاد فارس، وقد اختلطت في هذا الشِّعب الجميل أصوات الحمام بأصوات المغنيات اللواتي يغنين بالفارسية التي لا يفهمها شاعرنا، فالمغنيات والحمام يتلاقيان في العجمة، وإثارة الشجن والإحساس بالاغتراب.

أما بشار بن برد فإن الحمام يطربه ولا يحزنه، ويستنهض في قلبه حبًا قديمًا. يقول:

طَرِب الحمامُ فهاج لي طَرَبًا
رُبَمَا يكون تذكري نصبا

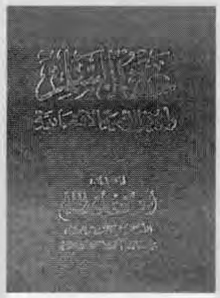
والشعراء يطلبون من الحمام أن يشاركهم في مصابهم، فهذا أبو عيينة يطلب من الحمام مشاركته في النوح على أخيه، يقول:

أنائحةَ الحَمَام قَعِي فنوحي
على داود رهنًا في ضريح
أنائحةَ الحمام فلا تشِحّي
عليه فليس بالرجل الشحيح

ولم يقتصر الشعراء على جعل الحمام معبِّرًا عن العواطف الإنسانية، أو لم يقتصر اهتمامهم على صوت هديله، وإنما اهتموا بوصف جسمه وشبهوه بأجمل ما لديهم من جواهر، فالمنقار كاللؤلؤ، والعينان كالياقوت، والساقان مثل الورد، والألوان زاهية كلون الطاووس. يقول أحدهم:

وتراها ناظرة نحوك من ياقوتتين
وتُرَجِّع الأنفاس من ثقبين كاللؤلؤتين
ولها ساقان حمراوان مثل الوردتين
وهي طاووسية اللون بنان المنكبين

إن هذا التشبيه ينم عن عشقٍ للحمام، وطول مراقبةٍ له وإعجابٍ لا بصوته فقط، بل بشكله أيضًا.



غلاف الكتاب

العنوان: عقد السّلم وأثره في التنمية الاقتصادية.
المؤلف: د. محمد بن أحمد الصّالح.
الناشر: مكتبة العبيكان، ط1، 1417هـ/ 1996م، 215ص.

كتب المؤلف كـتـابه هذا في ثلاثة فـصـول، حـيث يتـألّـفُ الفصـل الأول من ثلاثة مباحث، والفصل الثاني من مبحثين، والفصل الثالث من ثلاثة مباحث. ويسبق الفصـول تقديم وتقـفوها خاتمة، وقائمة للمصادر، ونبذةٌ عن المؤلّف.

تعرّض في التقديم للطريق الواضح والمنهاج الذي جعله الله لعباده، وتناول كُلّ شؤونهم، وشمل جميع متـطلباتهم بدنًا ونفسًا وعـقلاً على وجـه يؤدي بهم إلى سعـادة الآخرة ويجنّبهم مزالق الشيطان. ومنها رفاهُهُم الاقتصادي وأمنهم المعيشي، وتنمية أموالهم. ذلك لأنه في غـفلة من الأمـة الإسـلاميـة بسط الاقتـصـاد الغـربي نفوذه، وروّج نشـاطه الرّبوي بأشكاله المتعدّدة وبأسمائه المغرية في بعض الأحايين، ولو تأمّل الناس أحكام الشريعة ومـا فيهـا من حلول لمختلف المشكلات لما لجأ أحد إلى الربّا.

وجـاءت بعـد ذلك مـقـدمـة بيّن فيـهـا أنّ التشريعـات الإسلامية لم تكن مجرّد قـوانين جافّة، بل ربطهـا الشارع بـنظام أخلاقي لتـهـذيب البشر وكبح جـماحـهم، وجعل التـعامل بين الناس قـائمًا على الصـدق والأمانة ونهـاهم عن الغشّ والخيـانة، وحرّم الربّا والاحتيـال، وأكْلَ أموال النّاس بالباطل، وحرّم العقـود التي فيها جهـالة أو قمار، ومن طريق عقـد السّلم ينتفع أصـحابُ الأموال باستـثمـاراتها فيمـا يعود عليـهم بالربح الوفير، ويحـفظ ثروتهم ويوسّعُ رزقـهم. وينتـفع به المعـسرون كـذلك، وبه يدفـعون ضـرورتهم، ويخـرجـون من حالة البـؤس والشقـاء إلى حالة اليسار والرّخـاء، وينعكس ذلك على المجتمع كُلّه بالنّماء.

ولما لمسـه المؤلف من أهميّـة كبيـرة لعقـد السّلم وشـدّة الحاجـة إليه، عـزم واسـتعان بالله على إعـداد دراسة فقهيّة عن عقد السّلم. فجاء الفصل الأول في بيان حقيقة السّلم ومشروعـيته، واشتمل على تمهيد لـتعريف السّلم لغـةً واصطلاحًـا، في فقـه المذاهب الأربعة.

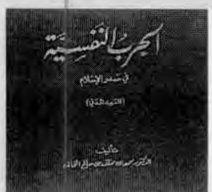
والمبـحث الأول لأدلة مـشـروعـيـة السلم من الكتـاب والسنّة والإجـمـاع. والمـبـحث الثـاني في حكمة مشـروعية السلم، والثالث في تكـييف عقد السلم ببـيـان عـلاقـتـه بالبـيع ومنزلتـه من الرخص والعزائم وبيان مطلبَيْه اللّذَيْن هما: هل السلم بيع أم لا؟ وهل التعامل به رخصة أم عزيمة؟

والفـصـل الثـاني في بيـان أركـان عـقـد السلم وشروط صحته في مبحثين هما: أركان عقد السلم في الصّيغة والعَاقدين والمعقود عليه. والمبحث الثاني شـروط السلم وشروط العـقد نفسه، وشـروط رأس المال والمسلَّم بـه.

والفصل الثالث في أحكام السلم، وما يجوز فيه وما لا يجوز، وبيـان السلم في غير المكيل والموزون، والسلم في الحيـوان، وآثار عقد السلم وانتـقال الملك في العـوضين، وإيفاء المسلَّـم فيـه عند حلول الأجل، والإقـالة في السلم، وفي بعض المُسلّم فيه، والإقـالة هل هي فسخ أم بيع. والتـصرف في رأس مال السّلم بعد الإقالة وقبل قبضه.

وختـم بحثـه ببيـان آثار عقـد السّلم في التنمـية الاقتصادية، وقد بيّن البحث إمكان التعامل سلمًا في كثير من صور التعـامل في هذا العصر. وبيـان وجه الإرفـاق في عقـد السّلم وضـرورة تصـحيح مـا يتم عملاً في عقود مقاولات التوريد، والنظر في نقله من معـاملة مـحـرّمة تعـتـمد على بـيع الدّين بالدّين إلى معاملة مشروعة تقوم على قواعد وأصول عقد السّلم وتضمن فاعليته بالكفالة والرهن.

ثم وضـح مشاركة الحكومة في تحمل المسؤولية، كما هو شأن السّلف الصالح. وقدّم النّصح للانتفاع بأنشطة وإعانات البنك الـزراعي السعودي لتشـجيع صغـار التجـار والمزارعين لزيادة الإنتـاج، والاستعـانة بسماحة الإسلام في تشريعه لعقد السّلم.



غلاف الكتاب

العنوان: الحرب النفسيّة في صدر الإسلام (العهد المدني).
المؤلف: د. محمد بن مخلف بن صالح الخلف.
الناشر: دار عالم الكتب، ط2، 1413هـ/ 1993م، 656ص.

يقع الكتاب في ثلاثة أبواب، حيث جاءت في الباب الأول ثلاثة فصول، واشتمل كُلّ باب مـن البـابين الآخـرين على فـصلين. وتتـصـدّرُ الكتـاب مـقـدمـةٌ وتقـفـوه خـاتمة، ثم الفـهـارس، وقـائـمـة بالمصـادر والمراجع الـعـربيـة والأجنبية.

وقد تناول الباحث في مقدمته الحرب النفسية التي يواجههـا المسلمون الآن، وذكر أنّها تشبه الحرب النفـسـيـة التي تـعـرض لهـا أسلافـهم في صـدر الإسـلام، وهي التي تسـتـخـدم الكلمـة بدل السـلاح. ووضّـح لماذا اختـار هذا الموضـوع في نقطتين، همـا: أهمـيّة هذه المرحلة في حـيـاة المسلمين، وهـي مـرحلة أُسّست فيـهـا المبـادئ والدّعائم الأساسيّة للمجتمع الإسلامي، وانتصر فيها الإسلام على كُلّ أعدائه. والثانية أنّها مرحلة مـازالت لم تأخذْ حـقّـهـا من الدراسة والتـحليل، وخـاصـة من الجـانب الإعلامي. كما بيّن سبب اختياره لهـذا الموضوع وهـو رغبته في مـوضـوع

تأصيلي يتعلّق بالعقيدة. وفي أبواب الكتاب الثلاثة، كانت دراسته كما يلي:

ففي الباب الأوّل بيّن مفهوم الحرب النفسية ونشأتها وتطوّرها، والظروف السياسيّة والدينيّة في العهد المدني، والنظام الإعلامي والسياسي في ذلك العهد، وموقع الحرب النفسية منه، ونظام الحكم للدولة الإسلامية الأولى في المدينة، ودور الدولة والإعلام في تثبيت نظام الحكم والأنشطة الإعلامية الإسلامية، والحرب النفسيّة، وطبيعة مبادئ النظام الإعلامي ودورها في السّلم والحرب.

أمّا الباب الثاني فقد وقفه على الحرب النفسية وأهمية تحديد مقاصدها، وموقعها من الحرب الشاملة، وتصنيفاتها في حالتي السلم والحرب، وأهدافها بالنسبة للجمهور الموجهة إليه، وشواهد من وضوح تلك الأهداف في الحرب النفسية قديمًا وحديثًا، وأهداف الحرب النفسية الموجّهة ضد الإسلام من المشركين.

وجعل الباب الثالث لوسائل الحرب النفسية في العهد المدني وأساليبها، وقد بيّن وسائلها في القرآن الكريم، والسّنة المطهّرة، والمسجد، والخطابة، والبعثات، والوفود، والعهود، والمبايعات، والعملاء السرّيين، والدعاة، والاجتماعات، والنّدوات، والشّعر، والرسائل، والسرايا، والغزوات، والحروب، والقصص، والأسواق، والإعلام، والألوية. ثم تناول كذلك أساليب الحرب النفسية، وذكر في هذا الصدد المنافقين واليهود والمشركين، وأسلوب الإشاعات والأكاذيب، ووضّح أنواع الشائعات ومنها أسلوب المجادلة وأسلوب السخرية والاستهزاء، وأسلوب الدعاية المغرضة، وأسلوب إثارة الرعب والتّثبيط وتحطيم المعنويات.

ثم ختم دراسته بخاتمة شاملة لنتائج الدراسة ومفصّلة لنقاطها، ثم أورد توصيات وملاحق وفهارس للموضوعات وللمصادر والمراجع العربية والأجنبية.

العنوان: كبير المقام (مجموعة قصصية).
المؤلف: حسين علي حسين.
الناشر: دار ابن سينا للنشر والتوزيع، ط2، 1414هـ/ 1993م، 99ص.


حسين علي حسين



غلاف الكتاب

جاء الكتاب يحمل عنوان إحدى القصص الخمس عشرة التي تحتويها المجموعة، وهي: برودة، طابور صباحي، الحواجز، وجهان، انتظار، الطّنين، المطرُ ينهمرُ بغزارة، الميدان، العطش، نداء بمباي، الدّرس، الفأر، الظلّ، الخيمة.

أمّا قصة كبير المقام هذه، فقد بدأها بوصف دقيق أظهر فيه بطلها «حميدان» في ميدان الصّفاة صباحًا يبيع الرّطب، وسعر المقطف ريالٌ واحدٌ، وقاطعه أحدهم فغضب وسار باتّجاه الرّجل ووصفه بالجنون محتجًّا على تصرّفه، وقذف الرجل المقطف إلى رأس حميدان وفرّ فتبعه حميدان. وهنالك المتوكّل الذي أجّل نزوله للسّوق. وقد تغيّرت حارته، وهو قد فقد حرصه على رصد التطوّر. إذ كانت معكال من الطين، والآن حل الإسمنت مكانه. وهو يهوى الجلوس في داره، وبدأ يفكّر: لمن يجمع المال وهو عاقرٌ وزوجته كذلك، وفي يوم، جاءت بقرة إلى داره فانزعج وبدأ يسأل الجيران عنها فلم يجد صاحبَها، ورجع إلى داره وبدأ يحتسي القهوة وحرّك نار الموقد، وبدأ يتأمّل ودلق كوب الماء وتطاير رماد الموقد. خرج ووجهته شقوق المنازل والمزاريب وذكرته الرحلة في تلك الأزقة بتراب المعابر. وتمنّى السجن، لأن الماء والهواء وأضواء النيون فيه، وسيتساوى عندئذ مع جيرانه السّابقين. وقابل «كبير المقام» وأخبره بحاله وأمراضه المتعدّدة وهمومه، وأنّه أتى إلى هنا لتفريق همومه المتراكمة. وأخذه كبير المقام معه في سيارته، ولفتهما الشوارع المسفلتة والعمارات تطلّ عليها. ورأى أن الزّمن الذي يؤخذ من دون رأيه قد جاء، ولكن صعوبة الأمر عنده العودة لأطلال معكال وحديقة دخنة، والأزقة الطّينية، وحين ركب السيارة الضخمة اللامعة، كانت الغيوم تسدّ الأفق، فشعر كأنه دخل إلى مصيدة وخنقه هواء المكيّف وأحسّ أن تلك الأغنية التي يسمعها كأنّها معلّبة مثل هواء المكيّف. وغدا له كبير المقام مخيفًا فأحسّ بالاختناق.

أمّا بقية القصص الأخرى، فإنها كذلك ممتلئة بالهموم والشدّة، ولعل عناوينها توحي بذلك، فمثلاً هنالك قصص برودة، والفأر، والعطش، والحواجز، ونداء بمباي الذي هتف لصاحب الرسالة في نفسه، كي يعود إلى بمباي ليراها ويتنفس هواءها، ولكنه من دون أجواء بمباي لن يعود إليه وعيه. وقد أُخذ إلى المستشفى بسيّارة الإسعاف، وهنالك لفّوه بكفن أبيض وأدخلوه إلى الهواء البارد المعلّب. فكلّ - أو معظم - هذه القصص، تتحدث عن الشدّة والكآبة والمأساة. والملاحظ كذلك أنّ الأشخاص في القصة ليسوا كثيرين، وأحداث القصة تجري بسرعة، والمواقف فيها تنتقلُ بسرعة وتتغيّر. وفي الغالب فإن الشدّة والمأساة قد أطبقتا على معظم هذه القصص مما يصبغ إحساس قارئها بدفقة من الألم والحزن.

أمّا أسلوب الكاتب، فقد جاء واضحًا سهلاً ولغته كذلك جيّدة معبّرة عما يتناوله من أحداث. ولعلّه كذلك قد أفلح في تصوير أحداثه أحسن تصوير وأخرجها بصورة جذّابة. وعلى أن المقاطع والفقرات في القصص قصيرة، فإنّها تامّة متصلة اتصالاً يجعلك مشدودًا لا تشعر بملل ولا انقطاع للأحداث، وقد اكتملت في معظمها عناصر القصة القصيرة مما جعلها تبدو أمامك في صور حيّة متحركة.



تجربتي في الكتابة والصحافة والترجمة

عيسى فتوح

ولـدت في بلدة «مشتى الحلو» ـ منطقة صافيتا ـ محافظة طرطوس بسورية في 1935/6/13م، وبعـد عشـر سنوات من هذا التـاريخ نكبت بوفـاة والدي المفاجئة، وهو في ريعان الشباب، تاركًا في عهدة والدتي ستة صبيان وابنتين، تصارعنا أمواج الحياة، وعواصفها العاتية.

لم يكن في بيتنا يومئذ كتب أو مكتبة، ولا في بلدتنا وضواحيها مدارس بالمعنى الصحيح، ومع ذلك ترددت مع اثنين من إخـوتي الصغـار إلى مـدرسة خاصة في «الكفرون»، كانت أشبه بحبس ضيّق، وتفتقر إلى المعلمين الأكفياء، وإلى النور والماء والهواء.

في عام 1949م غادرت هذه المدرسة، وقصدت المدرسة الرسمية الوحيدة التي كانت في مشتى الحلو، وبعد إجراء اختبار لي، رأت إدارتها أن مستواي العلمي يناسب الصف الخامس الابتدائي، فقررت أن تلحقني به، وفي العام نفسه نلت الشهادة الابتدائية التي كانت أول درجة في السلّم الطويل الذي سأرتقيه باطّراد حتى نهاية دراستي الجامعية عام 1961م.

ولحسن الحظ أنه تأسست في مشتى الحلو عام 1950م أول مدرسة ثانوية خاصة باسم «ثانوية ابن خلدون»، فانتسبت إليها ودرست فيها سنة واحدة، ثم تأسست إلى جانبها ثانوية أخرى باسم «ثانوية حزّور»، فانتقلت إليها، ونلت منها شهادة الدراسة الإعدادية عام 1953م.

فكرت في أن أصبح معلّمًا في المدارس الابتدائية، لأتغلّب على مشكلة المال التي كانت تعترضني، وتقف حجر عثرة في سبيل تحصيلي الدراسي، ولكن أخي الأكبر ـ الذي حلّ محل والدي في إعالة الأسرة الكبيرة ـ رفض ذلك رفضًا باتًا، وأصرّ على أن أتابع دراستي الثانوية قائلاً لي: «ألق عصاك في الجوّ وعند نزولها فرج»، وتطوع ـ جزاه الله خيرًا ـ أن يترك الدراسة كي يعمل أي عمل في مدينة دمشق، من أجل تعليمي وتعليم إخوتي الباقين.

في خريف عام 1954م دعاني أخي الأكبر إلى دمشق لمتابعة دراستي الثانوية، وأدخلني ثانوية «الآسية» الخاصة، فمكثت فيها سنتين نلت في نهايتهما الشهادة الثانوية «فرع الآداب واللغات». وهنا أصبحت أمام مفترق طرق، أو أمام خيارين: إمّا أن أدرس الحقوق وأعمل في الوقت نفسه لمساعدة أخي الأكبر في تعليم إخوتي الباقين، وإما أن أخوض امتحان المعهد العالي للمعلمين في الجامعة السورية، فإذا فزت به حصلت على مرتّب شهري، وتفرغت للدراسة دون أن أضطر للعمل، ولحسن الحظ أنني نجحت في هذا الامتحان الصعب الذي يتيح لي دراسة اللغة العربية في كلية الآداب مجانًا. وتفرغت للدراسة، ولكنّني، بعد مضي سنتين في الجامعة، اضطررت لأن أعطي بعض الدروس في المدارس الخاصة لزيادة دخلي، كي أستطيع مواجهة النفقات التي كانت تزداد وتتعاظم كلّما تقدم إخوتي في دراستهم، وكان علي أن أجدّ وأجتهد وأسهر الليل خوف الرسوب الذي لم أعرفه طوال حياتي.

لقد اقتضت ممارستي العمل في التدريس ـ إلى جانب الدراسة الجامعية على مدى السنوات الثلاث الأخيرة ـ أن أضاعف الجد والاجتهاد في الدراسة، وأتاحت لي فرصة شراء أكبر كمية ممكنة من المصادر والمراجع التي أحتاج إليها في دراستي، وتكون نواة مكتبتي في المستقبل. كل هذا جعلني أتفوّق وأنال رضى أساتذتي في كلية الآداب وتقديرهم وإعجابهم، وفي طليعتهم: الأستاذ سعيد الأفغاني، والدكتور شكري فيصل، والدكتور صبحي الصالح، والدكتور صالح الأشتر الذين غيبهم الموت جميعًا.

في عام 1960م نلت شهادة «الليسانس» في آداب اللغة العربية وعلومها من كلية التربية، وبعدها تهيأت لأصبح مدرّسًا، فغادرتُ دمشق في سبتمبر/ أيلول 1961م، وتنقلت بين ثلاث محافظات هي: إدلب وطرطوس واللاذقية، إلى أن عدت نهائيًا إلى دمشق في خريف عام 1969م واستقررت فيها لأعمل في التدريس والصحافة والأدب.

كيف بدأت الكتابة؟

كنت منذ مطلع الشباب مولعًا بالقراءة، على ندرة الكتب في البيت، ولما انتقلت إلى دمشق عام 1954م صرت أوفر من مصروفي الزهيد بعض الليرات لأشتري الكتب الأدبية، ولا أزال حتى اليوم أحتفظ في مكتبتي الكبيرة التي تربو على ستة آلاف كتاب، بأول كتاب اشتريته عام 1954م، لكن الشراء لم يشبع نهمي إلى

القـراءة، فـصـرت أتـردد إلى دار الكتب الـوطنيـة «الظاهرية» لأستعير الكتب وأقرأها، وكان لهذه المكتبة فضل كبير في تكوين ثقافتي وإغنائها.

وفي عـام 1956م تعرفت إلى الشـاعـر أحـمـد الجندي (1911-1990م) من طريق أخي الأكبر، ولما أخبره أنني أهوى الأدب والكتابة دعاني إليـه - وكان يومئذ يشرف على تحرير الصفحة الأدبية في جريدة «الاتحاد» - وقال لي: «خذ هذه الورقة وهذا القلم، وادخل الغرفة المجاورة، واكتب لي موضوعًا بعنوان «مشاهدات قروي في دمشق»، وبعد نصف ساعة عدت إليه حاملاً المقال المطلوب، فقرأه وأعجب به وقال: «سأنشره لك غدًا في الجريدة، وأتنبأ بأنك ستغدو أديبًا»، ومازلت أحتفظ بهذا المقال الذي نُشر في العدد رقم 391 وتاريخ 14 تشرين الأول/أكتوبر 1956م من جريدة «الاتحاد»، وجاء فيه:

«هبط إلى دمشق غريبًا، واعدًا نفسه أن يحقق حلمًا كان يثور في نفسه منذ عهد بعيد.. دمشق تلك المدينة المضطجعة على كتف «قاسيون»، تكسوها الظلال الوارفة أبهى وشاح، وأجمل زينة.. إنه قروي بسيط اللباس، رتيب الهيئة، ساذج الطباع، رأى المدينة لأول مرة فأبهجته شوارعها الممتدة، وحدائقها الغناء، وأضواؤها الساطعة، ومحلاتها المتلألئة بالكهرباء..».

لقد أكسبني هذا التشجيع دافعًا قويًا إلى مواصلة الكتابة والنشر، لذلك ما إن دخلت الجامعة حتى تعرفت إلى مجموعة من هواة الأدب، وشكلنا معًا رابطة كان منها: صابر فلحوط، ومحمد عمران، وملاحة الخاني، وعادل أبو شنب، وإسكندر لوقا، ووليد قنباز، وجورج جبور، وغادة السمان، وغيرهم. واستطعنا بوساطة الزميل إسكندر لوقا - الذي كان يعمل محررًا في جريدة «الجمهور» - أن نصدر فيها صفحة خاصة بطلاب الجامعة تكون منبرًا لهم ليكتبوا وينشروا فيها قصائدهم ومقالاتهم وتعليقاتهم وخواطرهم وقصصهم.

لم أكتف بالنشر في جريدة «الجمهور»، بل رحت أنشر أيضًا، وأنا على مقاعد الجامعة، في جرائد: الأيام، والنصر، وصوت العمال، ودمشق المساء، والمختار، وحمص، والأخبار، والوحدة، والنقّاد، ومجلتَيْ الدنيا والشعلة. وبعد أن تخرجت في الجامعة عام 1961م فُتحت أمامي أبواب النشر في صحف: البعث، والثورة، وتشرين، والموقف العربي، ومجلات: الثقافة، والضاد، والجندي، والفتوة، والشرطة، وصوت المعلمين، والحرفيين، والينبوع، والخمائل، والنعمة، والفرسان، والموقف الأدبي، والتراث العربي، والآداب الأجنبية، والأسبوع الأدبي، ومجمع اللغة العربية، والمعرفة، والحياة المسرحية، والمعلم العربي، وبناة الأجيال، والمرأة العربية، والكلمة، واليقظة، وفنون، وأسامة، والطليعي وغيرها في سورية.

ثم أخذت أنشر في مجلات الوطن العربي على امتداده مثل: الأديب، والمشرق، والآداب، والعلوم، والتربية، والمعارف، والورود، والكلمة، ودنيا المرأة، والعرفان، والمسرة، والتمدن في لبنان، والأقلام، وآفاق عربية، والتراث الشعبي، والطليعة الأدبية، والمورد، وجامعة الموصل، ومجلتي، والمزمار في العراق، والعربي، والكويت، والبيان في الكويت، وأفكار، والمجلة الثقافية، واليرموك في الأردن، وأقلام، ودعوة الحق، والإرشاد في المغرب، والفكر، والحياة الثقافية، وقصص في تونس، والثقافة العربية، والناشر العربي، والفصول الأربعة في ليبيا، والخفجي، والقافلة، والجيل، والجيل الجديد، والمجلة العربية، والفيصل، والتوباد، في المملكة العربية السعودية، والتربية، والدوحة في قطر. وقد جمعت القليل من هذه المقالات والأبحاث في كتب، ولا يزال الكثير منها متفرقًا في بطون المجلات المذكورة.

مرحلة الترجمة

في عام 1975م وقع في يدي ديوان شعر باللغة الإنجليزية للأطفال، للشاعرة البلغارية «ليدا ميليڤا»، بعنوان «عندما جاءت عصافير الدوري»، فلما قرأته أعجبت به، ورأيت أن أترجمه، وبعد أن انتهيت من الترجمة عرضته على وزارة الثقافة فوافقت على نشره، وكتب مقدمته الشاعر سليمان العيسى.

لقد استهوتني الترجمة للأطفال، وآثرتها لكي أبقى على صلة وثيقة باللغة الإنجليزية التي انقطعت عنها بعد تركي الجامعة، ولأقدم من خلالها أجمل القصص والحكايات لبنيّاتي الأربع: لينا، ورنا، ومايا، وميرنا، ولذلك أهديتهن ديوان «ليدا ميليڤا».

عكفت على ترجمة قصص الأطفال بين عامي 1975-1979م، فأصدرت لي وزارة الثقافة في سورية خمسة كتب هي: «عندما جاءت عصافير الدوري» 1975م، «مدرسة القلق» 1976م، «الفأس الذهبية» 1977م، «دنيا الحكايات» 1978م، «النمس الوفي» 1979م، كما أصدرت لي وزارة الثقافة والإعلام في بغداد كتابًا بعنوان «عشر قصص للأطفال» 1980م، ومكتبة ميسلون بدمشق كتابًا بعنوان «المزمار العجيب» 1982م، ثم توقفت عن الترجمة لأنصرف إلى الكتابة والتأليف لاعتقادي أن المترجم يبقى دون مرتبة المؤلف. ولايزال لدي فيض من القصص المترجمة التي أوالي نشرها في مجلة «الجيل الجديد» في المملكة العربية السعودية.

مرحلة التأليف

كان المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في سورية قد كلّف الأديب المهجري نظير زيتون - وكان قد عاد إلى مسقط رأسه في حمص - تأليف كتاب عن أديب إسحق (1856-1884م)، ومضت السنوات دون أن يقوم الرجل بهذه المهمة، فرأيت أن أحل محله في تأليف هذا الكتاب ولو لم أُكلَّف ذلك رسميًا، وبعد أن انتهيت منه - وكنت في مدينة بانياس على الساحل السوري - رحت أبحث عن ناشر له فلم أوفق، إلى أن تبرّع الصديق نزار الزين صاحب مجلة «العرفان» في بيروت - وكنت أحد كتّابها الدائمين - بإصدار هذا الكتاب في عدد ممتاز عام 1976م، فكان صدوره بداية مرحلة التأليف عندي.

كان النشر في الصحف والمجلات العربية يستقطب كل نشاطي الأدبي، فلا يمضي شهر دون أن يكون لي مقال - أو أكثر - منشور في هذه المجلة أو تلك، وكانت مقالاتي في الغالب تدور حول نقد الكتب التي تُهدى إليّ، أو دراسة سير وآثار الأدباء والأديبات الذين طواهم الموت ولفهم النسيان، بعد أن رحلوا، لذلك كنت أرى من واجبي أن أكتب عنهم إما إثر وفاتهم، أو بمناسبة مرور عدة سنوات على هذه الوفاة. وعلى هذه الأرضية بنيت كتبي الثلاثة الأخيرة: «شموع في الضباب» الذي صدر عن «دار المنارة» في دمشق وبيروت 1992م وضم عشرين دراسة عن عدد من الأدباء السوريين هم: رزق الله حسّون، نعمان قساطلي، جبر ضومط، داود قسطنطين الخوري، قسطاكي الحمصي، معروف الأرناؤوط، محمد سليم الجندي، فخري البارودي، فؤاد الشايب، الدكتور سامي الدهان، سامي الكيالي، الدكتور جميل صليبا، خليل الهنداوي، ميشال مغربي، جورج صيدح، شفيق جبري، يوسف الخال، عمر أبو ريشة، أحمد الجندي، وداد سكاكيني.

أما الكتاب الثاني فهو «من أعلام الأدب العربي الحديث» الذي صدر عن «دار الفاضل» بدمشق 1994م، وضمّ خمسًا وثلاثين دراسة عن عدد من الأعلام السوريين والعرب هم:

نجيب العازوري، ولي الدين يكن، شكري غانم، جبران، فليكس فارس، إلياس طعمة (أبو الفضل

عيسى فتوح

تجربتي في الكتابة والصحافة والترجمة

الوليد)، خليل شيبوب، محمد كرد علي، حبيب زياد، وديع البستاني، خليل مردم بك، كرم ملحم كرم، الدكتور بشر فارس، حبيب كحالة، الدكتور زكي المحاسني، كمال ناصر، محمود تيمور، موسى كريم، جورج كعدي، أمين نخلة، شفيق المعلوف، أحمد الصافي النجفي، قيصر سليم الخوري (الشاعر المدني)، أبو سلمى (عبدالكريم الكرمي)، إلياس ندور، بدوي الجبل، سعيد الجزائري، محمد المبارك، حسني فريز، الدكتور عيسى الناعوري، ميخائيل نعيمة، أحمد عبيد، توفيق يوسف عواد، إليان ديراني، فؤاد أفرام البستاني، رياض المعلوف.

والكتاب الثالث هو «أديبات عربيات»، صدر عن مطابع الشبيبة بدمشق 1994م، وضمّ ثلاثًا وثلاثين دراسة عن طائفة من الأديبات العربيات هن: أسمى طوبي، الكسندرة الخوري أفرينوه، جليلة رضا، جميلة العلايلي، جهان غزاوي عوني، جوليا طعمة دمشقية، روحيّة القلّيني، روز عطاالله شحفة، زهور ونّيسي، زينب فواز، سلمى صائغ، سلوى سلامة أطلس، سلوى محمصاني مومنة، عادلة بيهم الجزائري، عزيزة هارون، كلثوم عودة ڤاسيلڤا، لبيبة هاشم، ماري عجمي، ماري يني عطاالله، مريانا مراش، مقبولة الشلق، ملك حفني ناصف (باحثة البادية)، مي زيادة، ناديا نصار، نازك العابد بيهم، نبيهة حداد، نجلاء أبي اللمع معلوف، نديمة المنقاري الصابوني، هدى شعراوي، هيام نويلاتي، وداد سكاكيني، وردة اليازجي.

أما كتابي «دراسات في الأدب والنقد» الذي صدر عن اتّحاد الكتّاب العرب بدمشق عام 1991م، فقد ضمّ سبع عشرة دراسة نقدية، اقتضت مني بذل الكثير من الوقت والجهد والغوص في بطون المصادر والمراجع العربية والأجنبية والمترجمة التي اقتطفت منها خلاصة ما فيها، مما رأيت أنه ينفع الأدباء والنقاد وطلاب الدراسات العليا، حتى جاءت هذه الدراسات قريبة من الكمال.

وعلى أنه ليس ثمة وشائج متينة، وصلات وثيقة بينها، فإنها تنتظم في سلك واحد هو سلك النقد الموضوعي البنّاء الذي يرشد الكاتب - ولاسيما الكاتب المبتدئ - إلى طريق الأدب الصحيح، ويقوّم أسلوبه، ويقوده إلى توخي التأني والدقة في الكتابة، وتهذيب العمل الأدبي باعتدال، دون أن يستسلم للعواطف الهوجاء التي قد تسيء إلى عمله الأدبي، وهذه الدراسات هي: أدب الاعترافات، الخلق الفني في الأدب، التنقيح في الأدب، فن كتابة القصة، طبيعة العاطفة الأدبية، الافتراض أو الاحتمال في الأدب، الوحي أو الإلهام في الأدب، الإلهام وتنوع الطبيعة، الوصف في الأدب، علاقة الوصف الأدبي بالموسيقى، علاقة الوصف الأدبي بالروائح والطعوم، علاقة الوصف الأدبي بالصورة، علاقة الوصف الأدبي بالتحليل، ترجمة الشعر، بين السيرة والتاريخ، الأدب وصلته بالأخلاق. وقد حاولت في هذا البحث الأخير أن أربط الأدب بالفضيلة والأخلاق السامية، فكلمة أدب إنما اشتقت من التأديب، ولا معنى لأدب لا يقيم وزنًا للأخلاق الفاضلة، بشرط ألاّ يستحيل الأدب المتّسم بالأخلاق إلى مواعظ وأوامر ونواه، فلا شيء أقتل للأدب الرفيع من أن يوضع في قوالبَ جامدة من الوصايا والإرشادات.

لا أبالغ إذا قلت: إنّني كنت، ولا أزال، من أنشط الكتاب وأكثرهم دأبًا ومتابعة، واطّلاعًا واتصالاً بالأدباء العرب على تعدد أقطارهم، وقد توثقت عرا المودة والصداقة بيني وبين عدد لا يستهان به منهم، وتبادلت معهم ما لا يقل عن ألف رسالة، دار معظمها حول قضايا الأدب وشؤونه والثقافة والفكر والفن، ويكفي أن أذكر أنني تلقيت من الأديب الأردني الدكتور عيسى الناعوري (1918-1985م) وحده قرابة 326 رسالة على مدى خمسة عشر عامًا (1970-1985م). وقد قمت مؤخرًا بجمع هذه الرسائل الأدبية وترتيبها وتصنيفها بحسب ورودها إلي، وهي رسائل قيّمة وعزيزة علي، قد يصلح بعضها لأن يكون موضوع دراسة أو أطروحة جامعية في المستقبل، أرسلها لي كل من الأدباء والأديبات: عيسى الناعوري، شكري فيصل، عبدالسلام العجيلي، زكي وإلياس قنصل، أنطونيوس بشير، إبراهيم القطان، وديع فلسطين، نبيه سلامة، عبدالله زكريا الأنصاري، فاضل السباعي، فريد جحا، وليد إخلاصي، عمر بهاءالدين الأميري، جورج سالم، سليمان العيسى، أحمد دوغان، وحيد الدين بهاء الدين، يعقوب أفرام منصور، سامي الكيالي، عبدالله يوركي حلاق، ميشال مغربي، جورج صيدح، يعقوب العودات (البدوي الملثم)، يوسف الخال، رياض نجيب الريس، رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي)، شكراللّه الجر، حسني فريز، روكس العزيزي، عبدالقادر عياش، ألبير أديب، حليم بركات، حامد حسن، كميل حشيمة، عبدالعزيز الرفاعي، مصطفى أجماهري، محمد الطوبي، محمد علي الرباوي، مصطفى يعلى، العربي بن جلّون، رشيد الذوادي، نسيب نشاوي، إدڤيك شيبوب، سلمى الحفار الكزبري، هند هارون، أسمى طوبي، وداد سكاكيني، غادة السمان، وغيرهم.

بقي أن أقول إنني قدمت عشرات الأحاديث الإذاعية في إذاعتيّ دمشق ولندن، وألقيت عشرات المحاضرات في العديد من النوادي والمراكز الثقافية في دمشق، وحلب، وحمص، وحماة، واللاذقية، وطرطوس، ودرعا، والسويداء، وصافيتا، وطرابلس (لبنان) حول المقاهي الأدبية، والصالونات النسائية الأدبية، والمرأة والصحافة، ونهضة المرأة العربية السورية، وأدب الأطفال في سورية، وشعر الجلاء، وشعر حرب تشرين/أكتوبر، والشهداء في الشعر وغيرها مما لم يتسنَّ لي جمعه في كتب.

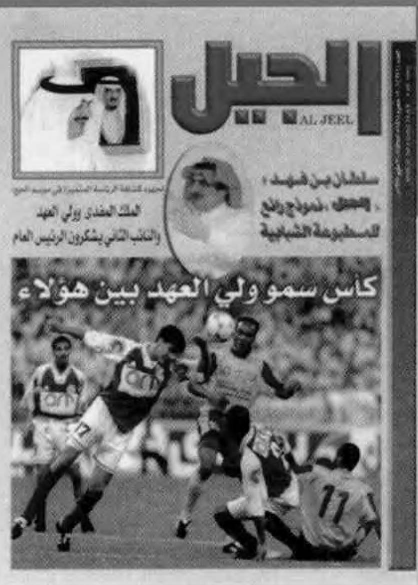
كما شاركت في مؤتمر الأدباء العرب الذي عقد في دمشق عام 1979م، ومثّلت اتحاد الكتّاب العرب في المؤتمر الذي عقد في مدينة «فيدن» ببلغاريا حول أدب الأطفال في نيسان/أبريل 1979م، وزرت بلدان: بلغاريا، وألمانيا، وهولندة، وبلجيكا، وإسبانيا، وجلت في الأندلس، وكتبت عدة مقالات عن هذه الجولة التاريخية في مدن ڤلنسية، وغرناطة، وقرطبة، وإشبيلية، وطليطلة، ومالقة.

كذلك أعدت نشر وإصدار ثلاثة من أهم الكتب التاريخية، هي: «خزائن الكتب في دمشق وضواحيها»، و«خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا» لحبيب زيات، و«الروضة الغناء في دمشق الفيحاء» لنعمان قساطلي، والتقديم لها، وهي كتب قيّمة ونادرة ومفقودة.

لقد قمت بكل هذه الجهود وأنا أعمل مدرّسًا حتى عام 1982م، ثم محررًا في مجلّتي «المعلّم العربي» بوزارة التربية، و«صوت المعلمين» في نقابة المعلّمين، وأخيرًا أمينًا في مجلة «بُناة الأجيال» التي تصدر عن نقابة المعلّمين في سورية.

وعلى الرغم من أنني أُحلْت إلى التقاعد من شهر حزيران/يونيو 1995م، فمازلت أعمل مستشارًا للتحرير في مجلة «بُناة الأجيال» نفسها، وقد نشرت فيها طائفة من أبحاثي مثل: تاريخ الطباعة في الوطن العربي، والتجمعات الأدبية في سورية بين عامي 1920-1969م، وصرّوف ونمر والمقتطف، وتاريخ مكتب عنبر بدمشق، وغيرها.

في الأسواق .. الآن



الجيل
AL JEEL

الصحافة الشابة .. لكل الأجيال

تقرأ في هذا العدد:

- كأس ولي العهد معقودة بين هؤلاء؟
- مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم.. التعامل مع الحاضر بلغة المستقبل.
- أحمد زايد.. مدافع الرياض: فرصة الجابر في الرياض أكبر منها في الهلال.
- لاعبو الأندية الأجانب في الميزان.
- أبناء نادي الرياض يحتفلون بافتتاح أول مدرسة لناديهم.
- سليمان الصقير: أمام ريفالينو.. لماذا كنت أغلق الجهة اليسرى؟
- عبيد الشمري: الأخضر يدع في مونديال فرنسا.
- الشاعر فوزي الدهان: لا يعيب الشعر احتفاؤه بالحسي.
- الصورة الفنية في شعر المرأة العربية.
- الفنان أيمن زيدان: نهاية رجل شجاع.. بداية نجاحي.
- الشيخ الشعراوي: في المدينة انطلقت الدعوة من دار إيمان لا أمن فقط.
- بمجوهراتك القديمة تستطيعين مسايرة الموضة.

السلحفاة البحرية

غواصة حية عملاقة

د. كارم السيد غنيم

السلاحف البحرية Turtles حيوانات من ذوات الدم البارد، تنتمي لرتبة السُّلَحْفِيَّات Order: Chelonia في طائفة الزواحف class: Reptilia، وهي أوثق صلة بالتماسيح من صلتها بالعظاءات والسحالي والأفاعي. الجسم مغطى تغطية كاملة بدرقة قوية، تبرز منها الرأس والأطراف الأربعة (طرفان أماميان وطرفان خلفيان) والذيل فقط. تسمى العلبة العظمية القرنية التي تحيط بالجسم أحيانًا «الدرقة» shell، ومن ثم يسمى نصفها العلوي «التُّرْس» أو «الذَّبل» carapace، ويسمى النصف السفلي «الوقاء»، أو «الدرع»، أو «الصُّدْرة» Plastron. وقد يطلق اسم الدرقة على علَبة الجسم بكاملها أحيانًا. وتتألف الدرقة من صفائح عظمية تغطيها صفائح قرنية، تختلف مساحاتها من نوع إلى نوع. وللسلاحف فكوك قوية حادة يمكنها أن تقطع النباتات الخشنة (إذا كانت عاشبة)، أو تفترس الحيوانات الأصغر حجمًا منها (إذا كانت لاحمة)، لكنها تفتقر لوجود أسنان، فتظهر أفواهها بمظهر مناقير الطيور.

وتنتمي أغلب السلاحف البحرية لفصيلة اللَّجْئيات Family: Cheloniidae التي تضم اللجأة والحنفاء وسلحفاة البحر الخضراء والسلحفاة الجلدية، وغيرها. ومن أهم هذه الأنواع من حيث القيمة الاقتصادية: السلحفاة الخضراء Chelonia mydas التي تمثل المادة الأساسية في حساء السلاحف. ودرقة السلحفاة البحرية منضغطة، وأطراف الجسم متحورة لتتكيف مع السباحة في الماء، فعظام الأطراف مفلطحة، متسعة، ممتدة إلى الجانبين في شكل مهاميز Spurs. عظام الكاحل والعظام الرسغية ملتحمة مع بعضها، والأصابع موجودة داخل مجاذيف (زعانف) Flippers عديمة المخالب. تعيش هذه السلاحف عادة في المياه الدافئة، وقد تحملها التيارات المائية إلى البحر المتوسط، والشواطئ الأوربية، والشواطئ الأطلسية الشمالية الأمريكية.

ومن أشهر السلاحف البحرية التي حظيت بالدراسة والبحث،: السلحفاة الجلدية الظهرLeather back turtle، وتسمى أيضًا Luth، واسمها العلمي هو Dermochelys coriacea. وهي من حيث التصنيف تقع في فصيلة السلاحف الجلدية Family: Dermochelidae. أما الأنواع الأخرى فتقع في فصيلة اللجئيات. جسمها من أعلى قلبيّ الشكل، ويتكون الذيل من عُظَيْمات أدمية Dermal ossicles، غير ملتحمة مع الفقرات والضلوع، وللجلد مظهر قرنيّ بني اللون، يحمل سبعة أعراف طولية. وتعد هذه السلحفاة أضخم السلاحف البحرية، ومن عجائبها وجود الغدد الدمعية التي تفرز مادة زلالية كبياض البيض، وتحمي العيون من أضرار ملوحة مياه البحار، وقد تنظفها من الرمال التي تذورها الرياح على العيون في رحلة التعشيش. ومع أن السلاحف مخلوقات استوائية (مدارية)، بالدرجة الأساسية، إلاّ أن السلاحف الجلدية تنتشر في جميع أجزاء العالم ما عدا المناطق القطبية.

وإذا كان وزن الأنثى الناضجة Mature female يزيد أساسًا على 660 رطلا (293 كج)، فإن أضخم فرد معروف لدى الباحثين من أفرادها، هو ذلك الذكر اليافع الذي وقع في شباك الصيد خارج ويلز Wales، وكان



سلحفاة بحرية: رأس ذو عيون وخطم قصير، وأرجل تحولت إلى ما يشبه مجاذيف القوارب

وزنه 2015 رطلاً (895,6 كيلو جرام).

وقد كتب سكوت أ. إكرت مقالة في مجلة «التاريخ الطبيعي» عدد مارس/ آذار 1992م، شرح فيها بعض ما قام به من دراسة ميدانية للسلحفاة الجلدية بمساعدة زوجته كارين. أما سكوت، فهو بيولوجي متخصص في حماية البيئة بمركز خدمة تربية الأسماك الوطني، وهو منسق عمل فريق إنقاذ السلاحف البحرية الباسيفي، وأما زوجته فهي محرر مشارك في مجلة السلاحف البحرية التي تهتم بمتابعة وضع السلاحف البحرية المهددة بالانقراض في العالم. ولقد بدأ مشروع سكوت سنة 1980م بوساطة الباحث جيمس رتشاردسون، مدير برنامج بحوث السلاحف البحرية في جامعة جورجيا الأمريكية، وفيما يلي موجز لما كتبه سكوت إكرت في دراسته للسلحفاة البحرية الجلدية:

لقد ساد الاعتقاد بأن الحيوانات الثديية Marine mammals، مثل الحيتان، والفقمات (عجول البحر) عديمة الآذان، والفقمات الويدلية Wed-dell seals لا يباريها مخلوق في الغوص والغطس،، إذْ تم تسجيل أعمق غطسة لهذه الفقمة الأخيرة - على سبيل المثال -، فوجدت 2000 قدم، وسجلت أعمق غطسة للفقمة الفيلية Elephant seal، فوجدت 4000 قدم، وكانت أعمق غطسة لحوت العنبر Sperm wheal تزيد على 7000 قدم، وماذا بعد؟ إن البحوث البحرية الحديثة تقدم اقتراحًا بضم أنواع من الزواحف إلى قائمة أعظم غطاسي وغواصي المحيط الذين يتنفسون الهواء. وبينما كان الباحث سكوت إيكرت وزوجته كارين يقيسان غطسات السلاحف البحرية جلدية الظهر قرب سواحل جزيرة سانت كرويكس Saint Croix، وهي من الجزر البكر في الولايات المتحدة، عثرا على سلحفاة أنثى وزنها 650 رطلا، وقاسا عمق غطسها فوجداه 3330 قدما، وبقيت السلحفاة مغمورة مدة 37 دقيقة. ولسوء الحظ، فإن هذا السلوك غير المتوقع للسلحفاة استمر إلى ما هو أبعد من إمكانات أجهزة التسجيل التي كان يستعملها سكوت وزوجته، وإنْ كانت هذه الأجهزة قد قاست الحد الأقصى الذي تستطيعه وهو عمق 4265 قدما تقريبًا. وهذا السلوك يشير إلى التحولات الفريدة التي حدثت في هذه الحفريات الحيّة Living fossils ومكّنتها من المعيشة في المحيط المفتوح.

أسلوب الحياة غير العادي

للسلاحف الجلدية أسلوب في الحياة يعد غير معتاد بين السلاحف، إذْ يقتصر وجودها ومعيشتها تقريبًا على

المواطن البلاجية Pelagic habitats، أو المحيطات المفتوحة، وفي حين ترعى أنواع السلاحف البحرية الأخرى في المياه الضحلة قرب الشواطئ، فإن السلاحف الجلدية نادرًا ما تقترب من البر لأي سبب آخر غير التعشيش Nest-ing، أي بناء الأعشاش. تأخذ الأمواج المتكسره على الشاطئ صغار السلاحف التي خرجت حديثًا من البيض، وتدخل بها المحيط، وبعد ذلك نادرًا ما يرى الإنسان هذه السلاحف مرة أخرى، حتى يصل حجمها إلى ما قبل اليفوع Preadult. هناك حفنة قليلة فقط من السلاحف الفتية قابلها الباحث سكوت وزملاؤه، ولم يكونوا بالفعل يعلمون شيئًا عن ذكورها اليافعة. تبلغ إناث هذه السلاحف مرحلة نضجها الجنسي Sexual Maturity في المحيط الأطلنطي، حينما يبلغ طول الدرقة الظهرية 1,37 - 1,45 مترًا، بينما يقل طول إناث النوع نفسه التي تعيش في المحيط الهادئ عن زميلاتها الأطلنطية قليلاً، وهي في هذه المرحلة من العمر. ولا يعلم أحد كم يكون عمر السلحفاة الجلدية عند بلوغها الجنسي، لكن السلاحف البحرية الأخرى المعروفة جيدًا تحتاج إلى 20- 50 سنة من عمرها قبل أن تصبح قادرة على التكاثر للمرة الأولى في حياتها.

موسم التعشيش

عندما يحين وقت التكاثر (الذي لا يزال زمانه ومكانه من الأسرار الغامضة) تقوم الأنثى برحلة إلى شاطئ التعشيش Nesting beach، ويلاحظ أن الإناث تبلغ هذه الأماكن في أوقات متباينة وليس في وقت واحد، وتستغرق زياراتها مدة أربعة أشهر.

وتحت جنح الظلام تترك الأنثى المثقلة Gravid female (أي الحاملة أو الحاوية للبيض) مأواها البحري وتقترب من الشاطئ الاستوائي الذي اختارته (ويعتقد بعض الباحثين أنه شاطئ الولادة Natal beach نفسه الذي كانت فيه وهي لاتزال بيضة وضعتها إحدى إناث الجيل السابق)، ثم تستخدم زعانفها الخلفية الضخمة في صنع حفرة أو عش في رمل هذا الشاطئ، لتضع فيه 70- 90 بيضة، وكل بيضة منها تحتوي جنينًا ومُحًّا (المح Yolk هو المحتوى الغذائي للجنين). يتميز هذا البيض - الذي يقترب حجمه من حجم كرة البلياردو - بأنه رطب، ناعم، طري، جلدي، لا ينكسر إذا سقط في هذا التجويف العميق. وعندما توشك السلاحف على وضع البيض، تفعل شيئًا عجيبًا، إنها تبيض عددًا غير محدد من البيض المتباين الشكل، وهو بيض لا يحتوي على أجنة ولا على مح (ليس إلاّ بروتين الألبيومين Albumin) تضعه الأنثى فوق البيض الحي الذي وضعته في الحفرة منذ دقائق!! إن الغرض من وضع هذا البيض غير الحي لا يزال سرًا غامضًا وغير مفهوم حتى الآن، لكن هذا البيض سيصيبه الجفاف مع مرور مدة الحضانة Incubation period، وربما يفيد وجوده في تعديل نسبة الرطوبة، أو حجم الهواء في غرفة الحضانة (أي حفرة البيض). ومن المحتمل أيضًا ألاّ يكون لهذا البيض أية وظيفة، أو إنه أثر باقي لآلية قديمة غير واضحة لنا اليوم.

بعد أن تنتهي السلحفاة من وضع كمية البيض على شكل كتلة، تهيل عليها الرمل وتملأ الحفرة به، ثم تستخدم زعانفها في ضغط هذه الطبقات الرملية بقوة فوق الحفرة. ثم بعد ذلك، تموّه هذه الحفرة بتسوية الرمال فوقها، حتى لا تظهر أية علامة عليها، فلا يكتشفها الأعداء. وبعد أن تؤدي الإناث هذه الأعمال تعود إلى البحر. وبعد مرور عشرة أيام، تعود السلحفاة مرة ثانية إلى الشاطئ نفسه، وتحفر حفرة ثانية، لتبيض فيها كمية أخرى من البيض - في دورة تتكرر إحدى عشرة مرة خلال موسم التعشيش.

يصل طول الجسم في السلاحف الحديثة الفقس (من الرأس إلى الذّنَب) إلى 8,89 سم، وهي الصغار التي لابد أن تزحف نحو المحيط وتنغمر في مياهه، إذ يأخذ الجوع منها مأخذًا في أثناء هذه الرحلة. وبعد أن تضع الأم آخر كتلة بيض لديها في الموسم، فإنها لا تعود إلى شاطئ التعشيش مرة أخرى مدة سنتين أو ثلاث سنوات!

هجرة السلاحف الجلدية

إذا كانت السلاحف الجلدية تعشش فوق الشواطئ الاستوائية الدافئة (أو الحارة)، فإنها عمومًا لا تعيش في المياه الاستوائية، بيْد أن الأفراد اليافعة عادة ما توجد في مناطق خطوط الطول المعتدلة أو المعتدلة - الباردة إلى الشمال، حيث نيوفوندلاند وبحر بارينتز، وعلى امتداد الساحل الجنوبي البارد لدولة شيلي. صحيح أن السلاحف الجلدية تُشاهَد عبر محيطات العالم، إلا أنها تعيش بأعداد ضخمة حول جزيرة سانت كرويكس





أنواع مختلفة من السلاحف تظهر درقاتها بألوان رائعة تختلف باختلاف نوعها وبيئتها



بالولايات المتحدة، ومن ثم فإن مداها الجغرافي أوسع مدى جغرافي لأي حيوان زاحف حيّ. ولقد تم تسجيل عدد من أطول الهجرات التي تقوم بها الحيوانات من طريق تسجيل هجرة هذه السلحفاة البحرية. وهناك في سورينام على الساحل الشرقي لأمريكا الجنوبية تم وضع علامة مميزة على جسم أنثى في أثناء تعشيشها سنة 1970م، وبعد أقل من سنة واحدة، تم اصطيادها على ساحل غانا، غرب أفريقيا، أي بعد أن قطعت 5950 كيلا عبر المحيط الأطلنطي!

وهناك هجرات مشابهة عقب التعشيش، لكنها أقصر، وتم تسجيل مثل هذه الهجرات لإناث تنتشر في أراضي التكاثر الكاريبية الشرقية، وقد رحلت إلى الشمال على امتداد شواطئ الأطلنطي للولايات المتحدة الأمريكية.

الوجبة الغذائية للسلاحف الجلدية

تتغذى السلاحف الجلدية أساسًا على قناديل البحر (وهي أسماك هلامية Jellyfish). وعلى تنوع قناديل البحر والفرائس Preys القريبة منها، وتوافرها، فإن قلة فقط من الحيوانات الفقارية الأخرى هي التي تأكلها. وقضاء شطر من الحياة في التهام قناديل البحر يتطلب وجود بعض مظاهر التكيف الخاصة التي تجعل أداء هذه الوظيفة أسهل. فللسلحفاة الجلدية مجموعة من النتوءات الحادة التي تشبه الأنياب أو جذور الأسنان، وهي موجودة على جانبي فكها العلوي، كما يوجد نتوء وحيد متشابك على فكها السفلي. ولما كانت فكوك هذا النوع من السلاحف ضعيفة نسبيًا، فإن وجود هذه النتوءات يعد شيئًا أساسيًا لتمزيق قطع اللحم من أجسام الفرائس الضخمة.

تكيُّف أعضاء الجسم مع الهجرة الطويلة

يعد جسم السلحفاة الجلدية ملائمًا للسفر الطويل، فالأكتاف عريضة، وطرف الدرقة الأمامي واسع، وطريقة سكْب الدموع Teardrop fashion، إلى جانب وجود كفاءة هيدرودينامية نموذجية تقريبًا. ومن المظاهر التكيفية مع قطع المسافات الطويلة أيضًا، وجود سبعة أعراف Ridges بامتداد الدرقة، وهي التراكيب التي تحسن الاندفاق الصفحي Laminar flow، مثلها في ذلك مثل حدبة القارب التي تزيد من فاعلية أداء حركته في الماء. وعمومًا، فالجسم كله، بما فيه من درقة، مُغلَّف بغلاف جلدي، ناعم جدًا، وهو ما اشتقت منه التسمية.

آلية الحركة والغطس في السلاحف الجلدية

هل هناك مميزات واضحة في نسَب جسم السلحفاة وشكلها الانسيابي؟

أوضحت جينيت وينيكن من جامعة فلوريدا الأطلنطية أن السلاحف الجلدية الحديثة الفقس Hatchlings السابحة، لها مُعامل احتكاك ومقاومة Drag coefficient أقل بكثير من مُعامل احتكاك ومقاومة السلاحف الحديثة الفقس التي تنتمي إلى الأنواع الأخرى من السلاحف البحرية، مما يدل على الكفاءة العالية لقوة الدفع والتسيير Propulsion لدى السلاحف الجلدية.

والسلاحف الجلدية سبّاحات شديدة البراعة، ونادرًا ما تتوقف عن الحركة، الأمر الذي يجعل الاحتفاظ بها في حياة الأسْر Captivity مستحيلاً. فقدرة هذه السلاحف على ضبط حركاتها في الحاويات ضعيفة، وعادة ما تسبح سباحة دائمة وترتطم بجدران الحاوية فتهشمها، أو تحدث لأنفسها أضرارًا بالغة. ولما كان الأمر بهذه الخطورة، فقد قام الباحثون بتطوير طرائق دراسة هذه السلاحف في البحر. لقد استخدم سكوت وزوجته جهاز تسجيل العمق والزمن وهو الجهاز القادر على تسجيل عمق الغطس، ومدته الزمنية، ومعدلات الصعود والهبوط، وكذلك مدد التواجد بالسطح. وبعد أن طوّر الباحث جيرالد كويمان من معمل بحوث علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) في معهد سكربْس لعلم المحيطات (الأقيانوس) هذا الجهاز، أصبح بإمكان الباحثين استخدامه لدراسة غطس الثدييات البحرية وطيور البطريق.

وخلال موسميْ التعشيش في عامي 84-1985م، وبمساعدة الباحث كويمان، وكذلك الباحث باول بونجانيس (وهو من معهد سكربس أيضًا)، ربط سكوت وزوجته أجهزة التسجيل في عشر إناث من السلاحف الجلدية عقب وضعها للبيض مباشرة. ولقد دُهش سكوت وكارين حينما لاحظا أن السلاحف أخذت تغطس وتغوص باستمرار، تقريبًا، نهارًا وليلاً، بمتوسط عشر دقائق للغطسة الواحدة،



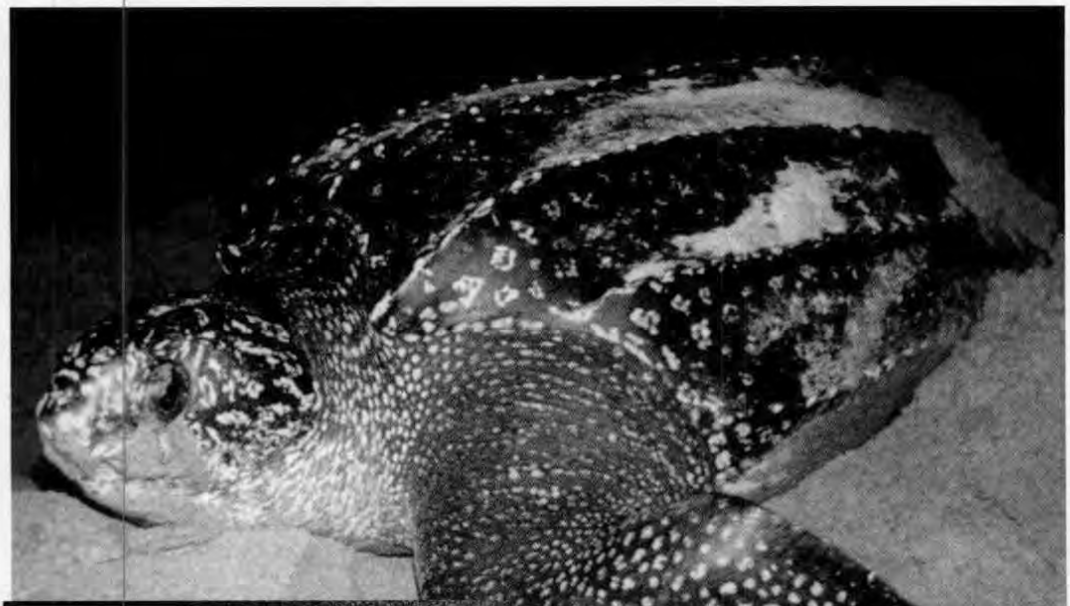


وخمس غطسات في الساعة. كما كانت الغطسة النموذجية مختلفة اختلافًا كبيرًا عن الغطس التدريجي، فلقد كان كل من الهبوط والصعود عموديًا، تقريبًا. وعند الصعود إلى سطح الماء تبتلع السلاحف كمية كبيرة من الهواء، أي تتنفس بسرعة، ثم تهبط مباشرة وفي خط مستقيم للأسفل مرة أخرى. أما النوم أو الراحة، فلا وقت لهما في حياة هذه السلاحف، وإذا كان لهما وقت فقصير جدًا. وبالفحص الأكثر دقة، لاحظ الباحثان وجود اختلاف في الغطسات، ويتوقف هذا على وقت الغطس خلال اليوم: فغطسات الليل كانت أكثر ضحالة، وأقل تنوعًا في العمق، من غطسات النهار، مع أن الوقت الذي تقضيه السلحفاة تحت الماء يكون أطول في أثناء الليل.

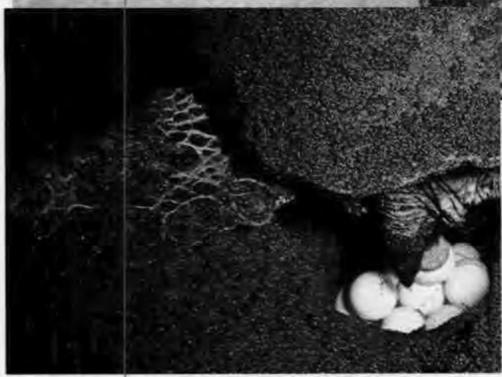
ولاحظ الباحثان كذلك أن السلاحف تقضي مددًا طويلة نسبيًا عند السطح في منتصف النهار، ربما للاصطلاء Basking بأشعة الشمس من أجل رفع درجة حرارة جسمها.

لماذا يحدث هذا الغطس المتواصل؟

كان سكوت وكارين في البداية مرتبكين، لكنهما أدركا بسرعة أن السلاحف تتعقب مصدر غذائها، ففي المياه الاستوائية، تكون قناديل البحر أكثر الحيوانات شيوعًا في الأعماق السحيقة، في منطقة بيولوجية تُدْعى طبقة التشتت العميقة Deep scat-tering layer. ولقد تم اكتشاف هذه الطبقة بعد تطوير جهاز السونار بوقت قصير، وبذلك أصبح معلومًا لدى العلماء أنها طبقة (أو طبقات) أفقية، تحوي هوامَّ حيوانية Zooplankton تحوم على عمق 1800 قدم نهارا وتهاجر إلى السطح ليلا. وعلى مرور هذه السنوات من البحث والدراسة، لم يستطع العلماء، أن يتفقوا على إجابة واحدة عن هذا السؤال: لماذا تتجمع هذه الكائنات في هذه الأعماق، وفي



أنثى السلحفاة الجلدية في رحلة العودة إلى المياه بعد وضع البيض



أنثى السلحفاة في أثناء عملية وضع البيض، الذي يختلف - حجمًا وشكلا ولونًا - بحسب نوع السلحفاة

الطبقات الكثيفة، التي تمثل منطقة ضخمة من الكتلة الحيوية للهوام الحيوانية في المحيطات الاستوائية؟ لقد علم سكوت وزوجته أن الهوام الحيوانية تهاجر إلى السطح ليلاً لكي تتغذى بالتهام الهوام النباتية Phytoplank-ton، ثم تتراجع تدريجيًا وتغوص مبتعدة عن ضوء النهار، موطدة أنفسها داخل منطقة لا تستقبل سوى 1٪ من إضاءة السطح أو أقل.

يبدو أن غطسات السلحفاة الجلدية تتم بغرض تتبع (أو متابعة) الحركات الغسقية Crepus cular movements، للطبقة المشتتة العميقة. وكلما اقترب الغسق وحان موعده، تقوم السلاحف بتنفيذ غطسات ضحلة، فأكثر ضحالة، على أعماق أكثر تناسقًا من نظيراتها التي تنفَّذ في أثناء النهار. وكلما اقترب موعد الفجر، تُزيد السلحفاة من عمق الغطس، وربما يكون هذا من أجل تعقب قناديل البحر. ظَنَّ سكوت وزوجته أن السلاحف تتغذى في الطبقات العليا من الماء ليلاً، أما نهارا فإنها تتشمس أو تعيد التجهيز والترتيب لنظام غطس أكثر عشوائية، وذلك لأن تجمعات الفرائس تغوص فيما وراء أعماق الغطس النمطية. ولقد اكتشف العلماء أن كثيرًا من أنواع قناديل البحر هي حيوانات مضيئة Luminescent، وهي الظاهرة التي تستفيد منها السلاحف، فتتمكن من العثور عليها ليلا، أو حتى في المياه العميقة نهارا.

ويمثل هذا كله عقبات تشوش على الفهم الصحيح، إذ كان سكوت وزوجته غير قادرَيْن على الملاحظة المباشرة للسلاحف الجلدية وهي تأكل، لكنهما حصلا على دليل مؤكد إضافي: فخلال موسم التعشيش سنة 1985 في سانت كرويكس، وزن سكوت السلاحف في كل زيارة للشاطئ تقوم بها من أجل التعشيش فيه، وبدت النتيجة مدعِّمة للافتراض بأن الإناث المثقلة تأكل فيما بين مرات التعشيش. وكان إجمالي الفاقد في وزن الجسم ضئيلاً لدى أغلب الأفراد، ومن ثم يمكن إهماله إحصائيًا؛ مع أن متوسط إنتاج البيض بلغ 120 رطلا. وللحقيقة، فإن اثنتين من هذه السلاحف أحرزتا زيادة في الوزن مع توالي أيام الموسم.

أخطار الغطس في الأعماق وتفاديها

هكذا علم سكوت وزوجته متى



تغطس السلاحف ولماذا، لكنهما، إضافة إلى هذا، تشوقا كثيراً لمعرفة كيف تغطس هذه السلاحف؟ إذ يمكن أن يكون الضغط عند الأعماق الغائرة في القيمة القصوى له. وتتعرض السلحفاة لضغط إضافي قدره 14,7 رطل/بوصة 2 لكل 32,8 قدم في رحلة الهبوط، وعلى عمق 3280 قدما يصبح الضغط الواقع على كل بوصة من سطح جسم السلحفاة 1470 رطلا من القوة، وعليك أن تتخيل ضخامة التأثير الفيزيائي والفسيولوجي الذي يمكن أن يحدث لمخلوق تحت هذا الضغط!! إذ يؤثر هذا الضغط في الهواء المحبوس داخل الجسم (في الرئتين والقصبات الهوائية، وحتى داخل الأنسجة الوعائية Vascular tissues، كما يمكن أن يحدث تشوّهًا وتمزقًا للأنسجة المحيطة بهذه الجيوب الغازية.

وتحت الضغط الشديد، يصبح الجهاز العصبي (بما فيه الدماغ) مفرط الحساسية Oversensitized (وتسمى هذه الظاهرة متلازمة الضغط العالي العصبية High-pressure nervous syndrome) ويمكن أن يؤدي هذا إلى حدوث تشنجات أو حتى الموت. إضافة إلى هذا، فهناك مرض يكثر شيوعه هو إبطال أو إزالة الضغط De-compression، واسمه الشائع هو الالتواءات The bends، ويتسبب عن تكوين فقاعات النيتروجين في الدم في أثناء الصعود الشاهق السريع من غطسات عميقة.

كيف تتحاشى الحيوانات الفقارية عميقة الغطس، مثل الحيتان، والفقمات، والبطريق، والسلاحف الجلدية، مرض إبطال أو إزالة الضغط، والأضرار الأخرى المتسببة عن الغطس إلى الأعماق الغائرة، والمكوث فيها مددا زمنية طويلة، ثم الصعود السريع؟ يجب أن يكون معلومًا أن هناك كميات قليلة من النيتروجين متاحة للأنسجة، كما يوجد لكثير من أشد الثدييات الغطاسة عمقًا رئات صغيرة وزفرة كاملة القوة Force-fully exhale تحدثها قبل الغطس. وإضافة إلى الطفوية الاختزالية Reducing buoyancy التي تمكن هذه الثدييات البحرية من الغطس الأكثر سهولة، فإن هذا يُحدّ بدرجة كبيرة من كمية النيتروجين (وهو العنصر الرئيسي في الهواء) المتاحة لتيار الدم.

لم يعلم سكوت أو زوجته ما إذا كانت السلاحف الجلدية تزفر قبل الغطس، لكن الذي يعلمانه وجود رئات صغيرة، إذا وزنت بأحجام هذه السلاحف. وعمومًا، فالرئات الصغيرة ، تعني أيضًا، كفاءة صغيرة لحمل الأكسجين. وتعوّض بعض الثدييات التي تغطس إلى الأعماق السحيقة هذا العجز في كفاءة الرئات بتطوير أشياء مثل حجم دم متزايد، وكثافة أكثر في خلايا الدم الحمراء لحمل الأكسجين، وتركيزات مرتفعة من الخضاب Pig-ment المخزّن للأكسجين (الجلوبين العضلي Myoglobin) في العضلات. وتعد السلحفاة الجلدية الحيوان الزاحف الوحيد الذي يطبّق هذه الخطة (الاستراتيجية) كاملة، فتركيز الجلوبين العضلي في السلاحف الجلدية يفوق ثلاث مرات تقريبًا تركيزه في أي حيوان زاحف آخر، كما أن لديها تركيزات كثيفة جداً من خلايا الدم الحمراء في تيار الدم.

وهناك على الأعماق السحيقة يمثّل الضغط العالي تحدّيًا للغطّاس، بمعنى وجود قوى تحطيمية موضعية يمكنها أن تحطم التجويف الصدري؛ لأنها تكسّر عظامه أو تتلف أنسجته. وإذا كان وجود الرئات يمثل قصوراً من ناحية، فإنه مفيد من ناحية أخرى، إذ يقلل من خطورة التحطيم المتسببة عن قوة الضغط العاصرة الخارجية External squeezing. ومما يفيد كثيراً في تفادي هذه الأخطار، أن هيكل السلحفاة يتميز بمرونة عظيمة، فنسبة الغضاريف إلى العظام عالية في الهيكل بأكمله، ويسمح هذا لأي مخزون هواء داخلي بأن ينضغط دون تحطيم للأنسجة أو تكسير للعظام. وعلى العكس من أقاربها ذوات الدرقات الصلبة، والدروع المصفحة للضلوع الملتحمة، فإن درقة السلحفاة الجلدية تتكون من ضلوع «سائبة» تنفصل عن بعضها بعضًا بمسافات واضحة، كما أنها مطمورة في نسيج غضروفي زيتي سميك. إضافة إلى هذا، فإن مادة الصفائح العظمية Bony plates الرقيقة (قطرها 1,9سم) تعطيها شكلاً نسيجيًا، كما أن التركيب الكامل للجسم مغلف بجلد مرن، وليس بالصُّدْرَة، أو البطن عظم تقريبًا، ولا توجد سوى حلقة غضروفية مرنة من نسيج لتدعيم التراكيب. ويضاف إلى هذه التكيفات التراكيبية، أن العظام الطويلة في المجاذيف، أي الزعانف، وهي الأطراف المتحورة لأداء وظيفة مجاذيف للسباحة، طيّعة مرنة جداً.



صغير خرج من البيضة بعد فقسها



السلحفاة البحرية
غواصة حية عملاقة

كيف تضبط السلحفاة الجلدية درجة حرارة جسمها؟

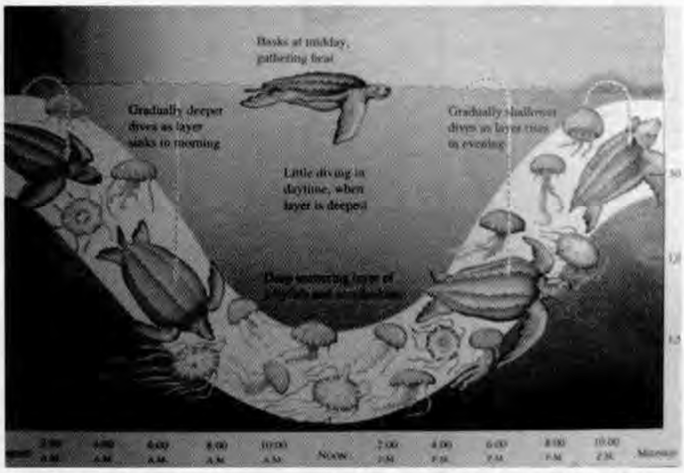
يواجه المدى الجغرافي الشاسع الذي تجول السلحفاة الجلدية في أرجائه تحديات (فسيولوجية) خاصة خلال حياة هذا الحيوان الزاحف الكبير. فالسلحفاة لابد أن تكون قادرة على تحمّل التفاوت والتغيّرات الضخمة التي تحدث في درجة حرارة البيئة؛ ففي أثناء موسم التعشيش (الذي يمتد لأربعة أشهر) تعيش السلاحف في المياه الدافئة التي درجة حرارتها 30 درجة مئوية.

وعمومًا، فخلال الاثني عشر شهرًا - أو أكثر - التي تفصل كل موسمين من مواسم التعشيش، تقيم السلحفاة في المياه التي قد تكون درجة حرارتها 5 درجات مئوية، أو حتى أقل. ومن الناحية النموذجية، فإن درجة حرارة الجسم لدى الزواحف والأسماك تكون مكافئة تقريبًا لدرجة حرارة البيئة المحيطة بها. وتنخفض كفاءة الإنزيم الأيضيّ انخفاضًا كبيرًا في البيئة الباردة، ومن ثم لا تستطيع الحيوانات أن تبقى في حالة نشطة. ومن هنا، افترض بعض العلماء أن «التبريد المناخي» على مر العصور كان المسؤول، مسؤولية جزئية، عن انقراض بعض الحيوانات التي عاصرت أسلاف السلاحف الجلدية، مثل الديناصورات. ومع هذا الافتراض، فلقد شُوهدت السلاحف الجلدية اليافعة سابحة حول جبال الثلج العائمة.

أوضح البحث الذي قام به فريق من علماء الحيوان يتكون من: واين فريار، وروبرت أكرمان، ونيقولا مروسوفيسكي أن السلحفاة الجلدية يمكنها ضبط حرارة جسمها عند 17,7م على معيشتها في ماء درجة حرارته 5م. هناك إذًا قدرات تكيفية متعددة لدى السلاحف تحتفظ بالحرارة المتولدة عن النشاط العضلي، أو المكتسبة في أثناء مدة التشميس على سطح الماء. وهناك أيضًا طبقة شحمية وزيتية وغضروفية كثيفة تعمل كمادة عازلة كما تفعل طبقة دهن الحوت في الثدييات البحرية. وكما هو الحال في بعض الثدييات البحرية، يوجد لدى السلحفاة الجلدية ضفائر أو حزم من نسيج وعائي في مجاذيفها الأمامية، كما يزدوج كل شريان صادر Out-going artery مع وريد وارد In-coming vein، وهو الترتيب الذي يعمل كمبادل حرارة للتيار المضاد. وتقوم هذه الآلية غير العادية بتدفئة الدم مسبقًا قبل دفقه ومروره في الأطراف، فتمنع بذلك الدم الوريدي من تبريد الأعضاء الداخلية والعضلات. وفي الوقت نفسه، تقوم هذه الآلية بتبريد الدم الصادر، مانعة فقدان حرارة قلب الجسم بوقف تسربها إلى الأطراف.

قد يكون الشكل واللون أيضًا من المميزات التي تجعل هذه السلاحف قادرة على الاحتفاظ بدرجة حرارتها دافئة. فجسم السلحفاة الجلدية الأسطواني تقريبًا يقلل مساحة السطح المعرض للماء البارد إلى حدها الأدنى. وإذا لم تأخذ السلحفاة حمّامها الشمسي في منتصف النهار، فإن لونها الأسود العام يُعَدُّ ميزة أيضًا يفيدها في امتصاص الحرارة. وأخيرًا، هناك دليل أوّلي على أن السلاحف الجلدية قد تكون لديها طبقة من نسيج حراري وراثي خاص Thermogenetic tissue يُدعى الشحم البني، وهو المادة المعروفة بتوليد الحرارة أيضيًا Motabolically في بعض الأنواع الأخرى.

إن كلّ هذه الاكتشافات والمعلومات الحديثة عن فسيولوجية السلحفاة الجلدية وسلوكها، توضح أنها كائن محيطي بحري متخصص، له قدرات متميزة على التكيف مع عمليات الغطس العميق في المحيطات والبحار المفتوحة. وبدراسة هذه القدرات أصبح الباحث سكوت أقل



تسجيل آلي لدورة الغطس اليومية للسلحفاة الجلدية، وهي نوع من الهجرة اليومية لهذه السلحفاة

تركيزًا على الثدييات، فكثير من الأشكال والتراكيب التي كان من المقترح اقتصار وجودها على تلك الثدييات البحرية فقط، قد تكون موجودة بالفعل في السلاحف البحرية، بل في أجدادها منذ زمن طويل.

السلاحف الجلدية والتهديدات التي تواجهها

مع أنها عاشت قرابة مئة مليون سنة، فإننا قد نكون الآن شهود عيان على أسوأ مرحلة تمر بها السلحفاة الجلدية على كوكبنا الأرضي، فلا تزال الأفراد اليافعة من هذه السلحفاة تُقْتَلُ من أجل الحصول على لحومها في بعض أجزاء العالم، ولا يزال القضاء على أعداد كبيرة من العشائر المحلية لها مستمرًا.

وهناك في بعض الدول، يَهلك القسم الأعظم من السلاحف الجلدية من طريق جمع بيضها، واستخدامه في أغراض حسّية لاعتقاد هؤلاء الناس أنه مثير جنسيًا Aphrodisiacs، فعلى شواطئ ترينجانو بماليزيا الغربية، على سبيل المثال، انخفض عدد أعشاش السلاحف من 11000 عش في سنة 1956 إلى 280 عشًا في سنة 1990م!!

ويمثل إلقاء الأكياس والحقائب البلاستيكية في مياه البحر (أو المحيط) القريبة من التجمعات البشرية، شكلاً آخر من الأضرار التي تهدد وجود هذه السلاحف، لأنها تخطئ، حين تظن أن هذه الأكياس والحقائب قناديل بحر، غذاؤها المفضل، فتأكلها. ولقد كشف تشريح جثث للسلاحف الجلدية الميتة عن أن 40- 50٪ من هذه السلاحف اليافعة قد ابتلعت أكياسًا بلاستيكية. ومثل هذه المواد يمكنها أن تقتل السلاحف لأنها تسبب انسداد القناة الهضمية فيها. ومن الأخطار التي تهدد وجود السلاحف أيضًا، وقوعها في شباك الصيد الوحيدة الخيوط، سواء كانت شباكا مهجورة، أو نشطة (أي جاري استعمالها)، التي تجرفها التيارات إلى أعالي البحار. وبمجرد أن تقع هذه السلاحف في تلك الشباك، فإنها تموت جوعًا أو غرقًا...!!

كما أن التنمية التجارية، مثل الخطة الموضوعية لتنمية ساحل المكسيك الباسيفي، تمثل أحدث أشكال التهديد، وذلك لأن هذا الساحل لايزال على حالته الفطرية البرية، وبقاؤه على هذه الحالة ضروري لبقاء السلاحف الجلدية القادرة على التكاثر، التي يُقَدَّر عددها بنصف عشيرة هذا النوع من السلاحف البحرية الجلدية الموجودة في العالم.



حفل التراث العربي بأنواع شتى من التأليف، فلم يدع المؤلفون موضوعاً لم يكتبوا فيه، فقد ألّفوا في الموضوعات الجادة في دقائق العلوم والفنون، ولم يغفلوا الموضوعات الطريفة، كما خصوا كل موضوع بتأليف، وكل مسألة بمصنف، وكل فن بكتاب أو رسالة، في جد أو هزل.

الازدهار فيما عقده الشعراء من الآثار

تأليف: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي

849- 911هـ = 1445- 1505م

من المعلوم أن جلال الدين السيوطي عالم موسوعي، وصاحب مكتبة واسعة وضخمة من المؤلفات، فلا نجد فنًا من الفنون إلا وكتب فيه ما بين رسالة في وريقات أو كتابًا في مجلدات ضخام. وكثير من الموضوعات التي طرحها السيوطي لم يُسبَق أن أُفردت في كتاب مستقل، وإن كانت بُحثت ضمن كتب عامة، ومنها هذا الموضوع، وهو اقتباس الشعراء في قصائدهم من الأحاديث والآثار، فنجد كثيرًا من الشعراء يضمنون قصائدهم طرفًا من حديث شريف أو حكمة مأثورة؛ إلا أن هذه الأشعار مشتتة مفرقة في دواوين الأدب وكتب التراجم. أما هنا، فقد عمل السيوطي على جمعها ولمِّ شَعَثها، وبذل جهدًا كبيرًا في ذلك؛ إذ جمعها من عشرات المجلدات التاريخية والأدبية وكتب الحديث النبوي. وهو يشير أحيانًا إلى المصدر الذي نقل عنه، وأحيانًا لا يذكر ذلك، وإذا أشار، فإنه لا يحدّد من أي ترجمة من التراجم أخذ أبيات الشعر التي يوردها، فهو - مثلاً - يحيل إلى تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، أو تاريخ دمشق لابن عساكر، دون أن يذكر في أي موضع من الكتاب ورد ذلك الشعر، وأحيانًا ينقل عن أحد المؤلفين دون تحديد اسم كتابه، وهذا الأمر أتعب مَنْ أتى بعد السيوطي، وأقصد محقق كتابه «الازدهار»؛ حيث بذل جهدًا كبيرًا في ردِّ كل عزوٍ إلى موضعه قدر الإمكان.

وقد جمع السيوطي في هذا الكتاب زيادة على مئتين وثلاثين نصًا من النصوص الشعرية التي ضُمِّنت بعض الأحاديث النبوية والحكم المأثورة، موردًا أيضًا بعض الأخبار والقصص حول هذه الأشعار.

ونورد هنا نماذج يسيرة مما جاء في هذا الكتاب، فمن ذلك قول أبي نواس:

إن القلوب لأجنادٌ مجندة
لله في الأرض بالأهواء تعترفُ
فما تناكر منها فهو مختلفٌ
وما تعارف منها فهو مؤتلف

مضمنًا أبياته تلك حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «الأرواح جنودٌ مجنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

ومن ذلك قول الشاعر مضمنًا قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: «زُرْ غبًا تَزْدَدْ حبًا»:

أقلَّ زيارة الأحبا
ب تَزْدَدْ عندهم حبًّا
فإن المصطفى قد قا
لَ: زُر غبا تزدَدْ حبًّا

وأورد قول الشاعر في طُفيليٍّ:

طفيليٌّ يؤمُّ الخُبزَ أنّى
رآه ولو رآه على يَفاعِ
ولا يروي من الأخبار إلا
«أجيبُ ولو دُعيتُ إلى كراع»

يشير إلى الحديث الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لو دُعيتُ إلى كُراعٍ لأجبتُ».

وعقد أحد الشعراء قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أول ما يُقضى بين الناس بالدماء»، فقال:

أولُ الحُكمِ في الدماء إذا ما
وقف الناسُ للمليك الجليلِ
قال ذاك النبيُّ صلّى عليه
أبد الدهرِ منزل التنزيلِ

ونظم أحدهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ لم يسأل اللهَ يغضب عليه»، فقال:

الله يغضبُ إن تركتَ سؤاله
وبُنيَّ آدم حين يُسأل يَغضب

ونظم الشاعر قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن الرزقَ ليطلبُ العبدَ كما يطلبهُ أجلُه»، فقال:

أتيهُ على الخليفة في نواله
ويمنَعُني التَّعفُّفُ عن سؤالِه
وأعلم أنّ رزق العبد يأتي
كما تأتي المنيَّةُ لاغتياله

ومن الآثار التي يوردها المؤلف في كتابه: أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن فلانًا قد جمع مالاً، فقال عمر رضي الله عنه: فهل جمع أيامًا؟ فأخذ هذا المعنى أبو عبدالرحمن العطوي الشاعر، فقال:

جمعتَ مالاً فقل لي: هل جمعتَ له
يا جامع المال أيامًا تفرّقُه
والمالُ عندك مخزون لوارثه
ما المال مالك إلاّ حين تنفقه

وقد قام بتحقيق الكتاب الدكتور علي حسين البواب، أستاذ اللغة العربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ونشره في المكتب الإسلامي ببيروت ودار الخاني بالرياض سنة 1411هـ.

المفهوم البنويّ للمكان الرّوائيّ

د. سمر روحي الفيصل

المكان لغةً: الموضع الثّابت المحسوس القابل للإدراك «الحاوي للشّيء المستقرّ»(1)، وهو متنوّع شكلاً وحجمًا ومساحة. فالقصر والمنزل والطّريق والجبل والأرض أمكنة قارّة محسوسة، ولكنّها مختلفة في أشكالها وأحجامها ومساحاتها، فيها الضّيّق المغلق والمتّسع المفتوح، والكبير المتوسط والصّغير، والمرتفع والمنخفض. إنّها شكل من أشكال الواقع، انتقلت إلى الرّواية وأصبحت مكوّنًا من مكوّناتها.

وقد أهمل النّقّاد هذا المكوّن بادئ الأمر انطلاقًا من أنّه مجرّد خلفيّة للحوادث والشّخصيّات، فأدرجوه ضمن البيئة، فقالوا: «البيئة الطّبيعيّة»(2) تمييزًا لها من «البيئة الزّمانية». ولكنّ البنويّين بدؤوا في العقد الأخير يلتفتون إليه ويفهمونه على نحو مغاير.

وليست هناك، في حدود ما أعلم، نظريّة بنويّة محدّدة متكاملة للمكان الرّوائيّ، بل هناك آراء واجتهادات وأسس طرحها النّقّاد الشكليون، وجعلوها عماد نظرتهم إلى البنية المكانية في الرواية. وسأختزل هذه الآراء والاجتهادات والأسس في النقّاط الآتية:

المكان الطبيعيّ والرّوائيّ

أقصد بالمكان الطبيعي: المكان الحقيقي في الواقع الخارجي المحسوس. وبالمكان الروائيّ: المكان داخل الرواية. وقد ميّز البنويّون بين هذين المكانين لئلا يكون هناك لبس بينهما في أثناء التّحليل، فقالوا إنّ المكان الرّوائيّ كالمكان الطّبيعيّ موضع ثابت محسوس قابل للإدراك حاوٍ للشّيء المستقرّ. كما أنّه متنوّع مثل المكان الطبيعيّ شكلاً وحجمًا ومساحة. ولكن ذلك لا يعني أنّهما متطابقان، بل يعني أنّ هناك تشابهًا شكليًا بينهما(3) مردّه إلى أنّ الرّوائيّ اصطنع أمكنة تشغل فراغ روايته من أجل إيهام القارئ بالحقيقة. وقد استمدّ هذه الأمكنة من الأشياء التي تشغل الفراغ في العالم الحقيقيّ الخارجيّ، كالمنازل والمقاهي والشوارع والجبال وغير ذلك. ولا أشك في أنّ التشابه الشكلي بين المكان الطبيعي والمكان الرّوائيّ هو الذي قاد بعض الرّوائيّين والنّقّاد إلى المطابقة بينهما(4)، حتى إنّ هناك روائيّين حاكوا أمكنة معيّنة معروفة في الواقع الخارجيّ، ثم رأينا نقّادًا يثنون عليها استنادًا إلى دقّة المحاكاة فيها.

إنّ مصطلح المكان الرّوائيّ في النّقد البنوي يدلّ على مفهوم محدّد، هو المكان اللّفظيّ المتخيَّل؛ أي المكان الذي صنعته اللّغة انصياعًا لأغراض التّخييل الرّوائيّ وحاجاته. ولعلّ هذا التحديد لمفهوم المكان الرّوائيّ هو أبرز ما قدّمه البنويّون الذين جهدوا في تحديد أدبيّة المكان أو شعريّته. ذلك لأنّهم ربطوا المكان الرّوائيّ بإمكانات اللّغة على التّعبير عن المشاعر والتّصوّرات المكانيّة(5)، وجعلوا هذه الإمكانات موظّفة لأغراض الرّواية. ومن ثَمّ عدّوا المكان الرّوائيّ مكوّنًا من مكوّنات الرّواية، له بنيته المؤثرة في البنى الأخرى داخل الرّواية والمتأثّرة بها. كما أنّهم أبعدوه عن أن يكون مكانًا جامدًا، وجعلوه تشكيلاً يجمع «مظاهر المحسوسات، من أصوات وروائح وألوان وظلال وملموسات»(6)، وعنصرًا فاعلاً في تماسك الحوادث والشخصيات الرّوائيّة.

أمّا المكان الطّبيعيّ فلا علاقة له بالمكان الرّوائيّ؛ لأنّه الموضع الحقيقيّ الثّابت الجامد. وهذا ما جعل النّقّاد البنويّون يُطلقون عليه تسميات أخرى، كالمكان الموضوعيّ والواقعيّ والخارجيّ وما إلى ذلك من تسميات تشير إلى حقيقة كونه خارج النّص الرّوائيّ.

بيد أن الرّوائيّين، والواقعيّين منهم خاصة، لجؤوا إلى تسمية بعض الأمكنة الرّوائيّة بأسماء حقيقيّة تدلّ في الواقع الخارجيّ على أمكنة معيّنة معروفة، كما هي الحال حين يُطلق الرّوائيّ على المدينة التي يتحدّث عنها اسمًا من أسماء المدن الحقيقيّة (بيروت ـ الرياض ـ القاهرة ـ دمشق...)، ويروح يجعل شخصيّاته تتحرّك في «شارع الحمراء» أو «الرّوشة» أو «الصّالحيّة»، أو «المهاجرين». ولهذا العمل ردّ بنويّ محدد، هو أنّ الرّوائيّ يسعى إلى إيهام القارئ بأنّ ما يقصّه عليه حقيقيّ، ويتوسّل إلى ذلك بذكر أمكنة حقيقيّة معروفة لدى هذا القارئ. والإيهام لا يعني في العرف النّقديّ البنويّ أنّ «بيروت» في الرّواية هي «بيروت» في الواقع الحقيقيّ الخارجيّ؛ لأنّ المطابقة بين المكان الرّوائيّ والمكان الطبيعيّ غير صحيحة، ولأنّ «بيروت» في الرّواية تُحيل إلى نفسها تبعًا لكونها مكانًا لفظيًا متخيّلاً، سواء أكان الإيهام مقصورًا على نقل اسمها الحقيقيّ وحده أم أضاف الرّوائيّ إلى الاسم محتوياته الحقيقيّة المعروفة، من أحياء ومناطق وقصور...

المكان ووصف المكان

يُقرِّبُ الرّوائيّ المكان من القارئ بالوصف الذي يرسم صورة بصريّة تجعل إدراك المكان بوساطة اللّغة ممكنًا. أو قل: إنّ الوصف وسيلة الرّوائيّ لتصوير المكان وبيان جزئياته وأبعاده. ولكنّ وصف المكان لا يكفي للقول إنّ الرّوائيّ قدّم مكانًا روائيًا. ذلك لأنّ الوصف مجرّد تمهيد لاختراق الشّخصيات المكان بما تحمله من وجهات نظر متباينة في الحوادث. فإذا بقي المكان جامدًا كما قدّمه الوصف عجز الرّوائيّ عن أن يجعله مكوّنًا روائيًا يُسهم في خلق المعنى ويرتبط بالشخصيات والحوادث. ومن ثَمّ وجب التّمييز بين صورة المكان والمكان الرّوائيّ، بحيث يُعَدُّ الوصف خطوة إجرائيّة أولى، تليها خطوة ثانية هي اختراق الشخصيات المكان وتقديم وجهات نظرها في الحوادث.

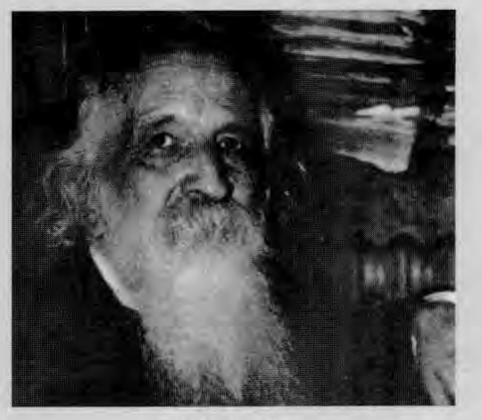
وحين أقول إنّ وصف المكان مجرّد تمهيد لاختراق الشخصيات له لا أقصد أنّ خطوة الوصف الإجرائية الأولى مقصورة على رسم أبعاد المكان الهندسية، بل أقصد أنّ الوصف سيكون تمهيدًا لفهم القارئ شخصيات الرّواية، وحفزًا لها إلى القيام بالحوادث(7)، تبعًا للتأثر المتبادل بين الشخصيّة والمكان الذي تعيش فيه(8). وإذا لم ترتفع صورة المكان إلى مرتبة العنصر المشارك في بناء الرّواية فإنّها تبقى جامدة أو زينة لا تخسر الرّواية شيئًا إذا تخلّت عنها.

المكان الرّوائيّ والفضاء الرّوائيّ

يحرص البنويّون على التّمييز بين المكان الرّوائيّ والفضاء الرّوائيّ. ذلك لأنّ الرّواية تحتاج إلى أمكنة عدّة تواكب تطوّر الحوادث وحركة الشّخصيّات. ويمكن القول إنّ مجموع الأمكنة الرّوائيّة يُشكّل الفضاء الرّوائيّ، بحيث يُعدّ المكان مكوّنًا من مكوّنات

الفضاء. وعلى الرغم من ذلك فإنّ مفهوم مصطلح «الفضاء الرّوائيّ» يتّسع ليشمل العلاقات المكانيّة، أو العلاقات بين الأمكنة والشخصيات والحوادث، ويعلو فوقها كلّها ليصبح نوعًا من الإيقاع المنظّم لها. إضافة إلى أنّ بنية هذا الفضاء تكشف عن الحال «الشّعوريّة التي تعيشها الشخصيّة. وقد تُسهم في التّحوّلات الداخلية التي تطرأ عليها»(9)، لأنّ الشخصيّة تخترق المكان حاملة وجهة نظرها الخاصّة التي تلتقي وجهات النّظر الأخرى أو تعارضها وتصطرع معها، والفضاء الرّوائيّ هو الذي يؤطّر تلك العلاقات بين المنظورات أو وجهات النّظر والحوادث والأمكنة. والواضح أنّ تأطير هذه العلاقة يحتاج إلى فضاء روائيّ ضيّق، لأنّ رصد العلاقات الاجتماعية ـ السياسية في الفضاء الواسع عسير إنْ لم نقل إنّه مستحيل(10).

على أنّ تضييق الفضاء الرّوائيّ لا يعني الاقتصار على مكان روائيّ واحد، بل يعني التعدّد المقبول للأمكنة الرّوائيّة، بحيث يتمكّن الرّوائيّ من تقديم المنظورات وتحوّلات الحوادث والشخصيات. وقد لاحظ حميد لحمداني أنّ «الرّوايات التي تحصر أحداثها في مكان واحد تخلق أبعادًا مكانيّة في أذهان الأبطال أنفسهم»(11)، بغية تشييد فضاء روائيّ غير مقصور على مكان واحد كالمنزل والغرفة...



غاستون باشلار

جمالية المكان لا تتجسد بتسمية الأمكنة الروائية وتحديد أبعادها وإطلاق صفات مفردة عليها؛ بل تتجسد بوساطة الطريقة الفنية التي تقدم أمكنة مرتبطة بالحوادث والشخصيات

بناء المكان الرّوائيّ

أعتقد أن الاجتهادات النّظريّة الخاصّة بشعريّة المكان لم تُرسّخ إجراءات واضحة محدّدة يستطيع النّاقد الاستناد إليها في أثناء تحليله بناء المكان الرّوائيّ. ومن ثَمّ كانت هناك اجتهادات تطبيقيّة عدّة، منها تحديد أنواع المكان وأبعاده. وقد اقترنت الأنواع والأبعاد لدى النّقّاد بصفات معيّنة، فكان هناك مكان موضوعيّ ومفترض(12) ومجازيّ وهندسيّ ومعاد وتجربة معيشة(13) وجاذب وطارد(14) وأليف(15). وهناك أيضًا مكان ذو بعد واحد، وآخر متعدّد الأبعاد، وثالث تاريخيّ أو نفسيّ أو واقعيّ أو تعبيريّ أو ذاتيّ... ولا تخرج هذه الأنواع والأبعاد عن أن تكون صفات للأمكنة الرّوائيّة، يمكن اجتماعها كلّها في رواية واحدة من غير أن يُعين هذا الاجتماع على تحليل بناء المكان في هذه الرّواية. وقد تنفرد رواية أخرى ببعض هذه الأنواع والأبعاد، ولكنّ ذلك لا يمنحها مكانة إيجابية أو سلبية. ذلك لأن جماليّة المكان لا تتجسد بتسمية الأمكنة الرّوائيّة وتحديد أبعادها وإطلاق صفات مفردة عليها، بل تتجسّد بوساطة الطّريقة الفنّيّة التي تُقدّم أمكنةً مرتبطة بالحوادث والشّخصيات والمنظورات، قادرةً على تشييد فضاء روائيّ نابض بالحركة والحياة والدّلالة.

وقد قدّم حسن بحراوي في كتابه «بنية الشّكل الرّوائيّ» اجتهادًا لعلّه أكثر الاجتهادات التطبيقية العربيّة إفادة من الخلفيّة النظرية التي طرحها النّقّاد العاملون في شعريّة المكان: غاستون باشلار G. Bachlard ويوري لوتمان Y. Lotman خصوصًا، وأكثرها حرصًا على تقديم إجراءات نقدية تصلح لتحليل المكان الرّوائيّ. إذ اصطنع ثلاثة إجراءات، هي مفهوم التّقاطب(16) ومفهوم التّراتبيّة(17) ومفهوم الرؤية(18). وهي إجراءات مفيدة، ولكنّها في رأيي تنطلق من أن الفضاء الرّوائيّ مُجسَّد في الرّواية، وأنّ مهمة النّاقد مقصورة على تحليله باستعمال الأشكال التي تجلّت التّقاطبات فيها، وخاصة الثّنائيات الضّدّيّة، وبملاحظة تراتبيّة المكان ومنظورات الشخصيات فيه. وهذا المنطلق لا يُعين على التمييز بين الرّوايات التي تملك فضاءً روائيًّا وتلك التي اقتصرت على صور للأمكنة لا تُسهم في تشييد هذا الفضاء. إضافة إلى أنّ شكل الثّنائيات الضّدّيّة لا يُشترط توافره في الفضاءات الرّوائيّة دائمًا. وقد استعمله لوتمان في تحليل الشعر وحده(19)، وقصره باشلار على جدليّة الدّاخل والخارج التي لاحظها في المكان الأليف(20).

وما هو أكثر أهميّة بالنسبة إليّ ما لاحظتُه من أنّ هذه الإجراءات الثّلاثة لا تُحيطُ بالفضاءات الرّوائيّة العربيّة، وليس من المفيد أن نُسقط عليها ما لا يحيط بها وما لا يُعبّر عنها وما لا ينطلق منها ومن حاجات تحليل بنائها.

وليس هناك شكٌ في أنّ النّقّاد الأجانب والعرب العاملين في حقل شعرية المكان انطلقوا من قاعدة سليمة، هي أنّ تحليل المكان في الرّواية يقود إلى تحديد طبيعة الفضاء الرّوائيّ فيها، لأنّ الفضاء أكثر شمولاً واتّساعاً من المكان. فهو أمكنة الرّواية كلّها، إضافة إلى علاقاتها بالحوادث ومنظورات الشخصيات. حتى إنّ الرّوائيّ الذي يقصر حدثه على مكان واحد مغلق لابدّ من أن يخلف في ذهن القارئ امتدادات مكانية أخرى، ومن ثَمّ يصعب القول إنّ الفضاء الرّوائيّ يتشكّل من مكان واحد وإن بدا ظاهره مغلقًا عليه وحده. وهناك روايات يدلّ ظاهرها على أنها تطرح فضاءات عدّة، ولكنّ التدقيق فيها يدلّ على أنه يمكن التمييز بين فضاء مركزيّ وفضاءات فرعيّة تشكل شبكة علاقات متداخلة معقّدة.

وإذا كان الفضاء الرّوائيّ هو الهدف من تحليل المكان فإن تحقيق هذا الهدف يحتاج في رأيي إلى التمييز بين الرّوايات التي لم تنتقل من المكان إلى الفضاء، وتلك التي بنت فضاء روائيًّا. أمّا النوع الأول فأقترح أن نطلق عليه مصطلح «صورة المكان». وأمّا النوع الثاني فأرى أن نطلق عليه عبارة «بناء المكان الرّوائيّ»، ونلجأ في تحليله إلى إجراءين: أوّلهما الاختراق، وثانيهما الإحياء، على أن ندمج في أثناء التحليل الإجراءين معًا، لأن الارتباط الوثيق بينهما يُسهّل الدّمج والشرح. وليس من المفيد أن نُخصّص للوصف وقفة مستقلة، لأنه وسيلة روايات النوعين إلى تحديد المكان.

الإحالات:

1ـ الكليات للكفوي 2/223.
2ـ تنظر ص106 من: فن القصة، د. محمد يوسف نجم، دار بيروت، بيروت 1955م.
3ـ نص يوري لوتمان على أن المكان الفني متناه، غير أنه يحاكي موضوعًا غير متناه هو العالم الخارجي. تنظر ص 88 من: مشكلة المكان الفني، ترجمة: سيزا قاسم، مجلة «ألف»، القاهرة، العدد 6، ربيع 1986.
4ـ تنظر ص17ـ18 من: الرواية والمكان، دراسة في فن الرواية العراقية، ياسين النصير، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد 1980م.
5ـ تنظر ص27 من: بنية الشكل الرّوائي، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء 1990م.
6ـ النقد البنيوي والنص الرّوائيّ، محمد سويرتي، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 1991م.
7ـ9ـ تنظر ص30 من: بنية الشكل الروائي، مرجع سابق.
10ـ تنظر ص72 من: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، حميد لحمداني، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء 1991م.
11ـ المرجع السابق ص63.
12ـ تنظر ص27 من: الرواية والمكان، مرجع سابق.
13ـ تنظر ص217ـ 226 من: المكان في الرواية العربية، غالب هلسا (ضمن كتاب: الرواية العربية، واقع وآفاق)، دار ابن رشد، بيروت 1981م.
14ـ تنظر ص83 من: مشكلة المكان الفني، مرجع سابق.
15ـ تنظر ص33 من: جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1984م.
16ـ التقاطب هو وجود قطبين متعارضين.
17ـ التراتبية هي الخضوع لمبدأ التراتب.
18ـ الرؤية هنا هي وجهة نظر الشخصية أو منظورها.
19ـ تنظر ص90 وما بعدها من: مشكلة المكان الفني، مرجع سابق.
20ـ تنظر ص191 وما بعدها من: جماليات المكان، مرجع سابق.

نافذة على ثقافة العالم

مسلمون بين ظهرانينا

الإسلام في سويسرا

1



تأليف:

كريستوف بيتر باومان

وكريستيان ياجي

Christoph Peter Baumann,

und Christian J. Jaeggi

تقديم:

هانس كينج

Hans Kueng

الناشر:

دار ريكس لوتسرن وشتوتجارت

Rex-Verlag Luzern/Stuttgart

1991م

ترجمه عن الألمانية وعرضه ولخصه وقدم له:

ثابت عيد

تقديم المترجم

ليس صحيحًا أن خوف الغرب من الإسلام لم يبدأ إلا بعد سقوط الشيوعية، وتفكك الاتحاد السوفيتي، كما تفكك حبات العقد. وليس صحيحًا أيضًا أن مخاوف الغرب من الإسلام لم تظهر إلا في أثناء حرب الخليج الأخيرة؛ فخوف الغرب من الإسلام قديم قدم الإسلام نفسه. ولكن ينبغي أن نفرق هنا بين نوعين من الخوف: خوف له ما يسوّغه من أسباب مقنعة، وخوف مبني على الأوهام. فالحضارة الإسلامية - كما يذهب بعض المؤرخين - بدأت مرحلة الانحطاط سنة 1111م، وهي السنة التي تمثل أيضًا بداية عصر الحضارة الأوربية. ومنذ ذلك الوقت وأوربا تتقدم، والمسلمون يتأخرون. أوربا إذن قوية، والمسلمون ضعفاء، والقوي لا يخشى الضعيف، إلا عن جهل بقوته، وضعف الآخر، أو ربما عن مرض نفساني، يتوهم فيه القوي نفسه ضعيفًا، وخصمه الضعيف قويًا. ومخاوف الغرب من الإسلام لها سببان: الجهل، أو الخبث. فثمة فئة من أهل الجهل في الغرب، يسمي أفرادها أنفسهم «خبراء في شؤون الشرق الأوسط»، دون أن يكونوا قد درسوا تاريخ العرب والإسلام، وفهموا عقلية تلك الشعوب. هذه الفئة تتاجر بتخويف الغربيين من الإسلام، وتستخدم تعبيرات غليظة، لإرهاب بسطاء الناس، وإدخال الرعب في نفوسهم من الإسلام، مثل: سيف الإسلام، والزحف الإسلامي، والخطر الإسلامي، والتحدي الإسلامي، والإسلام سيلتهمنا، إلى آخره. وخير ممثل لهؤلاء الجهلة الصحفي الألماني جيرهارد كونسلمان. أما الفئة الثانية، فهي تتاجر أيضًا بتخويف الغربيين من الإسلام، ولكن عن خبث. وتكاد هذه الفئة تنحصر في بني صهيون. ولعل برنارد لويس هو خير من يمثل هذه الطائفة. وفي حوار لي مع أحد أساتذة الدراسات الإسلامية الألمان عن مخاوف الغرب الوهمية من الإسلام، قلت له: «هذه المخاوف المزعومة من الإسلام ليس لها ما يسوّغها، لأن المسلمين اليوم في حالة ضعف تام. فهم عاجزون عن تصنيع دراجة أطفال، دون الاستعانة بالعلم الغربي و(التكنولوجيا) الغربية. والغرب لديه من الأسلحة الفتاكة، والقنابل المدمرة، ما يكفي، ليس لسحق المسلمين من على وجه الأرض فقط، ولكن أيضًا لتدمير الكرة الأرضية مئات المرات». والحمد لله أن الغرب لم يعدم المتخصصين العقلاء، الذين يحاولون تصحيح صورة الإسلام المشوهة في الغرب، وتنوير العباد، ليتحرروا من خوفهم الوهمي من الإسلام. نذكر من هؤلاء هانس كينج، أشهر علماء الأديان السويسريين. وجرنوت روتر، أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة هامبورج. فالأول معروف عنه مواقفه المتسامحة، وآراؤه المعتدلة، وكثيرًا ما أخبرني - مازحًا - أنه كلما تحدث مع اليهود، يدافع عن الإسلام، أكثر من المسلمين!! أما البروفيسور روتر، فقد فاقت شهرته الآفاق، بعد أن نشر كتابه المتميز Allahs Plagiator عن سرقات الصحفي الألماني كونسلمان،

حيث فضح جهالات هذا الصحفي، وافتراءاته على الإسلام. ويمثل هذا الكتاب تحوّلاً خطيراً في تاريخ الاستشراق برمته. فالاستشراق في هذا الكتاب لا يشوه الإسلام، بل يصحح صورته المشوّهة، ولا يهاجم الإسلام، بل يدافع عنه ضد الطاعنين فيه. وهذا بلا شك تيار يستحق كل التقدير والاحترام. ونأمل أن يكون هذا الكتاب بداية عصر جديد بين المستشرقين والعالم الإسلامي.

وموضوع صورة الإسلام المشوهة في الغرب له وجه آخر، كاد يصير نسياً منسياً. فنحن ننقد الغرب، ونتهمه بالتحيز ومعاداة الإسلام، ولكننا - في الوقت نفسه - لم نسأل أنفسنا: أين نحن اليوم من الإسلام؟ نحن ندافع عن الإسلام، ونقاتل (بالكلام) في سبيله. بيد أن كل ذلك كلام نظري، أي إنه كلام في كلام. أما الواقع والحقيقة، فشيء آخر. نعم نحن نقول - مع من يقول -: ينبغي التفريق بين الإسلام والمسلمين. ولكن إلى متى ستظل هذه الهوة السحيقة التي تفصلنا عن تعاليم ديننا الحنيف؟ فالإسلام يأمرنا بالعدل، في حين أننا من أظلم أمم الأرض. وهو يأمرنا بتحصيل العلم، ولكننا مازلنا من أجهل شعوب الدنيا. وهو يأمرنا بالتكافل الاجتماعي، ومكافحة الفقر، ولكن الشعوب الإسلامية من أفقر شعوب العالم. وعلى الرغم من اقتناع كاتب هذه السطور بأولية النقد الذاتي على نقد الآخر، فقد يعيننا استعراض صورتنا المشوهة لدى الغرب على فهم الذات ونقدها.

لعل أهم ما يكشف عنه هذا الكتاب هو ضعف المسلمين في سويسرا، وتواضع أحوالهم، وتفشي الجهل فيهم. وهذا لا محالة نتيجة حتمية للأوضاع في عالمنا الإسلامي، حيث ينتشر الجهل والفقر والمرض. ومسلمو سويسرا لم يأتوا من المريخ، أو القمر، ولكن من دول العالم الإسلامي. والواقع أن الغرب لا يُسيء إلى الإسلام، بقدر ما يسيء المسلمون أنفسهم إليه. فعندما يرى السويسريون فريقا من المسلمين لا يتشاجرون، إلا بالسكاكين، ويجهلون اللغات الأوربية الحديثة، ويتمسكون بهذا الجهل، ولا يعرفون عن الإسلام، دينهم، إلا القليل، ويتركون جسم الإسلام، ويتعلقون بذيله، أي إنهم يتركون الأصول والأساسيات، ويتعلقون بالفروع والتفاهات، فلا عجب بعد ذلك كله أن ينال السويسريون من الإسلام، والمسلمين جميعاً. ويقودنا هذا إلى التفريق بين الكم والكيف. فالكم إذا لم يصحبه كيف محترم، يتحول إلى لا شيء. ولننظر إلى العرب وإسرائيل كمثال لذلك. فكَمّ العرب - أكثر من مئتي مليون نسمة - لم ينفعهم في شيء أمام الكيف الإسرائيلي العلمي والعقلاني. فكم العرب هنا مثله مثل عدمه. وكذلك الحال بالنسبة لتزايد أعداد المسلمين في أوربا. فما جدوى هذه الأعداد المتزايدة من المسلمين، إذا كانت بلا كيف؟ فمعظم مسلمي أوربا من العمال المحدودي العلم والثقافة، وهم لا يمثلون الإسلام، بقدر ما يُسيئون إليه.



قلعة «سيون» شاهد حي على الوجود العربي الإسلامي في سويسرا

ويكشف الكتاب عن هواجس بعض الغربيين بأن المسلمين قد قدموا إلى أوربا، لنشر الإسلام، وليس للعمل. وهذا بالطبع كلام ليس له أي علاقة بالواقع. والأتراك، على تفشي الجهل بينهم، إلا أنهم أكثر جاليات المسلمين تنظيماً ونشاطاً. ويكفي أن نذكر أن 90٪ من مساجد سويسرا وألمانيا بناها الأتراك. ومما يُسيء إلى الإسلام بصورة خاصة بعض أصحاب الجهالات من المسلمين، حيث يرفعون أصوات أجهزة التسجيل عند سماعهم القرآن، دون أدنى مراعاة لحقوق البلد المضيف، وعادات أهله وتقاليدهم. وللسعودية حضور قوي في سويسرا في مجال نشر الدعوة الإسلامية، ويكفيها فخراً أنها أسست مسجد جنيف الذي يُعدّ بحق تحفة فنية رائعة.

والمسلمون في سويسرا مشتتون، لاختلاف ثقافاتهم، ولغاتهم، وجنسياتهم. وهم يواجهون مشكلات جمّة في مجال ممارستهم للعبادات، وكذلك فيما يخص تربية الأطفال على النهج الإسلامي. ويُشير الكتاب إلى وفرة الكتب المتحيزة ضد الإسلام، وندرة الكتب الموضوعية والمحايدة عنه. ومن مظاهر جهل الغربيين، أو تحيزهم ضد الإسلام، تسميتهم المسلمين «محمديين» وادعاؤهم بأن إله المسلمين مختلف عن إلههم!!. فإله المسلمين هو Allah، أما إلههم هم فاسمه Gott!! وهذا كلام لا يكشف عن جهل فحسب، بل أيضاً عن جمود وانحطاط. والكتاب في مجموعه محاولة جادة، لتعريف السويسريين بالإسلام. وهذا في حد ذاته يستحق التحية والتشجيع. فليس هدف الكتاب المتاجرة الرخيصة بالإسلام، وتخويف السويسريين منه، ولكنه يسعى إلى إقناع السويسريين بأن الإسلام والمسيحية دينان تربطهما صلة قرابة. وهذا ينطبق على ما ينادي به هانس كينج من أفكار، حيث إنه يدعو إلى التركيز على نقاط الاتفاق بين الأديان السماوية، ونبذ نقاط الخلاف، أو التقليل من شأنها، حتى يتقارب أصحاب الديانات الثلاث، ويتحاوروا، ويتعاونوا، وحتى لا يتخاصموا، ويتحاربوا، ويتباغضوا. ومن سوء الحظ أن مثل هذه الكتب الموضوعية الجادة لا تجد رواجاً كبيراً بين القُرّاء الذين

هذا الكتاب يعالج الإسلام - بوصفه ثاني أكبر الأديان في العالم - بطريقة جادة وموضوعية؛ لأن الإسلام يمثل العالم الروحاني للمسلمين المقيمين في سويسرا منذ عشرات السنين

يفضلون في الغالب الكتابات المسطحة التافهة. وسنعرض في السطور التالية بعض الأفكار التي عالجها الكتاب. ونظراً لأهمية مقدمة الكتاب التي كتبها العالم السويسري هانس كينج، فقد رأيت أن أترجمها من الألمانية إلى العربية، حتى نقدم للقارئ فرصة لتعرّف أفكار الوجه الآخر للغرب. فليس كل الغربيين يهاجمون الإسلام، بل ثمة فئة محايدة من العلماء تدعو لوقف الصراع بين الأديان، وتنادي بالحوار الموضوعي الجاد، وهانس كينج هو أحد كبار هؤلاء العلماء.

مقدمة عالم الأديان السويسري هانس كينج لكتاب الإسلام في سويسرا

هذا الكتاب المحكم الإعداد، والمصوغ بأسلوب جيد في آن واحد، عن الإسلام في سويسرا، هو أكثر فائدة وعوناً على فهم الإسلام من الكثير من الكتب التي تعلو قائمة الكتب الأكثر مبيعاً، والتي تتاجر بتخويف الناس من الإسلام، أو تقدم للقارئ مأساة فردية لحالة زواج مشترك بين سيدة أمريكية، ورجل إيراني مسلم (الكتاب هو «ليس من دون ابنتي»).

لا يصور هذا الكتاب الإسلام بوصفه خطراً وتهديداً للغرب، كما لو كان الزحف الإسلامي سيجتاح أوربا في القريب العاجل، وكما لو كان كل مسجد يُبنى في أوربا يُمثل بالفعل تهديداً للغرب المسيحي.

وكما حدث في الماضي، وبالغ الغربيون في تصويرهم لـ «اليهودية العالمية» بحسبانها تمثل تهديداً كبيراً للحضارة الأوربية المسيحية، حيث صارت اليهودية كبش فداء، فكثيراً ما يحدث الشيء نفسه اليوم مع «الإسلام العالمي».

وكما ينبغي مقاومة أي عداء لليهودية بحزم وشدة، فكذلك يجب معارضة أي معاداة للإسلام. ذلك لأننا نستطيع أن نقول إن الحالتين تعنيان معاداة السامية، لأن العرب هم أيضاً ساميون.

يُعالَج الإسلام في هذا الكتاب بطريقة جادة وموضوعية، وذلك بصفته ثاني أكبر الأديان في العالم. وهو ببساطة - أي الإسلام - يمثل العالم الروحاني للمسلمين المقيمين في سويسرا منذ عشرات السنين، والذين أتوا إلينا من أنحاء مختلفة من العالم، كالسعودية، أو يوجوسلافيا، أو تركيا.

والإسلام - مثله مثل المسيحية - له فضائله الملموسة، ولكنه يواجه أيضاً العديد من المشكلات المستعصية، كالحياة في مجتمع ذي تقاليد مسيحية، ولكن أيضاً في عالم دنيوي حديث.

إننا - كمسيحيين - لا يمكن أن يكون لنا أي مصلحة في زعزعة إيمان المسلمين، لكي نصل بهم إلى حيث وصل الكثير من مسيحيي الغرب من الناحية الروحانية، أي التخلي عن الدين الذي غالباً ما يتبعه أيضاً التخلي عن أخلاق أساسية مهمة.

نحن، والدولة أيضاً، وكذلك الكنائس المسيحية المختلفة، لا يمكن أن يكون لنا مصلحة، إلا باحتفاظ المسلمين بإيمانهم بإله واحد، وبتعميق إيمانهم الروحاني بالله تعالى، وبأن يواصلوا ممارسة دينهم. بالطبع ليس من دون مراعاة تقاليد بلدنا، وعاداتها.



برج «مارتينيه» أحد الآثار العربية الإسلامية في سويسرا

فمصلحتنا - نحن المسيحيين - هي ألا يتقوقع المسلمون على أنفسهم، وينعزلوا عن المجتمع الأوربي الذي يعيشون فيه. إن من مصلحتنا أن ينفتح المسلمون دينياً على العالم الذي يعيشون فيه، وأن يعلنوا استعدادهم للحوار والتعاون.

يشرح هذا الكتاب في بدايته بصورة دقيقة وشاملة معتقدات المسلمين، وما يجب عليهم أن يتمسكوا به، ويصور الكتاب في الوقت نفسه، بطريقة موضوعية جداً، كيفية قيام المسلمين بممارسة دينهم في بلدنا، والمشكلات التي تواجههم في هذا الشأن.

فالنقاط الحساسة في الإسلام، كأحكام الطعام، ومشكلات المرأة، وتربية الأطفال المسلمين، كل هذه الموضوعات يعالجها الكتاب ليس بصراحة فقط، ولكن أيضاً بتفهم.

ومن يستعلم أكثر عن التنظيم المتواضع لتلك الأقليات المسلمة، المختلفة الأجناس واللغات، في سويسرا، يفقد الخوف من الإسلام العالمي المزعوم، على الأقل في بلدنا سويسرا.

أليس من الممكن أن تقوم هنا بعض دوائر الكنيسة بتقديم مساعداتها، ليحصل المسلمون على قاعات اجتماعات، وأماكن للصلاة؟ فالممارسة العملية لحوار الأديان تعدّ شيئاً مطلوباً وضرورياً هنا. حوار أديان موجه نحو الخارج، نوعاً ما، بعد أن عودنا أنفسنا - ولله الحمد - على حوار أديان موجه نحو الداخل. ففي هذا العالم الذي نعيش فيه، لم يعد بإمكان الكنائس المسيحية أن تركز الحوار على نفسها فحسب، بل يجب عليها ممارسة الحوار مع الأديان العالمية الأخرى أيضاً.

وهكذا يُبرز هذا الكتاب ضرورة تحقيق برنامج «لا سلام عالمي، بلا سلام بين الأديان». إن هذا السلام يبدأ ببساطة بصغائر الأمور، يبدأ في البيت، ويبدأ في موقع الأحداث.

إن هذا الكتاب مفيد ومعين، وخاصة للتطبيق العملي، فمن خلال معلومات نظرية مُوثّقة، يسعى الكتاب بطريقة عملية جداً إلى تحسين شامل للعلاقة بين المسلمين والمسيحيين في سويسرا. كما أنه يقترح نموذجاً للحوار الديني، ويقدم النصائح المختلفة، بما في ذلك ما يتعلق بزيارة المساجد. وبذلك يمكن تقليل التصورات المشوهة، والتعصب، عند كل من الفريقين.

والكتاب لا يرمي إلى التقليل من شأن مشكلة هوية المسلمين الثقافية والدينية في سويسرا، فهو لا يدعو إلى إقامة أحياء دينية منعزلة ومتقوقعة على نفسها، بالعكس: هذا الكتاب يدعو إلى اندماج يشمل المسلمين أيضاً، من خلال المساواة في الحقوق، ومن طريق التعاون المشترك، والعلاقات الوثيقة.

ويتضح مما سبق أن هذا الكتاب ينبغي أن يقتنيه كل صاحب عمل، وكل مدرس، وكل قسيس، وكل موظف شؤون اجتماعية. نعم، كل إنسان، كل سويسرية، وكل سويسري، ممن يتعامل مع المسلمين في سويسرا.

إن هذا العمل الشجاع الذي أنجزه المؤلفان الخبيران، والمهتمان بالإسلام: كريستوف بيتر باومان، وكريستيان ي. ياجي، يستحق كل مساندة وتأييد.



مسلمون بين ظه

الإسلام في سويس

تلخيص كتاب

الإسلام في سويسرا

المذاهب المختلفة في الإسلام

ليس المقصود هنا بالمذاهب الإسلامية المختلفة المذاهب والمدارس القديمة كالمعتزلة والأشعرية والحنبلية والكرامية وغيرها، ولكن المقصود هو المذاهب الحديثة في الإسلام، حيث يكاد الاختلاف بين المسلمين ينحصر بين المذهبين السني والشيعي، وما عدا ذلك من اتجاهات وفرق، لا يمثل إلا أقليات محدودة. وتتراوح نسبة أهل السنة اليوم بين 85 و92٪ من إجمالي عدد المسلمين، بينما تبلغ نسبة الشيعة بين 7 و15٪، وهناك اعتراف متبادل بين أهل السنة والشيعة، والخلاف الرئيسي بينهما يتمثل في مسألة الخلافة. والمدارس الفقهية الأربع في الإسلام: الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية ليست فرقًا عقدية، ولكنها مدارس فقهية، تعترف كل منها بالأخريات. وقد ازداد الإسلام الشيعي شهرة بعد ثورة الخميني. وعلى الرغم من تداول أخبار بعض أحزاب الشيعة المتطرفة، إلا أن اعتبار كل الشيعة متطرفين بسبب ذلك يكون تعميمًا سطحيًا.

المرأة في القرآن

يميّز القرآن بين علاقة الإنسان بربّه من ناحية، وعلاقة الإنسان بالإنسان من ناحية أخرى. ففي علاقة الإنسان بالبارئ تعالى يتساوى الرجل والمرأة جميعًا أمام الله. يقول الله تعالى: *يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً*. **النساء**:1. فالمرأة في الإسلام لم تخلق للرجل، بل إنهما خلقا ليكمل كلٌ منهما الآخر. وتتفق الأديان السماوية الثلاثة على الإيمان بيوم القيامة والحساب. ويساوي الإسلام بين الرجل والمرأة من ناحية الجزاء والعقاب، تبعًا للحسنات والسيئات: *مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ*. **غافر**: 40. ومن هنا لا يمكن الادّعاء بأن المرأة ليس لها نفس، ومن ثم لا يمكن أن تدخل الجنة. وبعكس رواية الكتاب المقدس، لا يتهم القرآن حواء فحسب بمعصية الله، بل آدم أيضًا، يقول الله تعالى: *وَيَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ. وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ. فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ. قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ. قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ*. **الأعراف**:19-24.

الرجل والمرأة لهما واجبات مختلفة

لا يُساوي الإسلام بين المرأة والرجل في كل شيء، فلكل منهما واجبات محددة، وحقوق مفصلة، فالرجل مسؤول عن تدبير نفقات المعيشة للأسرة، وهو يحمي أفراد الأسرة، ويمثلهم أمام المجتمع. والمرأة تنجب الأطفال، وتقوم بتربيتهم، وترعى أمور الأسرة. والرجل هو ربّ العائلة، والمرأة مدينة له بالطاعة: *الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ*. **النساء**:34. وقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بحسن معاملة النساء، والرفق بهن. وتثير مسألة تعدد الزوجات في الإسلام الكثير من الجدل في أوربا. نعم إن القرآن يسمح بهذا التعدد، ولكنه في الوقت نفسه لا يعده مثاليًا. فتعدد الزوجات مشروط بالعدل والمساواة في المعاملة، وهو شرط صعب التحقيق. يقول الله تعالى: *فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ*. **النساء**: 3. ثم إن تعدد الزوجات له فوق ذلك أسبابه التاريخية، حيث إن عدد النساء كان يفوق عدد الرجال في الجاهلية وصدر الإسلام، بسبب كثرة الحروب، وارتفاع عدد القتلى من الرجال. وهكذا ازداد عدد الأرامل، فكان حل هذه المشكلة بإدخال نظام تعدد الزوجات. وتقدير الإسلام لدور المرأة في المجتمع يتضح من خلال الحديث النبوي الشريف القائل بأن: «الجنة تحت أقدام الأمهات». ومكانة المرأة في القرآن لا تختلف كثيرًا عن مكانتها في التوراة والإنجيل، فهي ليست معدومة الحقوق، ولكنها في الوقت نفسه لا تتمتع بحقوق الرجل نفسها. ومما يؤخذ على مؤلفي الكتاب أنهما استعانا بكتابات المستشرقة الألمانية الشرقية فيكا فالتر عن المرأة في الإسلام، وهذه المستشرقة معروف عنها أنها شيوعية، لا تحترم الأديان السماوية، وتنظر إلى الإسلام بعيون ماركسية ملحدة.

> **الكتاب لا يرمي إلى التقليل من شأن مشكلة هوية المسلمين الثقافية والدينية في سويسرا؛ بل يدعو إلى اندماجهم في المجتمع من خلال المساواة في الحقوق والتعاون المشترك**

مشكلات المرأة المسلمة في سويسرا

كان لرواية «ليس من دون ابنتي» بقلم الأمريكية بيتي محمودي دور كبير في تشويه مكانة المرأة في الإسلام، وأساءت إلى الإسلام في الغرب بشكل عام. فقد بيع من الترجمة الألمانية لهذه الرواية ثلاثة ملايين نسخة. والرواية تحكي باختصار قصة، أو مأساة زواج فاشل بين مؤلفة الرواية بيتي محمودي، ومسلم إيراني. والقصة، وإن كانت حقيقية، لا تعكس بشكل عام مشكلات المرأة في الإسلام. ولكن عامة الغربيين يميلون إلى تصديق أحداث هذه الرواية، بل يعممونها أيضًا. وقد أسهمت هذه الرواية في تأكيد تصورات الأوربيين الوهمية عن وضع المرأة في الإسلام. وقد قامت بعض المسلمات في سويسرا بتوجيه نقد لاذع إلى تصرف السويسريين إزاء هذا الكتاب، حيث تقول إحداهن: «قبل أن ينتقد السويسريون وضع المرأة في الإسلام، عليهم أن يصلحوا من وضعها في سويسرا. فالمرأة مازالت لا تحصل على مثل أجر الرجل إذا أدت العمل نفسه. وحتى عهد قريب كانت المرأة السويسرية في كانتون أبنتسل لا يحق لها الإدلاء بصوتها في الانتخابات، ثم لماذا يؤسس السويسريون بيوتًا خاصة للنساء المضطهدات (في الغالب يكن هاربات من تعذيب أزواجهن الذين يقومون بضربهن، وإساءة معاملتهن)،



مسلمون بين
الإسلام في س

إذا كـانت المرأة لا تضطهد إلا في الإسـلام؟»، وترى بعض السويسـريات الخبـيرات بشـؤون الإسـلام أن وضع المرأة في كـثيـر من الدول الإسلامـية يشبـه إلى حـد كبـير وضـع المرأة السويسـرية قـبل مدة ليست طويلة. ومن أهم مـشكلات المسلمـات في سويسـرا: الحـجـاب، والفـصل بين الإنـاث والذكـور. ويضطر كـثيـر من المسلمين إلى تزويج بناتهم في سن مـبكرة، تحاشيًا لمشكلات الاختـلاط والإباحـية. وغـالبًا مـا يكون زواج المسلمين في سويسرا زواجًـا مرتبًا، بمعنى أنه ليـس «زواج حب» على الطريقـة الأوروبيـة التي تسمح للرجل بمعاشرة المرأة جنسيًا قبل الزواج، ولكنه يكون زواجًا فـيمـا بين الأصدقـاء أو الأقارب؛ أي أن يزوج المسلم ابنته لابن صديقه، أو قـريبه المسلم مثلاً. أما ربـات البيوت المسلمات في سـويسرا، فـغالبًـا ما يكن مـشغـولات بتـربيـة الأطفال، وأعـمـال التدبيـر المنزلي. ومعظم هؤلاء النساء لا يتحدثن أي لغة أوربية على الرغم من أن بعـضـهن يعـشن في سـويسـرا منذ عشرات السنين.

الحجـاب

ترتدي عجائز المسلمـات الحجاب، لأنهن تعودن ذلك في الوطن الأم، قـبل قدومـهن إلى سويسـرا. أما بنات المسلمين في سويسرا، فأمـرهن مختلف. فطائفة منهن لا ترتدي الحـجـاب، ويشـعـرن على الرغم من ذلك أنهن مسلمـات. وثمة طائفة أخـرى تنتظر حتى الزواج. ففي تركيا كان ارتداء الحـجاب في الجامعات ممنوعًـا، حـتى تشـرين الأول/أكـتـوبر 1990م. وقـد يحـدث في العائلة الـواحدة أن ترتدي إحـدى البنات الحـجاب، وترفـضه أخـرى. بيـد أن عدد المسلمـات المتـحجبـات في تزايد مسـتـمر. وتـواجه المسلمـات المحجبـات في سـويسـرا مـشكلات جـمّـة، حيـث يتعرضن في الطريق أحيـانًا للسب واللعن. وفي أحيان أخـرى تمتـد أيدي المعـاكـسين إلى الحـجـاب، تريد تمزيقه. وتشكو إحدى المسلمـات قائلة: «في سويسرا يوجد أيـضًا مسيـحيـات مـحجبـات، مثل الـراهبات والممرضـات. فلماذا يضايقـوننا نحن فقط، ويتـركـون المسيحيات؟». وحصول المحجبات على مسكن غالبًا ما يكون عـسيرًا. فـبعض المسلمات المحجبات يروين أنهن كـان من الممكن أن يـحصلـن على مـسكن، لو تخلين عن الحجاب. وقد يكون الحـجاب سببًا للطرد من العمل، كما حدث مع إحدى المسلمات قبل عدة سنوات، حـيث طردها صـاحب العـمل، ولكنهـا لم تقبل قرار الطرد، وقـاضت صاحب العمل، وحكمت المحكمة لها بتعويض.

> مما يؤخذ على مؤلفي الكتاب أنهما استعانا بكتابات المستشرقة الألمانية الشرقية فيبكا فالتر عن المرأة في الإسلام، وهي مستشرقة شيوعية تنظر إلى الإسلام بعيون ملحدة

تشويه صورة الإسلام في الغرب

ازداد الاهتـمام بالإسـلام في الغـرب في السنوات الأخيرة، ويتضح هذا من خلال الكم الهائل من الكتب والمقالات وبرامج الإذاعـة والتلفاز التي تعالج مـوضوع الإسلام. ويـعيب كـثيـرًا من هذه المنشورات أنهـا تنقل الأخطاء القـديمة عن الإسلام، وتـسهم في نشـرها، من ذلك مثلاً ما ذكره أحـد الكتّاب السويسريين أن الركن الخامس للإسلام، ليس الحج، ولكن «المسـاهمة في نشر الإسـلام، ولو بالسـيف عند الـضـرورة!!». وتعـد المستـشرقة الألمانية سيجريد هونكه من قـلائل الكتّاب الغربيين المدافعين عن الإسلام. وقـد شاركت بكتـابها Allah ist ganz anders في تصحيح صورة الإسلام في عـقـول الغـربيين. وليس نقص المعلومـات فـقط هو المشكلة، ولكن المعلومات المتحيـزة أيضًا تسهم في نشر الصـورة المشوهـة عن الإسلام. فكتـاب مـثل «ليس من دون ابنتي» يجـد رواجًا وقبـولاً لدى القرّاء أكـثر آلاف المرات من أي كتاب موضوعي عن الإسلام. ومثل هذه الكتب تؤكد تصورات الأوربيين الخـاطئة عن الإسلام. ويواجـه البـاحثـون الأوربيون مـشكلات جـمّة عندمـا يبحثون عن مسلم متدين ليجيبهـم عن بعض الأسئلة المتعلقـة بالإسلام، أو لمراجعة مـا كتبوه، أو اطلعـوا عليه من كتابات. فإما أن تقف اللغة عـائقًا، وإما أن يتشاجر المسلمون فـيمـا بينهم، ويتبادلوا الاتهـامات بعـدم فهم الإسلام.

الجهـل

يـبـدأ الجـهـل بالإسـلام بـتـسـمـيـة المسلمين «مـحـمـديين». ويعـدّ معظم المسلمين هـذه التسـمية إهانة لهـم، لأنهم لا يعـبدون محـمّدًا صلى الله عـيه وسلم، ولكن يعـبـدون اللّه، الواحـد الأحد. ويفـرق أصحـاب الجهالات من السـويسريين بين لفظ Gott باللغـة الألمانيـة، ولفظ Allah، حيـث يعتـقـدون أن المسلمين يعبدون Allah بينما يعبدون هم Gott!! ونسـي هؤلاء الجـــهـلة - أو تناســـوا - أن اللفـظين متطابقـان، وأن المسيحـيين العرب لا يستخـدمون إلا لفظ Allah عند حديثـهم عن البارئ تعـالى. ويهمنا أن نوضح هنا للـقارئ العـربي أن لفـظ «اللّه» يتكون لغويًـا من الألف واللام للتعريف، مضـافًا لهمـا لفظ «إلاه»؛ أي «الإلاه»، ثم حُذفت الهمزة، فصار اللفظ «اللاه»، ثم حذفت الألف الأخيـرة في الكتابة لا في اللفظ، فصارت الكلمة «اللّه».

لماذا لا نعرف إلا القليل بعضنا عن بعض

السبب الأول هو الخوف المستتر من «الآخر». فبسـبب الكراهيـة المتبـادلة لا يسـعى أي طرف إلى الحـوار مع الطرف الآخـر. واستـعـداد كـلا الطرفين واهتمـامه لمعرفة عـقيدة الآخر واكـتشافها متـواضع. يضاف إلى ذلك اعتماد السويسريين في معرفتهم عن الإسلام على كـتب غالبًـا ما تكون غيـر موضوعيـة، ومتحيـزة ضـد الإسلام. وعناوين مـثل «سيـفتـرسنا الإسـلام»، أو «التـحـدي الإسـلامي»، أو «سـيـف الإسلام»، تكشف عن محـتويات هذه الكتب. ومن المؤكد أن المناهج الدراسيـة المقررة في كثير من دول الغـرب أسـهـمت في الإبقـاء على هذا المسـتـوى المتـواضع من المعلومـات عن الإسلام. ومن ناحيـة أخـرى فـالمسـيـحـيـة لا تكاد تُـدرس في الدول الإسلاميـة. فمعرفة المسلمين عن المسيحية، ومـعرفة المسيحيين عن الإسلام، سطحية ومحدودة.

نقص المعلومات

أحـد أسبـاب توتر العـلاقـات بين أصحـاب الديانات المختلفـة قـلة المعلومـات الصـحـيـحـة عن «الآخر». فـالإسلام والمسيحيـة دينان متقاربان، بل تربطهـما صلة قـرابة، وهذا يجـعل التفـاهم المتبـادل بينهـمـا من الناحيـة النظريـة ميـسـورًا. ولكن الواقع مـختلف عن النظرية. فـهناك تصـورات متـحـيـزة، وحساسيات، وكراهية متبادلة. ويظهر عداء المسيحية للإسلام بشكل واضح، عندمـا يبحث المسلمون عن مكان يبنون فيه مسجدًا، يعبدون اللّه فيه، حيث غالبًا ما يعترض المسيحيون على ذلك.

دائرة المعارف

من كتّاب أدب الخيال العلمي في الغرب

إعداد:
صفات أمين مصطفى سلامة

أ

أسيموف، إسحق

كاتب أمريكي، يُعدّ من أشهر كُتّاب الخيال العلمي الحديث، ولد في بلدة «بتروفيش» جنوب غربي موسكو بروسيا، في 2 كانون الثاني/يناير 1920م، وتوفي في نيسان/أبريل 1992م. في عام 1923م هاجر مع والديه إلى أمريكا، وفي الثامنة من عمره حصل على الجنسية الأمريكية، وساعدته ذاكرته الجبارة على إنهاء دراسته الثانوية قبل أن يبلغ السادسة عشرة، ثم التحق بجامعة كولومبيا وتخرج في قسم الكيمياء، وفي عام 1949م حصل على الدكتوراه وتأهل مدرسًا للكيمياء الحيوية بكلية الطب جامعة بوسطن. في عام 1955م أصبح أستاذًا مساعدًا يقوم بالأبحاث عن الحامض النووي، لكن ضغوط الأبحاث الكيماوية المتزايدة تضاربت مع طموحاته وآماله في الكتابة في مجال الخيال العلمي، فتقاعد عام 1958م وتفرغ للتأليف مع بقاء علاقته بالجامعة.

قرأ أسيموف أول قصة من أدب الخيال العلمي عندما كان في التاسعة من عمره، وهي قصة «جزيرة بارتون» تأليف هارل فنسنت في عدد آب/أغسطس 1929م من مجلة «القصص المدهشة» بعدها أصبح ولوعًا بمجلات الخيال العلمي.

بدأ أسيموف سجله المتألق المتفرد عام 1939م بظهور قصته القصيرة «هاربًا بعيدًا عن فستا»، وبعد ذلك أصبح مشاركًا منتظمًا في مجلات الخيال العلمي البارزة وقتئذ بما فيها مجلة «الخيال العلمي المذهل»، و«المجرة».

وتقسم حياة أسيموف كاتب الخيال العلمي إلى خمس مراحل رئيسية:

المرحلة الأولى: تبدأ بقصته «هاربًا بعيدًا عن فستا» 1939م حتى قصة «هبوط الليل» 1941م، وقصة «هبوط الليل» التي تنهي هذه المرحلة هي التي رسخت شهرة أسيموف كاتبًا رائدًا مبتكرًا.

المرحلة الثانية: تمتد من بعد قصته «هبوط الليل» مباشرة إلى مجموعته القصصية «أنا روبوت» 1950م، وفي هذه المرحلة كتب أسيموف مجموعة القصص والروايات التي تشكل حجر الأساس في شهرته، وهي قصص «الروبوتات» ورواية «المؤسسة».

المرحلة الثالثة: تبدأ برواية «بللورة صخرية في السماء» 1950م حتى «الشمس المجردة» 1957م.

المرحلة الرابعة: تبدأ من قصته «الأرض مكان يكفي» 1957م حتى 1972م بنشر رواية «الآلهة نفسها».

المرحلة الخامسة: تبدأ منذ 1972م حتى وفاته. وتتميز هذه المرحلة بغزارة إنتاجه سواء في أدب الخيال العلمي أو تبسيط العلوم، وفيها أسس مجلة للخيال العلمي باسمه، وكتب عدة روايات منها: «مقدمة للمؤسسة» و«روبوتات الفجر» و«الهدف العقل» و«الروبوتات والإمبراطورية»، كما جمع كل ما كتبه عن الروبوتات في مجلد واحد، وأصدر مجموعتين جديدتين هما «أحلام الروبوت»، و«أزازيل»، وأنتج مجلدين عن سيرته الذاتية في نحو 1600 صفحة.

يقول أسيموف عن إنتاجه الأدبي: «إن الخيال العلمي هو أكثر أشكال الكتابة التي مارستها احتياجًا للبراعة والحنكة، لأن الكاتب يجب أن يخلق بيئة مقنعة بديلة للبيئات الواقعية، وجعل هذه البيئات مقنعة هو بمثابة تحد هائل للخيال».

ب

برادبوري، راي

روائي وكاتب أمريكي، ولد عام 1920م بمدينة «ووكيجان» بولاية ألينوي الأمريكية، وكان لديه شغف كبير بقصص الرعب والخيال الإبداعي (الفانتازيا). بعد تخرجه في المدرسة الثانوية بتفوق، بدأ في العمل بائعَ صحف مما أتاح له الفرصة للاطلاع على مجلات الخيال العلمي المتعددة التي كان يقوم بتوزيعها على العملاء.

ويمثل برادبوري جيل الأدباء الذين درسوا العلم والأدب معًا فجمعوا بين شطحات الخيال ونظريات العلم الحديث في أعمالهم؛ فكتب الرواية الشعبية والقصة القصيرة ورواية الخيال

العلمي، كما كتب مجموعة من المسرحيات التي تنتمي إلى أدب الخيال العلمي استطاعت أن تجعله من أبرز كُتّابه. بدأت محاولات برادبوري في كتابة القصص العلمية وهو في سن مبكرة، واستطاع أن ينشر بعض قصصه في مجلة قصص العلم الخارقة، فنُشرت أولى أقاصيصه في عام 1946م بعنوان «رحلة المليون عام»، وفي 1947م نشر مجموعته القصصية الأولى «المهرجان المظلم»، ثم تتابعت أعماله والتي من أبرزها: «يوميات من كوكب المريخ» 1950م، و«فهرنهيت 451a 1953م، و«تفاحات الشمس الذهبية» 1954م وهي مجموعة قصصية، ثم توالت مجموعاته القصصية الأخرى التي من أشهرها: «يوم أمطرت الدنيا للأبد»، و«الرجل الموشوم»، و«آلات السعادة»، أما رواياته فمن أهمها: «عقار للكآبة» و«مدينة أكتوبر»، كما نشر مسرحيات علمية منها: «العداؤون المنشدون» و«عمود من نار»، و«كلايدوسكوب»، و«نفير الضباب»، ومن أشهر أعماله السينمائية كتابة نص وحوار (سيناريو) فيلم موبي ديك Moby Dick عن رواية هيرمان ميلفيل للمخرج الأمريكي جون هيوستون.

ولعل أهم سمة يتميز بها برادبوري في قصصه أنه كان مخترعًا يملأ أعماله بمختلف الابتكارات وأحدثها ليس اعتمادًا على خياله فقط بل على ماهو موجود فعلاً، سواء على المستوى المادي الواقعي أو على المستوى الفكري النظري، كما حرص برادبوري على أن يجسّد في أعماله ما يمكن أن يسمى بالحقيقة الخيالية التي تأخذ منطق الحقيقة لكي تشكل به الخيال الذي يملك عندئذ قوة إقناع حقيقية.

ت

تسيولكوفسكي، كونستانتين إدوار دوفتش

كاتب ومدرس روسي، ولد سنة 1857م في بلدة كالوجا على بعد 160 كيلا من موسكو، لأب يعمل في مصنع لقطع الأخشاب، فكان الأب منهمكًا في عمله طوال النهار دون أن يجد الوقت الكافي للعناية بالابن الحالم الذي يطالع دومًا كتب الرياضيات والفيزياء منذ السن المبكرة.

يقول تسيولكوفسكي موضحًا الغرض من كتابة مؤلفات خيالية علمية - في مقال له بعنوان «هل يكون هذا خيالاً فحسب؟» كتبه سنة 1935م -: «لا يهمني أيّ شيء بقدر ما يهمني موضوع الإفلات من الجاذبية الأرضية والانطلاق نحو الفضاء. كتاباتي ومقالاتي في علم الخيال أصبحت اليوم معلومات تعتمد على القوانين الطبيعية وليست مجرد أحلام خيالية».

ويُعدّ تسيولكوفسكي أول من قدم دراسات حقيقية عن السفر إلى الفضاء، كما أنه أحد الأوائل الذين أدركوا أن الصواريخ تصلح أداة للإفلات من الجاذبية الأرضية، ومن ثم توصل سنة 1898م إلى استنباط القوانين الرياضية الأساسية للدفع الصاروخي التي على أساسها يقوم تصميم جميع مركبات الفضاء.

من أهم مؤلفات تسيولكوفسكي قصة «خارج الأرض» 1892م التي قدم فيها بعض الأفكار عن الطاقة الشمسية والأقمار الصناعية، ووصف فيها صاروخًا متعدد المراحل يعمل بالوقود السائل، ويستطيع أن يتغلب على جاذبية الأرض؛ واقترح في هذه القصة استخدام النباتات في الحصول على الأكسجين اللازم لركاب هذا الصاروخ، كما تعرض في قصته هذه إلى جميع المعدات الضرورية للعيش خارج الأرض: الإفلات من الجاذبية الأرضية، الاستحمام في الفضاء، الملابس الفضائية، التغذية، الطبيعة القمرية.

أما قصته بعنوان «على القمر» فهي مخطط لرحلة فضائية لم تطبق إلا في أيامنا هذه من طريق رواد أبولو، حيث يصور تسيولكوفسكي في هذه القصة سنة 1893م ارتياد القمر من طرف شخصين أحدهما مغرم بشؤون الفضاء والثاني عالم في الطبيعيات، وهذه القصة التي كتبت في القرن الماضي لم تزل تشد القارئ المعاصر الذي شاهد عملية النزول على سطح القمر في 21 تموز/ يوليو 1969م. وقد عُثر في فقرة من كراس تسيولكوفسكي «كراس مراهق» سنة 1878-1879م على عدة رسوم لرحلات وآلات فضائية متحركة مع تحاليل حسابية تعتمد على أسس طبيعية وميكانيكية فضائية، وهذه الرسوم تعد من أهم مشاريع المركبات الفضائية التي يعتمد عليها علماء الفضاء الآن في تصميماتهم في هذا الميدان.

تشابيك، كاريل

كاتب روائي ومسرحي تشيكي، ولد عام 1890م في تشيكوسلوفاكيا، واشتغل بعد تخرجه بالصحافة والأدب والنقد واندمج في هذه الأوساط في سن مبكرة ولمّا يبلغ الثامنة عشرة من عمره. وهو أول من أدخل كلمة روبوت Robot أو الإنسان الآلي إلى لغة الفن، وانتقلت إلى كل اللغات العالمية، وكان ذلك في مسرحيته «إنسان روسوم العالمي أو الإنسان الآلي» أو Rossum's Universal Robots or R.U.R التي نُشرت 1920م. وكلمة Robot مشتقة من الفعل robit في اللغة التشيكية وتعني «العمل». وأصبحت كلمة Robot شائعة في معظم اللغات بعد عام 1923م على إثر ظهور مسرحية «إنسان روسوم العالمي أو الآلي»، وأصبحت تطلق إما على الآلات الميكانيكية المعقدة التركيب التي لها من الدقة والحساسية في العمل مايجعلها تشبه الإنسان، أو تطلق على الإنسان الذي يقوم بأعمال رتيبة (روتينية) أو حركات آلية (ميكانيكية) بحث حتى ليخيل إلينا أنه جزء من الآلة التي يديرها.

في مسرحية «إنسان روسوم الآلي» يقوم مهندس عبقري اسمه روسوم بصناعة عدد من الروبوتات لتُسَخَّر في الأعمال الوضيعة التي يأنف الإنسان عادة من القيام بها، لكن هذه الروبوتات تكتشف أنها أفضل من الإنسان، الذي يرضى على نفسه أن يقتل أخاه الإنسان في الحروب وغيرها، وأن يرتكب في حقه أبشع الفظائع، لذا تتمرد على أسيادها البشر فتبيدهم عن آخرهم وتحكم العالم.

ومن أهم الأعمال المسرحية الأخرى لكارل تشابيك، مسرحية «لعبة الحشرات»

التي كتبها مع أخيه جوزيف 1921م، ومسرحية «مسألة ماكروبولوس» 1922م، ومسرحية «آدم الخلاق» 1927م وكتبها مع أخيه جوزيف، وأهم روايات تشابيك: «صناعة المطلق» 1923م، و«كراكاتيت» 1924م، و«الحرب مع السمندر» 1937م. توفي تشابيك عام 1938م.

شيللي، ماري

كاتبة وروائية انجليزية، ولدت في انجلترا عام 1797م لوالدين متحررين، فكان أبوها فيلسوفًا سياسيًا ذا سمعة رديئة في عصره، معروفًا بمعتقداته الثورية المتطرفة، وكانت أمها رائدة للحركة النسائية في زمانها، وبعد ميلاد ماري بعشرة أيام توفيت أمها، مما أحزن أباها فتحجر قلبه من ناحيتها، إذ عدّها مسؤولة عما ألمَّ بزوجته. وطفولة ماري كانت في مجملها بائسة لما لاقته على يدي أبيها، فانتحت جانبًا عن أهلها وقضت أيامها في عزلة، إلى أن تزوجت الشاعر الانجليزي برسي شيلي (1792-1822م).

ويرجع بعض الباحثين بدايات القصص العلمي إلى قصة المخلوق المرعب «فرانكنشتاين» التي كتبتها ماري 1818م، وهي قصة خيالية عن مخلوق قبيح صنعه الإنسان من تجميع لأعضاء بشرية وتعريضه لتلك الطاقة الجديدة: الكهرباء، ومازالت هذه القصة عن الإنسان الاصطناعي حتى الآن مبعث إثارة للجماهير.

والفكرة التي صورتها ماري في رواية فرانكنشتاين هي أقرب إلى أفكار الخيال العلمي، فهي في محتواها العام فكرة جذابة حول تغيير العقل والمعالم، ولكن الفكرة الخيالية (الفنتازية) عن المخلوق الذي صنعه فرانكنشتاين لا تتمثل في إعادة خلقه لشخص جديد يثير الرعب فيمن حوله ويتحول إلى شخص إجرامي فقط، وإنما لأن هذا المخلوق عبارة عن تجميع آدمي قام به فرانكنشتاين من بقايا آدمية عديدة لإعادة خلق الإنسان من كائنات ميتة. وليست رواية فرانكنشتاين هي الوحيدة من أدب الخيال العلمي لماري شيللي، فهناك رواية بعنوان «ماتيلدا» 1822م، ورواية «الإنسان الأخير» 1926م. توفيت ماري شيلي 1851م.

فيرن، جول

كاتب فرنسي، ولد في مدينة نانت Nantes بفرنسا 1828م وتوفي في آذار/مارس 1905م. ويُعدّ فيرن وويلز الانجليزي مبتكري رواية الخيال العلمي بالمعنى الصحيح لها، وقد عُرف عن فيرن سعة خياله وكثرة قراءته في علوم الجغرافيا والطبيعة، وحينما كان طفلاً في العاشرة من عمره، قالت له طفلة من رفيقاته بالمدرسة: «أريد منك عقدًا من حبات المرجان»، وفي اليوم التالي هرب التلميذ من بيت أبويه، وذهب ليركب البحر في سفينة كانت تتأهب للسفر في رحلة لصيد المرجان، ولكن أصدقاءه منعوه، وكانت النتيجة أن ضربه أبوه ليرغمه على مواصلة الدرس بدلاً من السفر إلى الجزر لاصطياد المرجان وصنع عقود لبنات من حباته، وقال جول الصغير لأصدقائه: «انتهى الأمر، لن أسافر بعد الآن إلا في الحلم». وهذا ما صنعه بعد ذلك، إذ أقدم على جميع ما يمكن أن يتصوره إنسان من أسفار، ولكن أسفاره كلها كانت من صنع الخيال والأحلام والأوهام، وإن أسفرت فيما بعد عن نتائج للبشرية، لم تسفر عنها قط أي رحلة من الرحلات الحقيقية التي قام بها عشرات من المغامرين والكتّاب والعلماء، كما أن فيرن سبق العلماء والمهندسين والمفكرين في وضع تصميمات خيالية ضمّنها كتبه لمعظم المخترعات المعروفة الآن.

ومن أهم روايات الخيال العلمي لفيرن: «من الأرض إلى القمر» 1864م، و«خمسة أسابيع في بالون» 1863م، و«عشرون ألف فرسخ تحت البحر» 1869م، و«حول القمر» 1870م، و«الجزيرة الغامضة» 1875م، و«حول العالم في ثمانين يومًا» 1873م، التي تُعد من أجمل روايات فيرن وأكثرها شيوعًا، فعندما حانت وفاته كان قد بيع من النسخة الفرنسية وحدها مئة وثمانون ألف نسخة، كما جنى ورثته من ورائها ثروة ضخمة عندما تحولت إلى مسرحية وأُخرجت بعد ذلك في فيلم سينمائي. وقد تخيل فيرن في روايته «من الأرض إلى القمر» أن الأمريكيين هم أول من سيغزون القمر، بل اختار لهم الموقع الممتاز الذي سوف يطلقون منه سفينتهم، وكذلك رواية «عشرون ألف فرسخ تحت البحر» تعدّ من أكثر روايات فيرن قدرة على التوقعات العلمية، فقد توقع فيها صنع الغواصة. وقد أُكتشفت - مؤخرًا - في باريس مخطوطة لفيرن عنوانها «باريس القرن العشرين» يعود تاريخ كتابتها إلى عام 1863م، وظلت مختفية لأكثر من 130عامًا إلى أن عثر عليها - مصادفة - حفيد فيرن في خزانة حديدية مغلقة ضاع مفتاحها، ليتم نشرها أخيرًا، وفي هذه المخطوطة وصف فيرن باريس القرن العشرين مكتظة بالسيارات ووسائل النقل والاتصال الحديثة الموجودة حاليًا، مما أثار دهشة ناشره الذي رفض - آنذاك - نشر الكتاب متعللاً بأن أحدًا لن يصدق ماتحويه من تصورات مستقبلية.

كارتميل، كليف

كاتب أمريكي، كتب قصة «الموعد النهائي» عام 1944م وهي مثال للتصور المستقبلي الجاد بالخيال العلمي، وهي قصة عن قنبلة ذرية بلغت من الدقة في تفصيلاتها العلمية ما جعل مكتب المخابرات الأمريكية يشك في أن الكاتب قد تسلل إلى المعلومات السرية الخاصة بهذه القنبلة، ومرد هذا الشك وهذه الحيرة، إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تجدّ في ذلك الوقت في

صناعة القنبلة الذرية في جو من السرية التامة، وثبت من التحقيقات التي أجرتها المخابرات الأمريكية أن الكاتب لم يطّلع على هذا السر، وإنما كان ذلك من بنات أفكاره وإعمال خياله، وانحصر جهد الكاتب في نفاذ الخيال الذي استطاع به أن يتوقع ماحدث في عالم الواقع.

كرايتون، مايكل

كاتب ومخرج أمريكي للعديد من أفلام الخيال العلمي، جمع بين دراسة علوم العصر والأدب والفنون الأخرى، حيث تخرج في كلية الطب بجامعة هارفارد 1963م. قدم دراسة بالغة الأهمية عن العقول الإلكترونية تحت عنوان «حياة إلكترونية» 1983م، ومن أهم روايات كرايتون: «خلية أندروميدا»، و«عالم الغرب»، و«غيبوبة» وقد قام بكتابة (السيناريو) لأفلام مأخوذة عن هذه الروايات الثلاث، أخرج الأولى للسينما روبرت وايز عام 1971م، أما الروايتان الأخريان فقد أخرجهما كرايتون نفسه عام 1974م، و1979م على التوالي.

ورواية «غيبوبة» لكرايتون، اشترك معه في كتابتها الدكتور روبن كوك، وبدا فيها كم استفاد من دراسة علوم الطب، ويمكن القول: إنه بعد مرور سنوات على ظهور الرواية، فإن الموضوع الذي تطرق إليه المؤلفان قد أصبح واقعًا ملموسًا في مستشفيات أمريكا والكثير من بلاد الغرب، ففي هذه الرواية ـ التي تحولت إلى فيلم من إخراج كرايتون ـ قدم المؤلفان تجربة الإتجار في الأعضاء البشرية في المستشفيات الاستثمارية في أمريكا، وقيمة هذا الفيلم في سينما الخيال العلمي أن أحداثه تدور في زماننا المعاصر في وقت يمكن للإنسان التبرع بأحد أعضاء جسده أو الاستعانة بأعضاء المرضى الذين لا شفاء لهم.

كلارك، آرثر

كاتب وروائي انجليزي، ولد في سومرست بانجلترا عام 1917م. تفوق في سنوات حياته الأولى في العلوم الطبيعية والكيمياء، ونجح ذات يوم في صنع هاتف آلي يعمل بأشعة الضوء بدلاً من السلك؛ وهو منذ حداثته يكتب في أدب الخيال العلمي في مجلة المدرسة التي التحق بها، يقول عن نفسه: «كان معظم اهتمامي نابعًا من المجلات التي كانت تنشر قصص الخيال العلمي في الثلاثينيات، كما أنني كنت شديد الإعجاب، بل تستطيع أن تقول مبهورًا بكتابات جول فيرن وهـ. ج. ويلز». التحق كلارك بجامعة لندن ودرس الفيزياء والرياضيات، وقدم مجموعة من الأبحاث حول إمكان إنشاء محطات في الفضاء الخارجي وبناء أقمار صناعية للاتصالات والبث الإذاعي، وقدم هذه الأبحاث إلى مجلة «عالم اللاسلكي» التي كانت أبرز المجلات المتخصصة، ومنذ ذلك الحين ذاعت شهرة كلارك باحثًا جادًا من ناحية وكاتبًا مبدعًا في أدب الخيال العلمي من ناحية أخرى، ولم تكن رواياته قائمة على التصور المستقبلي الذي يعتمد في المقام الأول على الشطحات، بل هي تأمل علمي سليم لما يمكن أن يدور في المستقبل. وقد قاده اهتمامه بالفيزياء والتقنية (التكنولوجيا) إلى توقع بعض التطورات العلمية بدقة مدهشة، ويُنسب إليه اكتشاف فكرة الاتصالات عبر الأقمار الفضائية في مرحلة تعود إلى عام 1945م، أي قبل أن تصبح واقعًا بعشرين سنة.

وكلارك كاتب غزير الإنتاج في أدب الخيال العلمي، ومن بين أعماله قصة قصيرة تحمل عنوان «الممر» نقلتها السينما بعد ذلك إلى فيلم بعنوان «عام 2001 أوديسا الفضاء» 1986م، وبعد نجاح الفيلم كتب كلارك قصة الفيلم كاملة في كتاب منفصل نُشر عام 1972م، وبعد ذلك بعشرة أعوام قدم تكملة لهذه الرواية تحت عنوان «2010 أوديسا الفضاء». أما أعماله الأخرى فهناك: «عالم 2001 المفقود»، و«المدينة والنجوم»، و«رمال كوكب المريخ»، و«جزر في السماء»، و«الجانب الآخر من السماء» و«تقرير عن الكوكب 3ã»، و«حكايات العوالم العشرة»، و«سقوط الكوكب الترابي»، و«رياح من الشمس».

هـ

هكسلي، ألدوس

كاتب ومفكر انجليزي، ولد في انجلترا في 26 تموز/يوليو 1894م وتوفي في 22 تشرين الثاني/نوفمبر 1963م، وقد نشأ في عائلة معظم أفرادها من العلماء المشهورين في انجلترا، لذلك فقد تأثر كثيرًا بالعلم في معظم أعماله الأدبية، وقد كان يدرس الطب ويؤهل نفسه ليصبح طبيبًا، غير أن ميوله الأدبية والفلسفية وضعف بصره حالت بينه وبين دراسة الطب، فانصرف إلى دراسة الفلسفة والإبداع الأدبي. وعلى الرغم من أن هكسلي هو أحد أبرز أدباء الخيال العلمي من خلال روايته «عالم جديد شجاع»، إلا أنه لم يكن وفيًا لهذا الأدب؛ إذ تنوعت اهتماماته وكتاباته، فقد كتب إلى جانب الرواية العلمية، البحوث الأدبية، والرواية النفسية، والمقال التحليلي، والدراسات العلمية والأدبية.

وفي رواية «عالم جديد شجاع» التي كتبها عام 1932م، يتخيل هكسلي ما سوف يحدث في المستقبل، فقد تخيل أن القيم الإنسانية ستختفي، بل سوف تصبح من الرذائل الممقوتة، وستتغير المشاعر الإنسانية، والنظم الاجتماعية كالأسرة والزواج الشرعي، وسوف يتم صنع الأطفال في الأنابيب والزجاجات، وتصنيفهم حسب احتياج المجتمع، وستحل المواد الصناعية بدلاً من المواد الطبيعية، وستضع النظم الحكومية في المستقبل الخطط اللازمة لإزالة المعاناة عن الناس، وستحدد لهم طرائق تفكيرهم بحيث تتلاشى الإرادات الفردية والأفكار الخاصة بشخصية الإنسان، وستمحى من ذاكرة الفرد كل ما يحس به من عواطف إنسانية كالفرح والحزن، وسيصبح العالم عالمًا ماديًا تختفي منه الحرية الشخصية.

وجملة القول إن رواية «عالم جديد

شجاع» تعد قصة ذات أساس علمي تهتم بنقد الحضارة الإنسانية الآخذة بالتقدم العلمي دون حذر أو روية، كما تشرح، من وجهة نظر المؤلف، مدى الأضرار الممكن حدوثها مستقبلاً مع ازدياد سطوة العلم وتفوق (التكنولوجيا) الحديثة دون كبح جماحها.

ومن أهم الروايات الأخرى التي كتبها هكسلي: «تقابل الألحان»، و«ضرير في غزة»، و«جزيرة»، و«يمر صيف بعد صيف».

و

ويلز، هربرت جورج

كاتب انجليزي، ولد في 21 أيلول/سبتمبر 1866م بمدينة بروملي بمقاطعة كنت في انجلترا، وتوفي في 13 آب/أغسطس 1946م. يُعدّ ويلز من أوائل الكتاب الانجليز الذين كتبوا روايات أدبية من الخيال العلمي، كما أنه أهم من أقام أدب الخيال العلمي على أسس علمية سليمة، واستخدم خياله الخصب وقدرته على الإبداع لتصوير بعض النتائج البعيدة لتطوير العلوم ووضعها في خدمة الإنسان، وكان شديد الإيمان بالعلم وبقدرته على إيجاد عالم مثالي. نشأ ويلز في عائلة فقيرة، وفي سن الرابعة عشرة اضطر للعمل في متجر لبيع الأقمشة، ولكنه عافه وتركه ليصبح معلمًا في مدرسة ريفية صغيرة في سن السابعة عشرة، لكن طموحه لم يتوقف فاستطاع أن يحصل على منحة لدراسة العلوم بلندن، وعلى الرغم من أنه أخفق في الحصول على الشهادة الجامعية في دراسة العلوم، إلا أن السنوات الثلاث التي قضاها كونت رؤية علمية رومانسية لخياله، وكانت مصدر إلهام لرواياته الأدبية. ولما كان معلمًا غير مؤهل، كان مرتبه ضئيلاً، إلى أن نجح في الحصول على شهادته الجامعية بالانتساب. التحق ويلز بعد ذلك بمهنة الصحافة وأصبح من كتاب القصة القصيرة، ونصيرًا لمجال جديد نسبيًا، هو قصص الخيال العلمي، وفي غضون سنة واحدة كتب قصة «آلة الزمن» 1895م، فلاقت نجاحًا مدويًا، وأعقبها بعدة قصص رائعة في الخيال العلمي. بعدها ترك الصحافة وعاش في الريف ليتفرغ لكتابة قصصه، وكتب أعمالاً عديدة ناجحة في أدب الخيال العلمي، منها: «أول رجال على سطح القمر» 1901م، «جزيرة الدكتور مورو» 1898م، «الرجل الخفي» 1897م، «حرب الكواكب» 1898م، «طعام الآلهة» 1904م، «كيبس» 1905م، «الحرب في الهواء» 1908م، «آن فيرونيكا» 1909م، وغيرها من الروايات والقصص القصيرة، هذا بالإضافة إلى أعماله التاريخية والاجتماعية مثل «موجز تاريخ العالم» 1922م. وتُعدّ رواية «أول رجال على سطح القمر» لويلز من الروايات الرائدة في أدب الخيال العلمي، وهذه الرواية تبدأ بداية واقعية وتتقدم تدريجيًا نحو عالم التجريب العلمي وتنتهي بحدث علمي خارق غير مألوف هو نزول رجلين فوق سطح القمر مع نهاية القرن التاسع عشر. ويفخر كثير من النقاد الانجليز بأن الوصف الذي وصفه ويلز في روايته هذه، قد نفذه نيل أرمسترونغ بحذافيره عندما هبط على سطح القمر كأول إنسان يقوم بهذا الإنجاز التاريخي في 21 تموز/يوليو عام 1969م. أما رواية «آلة الزمن» التي تحدث فيها عن إمكان الانتقال في الزمن قبل نحو مئة عام، فقد أورد فيها أفكارًا وتوقعات تبدو لنا اليوم نظريات فيزيائية صادقة، كما هو واضح من هذا المقطع على لسان بطل الرواية حين يقول: «أيّ جسم حقيقي له أربعة أبعاد: ثلاثة منها هي ما نسميها الأسطح الفراغية: الطول والعرض والارتفاع والرابع هو الزمن، لكن هناك ميل طبيعي لأن يفرق الإنسان بين الأبعاد الثلاثة الأولى والبعد الرابع لأن وعيه يسير دومًا باتجاه واحد بالنسبة للبعد الأخير منذ مولده إلى حين وفاته». والذي يثير العجب في هذا المقطع من رواية «آلة الزمن» لويلز أنه ظهر للوجود قبل نظرية ألبرت أينشتين العلمية للأبعاد الأربعة الفضائية والزمنية أو نظرية النسبية الخاصة ـ بعشر سنوات ـ مما يؤكد أن ويلز قدم تصورات مستقبلية عن الغد والمستقبل قبل أن يجيء وصدقت توقعاته.

المراجع:

1ـ أسيموف، رحيل أشهر كُتّاب الخيال العلمي: رؤوف وصفي، مجلة العربي، الكويت، العدد 413: أبريل 1993م.
2ـ آلة الزمن: هـ. ج. ويلز، ترجمة محمد العزب موسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1993م.
3ـ الدوس هكسلي، المتشائم المرح: نهاد شريف، مجلة الفيصل، العدد 26، شعبان 1399هـ ـ يوليو 1979م.
4ـ الروبوت بين الحلم والحقيقة: بيهس فرعون، مجلة العربي، العدد 415، يونيو 1993م.
5ـ الخيال العلمي أدب القرن العشرين: محمود قاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1993م.
6ـ الخيال العلمي إثارة للإنسان أم اقتحام لمستقبله: محمود محمود، مجلة العربي، العدد 294، مايو 1983م.
7ـ السفر إلى الفضاء: د. أحمد مدحت إسلام، مجلة العربي، العدد 400، مارس 1992م.
8ـ بين الحقيقة والخيال، مجلة هنا لندن، هيئة الإذاعة البريطانية، العدد 517، نوفمبر 1991م.
9ـ جول فيرن والأدب العلمي: د. يوسف عزالدين عيسى، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد العاشر، العدد الأول، أبريل ـ مايو ـ يونيو 1979م.
10ـ جول فيرن: مجلة الهلال، مؤسسة دار الهلال، القاهرة، فبراير 1956م.
11ـ الحركة الثقافية في شهر: مجلة الفيصل، العدد 217، رجب 1415هـ، ديسمبر ـ يناير 1995/1994م.
12ـ خمسون عامًا على تنبؤات كلارك المذهلة: مجلة المشاهد، هيئة الإذاعة البريطانية، العدد (40)، 17ـ23 ديسمبر 1995م.
13ـ عالم رائع جديد: ألدوس هكسلي، ترجمة الشريف خاطر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993م.
14ـ علم الخيال ومستقبل الإنسان: الطيب الجويلي، مؤسسات عبدالكريم بن عبدالله، تونس1976م.
15ـ كائنات العوالم الأخرى: ميشيل تكلا، كتاب الهلال، القاهرة، العدد 295، يوليو 1975م.
16ـ مبتكرات العصر وليدة خيال: د. زيد بن عبدالمحسن الحسين، مجلة الفيصل، العدد 222، ذوالحجة 1415هـ/مايو 1995م.
17ـ من مسرح الخيال العلمي لراي برادبوري: ترجمة وتقديم رؤوف وصفي، سلسلة المسرح العالمي، الكويت، يناير 1985م.
18ـ من مسرح الخيال العلمي إنسان روسوم الآلي لكاريل تشابيك: ترجمة وتقديم د. طه محمود طه، سلسلة المسرح العالمي، الكويت، يناير 1983م.
19ـ موسوعة أدباء أمريكا، الجزء الأول: د. نبيل راغب، دار المعارف، القاهرة 1979م.
20ـ هـ. ج. ويلز وأول رحلة إلى القمر: إنجيل بطرس سمعان، مجلة الفكر المعاصر، القاهرة، ديسمبر 1969م.

العزوف عن القراءة..

ظاهرة مؤقتة أم مرض مستعص؟



عدنان عضيمة

لا يحتاج الإنسان في مجتمعنا العربي إلى فرط الذكاء أو حدّة النظر حتى يتنبه إلى ظاهرة عزوف الناس عامة عن القراءة والاطلاع. ولم يعد المرء بحاجة إلى دراسة إحصائية أو استقصائية حتى يلاحظ أن الإنسان العربي لم يعد يخصص للمطالعة وتثقيف النفس أي جزء من وقته إلا فيما ندر. وحتى يكون لديك دليل على ذلك، ما عليك إلا أن تراقب الناس في الأماكن العامة محاولاً العثور على من يحمل كتابًا أو جريدة أو مجلة أو على من يقرأ أية مطبوعة من المطبوعات في قطار أو حافلة أو حديقة، وسوف تجزم عندئذ أنه لولا حاجة طلاب العلم والدراسة، ولا أقول طلاب الثقافة، إلى شراء الكتب والمطبوعات الدراسية لما كانت هناك حاجة إلى التأليف والطباعة والنشر.

ولو وازنّا الجيل الجديد من الشبان بالجيل الذي سبقه بنصف أو حتى بربع قرن من الزمان، فإننا سنقع - دون ريب - على تفاوت هائل في درجة الإقبال على القراءة، وحب الانصراف إلى اكتساب المعارف المكتوبة. على أن ظاهرة العزوف عن القراءة تنسحب حتى على المتعلمين وذوي الاختصاص. ولم يعد من الغريب أن ترى طبيبًا أو مهندسًا يعوزه الكثير من أسس الثقافة العامة التي تخرج عن إطار مهنته وتخصصه.

ومع بروز هذه الظاهرة المرَضية اختفى العديد من الأوصاف القديمة التي كانت تُطلق على بعض الناس كالقول بأن فلانًا بحر في ثقافته، وفلانًا حجة في معارفه. وهذه المسألة توازي وتطابق مشكلة تراجع مستوى التحصيل الدراسي والعلمي في المدارس والمعاهد والجامعات.

ولقد بادرتُ عددًا من المثقفين القدامى سائلاً عن رأيهم في أسباب هذه «المحنة الثقافية»، فاتفقوا جميعًا على إيراد الأسباب نفسها وإن تفاوت ترتيبها من حيث الأولية:

1- التغيرات السلوكية التي طرأت على المجتمع مع تحوله من مجتمع أخلاقي مثالي إلى مجتمع يسعى أفراده إلى الكسب المادي المجرد. ولقد أدى هذا السلوك العام إلى تبدل جوهري في أسس التقويم الاجتماعي للفرد. فإذا كانت قيمة الإنسان في العقود الماضية تقاس بمقدار ثقافته ودرجة اطلاعه، فإنها تقاس اليوم بمقدار ما يمتلك من جاه ونفوذ.

2- أدى ارتفاع مستوى المعيشة وتزايد حاجات الفرد إلى المزيد من المواد والعُدد والخدمات إلى تزايد الزمن اللازم للسعي إلى العمل على تأمين هذه الحاجات على حساب الوقت اللازم للتثقف والاطلاع. ولهذا يمكن القول بأن الثقافة أصبحت فاكهة الموسرين والمرفهين ولم تعد تمثل خبز الفقراء كما كانت من قبل.

3- تغيّر تسلسل اهتمامات الفرد في المجتمع والذي فرضته الأساليب والمنتوجات التقنية الحديثة. فمتابعة التلفاز مثلاً، اختزلت أكثر من نصف أوقات الفراغ التي كان يقضيها الفرد في المطالعة والبحث عن المعارف، واجتزأ التحدث عبر الهاتف قدرًا آخر من أوقات فراغ الناس. كما أن انتشار أجهزة الحاسوب الشخصي أدى إلى صرف نسبة مهمّة من أفراد الفئة التي يُفترض فيها أن تكون معنية بالتحصيل الثقافي أكثر من غيرها عن الاطلاع والتثقيف نظرًا لأن الحاسوب من الأجهزة التي تستهلك وقتًا طويلاً.

4- تغافل الآباء والمسؤولين في القطاعات التربوية عن توجيه النشء الجديد نحو القراءة، وتعريفه أهمية المطالعة، وتحفيزه إلى اكتساب نواصي الثقافة والإلمام الجيد.

5- زيادة تكاليف الحصول على مواد التثقيف كالكتب والمجلات والدوريات للزيادة العالمية في أسعار الورق ومواد الطباعة.

ولقد يكون من المهم التذكير بأن هذه العناصر يجب أن يُنظر إليها على أنها تمثل أسباب المرض دون أن تكون مسوّغًا مُقنعًا للإصابة به والوقوع في شروره. ولعل الوقاية من هذا المرض تتطلب قبل كل شيء حملة إعلامية واسعة لترغيب الناس في القراءة والاطلاع، وتنظيم أوقاتهم بحيث يخصصون جزءًا منها لاكتساب نواصي التثقيف والتبحّر في المعارف المختلفة على حساب بعض الوقت الذي يقضونه في متابعة التلفاز أو التحدث بالهاتف أو الاستماع للأغاني، أو حتى العمل على الحاسوب. على أن القدر الكافي من الثقافة والمعرفة يُفترض أن يكون أحد الشروط الأساسية للتفوق في الحياة العملية بالنسبة للشرائح المنتجة كافة لو كانت موازين التقويم الاجتماعي دقيقة لم يعترها الخلل.

وتتجلى آثار ظاهرة العزوف عن القراءة بوضوح من خلال أعداد النسخ المبيعة من المطبوعات العربية كافة، كالكتب والصحف والمجلات والدوريات، حيث لا يتجاوز حجم إصدار أكثر المجلات الثقافية الشهرية مبيعًا المئة ألف نسخة، في حين نرى أن الكثير من المجلات الثقافية الصادرة بالإنجليزية يصل حجم توزيعها إلى بضعة ملايين (كمجلة ناشيونال جيوغرافيك الأمريكية التي توزع 9,7مليون نسخة شهريًا وفقًا لإحصائية وردت في مقال: ماذا يقرأ العالم؟ بقلم حسن بن حسين المهنا، المنشور في العدد 230 ص ص67-69 من مجلة الفيصل).

ولقد كان يقال لنا عندما كنا طلابًا: إن العصر الذي لن يكون فيه أي شأن لأولئك الذين لم يتزودوا بنواصي المعرفة والثقافة والعلم آت دون ريب. إلا أن هذه المقولة لم تصدق، فأين تكمن الأسباب والعلل التي جعلتْ الكثيرين من أصحاب الجاه والنفوذ هم من ذوي الثقافة الضحلة والمعارف الغثّة؟

إن الإجابة عن هذا السؤال معقدة ومتشعبة وتتطلب دراسة ميدانية من ذوي الاختصاص، بل لعلها تمثل بابًا ثريًا لتحضير رسالة ماجستير أو دكتوراه في علم النفس الاجتماعي. ولاشك في أن إنجاز مثل هذه الدراسة ونشر نتائجها يحتاج إلى قدرٍ كبير من الجهد، وربما إلى قدرٍ أكبر من الجرأة والشجاعة..!


إبداع صحفي جديد
صباح كل سبت
أنتم على موعد مع
مجلة
الشرق
AL SHARQ
نقلة صحفية في عالم المجلات الأسبوعية
مقالات لأشهر الكتاب والمتخصصين
الجديد والمفيد من الموضوعات التى تهم كل أفراد الأسرة

قصيدة

الشدو الجريح

شعر: **يس الفيل**

عصفُ الرياح تميمتي.. حتى وإن عصفت جراحي
أدمنتها نغمًا.. يهدهد من أقام على النواح
ورسمتها أملاً.. يزغرد في الغدو وفي الرواح
هي رحلةٌ.. وغدًا تجردني النهايةُ من سلاحي
سِيَّانَ.. أسطعُ مرفأً.. أم يرتمي طللٌ بساحي
أنا رغم قتلي.. لم أدعْ ألمي يعربدُ في بطاحي
أنكرتُ صوت فجيعتي، ووأدت في شفتي صياحي
وهتفتُ: حسبي أن أكون الصدقَ، في زمن النباح
هذي حكايةُ نورسٍ، ما زال يمرح في البراح
لم ينهزم، رغم الجراح، ورغم دمدمة الرياح
هو للغناء.. وإن أطال الشدو، منكسر الجناح
الحب كان ولم يزل.. في القلب، لا يمحوه ماحي
وأنا بهذا الحب أعرف، كيف ينهض بي كفاحي

قصة قصيرة

على ضفاف الشهادة

محمد جميل فضلية

سبع سنوات مضت والحزن يلف بيتنا، مثل الوشاح الأسود يغطي وجه حسناء رصين. حزن فرضناه على أنفسنا، كأنه ضريبة الوقار. أحاطنا الناس به كأنه الصدى لأحاسيسنا. سبع سنوات ليست عجافًا، ولا ضعفًا، بل قوة مركزة على الصبر وقدرة الاحتمال. وما كنا لننسى أبدًا طلعته ومحياه. كنا نتذكر التفاصيل، واحدة واحدة. صوته، ضحكته، وجهه، كان يملأ البيت أنسًا وأمانًا وكفاية.

فجأة تقلصت حياة الشباب بجميع تفاصيلها، وتجسدت في صورة معلقة في صدر البيت، محلاة بنجوم ووسام. الصورة لأبي الشهيد.

كنا أربعة. أبي وأمي وأختي وأنا. عندما استشهد أبي كنت في الثالثة عشرة، وأختي في التاسعة. ولم تكن تفاصيل حياتنا تستحق الوقوف عندها، لو أن الأمور سارت عادية، أو أننا رضينا وسلمنا لحكم القضاء والقدر، وخاصة بالنسبة لي ولأختي؛ إذ كنا صغارًا، والذكرى عندنا مثل الأحلام تتضاءل مع الزمن.

أما والدتي، فكانت مشكلة أخرى. إذ صاغت حياتنا وأفكارنا على النمط الذي أرادته لنفسها. فانعكست علينا مشاعرها، حزنًا صامتًا مقيمًا، فأدخلتنا معها في محراب الحزن، وجعلتنا نكبر دون أن تشعر.

عشنا حرارة جو الشهادة كل يوم. وكان وجهها الصامت هو الذي يحكم. وكان تعلقنا بها يفقدنا الإحساس أنها تستبد بنا وبنفسها؛ بل على العكس، كنا نرى في صرامة وجهها وقلة كلامها حنانًا وحبًا لا حدود له.

مسكينة هذه الأم التي أقامت في داخلها سجنًا لآلامها. وكانت السجينة والسجانة في آن واحد، سدت منافذ النور إلى قلبها، أيّ قوة هذه وأي قدرة على الاحتمال؟!

جاءتها فرص كثيرة. كان باستطاعتها لو قبلت بها أن تعيش أيامًا أكثر سعادة. ولكنها أغلقت نفسها دون الناس جميعًا، وركزت إرادتها على أمر معين، كان الداء والدواء لها، إذ رفضت التقرب إليها والتخفيف عنها.

كنت في بداية المحنة أصغر من أن أدرك أبعاد نكبة أمي، ومدى عمق مأساتها. كانت ردود فعلها تبين حجم الصدمة التي تلقتها بصورة مباشرة. لم تتناقص ردود الفعل على مرور الزمن، لأنها لم تسلم لحكم اعتقدت أنه غبنها وعبث بأمنها ومستقبلها، واقتطع نصف روحها، ثم احتضنتنا بالنصف الباقي.

كانت تقول: أنتم مملكتي الصغيرة، أنتم ما بقي لي. أما وجهها فقد بصمته الصدمة بقناع شمعي.

وجه انقطعت صلته بالأحاسيس المتغيرة، وتجمَّد مثل عيون الموتى على آخر صورة لحظة انطفاء النور.

أذكر تمامًا، أنها لم تبك على والدي كما يكون البكاء على ميت راحل عزيز. ودَّعته بعبرات قليلة، وكلمات مقتضبة. وأعتقد أنها قالت كلامًا لم يسمعه أحد. لأنها أحبته بجلال وودعته يوم رحيله بجلال.

كان قلبها ساحة للعطاء والوفاء. ولولا وجهها لما شعرنا أنها تعيش الوحدة القاتلة. وجهها فقط كان لا يعيش معنا. مثل ساعة زمنية أوقفتها صدمة فتسمرت العقارب. كانت مثقفة ومؤمنة، فهدتها ثقافتها إلى الاتزان وأوصلها إيمانها إلى الوفاء، ثم وحدت الفكر والإحساس. ونتج من ذلك كمال خلقي.. وحين أسقطت كل الأساليب المغرية ونبذت الناس، تحول الاتزان والوفاء مع الزمن

إلى سلوك رافض، وأخذ ينمو في داخلها ببطء قرار حازم يعبر عن هذا الرفض.. أملته فيما بعد على مسيرة أيامها.

كان أبي ضابطًا برتبة نقيب في قوى المشاة. استشهد إثر غارة جوية على موقعه. كانت تعتقد أنها فقدت بفقده كل مثلها العليا وأمنياتها...

عرفت مؤخرًا أنها كانت تكتب، ولها مذكرات. وبعد خمسة أعوام من استشهاد أبي، وقبل أن أقرأ مذكراتها، قالت لي: لقد انتظرتك يا بني حتى أصبحت شابا وصرت قادرًا على مرافقتي. سنذهب إلى مكان ما في الجبهة، ونزور المكان الذي استشهد فيه والدك..

وفعلاً ذهبنا بعد يومين. وعرفنا المكان بالتحديد، وبقينا هناك زمنًا.. ولم أكن أعرف بالضبط غايتها من الزيارة.

وقفت تنظر إلى الأفق البعيد، كأنها تحاول صرف بصري عنها. ولاحظت أنها انحنت والتقطت شيئا من الأرض، ووضعته في منديلها.. وقالت: كنت أنتظر زيارة هذا المكان بفارغ الصبر.. لقد روى والدك هذا التراب بدمه.. ورأيت دمعا في عينيها طال انحباسه..

وقالت: حان وقت العودة..

بعد عودتنا بأيام، رأيت شيئًا معلقًا بجانب صورة أبي، على شكل قلب..

قلت لنفسي: لعله تميمة أدعية علقتها أمي استدرارا للرحمة.

ولكنها لم تكن من النوع الذي يلجأ لمثل هذه الأساليب.. وعندما سألتها عن ماهية الشيء المعلق قالت: إنه ليس تميمة أدعية كما تظن.. إنه أثر من أبيك.. قبضة من ترابه.. إن الموتى الشهداء يزورون الأماكن التي استشهدوا فيها.

سوف تُطِل روحه علينا وتمسّ هذا التراب..

لقد أفزعتني أفكارها في البداية، وظننت أنها الاختلاطات العقلية. ولكن ظنوني كانت خاطئة.

لقد كانت تبحث عن السلوى والتماسك من خلال حفنة تراب ونقطة دم. هذه السجينة التي رفضت أن تتحرر من أسر الأحزان. كانت تخاف الإغراء حولها. وما من سبيل لنبذ الإغراء إلا قهر الجسد، ولم تجد سوى روح أبي تلوذ بها في محنتها فاستعانت بالأثر لتشد أربطة الوفاء.

كتبت في مذكراتها تقول:

إن أخطر ما يواجه الإنسان نوازع الجسد، وبالإرادة يستطيع الإنسان السيطرة عليها. ومنشأ الإرادة هو العقل، وهو ميزان. فإذا اختل الميزان ضعف الضابط الإرادي، وترجحت كفة الرغبات، وقد تؤدي الرغبات إلى الخطيئة.. وكم يدفع الإنسان تكفيرًا عن الخطيئة!!

كانت هذه الأفكار محور حياتها بعد موت أبي. فدمجت العقل والعاطفة في عملية توازن، كي لا يختل هذا ولا تنشط تلك. لهذا كان لها القدرة على وأد عواطفها.

وعثرت على جملة في مذكراتها ـ حسبتها الملخص لكل قصتها ـ تقول:

أليس الموت أفضل من أن أكون مثل ثياب قديمة معروضة للبيع؟!

وكتبت أيضا تقول:

الوطن واجب، والموت حق. لقد استشهد زوجي في سبيل هذا الواجب. لقد أدى زوجي وشريكي ما عليه. ومن واجبي أن أؤدي ما عليَّ. سأدفع مثلما دفع كي أستحقه. وليس من حق أحد أن يمنعني من الموت..

لقد كبر أولادي ويستطيعون الاعتماد على أنفسهم. لقد أعطينا الوطن أغلى ما نملك. وعلى الوطن أن يعيد إليهم قسيمة الضمان حقهم في أبيهم.

أما أنا فلا أولاد لي بعد اليوم...

وكان آخر ما كتبته العبارة التالية:

يا أخي. يا شريكي. يا رفيقي الحبيب. لقد جلبت ترابك إلى بيتك من بعيد، كي أكون قريبة منك. إن ترابك خيمة روحي. ساعدني كي نلتقي تحت هذه الخيمة. لقد آن الأوان...

وكتبت اسمها تحت آخر سطر: الرباب.

في صبيحة أحد الأيام، وجدناها جالسة على كرسي تحت الصورة.. عيناها شاخصتان نحو قبضة التراب المعلقة بجانب صورة أبي..

كان وجهها يبتسم لأول مرة بعد سبع سنوات.. لقد أصدرت حكمها بالإفراج عن الوجه، ثم أنزلت الحكم إلى القلب.. فتوقف. وانفرجت أسارير وجه ظل سبع سنوات يعبر عن الرفض القاتل.

إنها محنة قاسية أصابت هذه المرأة وألقتها في دوامة الضياع، فرفضت كل سلوى..

قرأت مذكراتها بعد موتها، وأعتقد أنه من حقي أن أضيف:

نأتي إلى الحياة بغير إرادتنا، وبعضنا يخرج منها بإرادته. ولا يفعل ذلك إلا يائس، أو مظلوم، أو مكتئب مريض. وعبثا نحاول الفهم المطلق..

الحركة الثقافية في شهر

مؤسسة الملك عبدالعزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية تقيم أسبوعًا ثقافيا علميا في الدار البيضاء

اكتشاف أصول حروف اللغة الهيروغليفية ينفي الاعتقاد السائد بأسبقية الكتابة المسمارية

جامعة الأمير عبدالقادر بالجزائر تعد لإصدار أشمل معجم من نوعه عن «النقاد المتكلمين في الرجال جرحًا وتعديلا»

تأسيس هيئة علمية إسلامية في موسكو للتعريف بقيم الإسلام

بدء سنة «ابن بطوطة» في المغرب، والاحتفال بمئوية الشاعر لوركا في إسبانيا

انضمام صحف ومجلات جديدة إلى ركب الصحافة العربية

سمو النائب الثاني

يفتتح مشروعات عسير السياحية وندوة السياحة الوطنية الندوة تناقش اقتصاديات السياحة ومقوماتها ودور الإعلام والقطاع الخاص في تنشيط السياحة

افتتح صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع والطيران المفتش العام ندوة «السياحة الوطنية: آفاق ومستقبل»، متمنيًا التوفيق للجميع في ظل قيادة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - يحفظه الله - وسمو ولي عهده الأمين صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز.

وعند رعايته للجلسة الختامية للندوة، قال سموه إنه سينقل إلى خادم الحرمين الشريفين وسمو ولي عهده ولحكومتهم الرشيدة كل التوصيات التي جاءت فيها، مقدما شكر سموه إلى صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير، وإلى جميع الدوائر الحكومية الموجودة بالمنطقة للجهود الإيجابية الصامتة المتقنة التي يقومون بها.

وقال سمو النائب الثاني: «لقد شاهدنا جميعًا ما قامت به الشركة السياحية الوطنية في منطقة عسير. إن ما شاهدناه هو ضرب من الخيال قياسًا على المدة الزمنية وحسن التنفيذ والإتقان». وأوضح سموه أن بناء الإنسان السعودي في عمله وفي خلقه هي واجبات من أهم أهداف خطط التنمية.

وفي إطار البرنامج التنشيطي للسياحة في منطقة عسير، افتتح سموه عددًا من المشروعات السياحية في المنطقة، هي: مشروع عقبة الصماء، ومشروع السودة السياحي، والعربات المعلقة (التلفريك)، ومتنزة الأمير سلطان، ومنتجع القرعاء، ومنتجع أبها الجديدة، وفندق قصر أبها، ومركز أبها للمعارض، وموتيل سياحة المطار، ومعرض السياحة الوطنية الثاني الذي ضم أجنحة خاصة بمناطق المملكة أبرزت النواحي التراثية والتنموية والسياحية في كل منطقة.

وقد تناول معالي الأستاذ أسامة جعفر فقيه في كلمته، في حفل افتتاح ندوة «السياحة الوطنية: آفاق ومستقبل» التي أقيمت بقاعة المؤتمرات بفندق السودة إنتركونتيننتال، محور الندوة الذي تبلور حول مقومات السياحة في المملكة العربية السعودية وآفاق مستقبلها في إطار المنظور الشامل لاستراتيجية التنمية، مشيرًا إلى أن حجم الإنفاق السياحي العالمي بلغ عام 1995م نحو

تواصُل جمع مصادر التاريخ السعودي

تواصل دارة الملك عبدالعزيز حاليًا استكمال تنفيذ المرحلة الثانية من برنامج المسح الميداني لرصد المصادر التاريخية الوطنية وجمعها في مختلف مناطق المملكة.

يشمل البرنامج رصد التاريخ غير المكتوب (الشفهي) من خلال تسجيلات صوتية مع كبار السن الذين عاصروا مرحلة توحيد المملكة أو شاركوا فيها، ورصد ما يتوافر من وثائق ومخطوطات لدى الجهات الحكومية أو الأفراد وتصويرها، وتصوير بعض المواقع التاريخية.

وتعتزم الدارة إقامة معرض للمخطوطات المدونة



سمو الأمير سلطان يفتتح معرض السياحة الداخلية الثاني

350 مليار دولار، أنفقها قرابة 550 مليون سائح، وعلى الصعيد الوطني، فقد قُدِّر حجم الإنفاق على السياحة خلال العام المنصرم بنحو 25 مليار ريال، وأن هذه دلالات توضح أهمية القطاع السياحي بوصف السياحة نشاطًا اقتصاديًا.

وتناول الأستاذ حمد عبدالله الزامل رئيس مجلس الغرف التجارية السعودية دور القطاع الخاص في صناعة السياحة الداخلية، داعيًا رجال الأعمال والمستثمرين إلى التفاعل مع المعطيات السياحية التي توفرها الدولة.

وألقى الأستاذ عبدالله بن سعيد أبو ملحة رئيس مجلس غرفة أبها ونائب رئيس مجلس الغرف التجارية السعودية كلمة تناول فيها حجم إسهام السياحة في اقتصاديات دول مجلس التعاون الخليجي؛ مبينًا أن إنفاق المواطنين الخليجيين على السياحة الخارجية بلغ نحو 6 مليارات دولار عام 1995م.

وكانت الجلسة الأولى للندوة بعنوان «اقتصاديات السياحة: الحوافز والمعوقات»، وقد قدم ورقتها د. عبدالعزيز العوهلي، وأدارها الأستاذ عبدالله طاهر الدباغ، وشارك في الحوار كل من الأستاذ صالح عبدالله كامل، والأستاذ عبدالعزيز محمد النويصر، و د. سمير فتحي الخولي، ود. عبدالعزيز داغستاني.

أما الجلسة الثانية فقد رأسها معالي د. محمد بن إبراهيم الجار الله وزير الشؤون البلدية والقروية، وكان عنوانها «استراتيجية التنمية في ضوء الاستراتيجية العمرانية الوطنية للمملكة العربية السعودية»، وقدم ورقتها الأستاذ عبدالعزيز الخضيري، وأدارها الشيخ إبراهيم الأفندي، وكان المحاورون هم الأستاذ أحمد سليمان الرميح، ود. ناصر عبدالله المهوس، والمهندس يوسف الشافي، والأستاذ توفيق السويلم، والأستاذ رامي أبو غزالة.

وقدمت الغرفة التجارية بأبها ورقة في الجلسة الثالثة بعنوان «مقومات السياحة في منطقة عسير»، وترأس الجلسة معالي د. ناصر السلوم، وأدارها الأستاذ عبدالله أبو ملحة، وقدم الورقة د. ياسين عبدالرحمن جفري و د. محمد أحمد يغمور، وشارك في الحوار الأستاذ عبدالمحسن الحكير رئيس اللجنة الوطنية، والأستاذ عبدالعزيز العنبر المدير العام لشركة الفنادق السياحية وعضو لجنة السياحة الوطنية. وركزت الورقة على الدور الحيوي الذي تؤديه السياحة في توفير الوظائف وتنمية الناتج المحلي الإجمالي وتوفير العائد المجزي للمستثمر عاليًا. وتطرقت الورقة إلى مقومات السياحة المتوافرة في منطقة عسير، ودور الإعلام في التوعية السياحية، ودعت إلى استحداث جهاز أو هيئة للإعلام السياحي.

وكان عنوان الجلسة الرابعة «السياحة الداخلية: نظرة واقعية وآفاق المستقبل»، وقدمتها الخطوط الجوية العربية السعودية، وترأس الجلسة معالي د. خالد بكر، وأدارها المهندس عبدالله المبطي، وقدمها الأستاذ عبدالله الجهني المدير العام لتنمية المبيعات بالخطوط السعودية، والمحاورون هم الأستاذ راشد المقيط، ود. عبدالعزيز العوهلي، والأستاذ ناصر الطيار.

وتناولت الورقة المشاركة الإيجابية لقطاع النقل والمواصلات في تنمية حركة السياحة الداخلية، وأهمية تنوع البرامج التي تجذب السياح، إلى جانب وجود المدن الترفيهية. وأوضحت الورقة أن الخطوط الجوية السعوديه لها ثقلها المؤثر في الاقتصاد الوطني، وأن دورها يتكامل مع أدوار الجهات المعنية كافة.

كما أوصت الورقة بأهمية إنشاء هيئة عليا تعنى بأمور السياحة في المملكة من أجل تحقيق التنسيق المتكامل بين الجهات كافة، وكذلك أوصت بإيجاد مراكز معلومات وبحوث لتوفير قاعدة بيانات تخدم التخطيط السياحي.

وناقشت الجلسة الأخيرة ورقة بعنوان «دور الإعلام في دعم السياحة الداخلية» قدمتها مؤسسة عكاظ الصحفية، ورأس الجلسة د. هاشم عبده هاشم عضو مجلس الشورى، وأدارها المهندس عبدالله المبطي، وقدم الورقة د. أحمد اليوسف، وشارك في الحوار الأستاذ مسفر المسفر وكيل وزارة الإعلام المساعد للتخطيط والدراسات، والأستاذ محمد التونسي رئيس تحرير جريدة الاقتصادية، ود. منصور بن كدسة المدير العام لشركة الباحة للاستثمار والتنمية. وتركزت الورقة حول السياحة الداخلية ودور وسائل الإعلام في تنمية السياحة، وقد أوصت باستحداث الأنشطة الرياضية الصيفية في المناطق السياحية، واستخدام التقنيات المتقدمة في مجال الإعلام.

في المملكة بأقلام أبنائها أو تم نسخها بوساطة أبناء البلد خلال المرحلة الزمنية الممتدة بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر الهجريين.

معرض ومهرجان للطفل

رعت صاحبة السمو الأميرة شيخة بنت عبدالله بن عبدالرحمن آل سعود المهرجان الثالث لرياض أطفال جامعة الملك سعود، الذي أقيم تحت شعار «كلنا في خدمة الوطن».

رمى المهرجان إلى تنمية مدارك الطفل وغرس المعاني السامية في داخله، ورافقه معرض يشتمل على نماذج من البيئة والحرف التقليدية والألعاب الشعبية، وأخرى تدعو إلى التحلي بالقيم الإسلامية.

الملتقى الخامس للفرانكفونية

استضافت مدينة الرياض - مؤخرًا - أعمال الملتقى الخامس للفرانكفونية، الذي ضم مجموعة من المفكرين والأدباء والفنانين والأكاديميين الذين تلقوا تعليمهم العالي في فرنسا.

وعلى ضخامة مكانة الشخصيات والأسماء

المنتمية إلى الفرانكفونية، إلا أن الملتقى قد كشف بشكل كبير عن الحضور الثانوي للثقافة الفرانكفونية في السعودية مقابلة بالإنجليزية لاعتبارات عدة، بعضها تاريخي، وبعضها يعود إلى أن الثقافة الفرنسية دخلت البلاد عبر وسائط عربية.

وفاة أبي هاني العبادي

توفي إلى رحمة الله تعالى الدكتور عبدالله حسن العبادي، إثر مرض لم يمهله، عن عمر ناهز 58 عامًا.

والفقيد من مواليد مكة المكرمة 1359هـ، وحصل على ليسانس الآداب من جامعة القاهرة، ثم أكمل دراسة الماجستير والدكتوراه في جامعة ميتشجن بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث تخصص بعلم الاجتماع. وقد عمل بالتدريس الجامعي ونائبًا للرئيس العام لرعاية الشباب، وترك مجموعة من المؤلفات إضافة إلى مشاركات عديدة في الصحف والمجلات العربية تحت اسم «أبو هاني العبادي».

من مؤلفاته: «مقدمة في الفكر الاجتماعي وتطوره»، و«دراسة الإرشاد والتوجيه الاجتماعي في الدول العربية الخليجية»، و«الفكر الاجتماعي وتطوره عند العرب والمسلمين».

المعرض التشكيلي الثاني للفنانات الواعدات

يقام المعرض الجماعي الثاني للفنانات الواعدات خلال شهر محرم الجاري 1418هـ في مدينة جدة.

تشارك في المعرض مجموعة من الفنانات اللواتي سبق لهن أن شاركن في المعرض الأول، فضلاً عن مواهب جديدة أثبتت تميزها في خطوات سابقة، وسوف تخصص جوائز قيمة لأفضل ثلاثة أعمال تختارها لجنة المعرض برئاسة د. عبدالحليم رضوي، وسيتم تكريم الفنانة الرائدة منيرة موصلي، التي تقرر أن تكون ضيفة شرف المعرض.

40 ألف عنوان في معرض الكتاب الثاني بالأحساء

اختتمت - مؤخرًا - أعمال معرض الكتاب الثاني الذي نظمته جامعة الملك فيصل في مدينة الأحساء، واستمر خلال المدة من 17 إلى 27 من ذي القعدة الماضي.

شارك في المعرض قرابة مئة دار نشر ومكتبة، عرضت نحو أربعين ألف عنوان، ربعها بلغات أجنبية، في مختلف العلوم والمعارف.

كتب جديدة

الغصن اليتيم، رواية لناصر الجاسم، صدرت عن نادي أبها الأدبي بأبها.

تلك الليلة، رواية لعبدالله الجفري، صدرت عن مؤسسة عكاظ للصحافة والطباعة والنشر بجدة.

ذكاء الطفل المسلم، تأليف د. إسماعيل عبدالفتاح عبدالكافي، صدر ضمن سلسلة «بحوث في ثقافة الطفل المسلم».

السياسة القضائية في عهد عمر بن الخطاب وصلتها بواقعنا المعاصر، تأليف د. محمد الرضا عبدالرحمن الأغبش الأستاذ المشارك في كلية الشريعة وأصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الجنوب.

صدر الكتابان السابقان عن الإدارة العامة للثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

الإمارات

أمير الشارقة.. روائيًا


الشيخ سلطان بن محمد القاسمي

بروايته الأولى «الشيخ الأبيض»، سجل سمو حاكم الشارقة الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي اسمه بين الروائيين العرب. وتنتمي الرواية التي صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب لما يطلق عليه النقاد مسمى «رواية الحقيقة» حيث تتناول قصة حقيقية لأمريكي هاجر إلى بلاد العرب في صباه واعتنق الإسلام ودافع عن حماه وتسمى باسم «عبدالله بن محمد». وفي الوقت الذي حافظ الشيخ د. سلطان القاسمي على وقائع القصة الأصلية فإنه نجح في المواءمة بينها وبين خيال الفنان الذي تقتضيه طبيعة الرواية.

محاضرات وندوات

«نعيم الجنة»، عنوان محاضرة ألقاها في جامع الملك عبدالعزيز في الرياض، الشيخ عبدالله بن حسين السعيد.

«آخر المستجدات في زراعة الشبكية»، موضوع محاضرة ألقاها في مستشفى الملك خالد للعيون في الرياض د. يوسف إبراهيم المقبل.

«هيا ارتعوا في رياض الجنة»، عنوان محاضرة ألقتها في مقر جمعية أم القرى الخيرية النسائية بمكة المكرمة د. فايزة خاطر.

« دور المجتمع في مكافحة فقرالدم»، عنوان محاضرة ألقتها في جمعية التمريض الكويتية بالسالمية د. زمزم الموسى.

«المخدرات وأخطارها وآثارها المدمرة على الشباب»، عنوان ندوة نظمتها جامعة سيتي في القاهرة، تحدث فيها اللواء محمد عباس، والصحافي وجيه أبو ذكري.

«الركائز الاستراتيجية لأمن الكويت»، موضوع محاضرة ألقاها في مقر جمعية الصداقة المصرية - الكويتية بالقاهرة د. محمد الرميحي.

«تحديات المرحلة الفلسطينية الراهنة»، عنوان محاضرة ألقاها في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة د. أسعد عبدالرحمن.

«من أدب الخيل والفروسية في الجاهلية والإسلام»، عنوان محاضرة ألقاها في نادي أبها الأدبي د. أحمد يسري.

«الفراغ والترويح في العصر الحديث»، عنوان محاضرة ألقاها في كلية التربية الأساسية في الكويت د. خليفة بهباني.

«تاريخ الجراحة في مصر ومستقبلها»، عنوان محاضرة ألقاها في إطار مؤتمر البحر المتوسط لأمراض الأوعية الدموية بالإسكندرية د. رفعت كامل.

«رحلة في تاريخ وأصول الكلمات»، عنوان محاضرة ألقاها في أسبوع الفرنكفونية بجدة محمد الحركة.

«الإعجاز اللغوي القرآني»، موضوع محاضرة ألقاها في اثنينية النادي الأدبي في تبوك د. مصطفى عبدالفتاح أحمد.

«دور المثقف العربي وتحديات السلام»، عنوان محاضرة ألقاها في رابطة الأدباء بالكويت سعد الدين وهبة.

«الشريعة الإسلامية والتطبيق»، عنوان محاضرة ألقاها في منتدى أصحاب القلم بالكويت برانون ويلر.

«الإبداع في تعليم الأبناء»، عنوان محاضرة ألقاها في فندق شيراتون الكويت د. طارق محمد السويدان.

أحيت د. مي سعادة أمسية شعرية في مقر جمعية النهضة الخيرية العمرانية بشمال لبنان.

الحركة الثقافية في شهر

بينالي الشارقة الثالث

شارك 320 فنانًا من 52 دولة عربية وأجنبية في الدورة الثالثة لبينالي الشارقة الدولي للفنون، الذي اختتم أعماله مؤخرًا.

وعقدت على هامش البينالي ندوة بعنوان «الشعرية البصرية» استمرت ثلاثة أيام، وجرى تكريم بعض رموز الفن التشكيلي العربي وهم: عبدالقادر الريس (الإمارات) ويوسف الأحمد (قطر)، وسلوى شقير (لبنان)، ومحمد المليجي (المغرب).

الكويت

المعرض الثاني للإعلام والإعلان



الشيخ سعود ناصر الصباح

برعاية وزير الإعلام الشيخ سعود ناصر الصباح، افتتح - موخرًا - في فندق سفير انترناشيونال المعرض الثاني للإعلام والتسويق، بمشاركة عدد من دور النشر والصحف والقنوات الفضائية والمؤسسات الإعلامية والإعلانية، ومؤسسات العلاقات العامة.

حفل المعرض بالنشاطات الفاعلة التي من أبرزها حلقة نقاش بعنوان «آفاق الإعلام الخليجي في القرن الحادي والعشرين» التي بحثت ما يهم منطقة الخليج من الناحية الإعلامية مع اقتراب القرن الميلادي الجديد.

مجلة «الجزيرة»

أضيفت مجلة ثقافية جديدة إلى قائمة المطبوعات العربية بصدور العدد الأول من مجلة «الجزيرة» الثقافية الشهرية.

«الجزيرة» تصدر - مؤقتًا - كل شهرين، ويتولى إدارتها مبارك سلطان السهلي، وسلطان عبدالهادي السهلي، وتتناول كل ما له صلة بجزيرة العرب، مع التركيز على التراث العربي والتعريف بالمجهول من آداب وفنون وتاريخ وجغرافية العرب.

صحيفة «الدستور»

أضيفت صحيفة أسبوعية جديدة إلى سلسلة الصحف والمطبوعات الكويتية، بعد أن قرر مجلس الأمة إصدار جريدة كل يوم أربعاء باسم «الدستور».

يرأس تحرير «الدستور» الأمين العام لمجلس الأمة عبدالله المعوشرجي.

كتب جديدة

فجر العلم الحديث: الإسلام، الصين، الغرب، تأليف توبي. أ. هاف، ترجمه إلى العربية د. أحمد محمود صبحي، وصدر ضمن سلسلة «عالم المعرفة» عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت.

المسرح الخليجي وتأثره بالمسرح العربي والعالمي، تأليف د. محمد حسن عبدالله، صدر عن رابطة الأدباء الكويتيين.

دليل الوالدين إلى تنشئة الطفل، تأليف محمد عماد الدين إسماعيل، صدر عن دار القلم.

سلطنة عمان

اختتام معرض مسقط للكتاب

اختتمت - مؤخرًا - أعمال معرض مسقط الدولي للكتاب، بمشاركة 220 دار نشر عربية وأجنبية تنتمي إلى 15دولة.

ضم المعرض 36 ألف عنوان، وأقيمت على هامشه مجموعة من النشاطات الثقافية من ندوات ومحاضرات وأمسيات شعرية وقصصية ونقدية وفكرية.

مصر

رحيل مصطفى أمين

توفي إلى رحمة الله تعالى الشهر الماضي الكاتب الصحفي مصطفى أمين عن عمر ناهز 83 عامًا. ويعد الفقيد - يرحمه الله - من رواد الصحافة العربية المعاصرة، وقد أمضى أكثر من

نظم النادي العربي في بريطانيا أمسية شعرية في ديوان الكوفة بلندن للشاعر د. إسماعيل هاني شعيب، بمناسبة صدور ديوانه «الحلم مع سبق الإصرار».

«رسم المدينة»، عنوان محاضرة ألقاها في الجامعة الأمريكية بالقاهرة د. كيللي ويلسون.

«المجتمعات الإسلامية في الغرب»، عنوان محاضرة ألقاها في جامعة الأزهر بالقاهرة د.محمد إبراهيم الجيوشي.

«رحلتي مع الشعر»، موضوع محاضرة ألقاها في نادي الرياض الأدبي الشاعر عبدالمنعم عواد يوسف.

شارك الشعراء: محمد عبدالقادر الفقي، وحسين إبراهيم السبع، وجبر صالح الدوسري في أمسية شعرية في نادي المنطقة الشرقية الأدبي، قدم لها مبارك بوبشيت.

«استخدام وتجارة القار عند القدماء»، عنوان محاضرة ألقاها في دار الآثار الإسلامية في الكويت د. جاك كونان.

«عوامل إنجاح شبكة إنترنت عربية واسعة»، عنوان محاضرة ألقاها في نادي خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت د. علي الأعسم.

«الإسكندرية في العصور الوسطى»، عنوان محاضرة ألقتها في متحف المجوهرات الملكية بالإسكندرية د. سهير نعيع.

«الأوراق المالية من منظور فقهي»، عنوان محاضرة ألقاها في النادي الأدبي بمكة المكرمة الشيخ د. عبدالوهاب إبراهيم أبو سليمان.

«تاريخ الطب الحديث في العراق»، عنوان محاضرة ألقاها في الجمعية الطبية العراقية بلندن د. عبدالأمير علاوي.

«أخيرًا اكتشفت بيروت الكنعانية والفينيقية»، عنوان محاضرة ألقتها في ثانوية عبدالله السالم بالكويت د. ليلى بدر.

«دور المحامي في بريطانيا وعلاقته بالموكل»، موضوع محاضرة ألقتها في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن رابعة عبوشي.

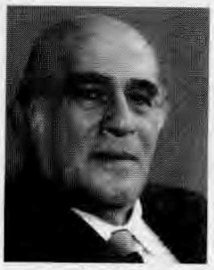
«أهداف التعليم التجاري المطور»، عنوان محاضرة ألقاها في متوسطة صلاح الدين بمدينة تبوك عبدالوهاب الشنقيطي.

«تراث الغرب الإسلامي في آثار الدارسين العرب»، عنوان محاضرة ألقاها في نادي أبها الأدبي د. حسن عبدالكريم الوراكلي.

«الثقافة التاريخية عند العرب قبل الإسلام: قراءة في الشعر الجاهلي»، عنوان محاضرة ألقاها في نادي القصيم الأدبي ببريدة د. عبدالرحمن الدباسي.

«مساهمة اللغويين المسلمين الأوائل في الدراسات الصوتية.. توجه نحو المستقبل»، عنوان محاضرة ألقاها في نادي جدة الأدبي الثقافي د. محمد حسن باكلا.

60 عامًا في العمل الصحفي، وكان صاحب مدرسة متميزة في الكتابة الصحافية؛ وقد بدأ مشواره الصحفي بالكتابة في مجلات «الرغائب» و«روز اليوسف»، و«آخر



مصطفى أمين

ساعة» التي عمل نائبًا لرئيس تحريرها عام 1934م، ثم رئيسًا لتحريرها عام 1938م، بعدها انتقل إلى الأهرام عام 1939م. كما تولى رئاسة تحرير مجلة «الاثنين» عام 1941م، وأصدر مع شقيقه علي أمين - يرحمه الله - العديد من المجلات والصحف، منها: «المنيرة»، و«التلميذ»، و«الاثنين».

وقد أسسا صحيفة «أخبار اليوم» عام 1944م، كما اشتريا مجلة «آخر ساعة» عام 1946م، وأسسا مجلتي «آخر لحظة» و«الجيل» عام 1951م. وفي عام 1952م أصدرا صحيفة «الأخبار». وإضافة إلى ذلك كله، عمل مصطفى أمين مراسلاً لصحف أجنبية مثل: «واشنطن بوست»، و«واشنطن نيوز»، وعندما أممت الصحافة عمل رئيسًا لمجلس إدارة دار الهلال عام 1960م، ثم تولى منصب رئيس مجلس إدارة مؤسسة «أخبار اليوم» ورئيس تحرير صحيفة أخبار اليوم بعد خروجه من السجن الذي قضى فيه نحو تسعة أعوام (1966- 1974م).

وقد تفرغ منذ عام 1986م للكتابة الصحفية، وكان له عمود يومي ثابت في جريدتي «الأخبار» و«الشرق الأوسط» بعنوان فكرة، وهو العمود نفسه الذي كان يحرره شقيقه التوأم علي أمين قبل وفاته في أبريل 1976م.

من أشهر مؤلفاته: «سنة أولى سجن»، «أمريكا الضاحكة»، «أفكار ممنوعة»، «مصر قبل الثورة»، «الصحافة المصرية في الأغلال»، «مسائل شخصية»، إضافة إلى عدة روايات تم تصوير بعضها سينمائيا.

وكان للراحل مشاركات واضحة في مجال العمل الخيري من خلال أبواب تعنى بالمشكلات الحياتية مثل: «لست وحدك»، و«أسبوع الشفاء»، و«ليلة القدر»، وهناك مؤسسة مصطفى وعلي أمين الخيرية التي تقدم الإعانات والمساعدات للمحتاجين، وتمول هذه الأبواب.

ولد مصطفى أمين - يرحمه الله - في 21 فبراير/ شباط 1914م، وتربى مع شقيقه علي في منزل سعد زغلول، فقد كانت أمهما ابنة أخت هذا الزعيم الذي قاد ثورة 1919م.

وتخرج في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وحصل على الماجستير في العلوم السياسية من جامعة جورج تاون بالولايات المتحدة الأمريكية عام 1938م.

انتخابات اتحاد الكُتّاب ومحفوظ رئيسًا لنادي القصة

انتهت انتخابات التجديد النصفي لاتحاد الكتاب المصريين، حيث جرى انتخاب سعدالدين وهبه رئيسًا للاتحاد، وفاروق خورشيد نائبًا للرئيس، والشاعر أحمد سويلم سكرتيرًا عامًا، ومدحت الجيار أمينًا للصندوق.

وعلى نجاح ثروت أباظة الرئيس السابق للاتحاد في الانتخابات وحصوله شخصيًا على أكبر عدد من الأصوات، إلا أن القائمة التي تقدم بها لم ينجح منها سوى ثلاثة هم: د. أحمد هيكل، د. أحمد عمر هاشم، وفؤاد قنديل، الأمر الذي حدا به إلى المبادرة بتقديم استقالته.

وقرر المجلس الجديد في أولى جلساته اختيار ثروت أباظة رئيسًا فخريًا للاتحاد؛ إلا أن الأخير رفض الرئاسة الشرفية وأرسل معتذرًا من عدم قبولها.

وكان نادي القصة بالقاهرة قد شهد في وقت سابق انتخابات أقل حدة، حيث فاز الأديب نجيب محفوظ بالرئاسة، تلاه حسين الشاعر بفارق صوت واحد، ثم نبيل عبدالحميد، فيسري العزب، وجاء في المركز الأخير محمد الشطبي.

مؤتمر للرواية العربية وآخر للنقد الأدبي

تنظم لجنة القصة بالمجلس الأعلى للثقافة الملتقى الروائي العربي الأول خلال شهر جمادى الآخرة المقبل (أكتوبر 1997م) بمشاركة روائيين من مختلف الأقطار العربية، سواء من كان يكتب باللغة العربية أو بلغة أخرى مهجرية.

وشكلت لجنة للإعداد للمؤتمر تضم الأساتذة: فتحي سلامة، ورضوى عاشور، وصبري موسى.

من ناحية ثانية تنظم كلية الآداب بجامعة عين شمس - بالتعاون مع الجمعية المصرية للنقد الأدبي ومركز الدراسات الإنسانية والمستقبليات - مؤتمر «النقد الأدبي في منعطف القرن» الذي يعقد خلال المدة من 18- 22 جمادى الآخرة الموافق لـ20- 24 أكتوبر 1997م.

تناقش محاور المؤتمر عدة موضوعات، منها: النظريات الأدبية والمشكلة المعرفية، استراتيجيات التحول في نظريات النقد الأدبي، التعددية الثقافية والتفاعل بين الاتجاهات النقدية، وأنماط جديدة من النشاط النقدي.

اكتشاف أصول حروف اللغة الهيروغليفية

اكتشف نائب رئيس معهد الآثار الألماني بالقاهرة نصوصًا كتابية ترجع إلى عصر ما قبل الأسر الحاكمة، يغلب على الظن أنها أصل الحروف الهيروغليفية.

وإذا ما صحت نظرية الآثاري الألماني، فإن هذه الحروف التي استخدمت قبل استقرار الهيروغليفية على صورتها الحالية بقرون من شأن اكتشافها أن ينفي الاعتقاد السائد بين علماء اللغويات، القائم على أساس أسبقية الكتابة المسمارية، وكونها أقدم كتابات العالم، ويؤكد أن الكتابة المصرية القديمة هي أقدم الكتابات.

مجمع اللغة يطالب بالتصدي لتهويد القدس

دعا مجمع اللغة العربية في ختام جلسات مؤتمره السادس والستين بالقاهرة إلى التصدي لعمليات تهويد بيت المقدس ومواجهتها، وتكثيف الجهود المبذولة للحفاظ على اللسان العربي في أوساط الشعب الفلسطيني .

وطالب المجمع الهيئات الدولية بالتزام الأسماء العربية للمواقع والأماكن الفلسطينية، كما أوصى الحكومات العربية بإصدار قرارات حازمة لتعريب التعليم الجامعي، وإنشاء معهد عال للترجمة، ووضع خطة لترجمة العلوم والتقنية، وتوجيه وسائل الإعلام بالتزام قواعد اللغة العربية، وإصدار تشريعات تحظر كتابة اللافتات على المحال والمرافق بلغات أجنبية، وقرارات أخرى.

مؤتمر التبادل الثقافي بين بريطانيا والعرب

يعد المجلس الثقافي البريطاني بالتعاون مع جامعتي القاهرة وعين شمس لتنظيم مؤتمر «التبادل الثقافي بين بريطانيا والعرب».

يقام المؤتمر في مطلع العام الميلادي المقبل، ويركز على كتابات الرحالة العرب القدامى الذين امتدت رحلاتهم لتشمل إنجلترا، كما يناقش صورة الشخصية العربية في كتب الأطفال الإنجليزية.

أول متحف لأعمال النحت الجرافيتية الضخمة

افتتح في منطقة الشلال القديم في مدينة أسوان أول متحف مصري مفتوح لأعمال النحت الجرافيتية الصرحية الضخمة.

يطل المتحف الجديد على المجرى المائي لنهر النيل، ويضم 29 عملاً فنيًا لكبار فناني النحت في مصر وعشر دول أخرى، هي نتاج «سمبزيوم» النحت الدولي الأول الذي أقيم في أسوان العام الماضي، وينتظر أن تضاف إلى محتوياته أعمال السمبزيوم الثاني.

ندوة كنوز التراث العلمي

اختتمت - مؤخرًا - في قاعة ابن سينا بكلية العلوم في جامعة القاهرة أعمال ندوة «كنوز التراث العلمي» التي نظمتها الكلية.

ناقشت الندوة مجموعة من القضايا المهمة المتعلقة بالتراث العلمي العربي والإسلامي، ودوره في تاريخ العلوم الطبيعية، وأقيم على هامشها معرض لأهم المخطوطات والبرديات العلمية العربية والإسلامية.

ندوة تمهيدية للمؤتمر العربي للآثار

شاركت ست دول عربية في اجتماعات اللجنة التمهيدية للمؤتمر العربي الرابع عشر للآثار المقرر عقده في شهر جمادى الأولى المقبل (سبتمبر1997م) في دولة الإمارات.

وأقيمت على هامش الاجتماعات ندوة بعنوان «الاستفادة من التقنيات الحديثة في مجال الآثار»، وناقشت اللجنة جدول أعمال المؤتمر وموضوعاته، ومن أهمها: سبل تدعيم تبادل الخبرات في هذا المجال بين البلدان العربية، والاهتمام بالجوانب التقنية والعلمية في مجال الترميم والكشف عن الآثار.

الفائزون بجوائز المركز القومي للفنون التشكيلية

أعلنت أسماء الفائزين بجوائز معرض مسابقة الخريف «الاقتناء» الذي أقيم في مجمع الفنون ونظمه المركز القومي للفنون التشكيلية.

نال جائزة التصوير الفنانون: محمد شاكر، ومصطفى أحمد، وسوسن عامر، ومحمد عفيفي، وحسام أمين، وجائزة النحت: محمود شكري، وطارق زيادي، ومحمد إسحاق، وأحمد عبدالعزيز، وجائزة الرسم: لويس توفيق، وصلاح المليجي، ورباب نصر، وجائزة الخزف: محمد الشعراوي عبدالوهاب، وحسن عثمان. وجائزة الحفر: سيد عبدالحليم، وفاروق شحاته.

كتب جديدة

حرب الخليج إعلاميًا، تأليف هويدا مصطفى، صدر عن دار النديم في القاهرة.

شرف، رواية جديدة لصنع الله إبراهيم، صدرت ضمن سلسلة «روايات الهلال» عن مؤسسة دار الهلال الصحفية.

أسراب النمل، مجموعة قصصية لحمدي أبو جليل، صدرت ضمن سلسلة «إبداعات».

عزف منفرد، مجموعة شعرية لأشرف العناني.

صدر الكتابان السابقان عن الهيئة العامة لقصور الثقافة

قديم لا يموت، وحديث لا يعيش، تأليف: د. يوسف عزالدين، صدر عن دار الحديث بالقاهرة، ويقع في أكثر من 420 صفحة، وضم مجموعة مقالات نقدية كان المؤلف قد نشرها في «الفيصل» و«اليمامة» و«الجزيرة» و«المدينة».

نظرات في النفس والحياة، تأليف عبدالرحمن شكري، جمع ودراسة د. عبدالفتاح الشطي، صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

دور القبائل العربية في صعيد مصر، تأليف د. ممدوح عبدالرحمن، صدر عن دار العربي للنشر.

علم وحلم، تأليف د. أحمد شوقي، صدر ضمن سلسلة «اقرأ» عن مؤسسة دار المعارف.

أسرار العلاقة الخاصة بين عبدالناصر والإخوان، تأليف سليمان الحكيم، صدر عن مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر.

القاهرة (موسوعة ودليل شامل عن العاصمة المصرية) أعدها مجموعة من الباحثين وقدم لها الفنان عمر الشريف، صدرت باللغة الإنجليزية عن دار نشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

الروضة البهية الزاهرة في خطط المصرية القاهرة، تأليف ابن عبدالظاهر، حققه وقدم له وعلّق عليه د. أيمن فؤاد سيد، وصدر عن دار المستقبل العربي.

السودان

وفاة الطبيب الإعلامي أبو عبيدة مجذوب

توفي إلى رحمة الله تعالى الدكتور أبو عبيدة مجذوب أستاذ التعليم الصحي والصحة العامة في كلية العلوم الطبية بجامعة الملك سعود في الشهر الماضي بمدينة الرياض.

عمل الفقيد مدة طويلة في مجال التوعية الصحية، وكان له برنامجان يبثهما التلفاز السوداني بعنوان «حياتك»، و«طبيب الأسرة»، كما عمل في المملكة العربية السعودية مستشارًا للتصنيف الصحي والصحة العامة بوزارة الصحة، وشارك في تنظيم دورات تدريبية لمركز البحوث والتدريب التابع لوزارة العمل والشؤون الاجتماعية. وكان للفقيد دور كبير في مجال العمل الإعلامي والتوعية العلمية على المستوى الدولي، فنال شهادات تقديرية وتكريمًا من الولايات المتحدة الأمريكية والكويت واليمن وسلطنة عمان والمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة.

ولد الدكتور أبو عبيدة - يرحمه الله - في مدينة أم درمان عام 1940م، وتخرج في جامعة الإسكندرية عام 1967م، وواصل دراساته العليا في جامعات ليدز بإنجلترا، وجونز كويكنز بأمريكا، وأوسلو بالنرويج.

معرض تشكيلي للفنان حسين شريف

أقام الفنان التشكيلي حسين شريف في الشهر الماضي معرضًا لأعماله الفنية في صالة كريم فرانسيس بالقاهرة، وضم المعرض 20 لوحة جديدة.

وقد بلغ عدد المعارض الفردية التي أنجزها الفنان بالقاهرة ستة معارض، إضافة إلى المعارض التي أقامها بالاشتراك مع زميله الفنان حسان علي أحمد في القاهرة والأردن وألمانيا.

سورية

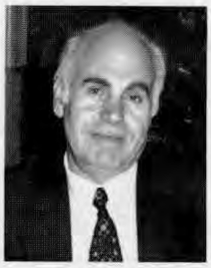
أيام ثقافية للجامعات السعودية

على مدى أسبوعين عاشت دمشق أيامًا ثقافية للجامعات السعودية أسهمت في تفاعل الفكر

وتبادل الثقافة بين البلدين الشقيقين.

تضمنت الأيام الثقافية عدة ندوات ومحاضرات وأمسيات شعرية وقصصية ونقدية، ولقاءات فكرية مع أساتذة الجامعات السعودية، فضلاً عن معرض للكتاب الجامعي السعودي، وكانت فرصة حقيقية لتحقيق تعاون فكري ومنهجي بين الجامعات العربية.

مجلة فصلية جديدة



د. علي عقلة عرسان

قرر المجلس التنفيذي لاتحاد الكُتّاب العرب في دمشق إصدار مجلة فصلية باسم «الفكر السياسي».

يرأس تحرير المجلة الجديدة د. علي عقلة عرسان، رئيس الاتحاد، ويتولى أمانة التحرير د. أمين أسير، فيما تتكون هيئة التحرير من كل من: فاضل الأنصاري، ود. طيب تيزيني، ود. حامد خليل، ود. غازي حسين.

رفات أبي فراس يعود إلى قصره مع نصب تذكاري

احتُفل في مدينة حمص بإقامة النصب التذكاري للأمير الفارس الشاعر أبي فراس الحمداني.

وكان رفات أبي فراس قد نُقل إلى موقع النصب بمدخل قلعة حمص، وهي القصر الذي كان يعيش فيه الأمير الفارس الشاعر.

ويعد النصب تحفة معمارية تعتمد الطابع العربي الإسلامي، إذ بني على هيئة ثلاثة أقواس متعامدة مع بعضها منقوش عليها أشعار لأبي فراس وكتابات أخرى، وجرى تلبيسه بالرخام، ويصل ارتفاعه إلى أربعة أمتار ومساحته خمسة أمتار.

مهرجان تدمر الصحراوي

أقيم مهرجان تدمر الصحراوي (البادية سابقًا) في دورته الخامسة متأخرًا عن موعده الثابت في دوراته السابقة بأسبوعين.

تضمن المهرجان العديد من الأعمال الفلكلورية والتراثية التي أقيمت بين معالم تدمر الأثرية وأوابدها ومدرجها ومسرحها الأثري، مثل سباق الخيل والهجن، ومعارض الصناعات اليدوية، والفنون التشكيلية والتصوير الضوئي، والعرس البدوي التقليدي، إلى جانب الأنشطة الفلكلورية الشعبية.

كتب جديدة

نحو حرب دينية: جدل العصر، تأليف روجيه جارودي، نقله إلى العربية صباح الجهيم، وصدر عن دار عطية للنشر.

حركة القوميين العرب؛ النشأة، التطور، المصائر، تأليف محمد جمال باروت، صدر عن المركز العربي للدراسات الاستراتيجية في دمشق.

ما يشبه كلامًا أخيرًا، مجموعة شعرية لنزيه أبو عفش.

العنوسة: مساحة أنثوية، تأليف كارين صادر.

صدر الكتابان السابقان عن دار المدى للثقافة والنشر.

سورية: صراع الاستقطاب، تأليف ناجي عبد رب النبي بزي، صدر عن دار العربي.

ثقافة السريان في القرون الوسطى، تأليف نينا بيجوليفساكا، ترجمه إلى العربية د. خلف جرّاد.

على خطى الصليبيين، تأليف جان كلود جويبو، ترجمه إلى العربية عبدالهادي عباس.

صدر الكتابان السابقان عن دار الحصاد.

لبنان

مؤتمر آرام الثامن

اختتم - مؤخرًا - المؤتمر الثامن لجمعية آرام، الذي عقد في بيروت تحت عنوان «المماليك في بلاد الشام» بمشاركة مؤرخين وآثاريين من مختلف أنحاء العالم.

ناقش المؤتمر الآثار الفكرية والفنية والأثرية والاجتماعية التي نجمت عن الوجود المملوكي في بلاد الشام، مثل «خطط طرابلس الشام وعمارتها المملوكية»، و«خزف العصور الوسطى في حفريات بيروت: النتائج الأولية»، و«آثار خربة فارس في الأردن» وموضوعات أخرى.

مجمع باسل الأسد الثقافي

رعى رئيس المجلس النيابي اللبناني نبيه بري - مؤخرًا - الاحتفال بوضع حجر أساس «مجمع باسل الأسد الثقافي» في مدينة صور، بحضور مسؤولين سوريين ولبنانيين وشخصيات عامة وثقافية.

جاء ذلك في إطار الاحتفالات بيوم التضامن مع الجنوب والبقاع الغربي في الذكرى التاسعة عشرة للاجتياح الإسرائيلي للبنان. وطالب بري في

رسائل جامعية

«جهود ابن حجر اللغوية في فتح الباري»، عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في جامعة أم القرى بمكة المكرمة، تقدم بها أحمد علي قائد المصباحي.

«دعوة النبي صلى الله عليه وسلم للأعراب»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، تقدم بها حمود بن جابر الحارثي.

«الإسكندرية وأشكال الزمان والمكان: دراسة لجواستين وميرامار وترابها زعفران»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية الآداب بجامعة عين شمس، تقدمت بها غادة رشاد القوصي.

«الثقافة البصرية لتلاميذ المرحلة الابتدائية»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية التربية بجامعة الأزهر، تقدم بها عبدالناصر محمد عبدالرحمن.

«الإدارة التعليمية»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في جامعة عين شمس، تقدمت بها نجاة محمد سعيد الصايغ.

«الصحف الحكومية واقتصار دورها على التعبئة والدعاية للقرارات السياسية»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، تقدمت بها عايدة إبراهيم السخاوي.

«الوجوه والنظائر في القرآن الكريم»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية الآداب بجامعة عين شمس، تقدمت بها سلوى محمد سليم العوا.

«النظريات الوضعية لعلوم الاتصال الجماهيري والمجتمع الإسلامي المعاصر.. دراسة تطبيقية على جمهورية مصر العربية والمملكة العربية السعودية في الفترة من 1978 - 1992م»، موضوع رسالة دكتوراه في الإعلام نوقشت في كلية الآداب بجامعة الزقازيق المصرية، تقدم بها أيمن محمد النبوي غبور.

كلمة ألقاها بهذه المناسبة بإنشاء مجلس أعلى للثقافة في لبنان.

معرض للخط العربي

اختتم - مؤخرًا - معرض الخط العربي الذي استضافته صالة مركز توفيق طبارة في بيروت.

ضم المعرض 57 لوحة لأربعة خطاطين محترفين هم: مختار البابا، ومحمود بعيون، ومحسن فتوني، وسامي مكارم، وطرح فكرة التضامن والشعور بالمشاركة من خلال قدرة الكلمة وقوة تأثيرها، حيث عبرت المشاركات عن الشعور بالانتماء إلى الوطن، عبر الأمثال والمأثورات وآيات القرآن الكريم.

كتب جديدة

تاريخ اللغة والآداب العربية، تأليف شارل بلا، ترجمه إلى العربية رفيق بن وناس، وصالح خيرم، والطيب عشاش، وصدرت طبعته العربية عن دار الغرب الإسلامي في بيروت (الطبعة الأول للكتاب صدرت في باريس قبل نحو أربعين عامًا).

المؤسسات الدينية الإسلامية والكيان الصهيوني، تأليف زهير غزاوي، صدر عن مركز الغدير للدراسات الإسلامية.

لغة الشعراء، تأليف وتفرد نوتني، ترجمه إلى العربية عيسى العاكوب، وخليفة الغرابي، وصدر عن معهد الإنماء العربي.

وليس أي امرأة.. امرأة، مجموعة شعرية لسارة الخثلان، صدرت عن دار الكنوز الأدبية.

النظام العالمي الجديد ومشاكل العالم الثالث، تأليف هارالد نويبرت، ترجمه إلى العربية محمد الزعبي، ومختار كريدي.

الجزائر: التحرير الناقص، تأليف غازي الحيدوسي، صدر ضمن سلسلة «السياسة والمجتمع».

صدر الكتابان السابقان عن دار الطليعة.

إلياس أبو شبكة: أوراق مطوية، جمع وتحقيق وتقديم د. ادوارد البستاني، صدر عن دار البستاني للنشر.

تونس

دراسة إنشاء مركز عربي للتوجيه الثقافي

وزعت المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة استبانة على الأقطار العربية كافة ترمي إلى جمع معطيات الخدمات الثقافية وتعرف الخصوصيات التنظيمية الحالية والمستقبلية للموجهين الثقافيين.

ترمي الاستبانة إلى التمكين من جمع معطيات تسهم في تحديد ملامح مركز عربي للتوجيه الثقافي يلبي حاجات الأقطار العربية من الموجهين الثقافيين.

اتفاقية تعاون بين الإيسيسكو وجامعة الزيتونة

وقعت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) اتفاقية تعاون مع جامعة الزيتونة في مجال تحقيق التراث.

تنص الاتفاقية على تعاون الجانبين، وقيامهما بالعمل المشترك في مجال تحقيق التراث الإسلامي ودراسته على أسس علمية ونشره على نطاق واسع، والعمل المشترك على حماية استقلال الفكر الإسلامي.

وقع الاتفاقية عن المنظمة مديرها العام د. عبدالعزيز بن عثمان التويجري، وعن جامعة الزيتونية مديرها د. جلول الجريبي.

الجزائر

معجم النقاد المتكلمين في الرجال: مشروع علمي بجامعة الأمير عبدالقادر

اعتمد قسم الدراسات العليا بجامعة الأمير عبدالقادر الإسلامية في قسنطينة بالجزائر مشروع بحث علمي يرمي إلى إعداد «معجم النقاد المتكلمين في الرجال جرحًا وتعديلاً»، تقدم به كل من: الأستاذ حسان موهوبي أستاذ علم الحديث بالجامعة، والأستاذ رمضان يخلف أستاذ التفسير.

يقوم الباحثان بتصنيف أعلام النقاد ممن صدر عنهم جرح أو تعديل للرجال من الصدر الأول إلى العصر الحاضر مع ذكر ترجمة موجزة وافية لكل واحد منهم، تحوي اسمه، وسنة ولادته، وسنة وفاته، ومذهبه إذا كان ينتمي إلى مذهب فقهي، وآثاره المتصلة بهذا الموضوع كل الصلة أو بعضها، مع ذكر مصادر ترجمته. وبذلك يضم هذا المعجم كل من تكلم بجرح وتعديل واشتهر بذلك، وكانت له انتقادات معروفة، لا فرق في ذلك بين من تكلم في سائر الرواة أو في أكثرهم، وسواء أكانوا من المعتمدين أو من غير المعتمدين على أقوالهم عند المحدثين والحفاظ من أهل العلم.

يرمي هذا المشروع إلى التيسير على طلاب علم الحديث، والمعتنين بالتخريج، والمتفقهين، والمشتغلين بالتاريخ.

من المعروف أن علم مصطلح الحديث وعلم الجرح والتعديل من أهم العلوم التي اختص بها المسلمون دون غيرهم من الأمم، وذلك مما أعان على تقصي الحقائق التاريخية، ووزن نصوص التاريخ، والتثبت من الأحاديث المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

ينتهي العمل في هذا المشروع البحثي الكبير في العام القادم.

المغرب

أسبوع ثقافي علمي سعودي

نظمت مؤسسة الملك عبدالعزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية أسبوعًا ثقافيًا علميًا سعوديًا في الدار البيضاء بمشاركة أكثر من 25 مؤسسة علمية وثقافية.

شمل الأسبوع محاضرات متنوعة من أبرزها محاضرة عن «جهود الجامعات السعودية في مجال تحقيق التراث ونشره»، فضلاً عن معرض للكتاب السعودي عُرض فيه ما يزيد على ألفي عنوان.

بدء سنة ابن بطوطة

بدأت في المغرب الاحتفالات بمرور سبعمئة سنة على ميلاد الرحالة العربي ابن بطوطة، محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي.

تستمر الاحتفالات مدة عام كامل يحمل اسم ابن بطوطة، بمشاركة أكاديميين ونقاد وأدباء ومهتمين بأدب الرحلات من مختلف أنحاء العالم، حيث تقام ندوات ومحاضرات ومؤتمرات دولية تتناول رحلات ابن بطوطة، فضلاً عن معارض وثائقية. ويصدر - بهذه المناسبة - كتابه «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» الذي حققه في خمسة أجزاء د. عبدالهادي التازي.

يذكر أن الاحتفالات تقام برعاية مباشرة من العاهل المغربي الملك الحسن الثاني، وتشرف عليها وزارة الثقافة والعلامة الدكتور عبدالهادي التازي.

فكرة لتأسيس مركز للبحوث
الـ «يورو ـ إسلامية»

يعد حاليًا لتأسيس مركز للدراسات والبحوث الـ «يور ـ إسلامية» في مدينة فاس، يتخصص بشؤون التبادل والتفاعل الثقافي بين الثقافات الغربية والأوربية من ناحية والثقافة الإسلامية من ناحية أخرى.

ينتظر أن يضم المركز المقترح مكتبة ضخمة لتراث الثقافتين، ومنظومة تاريخية للمعلومات مجهزة بأحدث الأجهزة التقنية، كما يخطط لأن يضطلع المركز بتنظيم ندوات وحلقات بحث تهتم بالعلاقات بين أوربا والمسلمين، وإصدار مطبوعة دورية بعدة لغات تغطي نشاطاته، والنشاطات العالمية في مجال عمله.

ندوة الموريسكيين في المغرب

نظمت الأكاديمية الملكية المغربية في شفشاون ندوة حول «الموريسكيين في المغرب» بمشاركة متخصصين بالدراسات الموريسكية.

ناقشت الندوة عدة موضوعات، منها: هجرة الموريسكيين إلى المغرب، وتفاعل الموريسكيين مع المجتمع المغربي، ومواطن الموريسكيين بالمغرب، ومساهمة الموريسكيين في الحياة المغربية، وموضوعات أخرى.

كتب جديدة

ضالة الأديب، تأليف عبدالله بن محمد التبشيتي، تحقيق أحمد ولد الحسن، صدر عن المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) في الرباط.

الناس والسلطة، تأليف حسن نجمي، صدر ضمن سلسلة «شراع» الشهرية.

الضحك والآخر، تأليف حسن فرايس، صدر عن دار إفريقيا ـ الشرق بالدار البيضاء.

المرأة واللغة، تأليف د. عبدالله الغذامي، صدر عن المركز الثقافي العربي.

كيف نفكر في الفن الإسلامي؟، تأليف أوليرج كرايار، ترجمه إلى العربية عبدالجليل ناظم، وسعيد الحنصالي، وصدر عن دار نشر توبقال.

روسيا

تأسيس هيئة علمية إسلامية

تأسست ـ مؤخرًا ـ في موسكو «الهيئة العلمية الإسلامية» بغية التعريف بالإسلام وقيمه، وتشجيع الدراسات في مجالي الشريعة والثقافة العربية والإسلامية.

وتعتزم الهيئة التي أنشئت بمبادرة من باحثين في الشؤون الإسلامية وبدعم مجلس المفتين في روسيا الاتحادية إعداد ترجمة علمية لمعاني القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وبعض أمهات الكتب الإسلامية، فضلاً عن إصدار مجلة دورية.

من أحدث الكتب

الشوق، رواية لفلاديمير نابوكوف، صدرت عن دار نشر دوكورا تنبوت ابسكومستوف (يذكر أن الرواية تنشر للمرة الأولى بمناسبة مرور تسعين عامًا على وفاة مؤلفها).

إسبانيا

الاحتفال بمئوية لوركا



جارسيا لوركا

تجري حاليًا استعدادات في ثلاث مدن هي مدريد وبرشلونة وجروناد لإقامة احتفالية كبيرة بمناسبة مرور مئة عام على مولد الشاعر الإسباني الراحل فيدريكو جارسيا لوركا (1897-1936م).

تشمل الاحتفالية إقامة نشاطات ثقافية وفكرية في المدن الثلاث تتضمن ندوات ومحاضرات وقراءات نقدية ومؤتمرات دولية عن لوركا، الذي كتب وأبدع في الفولكلور والمسرح والشعر والموسيقى، وترك مؤلفات قيمة منها «كتاب الشعر»، ومسرحية «زوجة الإسكافي العجيبة».

بريطانيا

بحث التطورات الجديدة
في مجال النشر الإلكتروني

نظمت مؤسسة ديتاوير تكنولوجيس مجموعة ندوات في مدينتي لندن ومانشستر لمناقشة أبدال النشر الإلكتروني.

شارك في الندوات خبراء في تقنيات الإعلام الإلكتروني وممثلون من الجمعيات المهنية والمؤسسات العاملة في هذا المجال، حيث ناقشوا سبل تطوير تقنيات خزن المعلومات وعرضها في أقراص الذاكرة المقروءة، وتطوير طبع الكتب بالتقنيات الإلكترونية، وموضوعات أخرى.

المرأة
أقوى ذاكرة من الرجل

أوضحت دراسة أجرتها باحثة في جامعة كمبردج أن ذاكرة المرأة أقوى من ذاكرة الرجل.

وكشفت الدراسة التي أجريت على أربعمئة رجل وامرأة من مختلف الفئات العمرية والاجتماعية أن ذاكرة الرجل تبدأ في التراجع بعد سن العشرين، فيما تحتفظ النساء بذاكرة حادة حتى أواسط العمر، وأشارت إلى أن كبر حجم دماغ الرجل لا يعني على الإطلاق أنه يتذكر أين يضع جواربه!!

جائزة الأدب البريطاني
لموريل سبارك

منح الكاتب الاسكتلندي موريل سبارك (79 عامًا) جائزة الأدب البريطاني عن مجمل أعماله الأدبية.

وموريل سبارك المولود عام 1918م شاعر وروائي وناقد، ومن أشهر أعماله روايتاه: «ميمنتو موري»، و«السنوات الجميلة في حياة الآنسة برودي».

يذكر أن الجائزة التي تبلغ قيمتها 40 ألف جنيه استرليني يقدمها كل عامين مركز الفنون البريطاني لتكريم كاتب على قيد الحياة عن مجمل أعماله.

أحدث الكتب

الأسس الأسطورية للسياسة الإسرائيلية، تأليف روجيه جارودي، صدر في طبعة باللغة الإنجليزية عن منتدى الدراسات الدولية.

الحمراء، ج1، (موسوعة مصورة من ثلاثة أجزاء عن فنون العمارة والزخرفة في الأندلس)، تحرير أنطونيو فرناندز بويرتاس، لوحات أوين جونز، صدرت عن دار الساقي.

معنى الواقع، تأليف إيزايا برلين، صدر عن دار نشر خاتو.

صدام الحضارات وإعادة ترتيب النظام العالمي، تأليف صمويل هنتجتون، صدر عن دار نشر سيمون أند شوستر.

الولايات المتحدة

معرض «مخطوطات التنوير»

نظم متحف لوس أنجليس للفنون معرضًا بعنوان «مخطوطات التنوير» ضم بانوراما لمجموعة من المخطوطات الفنية والإبداعية التي تستعرض مراحل نمو فنون أوربا خلال القرن الثالث عشر الميلادي.

وألقى المعرض ضوءاً على تسع عشرة مخطوطة تؤكد بالدليل القاطع تأثر الفنان الأوربي القديم بالبعد الدرامي والنفسي في أعماله. وخصص جناح لأعمال الفنان السويدي الكسندر روسلين (1718-1973م) أحد أبرز رواد فن البورترية.

في دراسة ميدانية: الإنسان يكذب كل 8 دقائق

قالت دراسة ميدانية قام بها باحثون في جامعة كاليفورنيا الجنوبية في لوس أنجليس أن الإنسان يكذب مرة كل ثماني دقائق في المتوسط، أي ما يعادل 200 كذبة للفرد في اليوم الواحد!!

وأشارت الدراسة إلى أن أكبر الكاذبين هم أولئك الذين يقيمون اتصالات اجتماعية كثيرة أو يسعون - بحكم مهنتهم - وراء المعلومات مثل الباعة وسكرتيرات وسكرتيري الأطباء ورجال السياسة والصحفيين والمحامين وعلماء النفس!

إلا أن المشرف على فريق الباحثين د. جيرالد جيليسون خفف نوعًا من صدمة نتائج الدراسة حين أشار إلى أن أغلب الأكاذيب كانت من النوع الصغير جدًا! ولكنها مع ذلك تظل أكاذيب.

ينسكي.. شاعرًا رسميًا للدولة

اختير الشاعر روبرت ينسكي ليكون شاعر الدولة الرسمي، خلفًا للشاعر روبرت هاسي.

ويأتي ينسكي برقم 38 في سلسلة الشعراء الذين شغلوا هذا المنصب الشرفي منذ إنشائه عام 1937م.

ولروبرت ينسكي (56 عامًا) مؤلفات كثيرة في مجال الشعر واللغويات والنقد الأدبي، لعل أشهرها ترجمته لـ «الكوميديا الإلهية» للشاعر الإيطالي الشهير دانتي، وهو العمل الذي حاز به جائزة هيئة الكُتّاب الأمريكيين، ومن أعماله الأخرى ديوان «تاريخ قلبي»، وكتاب نقدي بعنوان «الشعر والعالم».

أحدث الكتب

ابتداع الأدب من الحياة، تأليف دوريس الكسندر، صدر عن مؤسسة بنسلفانيا ستيت.

ماثيو أرنولد، سيرة ذاتية سجلها نيكوري ميري، وصدرت عن دار نشر مارتن.

الهنود العشرة، تأليف ماديسون بل، صدر عن دار نشر بانيتون.

فرنسا

معرض الكتاب دليل على تراجع القراءة

شارك 1514 ناشرًا فرنسيًا وأجنبيًا في المعرض الدولي للكتاب الذي استضافته باريس مؤخرًا.

وعلى أن نحو ثلاثمئة ألف زائر قد ارتادوا المعرض، إلا أن الأرقام والإحصاءات تشير إلى تراجع القراءة. صحيح أن هناك 40 ألف عنوان جديد تقدم في فرنسا كل عام؛ إلا أن متوسط النسخ المطبوعة منها هبط إلى تسعة آلاف نسخة بدلاً من 15 ألف نسخة، نتيجة تراجع الإقبال على القراءة إزاء المستجدات العصرية الجديدة.

طبعة إنجليزية من «آرابي»

صدر - مؤخرًا - في باريس العدد الأول من النسخة الإنجليزية لمجلة «آرابي» التي يصدرها ويرأس تحريرها الصحافي ياسر هواري.

يذكر أن المجلة تصدر منذ سنوات باللغة الفرنسية، وقد أضيفت هذه الطبعة الإنجليزية إلى جانب الطبعة الأم.

رواية و 16مؤلفًا!

في أول تجربة من نوعها، صدرت رواية بعنوان «المنطقة المميتة» شارك في تأليفها ستة عشر مؤلفًا تتراوح أعمارهم ما بين 20- 50 عامًا.

استغرق إعداد الرواية ستة أشهر وكتب صيغتها النهائية باتريك راينال، وتندرج ضمن سلسلة «الرواية السوداء».

أحدث الكتب

قبة الصخرة: جوهرة القدس (كتاب مصور) تحرير أوليج جرابار، عدسة المصور الفلسطيني سعيد نسيبة، صدر عن معهد العالم العربي في باريس .

عالم القرن الحادي والعشرين، تأليف روبرت فوسير.

المسافر المفقود، رواية لجان مارك.

صدر الكتابان السابقان عن دار نشر بايارد

العولمة بعيدًا عن الأساطير، تأليف سيرجي كورديليه، صدر عن دار نشر ديكوفريت.

شيخ الليل - صنعاء: تنظيم الأسواق والمجتمع الديني، تأليف فرانك ميرمييه، صدر عن دار نشر سندباد.

رسالة من يهودي إلى إسرائيلي، تأليف كلود موسى، صدر عن دار نشر بارتيه.

ألمانيا

رحيل روائي إيراني

توفي الروائي الإيراني بزرك أبو الحسن علوي أحد أعمدة الرواية والثقافة الإيرانية المعاصرة عن عمر ناهز 93 عامًا.

وُلد بزرك عام 1904م، وكان والده تاجرًا يهتم بالأدب والفكر. وفي برلين أتم بزرك دراسته، ثم عاد إلى إيران عام 1928م وعمل مدرسًا، وباشر بعد عودته بمدة قصيرة ترجمة رواية «بستان الكرز» للروائي الروسي أنطون تشيخوف، ثم ترجم رواية «أعمال السيدة وارن» للكاتب الساخر برنارد شو. كما شارك اثنين من أصدقائه في إصدار مجموعة قصصية حملت اسم «أنيران» ثم أصدر روايته «ريح السموم» وألحقها برواية «الحقيبة»، وانضم لهيئة تحرير مجلة «دنيا». ثم بعد ذلك هاجر إلى ألمانيا في أواسط الخمسينيات الميلادية.

من أشهر رواياته الأخرى: «عيناها»، و«الأبوة» و«الأرضة»، إلى جانب كتابه «تاريخ الأدب الإيراني المعاصر» و«القاموس الفارسي/الألماني».

أحدث الكتب

صحراء في السلال، مجموعة شعرية لإبراهيم الملا.

محطة النهايات، رواية لعارف علوان.

اعترافات تاجر اللحوم، رواية لحسين موزاني.

صدرت الكتب الثلاثة السابقة عن دار الجمل في كولونيا.

السقوط، تأليف يورجن روت، صدر عن دار نشر بيبر.

قصة قصيرة

الميلادُ

نورالدين شمسي باشا

حدثني صديق لي قال:

لم أكن أعلم قبل ذلك اليوم المشهود أنني مسلم بكل ذرة في كياني.. كنت أظن أنني استطعت بفكري وعلمي أن أرتقي فوق مراتب البسطاء من الناس، وأن فلسفتي للأمور، ونظرتي إليها من زاوية الواقع والطبيعة، وتدرجي صُعُدا في علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) - الذي كان مجال تخصصي - كنت أظن أن ذلك كله سما بي إلى منزلة العلماء الذين يعدّون المادة أساس الحياة وينظرون إلى الذرة والخلية على أنهما أصل الوجود، وأن تطور الذرة وانقسام الخلية هما العملان التلقائيان اللذان تتولد عنهما الحياة.. وتنمو.. وتتجدد.

وكنت أنكر وجود الله!

لم يكن للقيم الروحية في حياتي أي وزن.. وكنت أعدّ كل توجه نحو الغيبيات ضربًا من الطفولة الإنسانية، ولونًا من ألوان العجز الفكري، وضحالة يتردى فيها أولئك الذين لا حَظَّ لهم من ثقافة وعلم.. بل إنني كنت أسخر - بيني وبين نفسي - من أولئك الذين يُسمّون أنفسهم، أو يسميهم المجتمع «علماء».. لمجرد أنهم ينظرون في كتب الدين، ويحسنون الخوض في مسائل العقيدة.

كنت معيدًا في إحدى جامعات بلدي.. وكنت أعد العدّة للحصول على شهادة الدكتوراه في فني وتخصصي.. ثم أوفدت إلى بلد أجنبي فيمن أوفد إليها من الزملاء لمتابعة الدراسة، وأمضيت في جامعة ذلك البلد سنوات أربعًا، وقفتها كلها.. بأيامها ولياليها.. لاغتراف الجديد والقيِّم من العلم، حتى بلغت منه ما أريد، وحتى بتُّ على ملء الثقة بأنني أصبحت واحدًا من الذين لا يشق لهم غبار في علم (الجيولوجيا)، وأنني وقفت منه على أحدث النظريات، وتمرست فيه بأكثر أساليب التطبيقات العلمية ابتكارًا أو تقنية.

وانتهت سنوات الدراسة الأربع.. وأنجزت الرسالة المطلوبة للحصول على الدكتوراه، ولم يبق أمامي سوى أمرين اثنين:

أن أحضر معسكرًا تطبيقيًا أقضي فيه مع زملاء الكلية وأساتذة القسم شهرين كاملين من الدراسة العملية المكثفة، ثم أمثل أمام لجنة مختارة من أساتذة الكلية لمناقشة رسالة الدكتوراه..

وتوجهت إلى المعسكر المذكور.. وكان في البر، بعيدًا جدًا من مناطق العمران، وانخرطت في حياة كشفية كاملة:

النوم في الخيام.. والطعام مما تعده اليدان.. والحياة على جانب كبير من الشظف والخشونة..

كان المعسكر محاطًا بالأسلاك الشائكة.. وكان محكومًا بنظام صارم للغاية، برنامج يومي شاق.. يبدأ من ساعات الصباح الأولى ولا ينتهي إلا مع المساء..

وعشت مع العلم، في منابته الحقيقية، جنبًا إلى جنب.. وأحببت الأرض.. وبدأ شعور غريب يتملكني.. كان هذا الشعور مزيجًا من الإحساس بالانتماء إلى الأرض ومن الإحساس بالضآلة أمامها.. وراحت أسئلة مبهمة تنهض في داخلي.. أسئلة كثيرة، متشعبة ومتشابكة، أسئلة أنكرتها في بادئ الأمر ثم بدأت أرهف السمع إليها وأطرق ساعات وأنا أفكر فيها.. ولكن الأمر لم يكن يتجاوز في نفسي حدود الحيرة والتأمل، حتى كان ذلك المساء المشهود وحدث ما أخرج هذه الأسئلة من ظلام الغموض ووضعها وجهًا لوجه أمام الحقيقة الوحيدة الشامخة الصارخة.. أمام الجواب الكبير الذي غير مسار حياتي منذ تلك اللحظة:

جاءني حارس المعسكر وقال لي:

- دكتور عبدالله.. عند الباب أشخاص يسألون عنك ويرغبون في مقابلتك..

وأجبت في دهشة: عني أنا؟! ومن يعرفني في هذا المجهل من الأرض؟!

قال: لقد سألوا عنك بالاسم.. فهل في المعسكر شخص غيرك يدعى «دكتور عبدالله»؟..

وأسرعت إلى الباب وكنت ما أزال في ملابس العمل، فإذا أنا أمام ثلاثة رجال لم يسبق لي أن رأيتهم أو عرفتهم من قبل.. ولكني أحسست كأن بيني وبينهم صلة قديمة.

استقبلني الرجال الثلاثة بالابتسام.. وبادروني بالتحية.. بل لقد أحسست كأنهم يودّون لو يعانقونني.. وسألني أحدهم:

ـ أنت الدكتور عبدالله؟..

قلت: نعم!

قال ـ وقد ازداد تهللاً وفرحًا ـ: هل لك أن تصحبنا إلى مكان قريب.. لبعض الوقت؟

وازدادت دهشتي.. وتساءلت في داخلي: ما الذي يريده مني هؤلاء الغرباء.. ولكنني قلت والفضول يتملكني: لا مانع لدي، ولكن إلى أين؟..

فأجاب الثلاثة دفعة واحدة ـ وكأنهم فرحوا لحصولهم مني على الموافقة ـ إلى هاتيك الشجرة..

وأشاروا بأصابعهم إلى شجرة كانت تبدو بعيدة جدًا.. وأوشكت أن أسألهم من جديد عما يريدونه بالتحديد، ولكني لم أفعل، ووجدت نفسي أسير بينهم إلى الشجرة التي حددوها.. وعندما أصبحت الشجرة في نطاق الرؤية الواضحة رأيت في ظلها مجموعة كبيرة من الرجال والنساء والولدان، فازدادت دهشتي، ورحت أقلب في ذهني شتى الاحتمالات لهذه الدعوة الغريبة، وكان أكثر هذه الاحتمالات قبولاً عندي أن القوم اعتقدوا أنني «دكتور» بمعنى «طبيب» فهم يريدون أن يعرضوا عليَّ حالات حملوها من منطقة سكناهم البعيدة، ولعل المعسكر كان أقرب إليهم من أية دائرة صحية أخرى ولكن.. كيف عرفوا اسمي حتى سألوا عني بالذات؟

وفيما أنا في حيرتي ودهشتي رأيت من كانوا تحت الشجرة، وكان عددهم يربو على الثلاثين ـ كما قدرت ـ رأيتهم يقفون ويتقدمون نحوي، وعلى وجوههم ابتسامات السرور والسعادة، وأحاطوا بي بحب، ورحبوا بي بكرم ومودة.. ثم أجلسوني وجلسوا من حولي.. دون أن يتكلموا بكلمة واحدة.

وما هي إلا دقائق حتى نهض أحدهم ـ ولعله كان كبيرهم ـ وأحضر من مكان قريب من الشجرة لفافة بيضاء تَقَدَّم بها نحوي وهو يحملها فوق ذراعيه الممدودتين، برفق عجيب.. هنالك فقط أدركت صدق حدسي.. وعرفت أن القوم أحضروا لي طفلاً مريضًا لفحصه ومعالجته.. وأن هذه الابتسامات التي كانوا يغدقونها عليّ لم تكن سوى أسلوب من أساليب التعبير عن الامتنان والشكر..

وتقدم حامل اللفافة، ووضعها بين يدي بتؤدة ورفق ثم حلَّ عقدتها وبسط أطرافها، ونظر إليّ بعيون وامقة.. وكانت لحظة وأي لحظة!

لم يكن في اللفافة طفل مريض.. وإنما كان فيها: قرآن كريم!

قال الرجل وهو يوشك على البكاء: هذا يا سيدي قرآن كريم.. ونحن مسلمون.. ولقد سعينا إليك من مكان بعيد لأننا متشوقون لأن نسمع القرآن من لسان عربي مبين.. فهل لك أن تسعدنا بذلك ساعة.. ولك من الله عظيم الأجر.. ومنا جزيل الشكر؟..

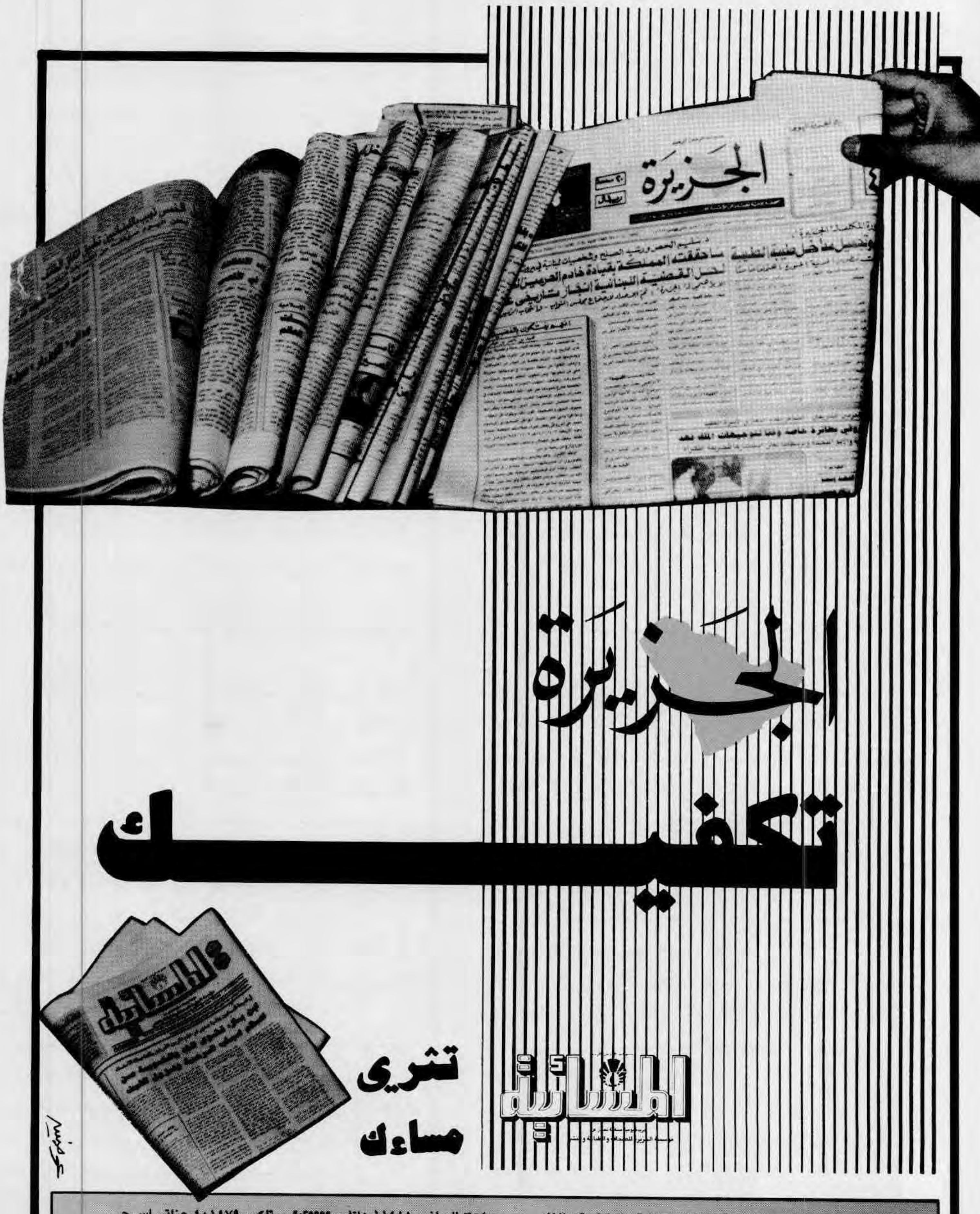
واصفرّ وجهي، وأحسست برعدة تتمشى في أوصالي، وبانفعال غريب يسري في عروقي، ورحت أتصفّح وجوه القوم فأرى فيها وجه أبي، ووجه أمي، ووجه أخي، ووجه أختي، وشعرت كأن نسائم قدسية عبرت إلينا مجاهل الأرض من بيت الله الحرام في مكة المكرمة.. وهممت أن أنهض من مكاني فأعانق أحبتي وأهلي وإخواني.. لقد أحسست لأول مرة في حياتي أنني مسلم بكل قطرة من دمي.. وأن الإيمان يلامس كل ذرة في كياني.. أنا الذي كنت ـ إلى عهد قريب ـ مُلحدًا حتى العظم.

وساد صمت عجيب، بدا لي أنه أشبه بصمت الصلاة.. ثم قلت للقوم: تنتظروني ساعة.. وسأعود..

عدت إلى المعسكر فاغتسلت، ثم رجعت إليهم وكأني قادم إلى احتفال ليس أكرم على الله منه، وجلست إليهم ساعة أقرأ القرآن وأبكي.. ويسمعون ويبكون.. حتى اشتفت نفوسنا.. وهبط الليل.. وكان وداع.

قال لي صديقي:

لقد كان ذلك اليوم يوم مولدي لأنه كان اليوم الذي استيقظ فيه الإسلام في أعماقي.


الجزيرة
تكفيك
المسائية
تثري
مساءك
تصدران يوميا عن «مؤسسة الجزيرة» للصحافة والطباعة والنشر.. ص.ب: ٣٥٤ الرياض: ١١٤١١ هاتف «٤٠٢٥٠٠٠» ..تلكس ٤٠١٤٧٩ جزاتي اس جي.

لمحات في تاريخ العلوم الكونية عند المسلمين

كتاب من تأليف الدكتور عبدالله حجازي، وقد قدم له فضيلة الشيخ عبدالرحمن الباني، ومن جملة ما قدم، قوله: «أما بعد؛ فإن اغتباطي بهذا الكتاب عظيم... واغتباطي هذا له دواع عديدة أرى من الخير أن أذكر أهمها؛ وأولها حاجتنا الماسَّة إلى هذا الكتاب وأمثاله لتخليصنا وتخليص أبنائنا من «عقدة الصَّغَار» أمام الحضارة الغربية..». كما ضم الكتاب تعليق العالم الفيزيائي المعروف الدكتور محجوب عبيد طه، ومقدمة المؤلف نفسه.

بدأ الكتاب بمدخل بيَّن فيه المؤلف أثر الكتاب والسنَّة في الإقبال على العلم وتقدمه وتطوره، ثم تناول الموضوعات الآتية: علوم الأرض، والفلك وعلم الهيئة، وعلوم الرياضيات، وعلم الفيزياء، وعلم الكيمياء، وعلم الصيدلة، وعلم الطب.

وكان همُّ المؤلف أن يعرض أهم إنجازات المسلمين في كل مجال منها؛ موثقًا ذلك من أقوال العلماء المسلمين أو ما أقرّه بعض أهل الاختصاص من الغربيين. وبيَّن بما لا يدع مجالاً للشك أن المنهج العلمي التجريبي - الذي يُنسب إلى فرانسيس بيكون وأحيانًا إلى روجر بيكون - من ابتكار المسلمين. وقد أورد المؤلف نصوصًا في ذلك. كما أبرز تراجم لعلماء مسلمين أجلاء في الجغرافية والفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء والصيدلة والطب، لكنهم غير مشهورين شهرة غيرهم.

وقد أفاض المؤلف في تسليط الضوء على الإنجازات العلمية التي كان لها أثر عظيم في التقدم العلمي الكوني الذي نشهده في عصرنا، مؤكدًا أن كثيراً من الاكتشافات العلمية المنسوبة إلى الأوربيين هي إما تطوير لما جاء عند العلماء الأفذاذ الذين وُجدوا في البلاد الإسلامية، أو أنها صورة طبق الأصل لأعمالهم وابتكاراتهم.

يقع الكتاب في 237 صفحة، إلى جانب صفحات صور، وقد صدر في الرياض عن مطابع مرامر 1417هـ/ 1997م.

القانون والسيادة وامتيازات النفط

كتاب يناقش اتفاقيات امتيازات النفط، ويوضح طبيعة الاتفاقية في ظل أنظمة قانونية مختلفة، كما يوضح تطور العلاقات بين الأقطار المستوردة للنفط وتلك المصدرة له. فقد قام المؤلف د. أحمد عبد الرزاق السعيدان (مستشار قانوني في وزارة البترول والثروة المعدنية بالمملكة)، بتحليل ما ينطوي عليه موضوع اختيار القانون، ومكان التقاضي بشأن الاتفاقيات الخاصة بامتيازات النفط.

انصب اهتمام المؤلف على القانون الذي يحتم الاتفاقيات المذكورة والسيادة الدائمة للدول المصدرة للنفط على مصادرها الطبيعية، وموقف الشريعة الإسلامية منها، وبين كيف يعبر القانون الدولي عن مصالح الدول المصدرة للنفط في إعادة سيطرتها على ثرواتها والاحتفاظ بهذه السيطرة.

ووازن المؤلف بين المفهوم الدولي ومفهوم الشريعة الإسلامية للسيادة الدائمة على المصادر الطبيعية، وقضية تأميم الملكية الأجنبية وحق الدول في السيطرة على مصادرها الطبيعية، ودفع التعويضات، والخلاف بين الطلبات الخاصة بتعويض فوري وفعلي، وأشار إلى أن الخلافات حول هذه القضايا ليست خلافات قانونية وعقدية فحسب، بل هي خلافات تتصل بالقيم الثقافية والسياسية والاقتصادية.

يقع الكتاب في 400 صفحة، وقد صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت.

الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية

كتاب يضم تسجيلات يومية لمشاهدات الرحالة الياباني إيجيرو ناكانو الذي قدم إلى المملكة عام 1939م، ضمن أول وفد ياباني زار المملكة زيارة رسمية، بدعوة من الملك عبدالعزيز - رحمه الله -. وقامت سارة تاكاهاشي بترجمة الكتاب إلى اللغة العربية.

تكمن أهمية الرحلة في كونها تتناول مرحلة تاريخية مهمة، وتقدم وجهة نظر أخرى مختلفة عن وجهات النظر السائدة - خصوصاً الأوربية - عن المنطقة، مما يسهم في إثراء المصادر التاريخية من حيث تنوعها وتعددها.

وضمَّن المؤلف كتابه وصفًا لسفر الوفد من مدينة جدة إلى الرياض حيث استقبل الملك عبدالعزيز أعضاء الوفد. كما سجل ملاحظاته والمفارقات التي حدثت في أثناء انتقالهم بالسيارات التي أمر الملك عبدالعزيز بتوفيرها لهم. كما ذكر أن عدد سكان مدينة الرياض كان يبلغ حينذاك عشرين ألف نسمة، وكان عدد سكان جدة قرابة خمسة وعشرين ألف نسمة.

يقع الكتاب في 144صفحة، وهو من إصدارات دارة الملك عبدالعزيز للوثائق والمخطوطات والبحوث والدراسات.

تنمية الذكاء الإنساني

كتاب يؤكد أن الذكاء هبة جديرة بالاهتمام والرعاية، وموهبة ترقى بها المجتمعات في مدارج التحضر والعلم والفكر والثقافة. يقول المؤلف د. عبدالرحمن محمد العيسوي: «وحضارة الإنسان إن هي إلا وليدة ذكائه، والدول المتقدمة المحيطة بنا لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بفضل ذكاء أبنائها وحسن استغلال هذا الذكاء في العلم والتكنولوجيا».

بين المؤلف أن نسبة الذكاء العالية في حد ذاتها، لا تكفل وحدها التكيف الانفعالي أو الاجتماعي أو العائلي أو الصحي أو الأخلاقي أو الإيماني، فقد يفتقر الأذكياء إلى وجود الانسجام والرضا والسعادة والراحة في حياتهم الشخصية، وقد يعانون من عدم الانتماء، ومن ثم تأتي أهمية التربية النفسية والأخلاقية والروحية والدينية لأبناء المجتمع.

كما ينبه د. العيسوي إلى أن سوء التكيف الاجتماعي والنفسي يؤدي إلى طمس مواهب الفرد، فلابد من توجيه العناية للشباب منذ البداية، وتوفير المناخ الصحي الملائم والجو المشجع والمثير لاستخدام قدراتهم الإبداعية بطريقة إيجابية منتجة اجتماعيًا وخلقيًا.

يقع الكتاب في 324 صفحة، وصدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر، عن سلسلة بعنوان «الفلسفة والعلم».

البريد الثقافي

تتفاعل في الساحة الثقافية قضايا أدبية وفكرية وعلمية كثيرة، تختلف الآراء ووجهات النظر حولها، كما يختلف أسلوب طرحها وشكله؛ مما يحول دون الفهم العميق لها، ومن ثم يؤدي - في بعض الأحيان - إلى حيرة القارئ، ودفعه إلى التساؤل عن أوجه الخلاف ومسوّغاته، ولاسيما أن جل هذه القضايا لها طابع الاستمرار، والتجدد، والقابلية لاختلاف الآراء وتعدد وجهات النظر.

وحيث ترد إلى المجلة كثير من الأسئلة والاستفسارات التي يبعث بها القُرّاء، وتتعلق بمثل هذه القضايا، أو تلك التي تحتاج إلى بحث ودراسة وإيضاح من المتخصصين بالمجالات محل هذه الأسئلة والاستفسارات؛ فقد رأت المجلة - تحقيقاً للفائدة وتعميماً لها - استحداث باب يعنى بتلقي تساؤلات القُرّاء واستفساراتهم الثقافية، ليتولى الإجابة عنها اختصاصيون تقوم المجلة باختيارهم محدّدة لهم أسلوب معالجة السؤال وشكلها، حتى تتحقق الغاية المنشودة. كما أن المجلة سوف تطرح السؤال بما يمكّن من إيراد أكثر من وجهة نظر في حالة تعدد الآراء ووجهات النظر عن القضية المطروحة، بقصد إحاطة القارئ بجوانب الاتفاق والاختلاف ومسوغاتها، وللإسهام في ترسيخ قيم الحوار الموضوعي في الساحة الثقافية.

وتطرح المجلة السؤال الأول الذي وجهه إليها القارئ عبدالغني محمود عبدالهادي من الأردن، ونصه: ما الدور الذي قامت به مجامع اللغة العربية حتى اليوم في مجال الترجمة والتعريب؟ وما مدى خدمتها في ذلك لقطاع التعليم العالي؟

طريقة المشاركة في هذا الباب:

- يرسل القراء الكرام أسئلتهم إلى المجلة، موضحين عنوان الباب على المظروف، وتأمل المجلة أن تكون الأسئلة محصورة في المجال الثقافي، وأن تكون في عمق القضايا الثقافية الملحة؛ وأن تبعد بقدر الإمكان من التقليدية والتكرار.

- يرسل القراء أسئلتهم من خلال الفاكس رقم 4647851، كما يمكن الاتصال على هاتف رقم 4653026 من الساعة الثانية عشرة إلى الواحدة ظهراً، ومن الساعة السابعة إلى الثامنة مساءً.

- يمكن للقارئ الكريم أن يعقب على وجهات النظر التي ترد في هذا الباب، وسيتم نشر تعقيبه لاحقًا في باب «مناقشات وتعليقات».

- ترحب المجلة بأي اقتراح من القراء الكرام حول أسلوب معالجة الأسئلة في هذا الباب.

للاشتراك املأ هذه القسيمة
(عنوان الاشتراك من الخلف)

الاسم: ....
العنوان: ....
....

مسابقة مجلة الفيصل

1- جوائز كثيرة تقدمها المجلة لأصحاب الحلول الفائزة على النحو التالي:

أ- ثلاث جوائز مالية تمنح لثلاثة فائزين (500 ريال، 350 ريالا، 150 ريالا).

ب- خمس جوائز اشتراك مجاني في المجلة مدة عامين (24 عدداً).

ج- عشر جوائز اشتراك مجاني في المجلة مدة عام واحد (12 عدداً).

د- خمس جوائز عبارة عن مجموعات من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض.

2- ترسل الإجابات على العنوان التالي في مدة أقصاها 60 يومًا:

مسابقة مجلة «الفيصل»، ص ب (3) الرياض (11411) المملكة العربية السعودية

(مع ضرورة ذكر رقم المسابقة على المظروف)

أجوبة مسابقة العدد 244

ج 1- من الأحاديث الشريفة التي وردت في فضل صلاة الضحى:

- مارواه أحمد ومسلم وأبو داود عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يصبح على كل سُلامى (أي عظام البدن ومفاصله) من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى».

- ومارواه أحمد وأبو داود عن بريدة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «في الإنسان ستون وثلاثمئة مفصل عليه أن يتصدق عن كل مفصل منها صدقة»، قالوا: فمن الذي يطيق ذلك يارسول الله؟ قال: «النخامة في المسجد يدفنها أو الشيء ينحيه عن الطريق، فإن لم يقدر فركعتا الضحى تجزئ عنه».

- ومارواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي بثلاث: «بصيام ثلاثة أيام في كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام».

ج 2- من الأحاديث الشريفة التي وردت في الأضحية:

• مارواه الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما عمل آدمي من عمل يوم النحر أحب إلى الله من إهراق الدم. إنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفساً».

• ومارواه البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمّى وكبّر.

ج 3- ذهب أبو حنيفة وابن حزم إلى وجوب الزكاة في حلي المرأة من الذهب والفضة إذا بلغ نصابًا، استدلالا بما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: أتت النبي صلى الله عليه وسلم امرأتان في أيديهما أساور من ذهب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتحبان أن يسوركما الله يوم القيامة أساور من نار؟» قالتا: لا. قال: «فأديا حق هذا الذي في أيديكما».

وذهب الأئمة الثلاثة إلى أنه لا زكاة في حلي المرأة بالغًا ما بلغ. فقد روى البيهقي أن جابر بن عبدالله سُئل عن الحلي؛ أفيه زكاة؟ قال: لا. فقيل: وإن كان يبلغ ألف دينار؟ فقال جابر: أكثر.

وروى البيهقي أن أسماء بنت أبي بكر كانت تحلّي بناتها بالذهب، ولا تزكيه، نحواً من خمسين ألفًا.

وفي الموطأ، عن عبدالرحمن بن القاسم عن أبيه: أن عائشة كانت تلي بنات أخيها، يتامى في حجرها، لهن الحلي فلا تخرج من حليهن الزكاة.

وقد اقتصرنا - لضيق المساحة - على ماذكرناه فقط. ومن أراد التوسع والاستزادة، فليرجع إلى أبواب الزكاة في كتب الفقه المعتمدة.

ج 4- هو محمد بن حسين بن عمر بن عبدالله بن أبي بكر بن محمد نصيف. ولد سنة 1302هـ = 1885م، وتوفي سنة 1391هـ = 1971م.

ج 5- من الذين نقلوا رباعيات الخيام إلى العربية (نظمًا ونثرًا): وديع البستاني، وأحمد الصافي النجفي، وأحمد رامي، وعبدالحق فاضل، وجميل صدقي الزهاوي، وأحمد حامد الصراف، ومحمد السباعي، ومحمد الهاشمي، وأحمد زكي أبو شادي.

نتائج مسابقة العدد 244

أ - فازت بالجائزة المالية الأولى، وقدرها 500 ريال سعودي: نشوى محمد سيد أحمد الشعار، القاهرة، مصر.

وفاز بالجائزة المالية الثانية، وقدرها 350 ريالا سعوديا: سلطان مبارك مذكور، المحرق، البحرين.

وفاز بالجائزة المالية الثالثة، وقدرها 150 ريالا سعوديا: مكي يوسف البر، الأبيض، السودان.

ب - وفاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة مدة عامين (24 عدداً)، كل من:

1- عبدالسلام بن زياد بن ناصر بن زرعة، الخبر، المملكة العربية السعودية.
2- حيدر سليمان علوان، الدوحة، قطر.
3- أماني أحمد السابق، دمشق، سورية.
4- دلال أحمد فانوس، الشارقة، الإمارات.
5- منى سعيد عبدالله العيد، الرياض، المملكة العربية السعودية.

ج - وفاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة مدة عام واحد (12 عدداً)، كل من:

1- مصطفى بن أمحمد عبود، الجزائر العاصمة، الجزائر.
2- عبدالكريم بداوي، وجدة، المغرب.
3- فاطمة إبراهيم محمد، خميس مشيط، المملكة العربية السعودية.
4- رعد رائد الياسين، عمّان، الأردن.
5- محمد عطا سعيد رمضان، قامشلي، سورية.
6- إبراهيم محمد إسماعيل، روي، سلطنة عمان.
7- علي صالح إبراهيم، كسلا، السودان.
8- عبده أحمد محمد بيومي، الدقهلية، مصر.
9- أحمد محمد سالم السعود، الزرقاء، الأردن.
10- سناء محمد بن إدريس السلمي، الدار البيضاء، المغرب.

د - كما فاز بجائزة مجموعة من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، كل من:

1- هدى مصطفى الشريقي، جدة، المملكة العربية السعودية.
2- المختار ولد محفوظ، نواكشوط، موريتانيا.
3- إكرام الدين عبدالمالك، إسلام آباد، الباكستان.
4- عزيزة بكور حمامة، حلب، سورية.
5- حمادي سيد علي سيد عمر، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية.

أسئلة مسابقة العدد 247

(سؤالان فقط)

س 1: أمر الشارع الحكيم المسلمين بالتداوي حال المرض. اذكر حديثين شريفين في الحث على التداوي.

س 2: في 21 يوليو/ تموز 1969م هبط «نيل أرمسترونغ» على سطح القمر، ثم تلاه زميل له. من هو؟

قسيمة
مسابقة مجلة
الفيصل
العدد 247
مجلة الفيصل - ص.ب: (٣) الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية

ويأتيك بالأمثال

رُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثًا

أي قد تفوت العجلة على المرء قصده، وتدعوه إلى التمهل والتريث.

قالوا: كان رجل من العرب اسمه سنان بن مالك رأى ذات يوم غيمًا في ناحية، فظنه غيمًا ممطرًا، وأراد أن يرحل بأهله إلى تلك الناحية، ولما علم مالك بن عوف أخو زوجته بما عزم عليه سنان نصحه بعدم الرحيل إلى مكان لا يعرفه، وإلى شيء لم يتحقق منه، فربما أخلف ذلك الغيم ظنَّه فلم يكنْ ممطرًا، وحذره من إلقاء نفسه في الهلاك؛ فقد يتعرض لهجمات بعض الأعراب، فيؤذي نفسه ولا ينال ما ينهض إليه.

ولم يسمع سنان النصح ومضى إلى ما عزم عليه، فعرض له في الطريق بعض الفتَّاك وسلبوه زوجته، ولم يقو على دفعهم ففر من دونها وعاد إلى قومه.

فلما سأله عنها أخوها قال: نفتني عنها الرماح، أي أبعدتني عنها مضارب قطاع الطريق.

فقال مالك: رب عجلة تَهَبُ ريثًا، ورب فَروقة يدعى ليثًا، ورب غيث لم يكُن غيثًا.

كان كما هو

قيل لأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: هل شربت الخمر في الجاهلية؟

فقال: لا. كنت في الجاهلية كما أنا الآن.. أصون عرضي، وأحفظ مروءتي. فقد كنت أعرف أن مَنْ شرب خمرًا كان مضيعًا في عرضه ومروءته.

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «صدق أبو بكر، صدق أبو بكر».

لا يُرتَجَى منهم نُصرة الحق

قال حكيم: ستة لا يرتجى منهم نصرة الحق أبدًا: قوي مغرور متسلط، وشهواني سدّت عليه الشهوة منافذ تفكيره، ومُبطِل وجد له أتباعًا يُغْرونه بالمضيّ في طريقه، وعالم اتخذ من علمه وسيلة لتحقيق أطماعه، ومتزهّد اتخذ الزهد في الدنيا ستارًا لحيازتها، وطَمُوح للشهرة اتّخذ من مخالفة الحق سبيلاً إليها!

كلمات من نور

قال الإمام علي كرم الله وجهه:

من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن الحرمات، ومن زهد في الدنيا تهاون بالمصيبات، ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات.

أكرم بقعة!

نزل عبدالله بن جعفر بن أبي طالب إلى خيمة



مسجد عمر بن الخطاب في الجوف

استراحة العدد

أعرابية، لها دجاجة قد دجنت عندها.. فذبحتها وجاءت بها إليه وقالت:

ـ يا أبا جعفر، هذه دجاجة لي كنت أدجنها وأعلفها من قوتي، وألمسها في آناء الليل فكأنما ألمس ابنتي زلت عن كبدي، فنذرت لله أن أدفنها في أكرم بقعة تكون، فلم تك البقعة المباركة إلا بطنك فأردت أن أدفنها فيها، فهنيئًا مريئًا لك يا أبا جعفر.

فضحك عبدالله بن جعفر وأمر لها بخمسمئة دينار.

حيلة

بلغ عضد الدولة بن بويه أن قومًا من المجرمين يقطعون الطريق، ويقيمون في جبال شامخة بحيث لا تمتد إليهم يد العدالة ولا يقدر عليهم أحد، فاستدعى تاجرًا مشهورًا ودفع إليه بغلا عليه صندوقان فيهما حلوى مسمومة كثيرة الطيب في أوان فاخرة، وأمره أن يسير مع القافلة ويظهر أن هذه الحلوى هدية لإحدى نساء الأمراء. ففعل التاجر ذلك وسار أمام القافلة.. ونزل القوم وسطوا على الأمتعة والأموال، ثم انفرد أحدهم بالبغل وصعد به الجبل، فوجد به الحلوى، فأبى أن ينفرد بها من دون أصحابه، فاستدعاهم، فأكلوا على جوع فماتوا عن آخرهم، وأخذ أصحاب الأموال أموالهم..

الفن

سئل روبرت لويس ستيفنسون (1850- 1894م) الكاتب الأسكتلندي الشهير يومًا عن رأيه في الفن، فقال: إنه الإدراك لما يجب أن يتركه المرء في أحاديثه وفي كتاباته عن نفسه وعن الناس. إن هذه الذكريات التي تُنسى أو نتناساها ونحن نستعيد الكثير من تفاصيلها الصغيرة والكبيرة هي الفن بعينه على هذه المدرسة التي أدعو إليها.. إن الشيء الناقص هو الذي يعيش دائمًا، والجزء يعمر أكثر من الكل.

حسرة الكريم

يروى أن أبا دلف سار يومًا مع أخيه معقل، فرأيا امرأتين تمشيان، فقالت إحداهما للأخرى وهي تشير إليه: هذا أبو دلف.

فقالت الأخرى: نعم، هو الرجل الكريم الذي يقول فيه الشاعر:

إنما الدنيا أبو دلف
بين باديه ومحتضره
فإذا ولّى أبو دلف
ولّت الدنيا على أثره

فبكى أبو دلف، فقال له معقل: عجبًا! مالك يا أخي تبكي، وهن يتحدثن بما أنت عليه من كرم؟

فقال أبو دلف: أبكي لأني لم أقض حق الذي قال هذا..

قال أخوه: ألم تعطه مئة ألف درهم؟

قال: بلى! لكن ـ والله ـ ما في نفسي حسرة إلا لكوني لم أعطه مئة ألف دينار!

نفقات حج عمر

لقي سفيان الثوري أبا جعفر المنصور في منى وحوله كوكبة من الرجال، فقال له:

اتق الله، فإنما أُنزلت وصرت في هذا الموضع بسيوف الأنصار والمهاجرين، وأبناؤهم يموتون جوعًا! لقد حَجَّ عمر بن الخطاب فما أنفق إلا خمسة عشر درهمًا، وكان منزله تحت الشجر!

فقال أبو جعفر: ويحك، أتريد أن أكون مثلك؟

فقال سفيان: لا، لا تكن مثلي، ولا أحد يرضى لك بذلك. ولكن دون ما أنت فيه، وفوق ما أنا فيه!!

من عجائب الخلق

يقول الدكتور كارلتون كون أستاذ علم الأجناس البشرية بجامعة بنسلفانيا الأمريكية: إن المخ الكبير الحجم يكلف المرء كثيرًا، لأنه يستهلك كمية كبيرة من سكر الدم! فقد ثبت للدكتور كون أن المخ عندما يفكر يستهلك من الدم ومن السكر الموجود في الدم أضعاف ما يستهلكه مخ الحيوان الذي يماثله حجمًا! كما ثبت له أن عملية التفكير تتطلب من الدم قدرًا أكبر مما تتطلبه أية عملية عضوية أخرى!

ويقول الدكتور كون: لا علاقة كبيرة بين حجم المخ والذكاء.. فإن أكبر مخ بشري عُرف للآن كان مخ السياسي الألماني الداهية بسمارك، ولكنّ أشخاصًا مغمورين كثيرين لم يأت لهم ذكر يمتازون بمخ مقارب لحجم مخ بسمارك!

وإنما يبدو أن الذكاء يعتمد على إنزيم يحمله الدم إلى المخ، وتستعين به الخلايا الرمادية في جسم الإنسان على تمثيل الأكسجين والكربون، وقد تبين أن درجة تركيز هذا الإنزيم تزداد بسرعة إذا ما انتقلنا من الحيوانات الدنيا إلى القردة، ومن هذه إلى الإنسان.

شباب دائم

كان جورج برنارد شو يجلس مع عدد من ضيوفه ذات مساء، ولاحظ أحدهم أن وجود تمثال نصفي له، صنعه المثال الشهير رودان قبل عشرين عامًا، فراح يحملق في التمثال، فقال شو الذي تقدم به العمر: حسنًا يا عزيزي. هناك شيء غريب في هذا التمثال، فهو يزداد شبابا يوما بعد يوم.

طباع سوء

يروى أن أعرابية عثرت على جرو ذئب حديث الولادة في الصحراء؛ فأخذته لتربيه أملا في أن يقوم بحراسة خيمتها ورعاية شاتها الوحيدة، وأخذت تغذيه بلبن الشاة حتى كبرت أنيابه وقويت مخالبه. وذات يوم خرجت لبعض شؤونها، وعند عودتها فوجئت بالذئب وقد افترس الشاة، فأخذت تصرخ وتولول وأنشأت تقول:

أكلْتَ شويهتي وفجعْتَ قلبي
وأنت لشاتنا ابنٌ ربيبُ
غذيت بدرّها وربيت معها
فمن أنباك أن أباك ذيبُ؟
إذا كان الطباع طباع سوء
فلا أدب يفيد ولا أديبُ!

فائدة الإخفاق

أبدى مساعد المخترع توماس أديسون دهشته من مثابرة المخترع على إجراء تجاربه، على الرغم من أنه أخفق في عشرات التجارب قبل أن ينجح في اختراع نوع جديد من البطاريات.. فقال أديسون: لقد أفادتني هذه التجارب الخاسرة كثيرًا.

فلما قال له المساعد بتعجب: وكيف كان ذلك؟

رمقه أديسون، وقال: إنها على الأقل جعلتني أعرف بضع عشرات من الأشياء التي لا تصلح لإنتاج الشيء المطلوب!!

تباشير

يهدف الباب إلى تشجيع المواهب الناشئة التي تتلمس لها سبيلاً إلى الإبداع الفني والكتابة الأدبية، ولذلك تقوم تباشير باختيار عمل أدبي أو أكثر وفق معايير فنية محددة وحسب المساحة المتاحة، ومن ثم يُعرض على أحد النقاد المعروفين الذي يتناوله بالمتابعة النقدية أو التعليق أو التوجيه لتكون خطوة ثابتة لهذه المواهب في طريق الإبداع.
وهذه دعوة للمواهب الأدبية الناشئة للمشاركة في هذا الباب، علماً بأن هناك مكافأة رمزية تشجيعية للعمل الذي يحظى بالنشر.

قبسٌ من كليلة ودمنة:

العصفور والوزغ (*)

صادقي مصطفى
وجدة، المغرب.

قال دبشليم الملك للفيلسوف بَيْدَبا: أمَا رأيتَ أنه كم من باطل يحظى بمن يُناصرُه ويؤازره. وكم من حق عزّ ناصرهُ؛ فما تُجدي جهود المصلحين إن خذلهم الناس، وكانوا قلة مستضعفين؟ أليس اعتزالهم أنفع لهم من جهود لا تُثمر؟

قال الفيلسوف: قد علمتَ يا مولاي أن الحق والباطل كفّتا ميزان، والناس حِياله بيْن مُعين على رجُحان كفة الحق، ومُساعد على رجحان كفّة الباطل، وصاحبُ الحق قد أثمر جهده حين ملك شأنه وأعتق رقبته؛ أما مُناصرة الناس له، فتلك ثمرة أخرى لا يضيرُهُ فواتُها، مادام قد حصّل رأس مال تجارته.

قال الملك: قد بدَتْ قوة حجتك، وجزالة منطقك، فاضرب لنا مثلاً يُقرّب مرادَك للأذهان، ويطرد عن العقل كل الأوهام.

قال الفيلسوف: «يُحكى يا مولاي، أنه كان في سالف الأزمان، مَلكٌ غشُوم ظلوم يتسلّط في أحكامه، ويكم أفواه المخالفين له من رعيته؛ لكن رجلاً صالحًا قد أشرقت سيرته، وعُرف نقاء سريرته، أحْرز قوة البيان، ومَلَك الحجة والبرهان؛ لمْ يكن ليسْكُت على الظلم والطغيان، فقام في الناس خطيبًا يدعو للصلاح، ونبذ سُبُل الفرقة والفساد، فأقلق عملُه هذا بال السلطان، وخشي أن يُؤلبَ عليه الناس، فاستقدمه الملك لقصره وناظره في ما يقول؛ ولمّا بدا للناس فسولة رأي السلطان وهزالة نظره، لم يجدْ بُدًا من أن يتّهم الرّجل الصالح بإثارة القلاقل، وإفساد الرعيّة، وجعل من نفسه خصْمًا وحكما، وأمر الحراس أن يصلبوه ويُحرّقوه..

وكان بجانب القصر - يا مولاي - شجرة باسقة يعيشُ فيها عصفور ووزَغ، يقْتاتان على فضلات أطعمة الملك التي يطرحها خُدّام القصر، فبلغهُما حديث الناس عن قرب إعدام الرجل الصالح، فاختلفا في الرأي اختلافًا، مثلما تفرّق الناسُ أوزاعًا؛ فقد كان العصفور طيّب النفس مُحبًا للحرية والخير، وكان الوزغ خبيثًا شريرًا، يُثني على الملك الظلوم خيرًا، لأنه وَلي نعمته، وكافل معيشته. وحُشر الناس من كل حَدَب ليشهدوا تنفيذ الحكم؛ وأُضْرِمتْ نار عظيمة مُتأجّجة؛ فاقترب منها الوزغ وجعل ينفُخ فيها بنَفَسه الضعيف ليزيد من أوارها، وبينما هو كذلك، لَمحَ العصفور يطير فوق ألسنة اللهب يحمل في منقاره قطرة ماء يُلْقيها في النار، ثم يعودُ ليجلب أخرى؛ فضحك منه الوزغ ضحكًا شديدًا حتى استلقى على ظهره، وقال:

- أتطمعُ أن تُخمد هذا السعير بتلك القطرات التي تحملها في منقارك؟!

رد عليه العصفور: وأنتَ تريد أن تزيد من أُجاج النار بِنَفْخك المتهالك؟!

قال الوزغ: إنها نار حـامية، تضافر كل الناس على إشعـالها، لن تجدي معها قطرات الماء التي تُرهق نفسك في جلبها..

قال العصفور: ألسْتَ تُعين الباطل بنفْخةٍ؟! فأنا أُعينُ الحق بقطرة..

وتعاقبت الأيام تتْرى، بحث فيها العصفور عن عُش له، بعيدًا عن جار السوء؛ وحدَث أن تآمر بعض الوزراء على الملك فوضعوا له سُمًّا زعافًا في غدائه، وأكل الوزغ من فضلات الطعـام المسموم فأصبح يتلوى ألمًا والسُّمُّ يقطع أحشاءه، كما تألم الملك قبله إلى أن أراحته المنون.

ومرّ عليه العصفور، فوجـده يتقلب ذات اليمين وذات الشمال توجُّعًا، فتـذكر الوزغُ يـومَ أنْ كان يتـقلبُ ضـحكا على الـعصـفـور حين رآه يحمل قطرات الماء.

فابتدره العـصفـور قائلاً: مـا بالك؟ ألمْ يُرسل إليك الملك الدواء كـما يُرسل إليك الطعام؟

ردّ عليه الوزغ: أبـعده الله، ما أرداه إلا طغـيانه، ومـا أرداني إلا اتباعي له؛ أمـا أنـت فـقـد أخـذت أمـرَك من قـبـل، واعـتـزلت المـلـك الظالم وفضلات طعامه، ومـا أحسبُ إلا قطرة الماء قد شفَعَتْ لك عند ربك فأنْجاك بها ممّا تلبَّسْنا به.

وما كاد يُتمم كلامه حتى لفظ أنفاسه».

(*) مستوحاة من الحديث الشريف الذي أورده الحافظ ابن كثير عند تفسير سورة الأنبياء، في قصة إلقاء إبراهيم - عليه السلام - في النار: عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إن إبراهيم حين أُلقي في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ النار، غير الوزغ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم». الحديث.
والوزغ: دويبة من الزحافات تلتصق بالشقوق والجدران، ويُعرف عند العامة بالبرص وبأبي بريص.

التعليق: **الأخ صادقي مصطفى: إن ما كتبته «العصفور والوزغ» قبس من كليلة ودمنة، تقليد تقرُّ به، لرائعة عبدالله بن المقفع. ولكن هذا التقليد لم يَرْقَ إلى مستوى الأصل ولم يقترب منه.**

فحبذا لو تركت التقليد، وانصرفت إلى الكتابة الإبداعية؛ لأنّ لغتك جيدة وأسلوبك يدلّ على موهبة كتابية واعدة بالخير إن شاء الله. نرجو أن تكثر من قراءة الكتب التراثية وكتب النحو المبسطة لتصل - بإذن الله - إلى المستوى الإبداعي الذي تطمح إليه. أما موضوع قصتك فقد عولج غير مرة، عالجه غير كاتب، وأنت لا تأتي بجديد لا في المعالجة ولا في البناء الدرامي. نرجو لك التطور في إنتاجك المقبل.

د. محمد خير البقاعي

قصيدة:

أهواك

شعر: حامد عبدالماجد النور
كلية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية، السنة الرابعة.
جامعة الخرطوم، السودان.

وأنت كـأنفـاس الوُرود نديّةٌ ... سقَتْك غيومُ الحُسْنِ عطرًا وأمطارا
ومنكَ بُحيراتُ الحُبُورِ تفجَّرتْ ... وهزَّ نَسيمُ الحُسن في النفسِ أوتارا
وما كان عشقي للعيون جهالةً ... ولكنَّ شيئًا خلفَ أسوارها (ثارا)
فأنت غديري في الحياة و(شاطئي) ... ولولاك لم أرضَ الهواجرَ أنصارا
وأشرب ألوان الذُّهول مدامةً ... إذا الدَّربُ هوجاءً تحدّى وإعصارا
وأسكن أطرافَ المدينة هاربًا ... وتكسرُ هذي الكفُّ نايًا ومزمارا
وأجدرُ بي ألاّ أميلَ لزهرةٍ ... يفوحُ شذاها في الأصائل تذكارا
وأولى بهذا القلبِ أن يدعَ الهوى ... فقد بات في الأعماق جُرْحًا وآثارا

التعليق: الأخ حامد عبدالماجد: قرأنا قصيدتيك «رثاء نفس» و «أهواك»، وفيهما قدرة جيّدة على الصّياغة، لولا أنَّك تُغْرِبُ كثيرًا فلا يكاد مرادك يَبِين، وأنت تعلم أن خير الشّعر ما سبق معناه لفْظَه. وفي بعض أبياتك ترصف المَعاني رصفًا فيأتي بناؤك قويَّ السّبك ولكنه خالٍ من المعنى، وإنما الألفاظ خدم المعاني، فلا تضع المعنى اليسير تحت اللفظ الفضفاض.

وقد تضع ألفاظًا فيها شيءٌ من القلق فيضيع بذلك المعنى الجيّد، كقولك:

قضى (الليل) أن أقضي الشّباب معذّبًا ... أصارع جرحًا في الفؤاد وداءَ

فلو أنك وضعت اسم «اللّه» تعالى مكان لفظة «الليل» لأصبت الدِّينَ والمعنى جميعًا؛ لأن القضاء للّه.

وقولك: «لقد طُفْتُ أجوالَ الحياةَ» فما علمنا مرادك، ولا نعلم للحياة أجوالاً.

فحاول تنقيح اللغة بانتقاء الألفاظ المعبّرة.

أما موسيقى القصيدتين فسليمة خالية من الخلل، وحسُّك العروضي ممتاز، ولم أجد في القصيدتين خروجًا عن أوزان الخليل إلا في قَولك في «رثاء نفس»:

وجفّتْ كحيزوم الفراغ بحارُها ... وضلّ دليل الخيل فيها مساءَ

ففي قولك «فيها مساء» زيادة على أوزان الطويل الثالث، ويلزمك الاختلاس وهو مُخِلٌّ هنا، أو الالتفات إلى الخطاب، أو إعادة الصياغة.

وقصيدة «رثاء نفس» عمومًا لهجتها خطابية، ينقصها التصوير الفني والخيال، أما قصيدة «أهواك» فَيُستَجَادُ منها الأبيات السابقة.

د. إبراهيم القرشي عثمان

ردود خاصة

MOHAMMED IBRAHIM SAJID, KOZOHIKOOE - KERALA , INDIA:

نشكر لك ثقتك بمجلة الفيصل ورسالتها الثقافية في العالم الإسلامي، كما نعرب لك عن تقديرنا لما تقوم به من دور في المجال الثقافي في نطاق مجتمعك المحلي، من خلال المؤسسة التربوية والمكتبة الإسلامية اللتين أنشأتهما لتثقيف الشباب. أما فيما يختص بطلبك فسيتم النظر في تلبيته في حدود الإمكانات المتاحة.

الأخت د. غنية عبدالرحمن النحلاوي، دمشق، سورية:

نشكر لك متابعتك موضوعات «الحركة الثقافية في شهر»، ونأمل أن نلبي طلبك في أعداد قادمة. أما الموضوع الذي أشرت إليه في صدر رسالتك فله صلة بقضايا واسعة ومتعددة الجوانب في إشكالية العلاقة بين الإسلام والغرب، وهو موضوع تم تناوله مراراً من خلال «إطلالة» رئيس التحرير، وما يزال في الأمر متسع لتجلية المزيد من الحقائق.

الإخوة أمين المليح، سورية، كركب محمد وشاوية عائشة، الوادي، الجزائر، طاهر حسو الزيباوي، ليبيا:

كيفية الاشتراك في المجلة هي: إرسال شيك بالدولار إلى قسم الاشتراكات، بعد الاطلاع على القيمة الموضحة في الصفحة الثالثة من المجلة. وسوف نرسل إليكم الأعداد التي طلبتموها من «الفيصل» في حال توافرها. ونفيدكم بأن المجلة لا تنصح بإرسال مبالغ مالية داخل الخطابات المرسلة إليها لتسديد قيمة الاشتراك، فهذه الخطوة مخالفة للأنظمة البريدية في جميع الأقطار.

الأخت كريمة محمد نور ناصر، دمشق سورية:

أحيلت رسالتك إلى القسم المختص، وثقي أن كل فائز في مسابقة «الفيصل» تصل إليه جائزته بعد الإعلان عنها مباشرة، وأي تأخير في ذلك يكون لظروف خارجة عن الإرادة، والإصدارات المذكورة في رسالتك ستصل إليك إذا كانت ضمن الجائزة التي فزت بها. ونشكر لك اهتمامك بمراسلة المجلة.

الأخ عبدالمحسن العثمان، الرياض:

موضوعك «محاربة المجتمع» يعبر عن غيرتك، إلا أنه في مجمله خاطرة طرأت لك، لذا لا يصلح للنشر في أي باب من أبواب القراء، ولكن لا نملك إلا أن نشكر لك مبادرتك بالكتابة إلى المجلة، على أمل أن تصل إلينا مقالات موثقة، تجد طريقها إلى النشر ضمن مواد المجلة، أو خواطر وإبداعات شعرية وقصصية يمكن نشرها في باب «تباشير» الذي يشجع المواهب الواعدة، ونأمل أن تكون واحداً منها.

الأخ فارس محمود عزيزة، حلب، سورية:

الكتب التي أعلن عن صدورها عن دار الفيصل الثقافية، والتي تتضمن بعض أبواب المجلة لم تصدر بعد، وسوف يعلن عن أسعارها وطريقة الحصول عليها فور صدورها قريباً إن شاء الله. ونشكر لك اهتمامك بدائرة المعارف، ونأمل أن يكون الكتاب المتضمن لهذا الباب مفيداً لك ولغيرك من الإخوة القراء، وإضافة إلى المكتبة العربية مع غيرها من الكتب الأخرى.

الأخ ربيع عبدالفتاح أحمد، بلفيا، بني سويف، مصر:

أحيلت رسالتك إلى قسم الاشتراكات لبحث أسباب تأخر وصول العدد إليك، ونأمل أن تصل إليك الأعداد القادمة في موعدها.

ولا شك أن كتابة العنوان كاملاً يسهل كثيراً وصول العدد إلى صاحبه من دون تأخير، فنأمل أن يهتم جميع الأخوة المشتركين بكتابة عناوينهم بوضوح.

الأخ جلال الدين محمد البوز، بانياس الساحل، سورية:

قيمة أي عدد من أعداد المجلة ثمانية ريالات، و«منتدى الفيصل» كما أعلن من قبل سيكون كل شهرين، بحيث ينشر باب «حوار مع» في عدد، يعقبه «المنتدى» في العدد الذي يليه، وسوف تصل إليك قائمة بإصدارات «دار الفيصل» حسب طلبك. أما الخاطرة التي أرسلتها إلى باب «تباشير» فسيتم النظر فيها وفق القواعد المتبعة، فترقب التعليق عليها قريباً إن شاء الله.

الأخوين قويد أحمد، تارودانت، المغرب، علال إبراهيم جمال، المسيلة، الجزائر:

تعتذر لكما المجلة ولجميع الإخوة القراء من عدم إمكان إرسال كتب إليهم، وذلك كما هو موضح في زاوية «إيضاحات»، أما الأعداد القديمة من المجلة فسنحاول إرسال بعضها إليكما حسب المستطاع، ولكما من الشكر أجزله لمتابعتكما المجلة، وحرصكما على اقتنائها.

الإخوة م. رائد أحمد عبدالله، عمان، الأردن، سعد محمد عثمان الهواري، قنا، مصر، تمارا خالد يوسف، عمان، الأردن:

تحرص المجلة على أن تكون الرغبات التي تنشر في زاوية «بين القارئ والقارئ» محددة، حتى لا تتحول الزاوية إلى ما يشابه «ركن التعارف» الذي تخصصه بعض المجلات، وهذا ما لا نرغب فيه، حرصاً على تواصل مثمر ومفيد بين الإخوة القراء.

الأخ لقمان سائد، إندونيسيا:

نقدر حرصك على التزام تعاليم دينك، وسعيك للاستزادة منها، ولا نملك إلا أن نبعث إليك ببعض أعداد المجلة، لعلك تجد فيها ما يصقل ثقافتك العربية الإسلامية. ونغبطك على خطك الجميل الذي كتبت به رسالتك، مما يدل على رغبتك في أن تمتلك أدوات التعبير باللغة العربية على أحسن وجه، وتقبل دعوات المجلة لك بالتوفيق في مسعاك.

الأخ منذر زروفي، ولاية القصرين، تونس:

نشكر لك ثناءك على المجلة، ونأمل أن تكون دائما عند حسن ظن القراء بها، ونرحب كثيراً باقتراحاتهم التي تغني موضوعاتها، وتشارك في تطويرها، والأعداد التي طلبتها في الطريق إليك قريباً إن شاء الله.

بين القارئ والقارئ

لديّ عشرة أعداد من مجلة الفيصل، أرقامها كالتالي: 204، 209، 212، 215، 217، 222، 223، 224، 228، 237، أرغب في بيعها أو مبادلتها بأعداد قديمة من المجلة.

محمد علي مشوط الأحمري
ص.ب 19
بللسمر، أبها.

هل يمكن للإخوة قراء الفيصل تزويدي بمقالات أو كتب تخص الخليج والمغرب العربيين، أو علم الأحياء و«الجينات» والوراثة؟

فيصل غزالي
الدهاهنة، دائرة مغرة، المسيلة
الرمز البريدي 2813، الجزائر.

آمل من إخواني القراء مساعدتي في الحصول على هذه الكتب: ضوابط المعرفة، دليل المنظمات والمؤسسات الإسلامية في العالم، الموسوعة الثقافية، زبدة التفاسير للشيخ محمد علي الصابوني.

يوسف الخويمي الشعيري
مدرسة طالع الشريف الدينية
مدر القمر المغير، طنجة، المغرب.

لديّ أعداد كثيرة من مجلات «العالم» و«فلسطين المسلمة»، و«منار الإسلام» أود مبادلتها بسلسلة كتاب «الأمة»، وبخاصة أرقام 1، 2، 14،16، إلى جانب أعداد من مجلة «الأمة» و«الفيصل».

آدم علي عبدالله
ص.ب 2469، الخرطوم 12223
السودان.

ملحوظة:

تهدف هذه الزاوية «بين القارئ والقارئ» إلى إيجاد قناة مباشرة بين القراء أنفسهم لتبادل المعلومات عن الكتب النادرة أو المجلات التي توقفت عن الصدور أو نفدت أعدادها.

عناوين

الأخ فهد بن عبدالله بن إبراهيم، المدينة المنورة:

- عنوان مجلة مجمع الفقه الإسلامي التي تصدر عن مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي:

ص.ب 13719، جدة 21414.

وآخر عدد صدر من المجلة، هو الجزء الثالث من العدد الثامن لعام 1415هـ.

- «الحقوق» مجلة فصلية تصدرها جامعة الكويت (مركز النشر العلمي) منذ عام 1977م، وعنوانها:

ص.ب 5476، الصفاة 13055، الكويت.

هاتف 4846843، تحويلة 4222، فاكس 4835789.

- مجلة «المحاماة الشرعية» كانت تصدرها نقابة المحامين الشرعيين في مصر، وقد توقفت عن الصدور في ربيع الآخر 1375هـ، وكان أول صدورها في عام 1348هـ. وعنوانها قبل التوقف:

1 شارع نور الظلام بالحلمية، مكتب بريد القلعة
نقابة المحامين الشرعيين، القاهرة، مصر.

- مجلة «الفكر الإسلامي المستقبلي» شهرية تصدر منذ عام 1982م، وعنوانها:

ص.ب 1024 حي نهج الحجاب، تونس،
الجمهورية التونسية، هاتف 257793.

- مجلة «القانون والاقتصاد» تصدر عن جامعة البصرة في العراق، وبدأت في الصدور منذ عام 1968م.

إيضاحات

تعتذر المجلة سلفاً من عدم تقديم اشتراكات مجانية، ومن عدم التجاوب مع طلبات للحصول على إصدارات أخرى (كتب ومجلات) لاعلاقة لها بها.

المسائل الشخصية كطلب وظائف أو مساعدات مالية أو إعانة على زواج، أو ماشابه ذلك والتعارف بين هواة المراسلة، ليست من اختصاصات المجلة ولا اهتماماتها، ومن حقها عدم الالتفات إلى رسائل تختص بهذه الأمور أو الرد عليها.

يتعذر على المجلة الرد الشخصي البريدي على جميع القراء الذين يراسلونها وذلك لكثرة الرسائل، وتكتفي بالرد عليهم من خلال «ردود خاصة»، أو بنشر مشاركاتهم في الصفحات المخصصة لذلك.

الرسائل ذات العلاقة بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية أو بأي نوع من خدماته، يُرجى توجيهها إليه مباشرة على عنوانه: ص.ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣ المملكة العربية السعودية.

عند مراسلة الصفحات المخصصة للقراء (مناقشات وتعليقات، بريد، المسابقة، تباشير، ردود خاصة - بما في ذلك زواياها الجديدة: بين القارئ والقارئ، عناوين) يرجى ذكر اسم الباب أو الزاوية على المظروف، مع شكرنا للجميع.



التربية أولا

في كل عـدد من مـجلة الـفيـصل الـغرّاء يطالعنا الأسـتـاذ الدكـتـور زيد بن عبدالمحسن الحسين بإطلالة جديدة، تبعث الأمل والرجاء في نفوس القُرّاء باختيـاره المواضيع الجـيّـدة والشـائقـة، بأسلوب تربوي جـذّاب ومدروس؛ مما يضفي عليها الموضوعية المتكاملة والمترابطة.

وياحبّذا، لما لهذه الإطلالة من أهمية تربوية وموضوعية، أن يصدر بها كتاب ـ في نهاية كل سنة ـ من إصدارات دار الفيصل يطلق عليه اسم «إطلالة الفيصل لعام...»، لتكون مرجعًا للقُرّاء ولكل من يهتم بأمور الثقافة والتربية.

ومن قـراءتنا لإطلالة العـدد (233) من الفيـصل نجد أن السيد رئيس التحرير تناول موضوعًا مهمًا جدًا بدأه بالتساؤل: لماذا يتخلف العالم الإسلامي، ولماذا يتقدم الآخرون؟ واختار الجانب التربوي موضوعًا للبحث الذي يبدو من أهم المواضيع التي تهم عالمنا العربي والإسلامي للحاق بركب الحضارة والتقدم. وللوصول إلى إجابات صحيحة ومقنعة يجب اتّباع الأسلوب التربوي السليم، والابتعاد من الأنانية والسلبية السائدة في عالمنا العربي والإسلامي، النابعة من (الأنا)، وغياب الحوار الفاعل والبنّاء المبني على الصدق والصراحة.

وإذا تأملنا واقعنا نجد أن ما يسوده من مظاهر الحوار السلبية وضعف مستويات التفكير هو نتيجة لعدم فهم الحياة كما يجب، وخاصة ما يتعلق بالجانب التربوي الذي يعكس مفاهيم المجتمع وأداة تكوينه، وما يجب أن يكون عليه هذا المجتمع مستقبلاً في عالمنا العربي والإسلامي. ونظرًا لقصور مناهجنا التربوية فإننا نجدها عاجزة عن تقديم أجيال تتحمل المد الحضاري الذي يجب أن نواجه به العالم بقوّة وثبات، حيث إن مناهجنا ترسخ التقليد وتقوم على الحفظ والتلقين، وتكون مقياسًا للتفوق، بحيث تبتعد من جدية الأفكار، لأنه في المدارس تُرسم ملامح مستقبل الأجيال والأمم، وفيها يتخرج العلماء والباحثون الذين يحملون مشاعل العلم والمعرفة إلى الأجيال القادمة لتكون قادرة على العطاء والإبداع.

وبما أن التـربيـة هي الشيء الوحيد لبلوغ الغاية المرسومة، لذلك يجب أن تكون هناك دعوة للتطوير الذي أبدعته العقول البشرية، التي أودعها الله في الإنسان لتستجيب لدعوة الخالق في التبصير والتدبير.

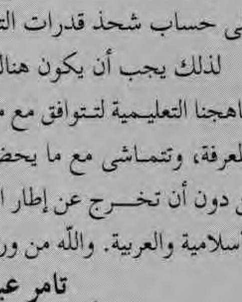
إنّ المناهج التربوية التي لا تستند إلى أسس علمية سليمة، تنشئ أجيالاً لا تستطيع أن تقوم بأعباء البحث العلمي، وتظل تدور في الحلقة المفرغة التي تُبنى على المناهج التقليدية.

ولهذا يجب أن نضع مناهج تربوية تكون مبنية على الصراحة الحوارية، وتستوعب كل ما هو مفيد وجديد ومتطور. وكيف لا، وقد حضنا الإسلام الحنيف على العلم والمعرفة، فقد قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾. **الزمر**:9. وجاء في الأثر: «اطلبوا العلم ولو بالصين»، ولاشك أن العلم هو الطريق الوحيد إلى المعرفة.

إن الفرق كبير بين المناهج التربوية الجادة التي تتبعها الدول المتقدمة، وخاصة الدول الغربية ـ على ما يعتريها من أمور لانستسيغها ـ والمناهج التقليدية التي تسود معظم عالمنا العربي والإسلامي، لأن الأولى توازن بين التفكير والمعرفة، بينما الثانية ترجح جانب المعلومات على حساب شحذ قدرات التفكير.

لذلك يجب أن يكون هناك تغيير جذري في مناهجنا التعليمية لتتوافق مع معطيات عصر العلم والمعرفة، وتتماشى مع ما يحض عليه ديننا الحنيف من دون أن تخرج عن إطار القيم والأخلاق الإسلامية والعربية. والله من وراء القصد.

تامر عبداللطيف إدريس
الإنشاءات، حمص، سورية.



ملوك الطوائف
كَانُوا ضَحِيَّةَ نَزَوَاتِهِم.. لاَ ضَحِيَّةَ عَصْرِهِم

في العدد 245 من مجلة الفيصل الغرّاء طَلَعَ علينا الأستاذ الدكتور عبدالله بن علي ثقفان بمقالة نقدية تاريخية عن «ملوك الطّوائف في الأندلس» (ص60-61) رَامَ مـن ورائهـا

تصحيحَ الصورة التي كَوَّنَتْها الكتابات التاريخية القديمة والحديثة عن هؤلاء الملوك، وعن الحياة التي عَاشُوهَا. وهي صورةٌ - كما يرى - ركّزَتْ على الواقع السيِّئ، و«فتحَت البابَ واسعًا أمام دراسات فيها من التحامل على مَنْ صنع التاريخ، ولاسيَّمَا مِنْ قِبَل المستشرقين، وممَّن يحاولون النيل من الإسلام والمسلمين، ولهذا نجدهم يعدّون التناحر صفةً من صفات المسلمين، ويعدون المجون والتهتك شعارًا لمن تَسَنَّم منصبًا أو مَلَكَ مالاً».

أمّا السبب في هذا التحريف، وفي ذلك الظُّلْم الذي لَحِقَ ملوك الطوائف من طَرَف المؤرخين والمثقفين، فإن الدكتور عبدالله ثقفان يُرجِعُهُ إلى عدد من الحقائق، يأتي في مُقَدِّمتها:

1- موقف العامة المُعَادي لملوك الطوائف منذ عهد بني عامر.

2- مساندة الفقهاء لموقف العامة، على محاولة ملوك الطوائف التقرُّبَ من هؤلاء الفقهاء.

3- اضطراب موقف بعض المثقفين إزاءَ ملوك الطوائف نتيجة اضطراب الواقع.

وفي الأخير يخلص السيد الدكتور ثقفان إلى «أن ملوك الطوائف في الواقع كانوا ضحية عصرهم»، و«أن الظروفَ قد تغيَّرتْ في غير صالحهم، فقد استيقظت إسبانيا النصرانية، ومدت يدها إلى أوربا لمساعدتها، كما أن «أهل الصحراء» المغاربة قد نظَّمُوا أمورهم. فكان ملوك الطوائف والحالة هذه قد وقعوا بين «نار النصارى في الشمال والبربر في الجنوب»، فكانت تلك حياتهم، وذلك واقعهم».

ولي ملاحظاتٌ وإضاءاتٌ على بعض ما وَرَدَ في هذه المقالة، أُجْمِلُها فيما يلي:

1- إن الدفاعَ عن ملوك الطوائف وتصوير واقعهم أتى على حساب المرابطين، الذين قرَنَهم الدكتور بالنصارى الأعداء في سياق المقولة التي استشهدَ بها على وقوعِ ملوك الطوائف بين «نار النصارى في الشمال والبربر في الجنوب». فَمَنْ هم هؤلاء البربرُ الجنوبيون الذين التظَى بنارهم ملوك الطوائف؟ أَلَيْسُوا هم المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين (410-500هـ) الذين ثَبَّتُوا أقدام الإسلام في الأندلس منذ معركة الزلاّقة الشهيرة، (عام 479هـ)، فاستمرَّت دولتُه في هذا الصّقْع أكثر من ثمانية قرون؟!.

2- إن التاريخ لم يعرف دولةً إسلاميةً حَلَّ بها من الظلم والتنقيص والجحود مثلما حَلَّ بدولة المرابطين. فمُذْ شنَّ ابن تومرت حملتَه الشرسة عليها وأقلامُ المؤرخين؛ من قدماء ومحدثين، عرب ومستشرقين؛ ما تنفك تَثْلُبُ هذه الدولة، وتختلق الأكاذيب حولها، دون سَنَد تاريخي ثابت ووجيه، فما أتانا من تاريخ عنها لم يُكتب في أيامها، ولم تُدونه أقلام مؤرخيها الذين عاصروا الأحداث. وإنما جاءنا من طريق خُصُومِهَا والمناوئين لها، والموالين للدولة التي حَلَّتْ محلها، كابن تومرت (485-524هـ) في كتابه «أعزّ ما يُطلب»، ومؤرخين عاشوا في دولته، كالمراكشي (ت:647هـ) في «المُعْجِب»، وابن القطَّان، والشُّقُنْدي (ت:629هـ) من القُدامَى. والمستشرقِ الهولندي دُوزي، والمستشرق يوسف أشباخ، وغارودي، وعبدالله عنان، ومصطفى الشكعة من المُحْدثين(1). فهؤلاء كلّهم قد انتقدوا المرابطين، ورموهم بأوصاف ونقائصَ كثيرة؛ كالهمجية، والقسوة، والبداوة الصحراوية، والتزمُّت الفقْهي، واضطهاد الفكر، وتحطيم روحِ الشعرية الأندلسية. فهي في نظرهم - باختصار - دولةٌ بدويةٌ عسكريةٌ دينية، منعَتْها طبيعتُها البدوية من الأخذ بأساليب التمدُّن الراقية التي كانت في الأندلس، ومن التوجه إلى رعاية العلوم والآداب. وقد حَمَلَ لواءَ هذا النقد التجريحيَّ بعض شعراء الطوائف في العصر المرابطي كابن بَقِّي (ت: 540هـ) وابن اللَّبانة (ت: 507هـ)، ثم عمَّقه - كما سَلَفَ - ابن تومرت، ومنْ بعده توالت الانتقادات بعُنف. فكانت الدولة المرابطية أولَ دولة مغربية نالَها الحيفُ والظلمُ والغبنُ من طرَف الشعراء والمؤرخين والباحثين على اختلاف مشاربهم وأزمنتهم. فما سِرُّ هذه الحملة؟ وما الدوافعُ الثاوية خلفها؟

3- لقد ظلت الأندلس تتخبط بين شقَّي الرّحى: الفساد الداخلي والانقسامات، والعدو الخارجي المُهَدِّد بالابتلاع. حتى أنقذها الله تعالى على يد المرابطين بزعامة يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة التي وقعت يوم الجمعة 20 رجب 479هـ/1090م، والتي تُعَدُّ من أروع معارك الإسلام وأمجدها. فقد انتصر فيها المسلمون على جيوش ألفونس السادس الجرَّارة نصرًا مؤزَّرًا، أعاد للإسلام هيبته، ورفع أعلامَه خفّاقة في الجزيرة. ومنْ هُنا غيظَ المناوئون للإسلام، وشرقَ المتشوفون إلى مَكاسبَ مادية وسياسية بجريضهمْ، وصاروا يُسرُّونَ حَسْوًا في ارتغاء، ويَصِمُونَ الفتح المذكور بالغزو والاجتياح، وينعتون صاحبه بالبربري المتوحش، والبدوي الجِلْف، والأُمِّيِّ الطَّاعِنِ في جهالته.

ولَا بَأْسَ من العودة إلى ما قبل أحداث الزلاّقة، فإن في ذلك بعض الضوء يساعدنا على ما نريد تبيانه. فالتاريخ يخبرنا أن ملوك الطوائف في الأندلس، وأهلَ الحل والعقد فيها، قد اتّفقوا - بعد أن ضيق عليهم النصارى الخناق - على الاستنجاد بأمير المسلمين في المغرب يوسف بن تاشفين، وكلّفوا الملك المعتمد بن عبّاد (ت: 488هـ) هذه المهمة، الذي وجَّه باسمه وباسم ملوك الطوائف رسالة إلى الأمير المرابطيّ، جاء فيها: «أما بعد؛ فإنك إن أعرضْتَ عنا نُسبْتَ إلى كَرَم، ولم تُنْسَبْ إلى عَجْز، وإن أجبْنا دَاعيَك نُسبْنَا إلى عقلٍ ولم نُنْسَبْ إلى وَهْم، وقد اخترنا لأنفسنا أجملَ نِسْبَتَيْنَا، فاختَرْ لنفسك أكرمَ نِسْبَتَيْكَ»(2). وبعد أن فَهِمَ يوسف بن تاشفين - رحمه الله - مضمون الرسالة، وتَقصَّى حقيقة الأمر من الوفد الذي كان يَحْمِلُهَا، سارَعَ إلى استفتاء العلماء في العدوة المغربية الأندلسية، وفي المشرق العربي، فأفتَوه بوجوب نجدَة المسلمين الذين استنجدوا به، وحذَّرُوه من التخَلّي عنهم، لأن في ذلك إثْمًا عظيمًا، وتركًا للجهاد في سبيل الله الذي هو فرضٌ، وكان على رأس

المفتين من الشرق الشيخ أبو حامد الغزالي (ت: 505هـ). ولمَّا اطمـأنَّت نفسُ يوسف - بعد أن استبرأ لدينه وعرضه - لَبَّى نداء الأندلس، وأنقذها في وقعة الزلاقة غيرةً منه على الإسلام.

لقد كان المرابطون مسلمين ذوي فطرة نقية، وسريرة صافية. تشرَّبوا الإسلام وتأثروا به كل التأثر، وتفاعلتْ نفوسهم مع مبادئه السامية، جعلوا شعارهم الجهاد لإعلاء كلمة اللّه ونصرة دينه. لم تُفسدْهم أهواء السياسة، ولم تأخذ بلبِّهم مباهج المُلْك، ولم يستكينُوا إلى الدَّعَة واللهف والقَصْف كما كان شأن كثير من ملوك الطوائف، ولم يوالوا العدو الذي كان يتربَّصُ بالإسلام كما وَالاَهُ العديدُ منْ رؤساء الطوائف هؤلاء، والعديدُ من ملوك غرناطة الذين أتوا بعد هذه الحقبة. ففي كتاب «الحُلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية» للأمير شكيب أرسلان (ت:1366هـ/ 1946م) وثائقُ هي عبارةٌ عن رسائل وجَّهَها حُكّام غرناطة إلى ملوك أراغون يلتمسون ودَّهم والتحالف معهم، وهذه الرسائل، كان الأستاذ الحاج العربي بنونة قد زَوَّدَ بها الأمير شكيب، وهي تغطّي المرحلة الممتدة من محمد الثالث (701-707هـ) إلى يوسف الأول (733-788هـ) قبل سقوط غرناطة بستة عُقُود.

4- كيف ننسَى الإصلاحات التي قام بها يوسف بن تاشفين عَقِبَ الزلاّقة؟ فهو قد حَذفَ المُكُوس التي فرضها ملوك الطوائف على الناس، وألْغَى الضرائبَ المنافية للشرع، وأعطى العامةَ حقوقَها الشرعية، وحَافَظَ على أموال بيت المسلمين، لم يُبذِّرْهَا إرْضَاءً لشهوة الشعراء المادحين، ولم يصرفها على مُتَع شخصية كما كان يفعل ملوك الطوائف. ولهذا قامت الحملات ضدَّهُ وضدَّ المرابطين عامة، فالمعتمد بن عبّاد الذي كان يَظنُّ أن الأمرَ سَيَسْتَتِبُّ لَه وحده دون بقاء سيطرة يوسف بن تاشفين خابت ظنونه، فلجأ إعْلاَءً لنوازعه في الحكم إلى الاستنجاد بألفونس السادس عدو الأمس القريب ضدّ ابن تاشفين وتنكُّرًا له(3).

فكيف نفسِّر هذا الموقف من المعتمد؟ وما التأويل الذي ينبغي أن نؤوله به؟ وهل الظروف - مهما كانت وطأتُها - تُبيح طعْنَ المسلمين في ظهورهم بخَنْجَر عدو الأمس الصليبي، واستعدائه عليهم؟! لا مُسوغ دينيًا، ولا موضوعيًّا لهذا المَسْلَك الذي سلَكه الرجل، فهو إذا كان قد طلب الإعانة من يوسف بن تاشفين من أجل توطيد نفوذه، وطرْد أعدائه، فإن يوسف - وهو الرجل الكفء المجاهد التقي الصالح - لم يأت بجيوشه إلى الأندلس لحماية نفوذ شخص، ولكنه أتى لحماية عقيدة ومدنية ووجود، ولا يتيسَّرُ له ذلك، ويضمنُه إلا ببَقاء تلك الجزيرة الإيبيرية مسلمةً موحدةً تحت راية واحدة، لذا عدَّ طموح المعتمد، وتشوّفه لبقاء سيطرته على البلاد الأندلسية دون وجود للنفوذ المرابطيّ، طموحًا غير مشروع وغير ضامن لاستمرار الإسلام في الأندلس. وكيفما كان الأمر فإنَّ تنكر المعتمد ليوسف ولدماء شهداء الزلاّقة، ودمائه هو أيضًا، واستغاثته بألفونس السادس عَدُو المسلمين اللدود، هُمَا اللذان أثَارَا حفيظة يوسف، فقد عَدَّ هذا الصَّنيعَ خيانةً للعهد وتنكرًا للمبادئ الإسلامية، وخطرًا على الوجود الإسلامي في تلك الديار، فقرَّر نَفْيَهُ مع أهله إلى أغمات بالمغرب لتبقَى الأندلس بلدًا إسلاميًا موحدًا، لا يتعرَّضُ لهَزَّات التفرقة، ولا لنزغات الأمراء ونوازعهم(4).

إنَّ مَنْ لم يعرفْ تاريخ فتوحات المرابطين في الأندلس لا يمكنه أن يفهم شيئًا من تاريخ ملوك الطوائف المملوء بالملابسات، والمسكون بالتناقضات والمفارقات.

5- حياةُ ملوك الطوائف وواقعُهم ينبغي أن نأخذهما من تصرُّفاتهم، ومن العلماء والمفكرين والمؤرخين الذين عاشُوا في أيامهم، وعاصروهم، واقتربُوا منهم أشد القُرْب، بل حتَّى من أعدائهم كذلك. فإن الحق - كما قيل - ما شهدت به الأعداء. أما أن نحسبهم ضحية عصر اضطربت أموره، وظروف تغيّرت رياحها بما لا تَشْتَهِي سُفُنُهم وأنفسُهم، فإنَّ ذلك لا يزيد الحقيقة التاريخية انكشافًا، وإنما يَجنَحُ بها إلى ما هو من قبيل التماس الأعذار لهم. لقد كان خَطَؤُهُم خطأً فادحًا أدّى إلى تفرُّق وحدة الإسلام في الأندلس بعد الخلافة الأموية، وإلى فَتْح البلاد الإسلامية أمام أطماع النصارى.

6- ولعل أبلغ تصوير لحَال ملوك الطوائف آنذاك هو تلك الرسالة الشفهية التي وجَّهَهَا ألفونس السادس إلى المعتمد قبل معركة الزلاقة، قائلاً له فيها: «كيف أتركُ قومًا مجانين تَسَمَّى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم: المعتضد والمعتمد والمعتصم والمتوكل والمستعين والمقتدر، وكل واحد منهم لا يَسُلُّ في الذَّبِّ عن نفسه سيفًا، ولا يرفعُ عن رعيته ضيمًا ولا حيفًا، قد أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا على المغاني والعيدان؟! وكيف يَحلُ لبَشَر أن يُقرَّ منهم على رعيته أحدًا، وأن يَدَعَهَا بين أيديهم سُدًى؟!»(5).

تلك شهادة العدو فيهم، وهذه شهادة الفقيه ابن حزم (ت:456هـ)، فهو قد كان غير راضٍ عن ملوك الطوائف الذين عاصرهم، ولذلك اشتكى إلى اللّه منهم في مُستهَل إحدى رسائله، فقال: «اللهم إنا نشكو إليك أهل الممالك منْ أهلِ ملّتنا، فقد تشاغلوا بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور يتركونها عَمَّا قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم، وبجمع أموال ربما كانت سببًا إلى انقراض أعمارهم، وعونًا لأعدائهم عليهم عن حيَاطَة ملتهم التي بها عَزُّوا في عاجلتهم، وبها يَرجُون الفوزَ في آجلتهم»(6). ويقول واصفًا ما وَقَعَ في أيامهم من مظَالمَ ومفاسدَ ومَناكرَ: «وهي فتنةُ سوء أهلكَتِ الأديان إلا مَنْ وقَى اللّه تعالى من وجوه كثيرة يَطُولُ لها الخطاب. وعُمدةُ ذلك أنّ كلّ مُدَبِّر مَدينة أو حصنٍ في شيء من أندلسنا هذه أوَّلها عن آخرها مُحَارِبٌ للّه تعالى ورسوله، وساعٍ في الأرض بفساد، والذي ترونه عيانًا من شَنِّهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية، وإباحتهم لجندهم قَطْعَ الطريق... ضاربون

للمُكُوسِ والجزية على رقاب المسلمين، مُسَلِّطُون لليهود على قوارعِ طُرُق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تُبيحُ ما حرَّمَ اللّه، غرضُهم فيها استدامةُ نفاذِ أمرِهم ونَهْيِهمْ»(7). ثم يعرضُ إلى تواطُئِهم مع النصارى ضِدَّ المسلمين، فيقول: «واللّه لو علموا أنَّ في عَبادة الصُّلبان تمشيةَ أمورهم لبادروا إليها، فنحنُ نراهم يَسْتَمِدُّونَ النصارى فيُمَكِّنُونَهُمْ من حُرَم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسْرى إلى بلادهم، وربَّمَا أعطوهم المُدُنَ والقلاع طوعًا، فأخْلَوْهَا من الإسلام، وعَمَّرُوها بالنواقيس، لَعَنَ اللّه جميعهم، وسلَّطَ عليهم سيفًا من سيوفه»(8).

هكذا صوَّر ابن حزم الواقع في عهد ملوك الطوائف، وهو تصوير لا يتنافى مع ما تضمَّنَتْهُ رسالة ألفونس السادس الشفهية إلى المعتمد، ولا يُمكن معه لأي تأويل أو تعليل أن يَرْفَعَ عن هؤلاء الأمراء مسؤولية ما حدث للإسلام في الأندلس إبَّانَ تقلُّدهم أمورَها.

لقد استجابَ اللّه دعاء الفقيه ابن حزم، فكان يوسف المرابطي هو السيف الذي طَهَّرَ اللّه به الأندلس من حَمَاقات ملوك الطوائف، وغواياتهم، وتناحراتهم ودسائسهم. ومن اعتداءات الصليبيِّين الشماليين عليها.

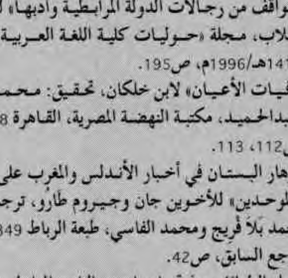
وإذن، فإن ملوك الطوائف لم يكونوا ضحيةَ عصرهم، ولا ضحية الظروف المتغيِّرة، وإنما كانوا ضحية نزواتهم ونزغاتهم اللاتي كان همَّها السيطرة والتشبُّث بالحُكْم، مهما كانت الوسائل؛ دون أن تَعْبَأَ بأمْرِ المسلمين وشؤون الإسلام في هذا الفردوس الذي أضاعَهُ سُوءُ التصرف السياسي.

أحمد بلحاج آية وارهام
ص ب 461
مراكش، المغرب

الهوامش:

1- «مواقف من رجالات الدولة المرابطية وأدبها» للدكتور حسن جلاب، مجلة «حوليات كلية اللغة العربية»، العدد 8 سنة 1417هـ/1996م، ص195.
2- «وفيات الأعيان» لابن خلكان، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1948م، مجلد6، ص112، 113.
3- «أزهار البستان في أخبار الأندلس والمغرب على عهد المرابطين والموحدين» للأخوين جان وجيروم طَارُو، ترجمه وعلق عليه: أحمد بَلاَ فْرِيج ومحمد الفاسي، طبعة الرباط 1349هـ، ص36.
4- المرجع السابق، ص42.
5- «دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي» لمحمد عبدالله عنان، ط2 مزيدة ومنقحة، مكتبة الخانجي، القاهرة 1969م، ص75، 76.
6-8- «رسائل ابن حزم الأندلسي»، تحقيق: د. إحسان عباس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1987م، 3/41، 173، 176.

حركة الاستشراق لها وجه آخر



«مَنْ أَحَبَّ اللّه تعالى أحَبَّ رسولَه محمَّدًا صلى اللّه عليه وسلم، وَمَنْ أحَبَّ الرسولَ العربيَّ أحَبَّ العرب، وَمَنْ أحَبَّ العرب أحب العربيةَ التي نزل بها أفضلُ الكتب على أفضلِ العرب والعجم، وَمَنْ أحَبَّ العربية عُنِيَ بها، وثابر عليها وصرف همَّتَه إليها!!».

تذكرت هذه الكلمات المؤثرة لأبي منصور الثعالبي النيسابوري (ت:429هـ)، من مقدمة كتابه «فقه اللغة»، بعد أن قرأت موضوع «الاستشراق والغزو الثقافي» لكاتبه يوسف فجر رسلان، الذي نشرته مجلة «الفيصل» مشكورة في عددها 242 لشهر شعبان 1417هـ.

لقد جاء هذا الموضوع ضوءًا باهرًا على الطريق لفضح بعض المستشرقين الحاقدين والأُجَراء المحليين الموتورين، بأسلوب علمي شائق ورصين، وكشف الأفكار الاستشراقية وفضح مزاعم كثيرة من آرائهم حول الإسلام ودعوته، ورسالته، ونبيِّه محمد صلى اللّه عليه وسلم، وفتوحاته.

ولا يخفى على أحد أن من مقاصد الحركة الاستشراقية العديدة، زيادة اتّساع الشروخ في تاريخنا العربي الإسلامي، ولكنَّ هؤلاء المستشرقين، والحمد للّه، ليسوا بالكثرة العارمة أمام مريدي الثقافة والحضارة العربية الإسلامية.

كلنا يعرف أن الحركة الاستشراقية نشأت في أوربا منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي مع إعلان الحروب الصليبية، ولا يهمّنا إن كان هذا القول قبل الحروب الصليبية أم بعدها، ذلك أن هذه الحروب قد سبقها إدراك شامل للوضع الاقتصادي في العالم العربي والإسلامي، وهي بهذا السبب لم تكن حربًا دينية يراد منها تخليص قبر السيد المسيح من أيدي المسلمين - كما زعموا -، بل كانت حربًا اقتصادية يرجى منها - بالعنف والقوّة - استغلال ما في الشرق العربي الإسلامي من أوضاع اقتصادية مزدهرة تحت شعار الدين والتعصب الأعْمى، على احترام المسلمين في مختلف بقاعهم لشتى الديانات المنتشرة بينهم ومن دون استثناء أي منها.

على إن اتّساع عمل المستشرقين وقوّة نشاطهم قد تم فعلاً بعد انهيار الحكم الصليبي في المشرق العربي على يد القائد صلاح الدين

الأيوبي، بعد أن تعرّف أكثرهم عن كثب لغة العرب وثقافتهم وعلومهم وآراءهم وحضارتهم، فاقتبسوا منها، وكان ذلك سببًا مباشرًا في النهضة العلمية والفكرية لأوربا، بل للغرب قاطبة.

ولا أريد في هذه العجالة أن يكون موضوعي سجلاً شاملاً لتاريخ الحركة الاستشراقية، فقد كتب فيه الكثيرون وأولوه ما يستحق من عناية، ولكني سأتوقف عند بعض المعالم البارزة لبعض المستشرقين المنصفين في حق أمتنا، ولغتنا، وثقافتنا، وحضارتنا. وليعذرني صديقي يوسف فجر رسلان.

يقول غوستاف لوبون: «مهما قلبنا النظر لا نستطيع أن نذكر قبل القرن الخامس عشر للميلاد عالمًا أوربيًا ابتكر شيئًا غير استنساخ كتب العرب، ولو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا الثقافية عدة قرون».

ويقول لوبون أيضًا: «كان تأثير العرب في الغرب عظيمًا للغاية، فأوربا مدينة للعرب بحضارتها، ونحن لا نستطيع أن ندرك تأثير العرب في الغرب إلا إذا تصورنا حالة أوربا عندما أدخل العرب الحضارة إليها».

هل تريدون المزيد من أقوال غوستاف لوبون؟ إذًا اقرؤوا معي ماذا قال في حق العرب: «في أقل من قرن واحد استطاع العرب أن يحيوا ميت الأرضين، ويعمّروا خرب المدن، ويقيموا أفخم المباني، ويوطّدوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى، ثم شرعوا يتفرغون لدراسة العلوم والآداب، ويترجمون كتب اليونان واللاتين، وينشئون الجامعات التي ظلت وحدها ملجأ للثقافة في أوربا زمنًا طويلاً».

وعلى ذكر الجامعات لنستمع إلى ما يقوله الأستاذ سنجر: «إن طالب العلم الأوربي المشغوف بالعلم المتطلع إلى الاستزادة من المعرفة، ذلك الذي كانت الدراسة في باريس أو بادوا أو أكسفورد، لا ترضيه، والذي كانت تأخذ بلبه الأخبار المتناقلة الشائعة عن عجائب العلم والحكمة العربية إنما كان يذهب إلى طليطلة أو قرطبة».

والقرآن الكريم هو أكبر دليل على أن اللغة العربية لغة حضارة، بل إنها من أعظم لغات العالم شأنًا وأرفعها منزلة، فقد تضمن كتاب اللّه العزيز دعوة إلى أعظم القيم الإنسانية شأنًا وأرفعها قدرًا بأرفع أسلوب عجز كل البشر أن يأتوا بمثله، ولن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

يقول الدكتور أ. فيشر وهو مستشرق ألماني: «لا أعرف لغة أغنى من العربية ولا أسلس قيادًا ولا أرق حاشية».

يقول الفيلسوف الفرنسي رينان: «كانت اللغة العربية غير معروفة لنا مطلقًا، فما لبثت أن نبتت فجأة في غاية من الدقة والكمال سلسة أي سلاسة، غنية أي غنى، كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا أي تعديل مهم، فهي لغة لا طفولة لها، ولا شيخوخة، وقد ظهرت أول أمرها تامة محكمة، ولا أدري أنه وقع مثل هذا لأي لغة من لغات الأرض».

ومن أراد زيادة في هذا الميدان فليس له إلا أن يرجع إلى كتاب ألدو ميلي بعنوان «العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي» الذي يسكت أكثر الأصوات تعصبًا ضد العرب.

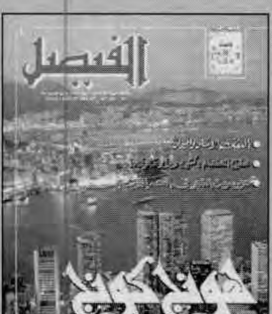
وختامًا، فإنني أدعو الأمة الإسلامية أن تنظر إلى نفسها بوعي عميق، فتعي ذاتها ودينها، وتراثها، وقيم حضارتها، وعليها أن تستفيد من تاريخها، وتعتبر بالأحداث الإنسانية لمواجهة التحدّيات التي ترهقها وتمنعها من النهوض والتحرر من قيود الهيمنة والوصاية المكبلة بها، لأن الغرب ـ كل الغرب ـ لا يمكن أن يكون صديقًا للعرب والإسلام بالنظر لما يجري حولنا إلا أن يرفع لواء حملة صليبية من جديد، وهذا ليس ببعيد.

وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. **الحج:** 40.

زياد عارف شما
ص. ب 7210 دمشق، سورية.

المراجع:

ـ المستشرقون، تأليف نجيب العقيقي.
ـ حضارة العرب، تأليف غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر.
ـ أعداد سابقة من مجلة الفيصل.



مقولة طارق الشهيرة لا توحي بحرقه لسفنه

في أثناء قراءتي لباب من تجاربهم بالعدد 241 تحت عنوان «تجربتي في دراسة الطب في فرنسا» استوقفني قول د. صلاح محمود غانم: «وكم تذكرت القائد العربي طارق بن زياد بمقولته المشهورة ـ إن صحت عنه ـ البحر من ورائكم، والعدو من أمامكم. وليس لكم إلا الجد والصبر».

وهذا القول عدّه بعض الباحثين إيحاءً بحرق طارق لسفنه، ولنا عند هذا القول وقفة:

ـ لماذا لم تظهر هذه القضية إلا بعد مُضيّ أربعة قرون ونصف القرن على تاريخ الفتح الإسلامي؟

ـ إبان فتح طارق لإسبانيا (رجب ـ رمضان92هـ/ يونيو ـ يوليو711م) وبعد أن عبر على سفنه من المغرب إلى إسبانيا قيل إنه أحرق سفنه. ويعتمد القائلون بحرق طارق للسفن التي عبر عليها على بعض العبارات التي وردت في خطبته الشهيرة، والتي توهم بوقوع هذا الاحتراق. وقد يكون طارق قد أمر الأسطول بالابتعاد من الشاطئ لإيهام الجنود بأن «البحر من ورائهم»، وبالعودة إلى المغرب لإحضار مزيد من المؤن والعتاد، حيث بدأ طارق خطبته بقوله: «أيها الناس أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر».

وبعض المؤرخين الذين ينتمون إلى أزمنة مختلفة وأماكن متباينة يتجاهلون قصة إحراق طارق للسفن ويتحدثون عن الفتح دون أدنى إشارة إليها، وكأنها شيء لا أصل له، فلم يشر إلى قصة إحراق السفن هذه أحد من المؤرخين القدماء الذين أرخوا للأندلس خلال القرن الثاني الهجري أمثال ابن عبدالحكم (ت: 257هـ) صاحب كتاب «فتوح مصر والمغرب والأندلس»، وعبدالملك بن حبيب (ت: 238هـ) صاحب كتاب «مبتدأ خلق الدنيا» المعروف بتاريخ عبدالملك بن حبيب، أو المدرسة التاريخية الأندلسية التي ظهرت في القرن الرابع أمثال ابن القوطية (ت: 367هـ) صاحب كتاب «تاريخ فتح الأندلس».

وأول من ذكر هذه القصة هو أبو عبدالله محمد بن محمد الإدريسي (ت:560هـ) صاحب كتاب «نزهة المشتاق»، حيث يقول: «لما جاز طارق بمن معه من البرابر وتحصنوا بهذا الجبل، أحسّ في نفسه أن العرب لا تثق به، فأراد أن يزيح ذلك عنه، فأمر بإحراق المراكب التي جاز عليها فتبرأ بذلك عما اتهم به». وكان ذلك بعد مرور أربعة قرون ونصف القرن على تاريخ فتح طارق للأندلس. فلماذا لم يذكر أحد من المؤرخين السابقين للإدريسي هذه القصة.

- إحراق طارق لسفنه عمل انتحاري لا يجوز شرعًا ولا يقدم عليه مسلم. ومن المعروف أن طارقًا قد اضطر قبل خوضه المعركة إلى طلب المدد من موسى بن نصير عندما رأى كثرة جنود القوط، فأمده بخمسة آلاف جندي عبرت بهم السفن إلى الأندلس، ولو طلب طارق مددًا ثانيًا أو ثالثًا لأمده موسى به، فكيف يحرق طارق السفن؟! وكيف عبر موسى بجيشه الذي بلغ ثمانية عشر ألفًا بعد ذلك بعام واحد؟ وحرق السفن عمل انتحاري يحرمه الإسلام، ومغامرة ليس ثمة موجب لها، كذلك فإنه أمر لم يكن جائزًا من الناحية الاستراتيجية، وليس له ما يسوّغه، بل هناك ما يمنعه.

صلاح عبدالستار محمد الشهاوي
دمشيت 31721، طنطا، مصر.

التربية.. مسؤولية الجميع



في البداية أشكر للدكتور زيد بن عبدالمحسن الحسين تطرقه لقضية التربية والتعليم التي تشغل بال الكثيرين من أبناء الوطن، وأحيّي الأخ علاءالدين آل رشي على مناقشة هذا الموضوع وإغنائه.

وفي هذا المجال أود مناقشة الأخ علاءالدين، وما كتب تحت عنوان: «مع العقل وتربية لا تغتاله» بالعدد 244.

إن القيام بأعباء التربية مهمة لا تُلقى على كاهل المعلم وحده - وإن كان له دور مهم -؛ بل هي مسؤولية مشتركة تبدأ من قمة هرم الدولة إلى المواطن البسيط، وإن وقوع خلل في هذه الحلقات المترابطة يكون له أثره السلبي على واقع العملية التربوية. والمعلم بدوره مرتبط بمجتمع يعيش فيه، ويتأثر بما يتأثر به، وإذا نظرنا إلى مجتمعاتنا العربية ورأينا حالها اليوم - وهو ما يحز في أنفسنا - نجد المربي قد أصابه ما أصاب بقية المجتمع، وصفَة الضعف سائدة في كل مجالات الحياة. فأنّى للمعَلم بمفرده، وهو في كثير من الأحيان لا يملك كلمة القرار، أن يدفع الغبن عن ركيزة التربية والتعليم؟ وهذا ليس انتقاصاً من قيمة المعلم، بل هو واقع معيش، وأعتقد أن الحل يكمن في تضافر الجهود المخلصة الصادقة لدى كل مستويات الأمة، وتجنيد الخبرات العربية - التي يتضاءل تعدادها للأسف بسبب الهجرة إلى الغرب - من أجل دفع المنظومة التربوية إلى ما يجب أن تكون عليه، ولا يتأتى ذلك إلاّ بالبحوث العلمية الجادة الدقيقة، والدراسات الميدانية المستفيضة، التي تجعل عجلة التعليم عندنا تتحرك مواكبة حركة التطور العالمي، مع المحافظة على أصالتنا كأمة عربية إسلامية، منفتحة على ثقافة العالم للأخذ والعطاء، وبهذا فقط نرقى في مختلف الميادين ونجابه التحدي.

أما ظاهرة الحشو في التلقين التي أشار إليها الأخ علاءالدين، فأرى أنها أصبحت في خبر كان، لأن الندوات التربوية التي تقام هنا وهناك تبيّن التطور الحاصل في هذا المجال، وأصبحت مشاركة التلميذ في العملية التعليمية واضحة، لكنها ليست بالقدر الذي نريد. وأما قضية تسلط المعلم التي أشار إليها، فنقول: نعم، هناك سلطة للمعلم، وينبغي أن تكون، لكن نريدها ونراها سلطة معنوية لا سلطة بوليسية، فهو ينظم طلابه ويأمر وينهى بقدر ما يسمع ويحاور، ويناقش طلاب فصله دون خجل أو حرج، وهذا ما يجعل الجوّ الدراسي مهيّأ للطلاب لامتلاك مفاتيح التعلم الضرورية بسهولة ويسر.

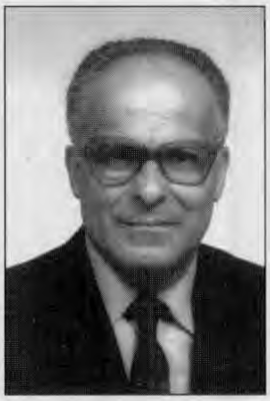
استوقفتني عبارة «لابد من مراجعة طرائق التربية والتعليم، ويكون ذلك بإحياء التربية التي لا تغتال العقل». لعل الأخ آل رشي يقصد التربية التي كانت معتمدة لدى السلف الصالح من هذه الأمة. لكن أقول لك: هل ترى في إحياء تربية تلك المرحلة الحل الشافي الكافي، ومن ثم نريح علماءنا من عناء البحث والتطوير، أم إن لكل زمان خصائصه ومميزاته؟ قضية إحياء التراث أصبحنا نتداول لفظها دون فهم محتواها، فأين دورنا نحن أبناء هذا الزمان إن كنّا نتكل على إرثنا الزاخر فقط، ولا نطوره لنواكب به عصر التقنية.

كيف تطالب بالعودة إلى تلك المناهج - مع أنها مناهج تلك الأزمنة -، وتقول: لقد غيرت أمريكا مناهجها الدراسية لما سبقتها روسيا إلى غزو الفضاء؟ وتقول: لمَ لا نعيش في عالم الحقائق؟ أرى أنك وقعت في بعض التناقضات، التي بدورها أوقعتك في مشكلة الثابت والمتغير.

كل يوم تطلع فيه الشمس نسمع خبرًا علميًا، وتجربة ناجحة، وبرنامجًا مخففًا قد يتجدد. إذن علينا نحن أن نشمّر عن سواعدنا، فالمادة الخام موجودة، والأرض خصبة، وما علينا إلاّ أن نخلص النية في العمل.

المعلم: بياز عبدالرزاق
ص.ب 407، عين وسارة 17200
الجلفة، الجزائر.

الحوار منطق العصر ولغة الحضارة



ياسر الفهد

في الحيـاة العـامة بمختلف أشكالها ومظاهرها، أمور وقضايا كثيرة تثير الجدل والنزاع الفكري. فما الطريق إلى حل مثل هذه المشكلات الخلافية وسد الثغرات بين الأطراف المتخاصمة والوصول إلى نقطة التلاقي والاتفاق؟

العنف، قطعا، ليس هو الجواب.

والسبيل الوحيدة المثمرة الموصلة إلى بر الأمان، هي طريق النقاش وتبادل الرأي. وعندما يتخذ النقاش شكلا علميا وعقلانيا وموضوعيًا، وأخلاقيا أيضًا، فإنه لابد أن يقود إلى تقارب وجهات النظر، والالتقاء في منتصف الطريق، أو في نقطة ما من الخط الفاصل بين وجهتي النظر المتصارعتين. ومع استمرار الحوار وتواصل الأخذ والرد؛ تضيق الهوة، وتنكمش الفجوة، وتُقام جسور التلاقي، وينفتح الباب واسعًا أمام مزيد من الاتفاق وسد ثغرات الاختلاف. وإذا كان من المفروغ منه أن الحوار هو أسلم طريق لحسم الصراعات الفكرية، فإن هناك أناسًا غير قليلين يرفضون منطق الحوار، ويسعون - بدلا من ذلك - إلى فرض آرائهم على الآخرين، وإلزامهم الإيمان بما يؤمنون به هم وحدهم. ويحدث هذا في الحياة العامة، وفي الحياة الثقافية، وفي مختلف المواقف الاجتماعية.

ولكن هذا الفرض يتخذ أخطر أشكاله، عندما يتعلق الأمر بالمجال السياسي. وقد يخطر بالنا أن نتساءل: لماذا لا يقبل بعض الناس بفكرة الحوار ومنطق الأخذ والرد، ولماذا يسدون جميع المنافذ أمام كل نقاش حر صريح؟

هناك سببان محتملان رئيسان لذلك: سبب يرتبط بالتربية وبالوضع النفسي للشخصية، وسبب يتعلق بوجود مصلحة في إخفاء الحقيقة.

فهناك أشخاص يميلون، بتأثير طبيعة تربيتهم الأولى في الأسرة والمدرسة والمجتمع، إلى التسلط والهيمنة. وفي الحالات المتطرفة يصل الأمر إلى حد الإصابة بمرض العظمة والشعور الوهمي بالتفوق، مما يجعل صاحب الشخصية العُصابية يتصور أنه أكبر من أن يجادله أحد، وأعظم من أن يناقشه الآخرون، ويوصف مثل هؤلاء بأنهم مصابون بمرض البارانويا؛ أي (جنون العظمة) الذي يجعل المصاب به يتوهم بأن آراءه تمثل نهاية المطاف، وأن أفكاره هي الفيصل الحاسم، وأن نظراته تشكل فصل الخطاب، وأن كل ما عداها هراء في هراء!

وهكذا، فإن للميل إلى التسلط درجات، ففي بعض الحالات، يجنح بعض الناس إلى الرغبة في احتواء الآخرين وإخضاعهم لدائرة أفكارهم، دون أن يصل ذلك إلى حد المرض النفسي.

وفي حالات أخرى يشتد الشعور بالعظمة والتفوق وتشتط الرغبة في الهيمنة الكاملة على الآخرين، إلى درجة يَصحّ معها إدراج مثل هذه الحالات ضمن دائرة العُصاب النفسي المرضي. أما السبب الثاني للرغبة في السيطرة، فهو الأسوأ والأخطر والأكثر مدعاة للقلق.

وفي هذه الحالة يرفض شخص ما النقاش، لأنه يعرف سلفًا أنه على خطأ، وهو يصر على الاستمرار فيه، حتى يفيد منه. فليس من مصلحته، والحال كذلك، أن يفتح باب الأخذ والرد. وبتعبير آخر، فإن من يرتكب في الخفاء أفعالاً غير مسموح بها في العلن، ويحصل من جراء ذلك على مكاسب غير شرعية، لا بد أن يسعى إلى إغلاق النقاش حتى لا ينكشف أمره، ويتعرّى ستره، وتنفضح ممارساته الخفية. إن رجل السياسة الذي لا يعمل لصالح بلده، يرفض النقاش حول سلوكه السياسي، والبائع الغشاش يتجنب الجدل بشأن التكاليف ونِسَب الربح الشرعية، والمحامي الذي يخدع وكيله لا يرحب بتوضيح النصوص القانونية، ويفضل بقاء الأمور ضمن دائرة الغموض، والسارق يتهرب عندما يسائله أحد عن كيفية تجميع ثروته، والعامل الكسول غير المنتج يتفادى السؤال حول عدد ساعات العمل ومقدار الإنتاج. وبتعبير آخر، فإن كل من يمارس عملا غير مسموح به، يفضل عدم خوض أي نقاش حول ما يفعله.

وبعد، فإن في مجتمعنا العربي، وفي كل مجتمع آخر، صنفين من الناس: أحدهما يتقبل الحوار، ولا يخشى المناظرة، ويرحب بالجدل، مهما حمي وطيسه، وهو مستعد دائمًا للدفاع عن آرائه وتصرفاته بسوق الحجج وتفنيد البراهين ودحض الافتراءات، وهذا النوع مخلص ومستقيم ومنفتح اجتماعيا وواثق من نفسه ونظافة يده، لذلك تراه يفتح لك قلبه ويجادلك ويحاول أن يقنعك ويقبل أن تقنعه. وبذلك ينفسح المجال أمام تصحيح الأخطاء والوصول إلى صيغ مشتركة مثمرة للعمل. والنوع الثاني من الناس يأبى أن يحاورك، إما لأنه مصاب بانحراف نفسي، أو تلافيا لانكشاف أفعاله الخفية غير الشرعية. وهو نوع سيئ، دون ريب، وأضراره على المجتمع كبيرة وخطيرة.